الشفا

بتعريف حقوق المصطفى

للقاضي عياض
أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي
٤٧٦-٥٤٤هـ

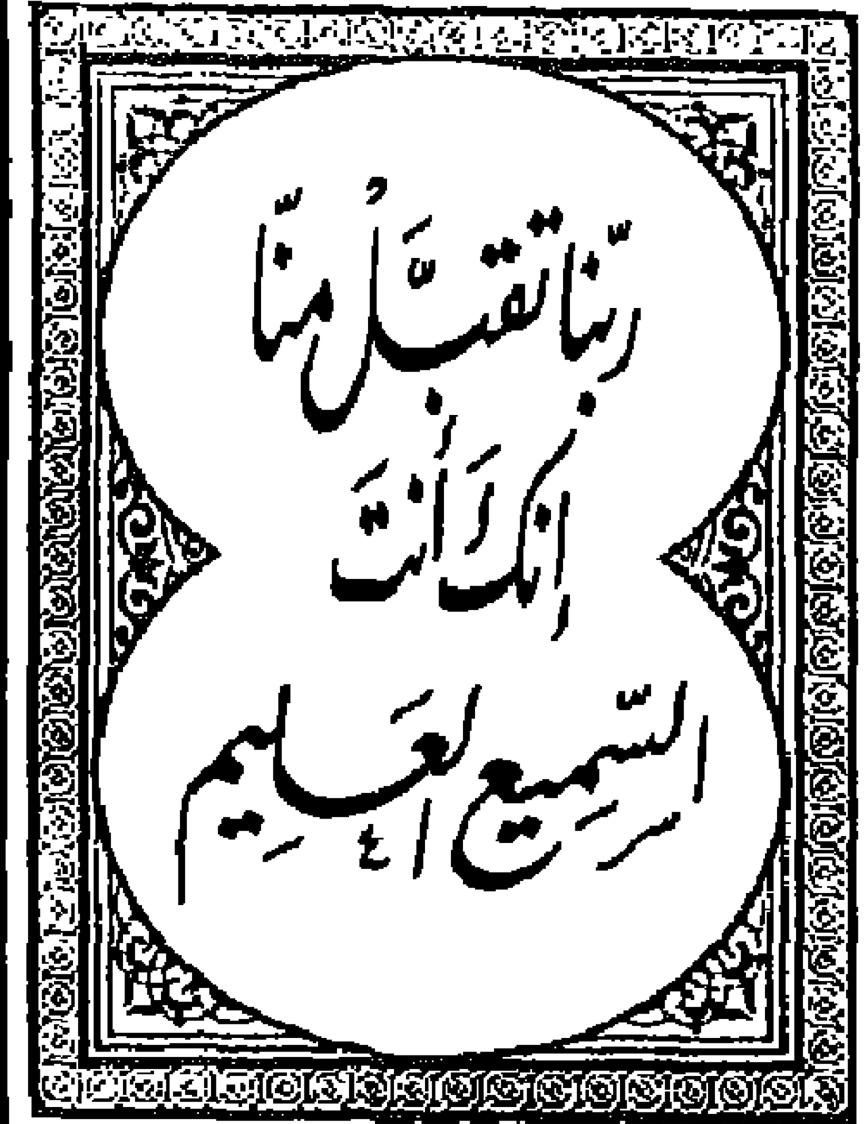
تقديم وتحقيق
طه عبد الرؤوف سعد
من علماء الأزهر الشريف
خالد بن محمد بن عثمان

مكتبة الصفا

الشِّفَا

بِتَعْرِيفِ حُقُوقِ المُصْطَفَى

بسم الله الرحمن الرحيم



الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

رقم الإيداع: ٢٠٠٢/٨٩٤٢

مكتبة الصفا

١٢٧ ميدان الأزهر القاهرة ت: ٥١٤٧٣٢٠

١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر ت: ٥١٤٧٩٧٤/٠١٠١٤٣١١١٤

مطابع دار البيان الحديثة

تليفاكس: ٢٩٩٩٥٦٠

الشفا

بتعريف حقوق المصطفى

للقاضي عياض

أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي

٤٧٦ - ٥٤٤ هـ

تقديم وتحقيق

طه عبد الرءوف سعد

من علماء الأزهر الشريف

خالد بن محمد بن عثمان

الجزء الأول

مكتبة الصفا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

نحمدك يا لطيف يا خبير يا موفق إلى الخير الكثير فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وتكمل الأعمال الطيبات .

والشكر لك يا متعال أن وفقتنا إلى تأدية حق من حقوق الواجبة على كل مسلم وهو التعريف بحقوق عبدك ورسولك السيد الجليل محمد بن عبد الله شرف الأولين والآخرين .

ونصلي ونسلم على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين المبعوثين رحمة لمن آمن بهم وإعذاراً لقومهم من المشركين .

اللهم صل وسلم وبارك عليك سيدي يا رسول الله يا من بلغت رسالة ربك وأديت أمانة الله إلى خير أمة أخرجت للناس .

أما بعد فإنه يسعدنا أن وفقنا الله جلت قدرته وارتفعت عظمته ـ وكل ابن آدم موفق لما خلق له وفقنا إلى طبع هذا الكتاب الجليل والمؤلف الفاخر العظيم :

«الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ»

والكتاب حقًا موسوعة إسلامية جليلة تصب مادتها في الاسم الذي اختاره المؤلف لكتابه .

فالكتاب له من اسمه الحظ الأوفى والنصيب الوافر والقسط الكافي .

فقد أدى المصطفى ﷺ واجبه تمام الأداء نحو ربه العظيم وأمته فلم يبق لنا إلا أن نعطيه حقه من التبجيل والتعظيم وقد أعطاه منهما ربه ما فيه الكفاية ويكفيه قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

ولكن يبقى علينا نحن المسلمين أن نعرف حقه بل حقوقه علينا حتى نستطيع أن نؤدي له تلك الأمانة حق تأديتها .

وإذا كان لكل منا دور أو نصيب لتأدية تلك الأمانة وتبليغ هذه الرسالة فقد قمنا نحن مكتبة الصفا بجزء من حق الرسول علينا بنشر هذا الكتاب وتوزيعه على أوسع نطاق حتى يستفيد منه كل من أراد أن يعرف عن رسوله أخلاقه الحميدة وخصاله الجليلة التي خصه بها رب العالمين أيضًا حقوقه واجبة الأداء علينا .

اللهم يا واسع الخيرات يا رفيع الدرجات انفع بكتابنا هذا كل من قرأه فاستفاد منه وهو ـ إن شاء الله مستفيد واجعله من العلم المنتفع به وخذ بيد قارئه والعامل به إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

اللهم صل وسلم على المبعوث رحمة للعالمين وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين وعلى آل كل وأصحابه الطيبين الطاهرين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

مكتبة الصفا

جعلها الله منارًا لخدمة العلم والدين



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ

أورده حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون عن كتاب:

الشفا في تعريف حقوق المصطفى

يقول رحمه الله تعالى:

هو للإمام الحافظ أبي الفضل عياض بن موسى القاضي اليحصبي المتوفى سنة ٥٤٤.

أوله: الحمد لله المنفرد باسمه الأسمى المختص بالملك الأعز الأحمى . . . إلى أن قال:

وهو كتاب عظيم النفع كثير الفائدة لم يؤلف مثله في الإسلام شكر الله سبحانه وتعالى مؤلفه وقابله برحمته وكرمه من خدم هذا الكتاب الكريم.

١ - اختصره الشيخ محمد بن أحمد الأسنوي الشافعي المتوفى سنة ٧٦٣.

٢ - شرحه الشيخ أبو عبد الله محمد بن الحسن بن مخلوف الراشدي الحافظ.

٣ - شرحه أبو عبد الله محمد بن علي بن أبي الشريف الحسني التلمساني سماه (المنهل الأصفى في شرح ما تمس الحاجة إليه من ألفاظ الشفا وهو من أجود شروحه.

٤ - وشرحه الشيخ شمس الدين محمد بن محمد الدلجي الشافعي العثماني المتوفى سنة ٩٤٧.

٤ - شرحه الشيخ الإمام أبو الحسن علي بن محمد بن أقهرس أو (أقبرس) الشافعي المتوفى سنة ٨٦٢.

٥ - شرحه عمر العرضي.

٥ ـ أيضًا شرحه أبو ذر أحمد بن إبراهيم الحلبي المتوفى سنة ٨٨٤ .

ومن شروحه (تلخيص الاكتفا في شرح ألفاظ الشفا) للإمام أبي المحاسن عبد الباقي اليماني .

وخرج جلال الدين السيوطي أحاديثه وسماه (مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا) .

ولو ذهبنا نعدد شروحه وحواشيه وذلك لأهمية هذا الكتاب ما وسعنا الزمن ولا أسعفنا الوقت .

يقول بعض الأدباء في مدح الكتاب ومدح صاحبه عوضت جنات عدن يا عياض عن الشفاء الذي ألفته عوض جمعت فيه أحاديث مصححة فهو الشفاء لمن في قلبه مرض ويقول عنه الدكتور محمد عجاج الخطيب :

وكتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى كتاب قيم يحتاج إليه كل مسلم .

وقد طبع الكتاب عدة طبعات جاءت طبعتنا هذه المميزة بحسن الخدمة وجمال الإخراج .

أما عن مخطوطات هذا الكتاب الفاخر فقد رأيت له في المراجع أكثر من ألف مخطوطة منتشرة بين دور الكتاب في أربعة أنحاء المعمورة .

* * *

ترجمة المؤلف
القاضي عياض

٤٧٦ هـ ـ ٥٤٤ هـ ١٠٨٣ م ـ ١١٤٩ م

يقول الأستاذ عبد السلام الكنوني عن القاضي عياض:

من أعلام جيل ابن عطية المفسر الشهير عرفت له إمامته في الحديث وعلم الكلام وأصول الدين والفقه والسيرة وفي أعلام المذهب اهـ.

خلف نحو ثلاثين كتابًا

يقول صاحب هدية العارفين:

وهو عياض بن موسى بن عياض بن عمر بن موسى القاضي أبو الفضل اليحصبي السبتي المراكشي المحدث المالكي

وقال الزركلي في الأعلام:

عياض بن موسى بن عمرون اليحصبي السبتي أبو الفضل عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته كان أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم وَلِيَ قضاءَ سبتة ومولده فيها، ثم قضاء غرناطة وتوفي بمراكش مسمومًا قيل سمه يهودي.

وقال عنه كحالة:

يعرف بالقاضي عياض محدث حافظ مؤرخ ناقد مفسر فقيه أصولي عالم بالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم. شاعر خطيب أصله من الأندلس، وتحول جده إلى فاس ثم سكن مدينة سبتة.

ولد المترجَم له في النصف من شعبان وتولى القضاء بغرناطة وتوفي بمراكش في جمادى الآخرة، وقيل في رمضان.

وقد ترجم له الإمام النووي فقال:

عياض القاضي الإمام المالكي وهو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض السبتي

المالكي من أهل سبتة مدينة معروفة بالمغرب.

وهو إمام بارع متمكن في علم الحديث والأصولين [أصول الدين وأصول الفقه].

وله مصنفات في كل نوع من العلوم المهمة.

وكان من أصحاب الأفهام الثاقبة.

قال الإمام أبو القاسم خلف عبد الملك بن مسعود بن موسىٰ بن بشكوال الأنصاري المغربي في كتابه (الصلة): قدم القاضي عياض الأندلسي طالبًا للعلم وعني بلقاء الشيوخ والأخذ عنهم وجمع من الحديث كثيراً له عناية به واهتمام بجمعه وتقييده.

وهو من أهل اليقين في العلم والذكاء واليقظة والفهم - استقضي ببلده مدة طويلة وحمدت سيرته وقدم قرطبة في شهر ربيع الآخر سنة إحدىٰ وثلاثين وخمسمائة وأخذ طلبتها بعض ما عنده.

ويضيف الشيخ النباهي إلىٰ ما تقدم:

وسكن القاضي أبو الفضل بمالقة مدة وتولىٰ بها أملاكها وأصله من مدينة بسطة ذكر ذلك حفيده.

مصنفاته:

١ - الأحوبة المخيرة عن الأسئلة المحيرة.

٢ - أخبار القرطبيين.

٣ - الإعلام في حدود الأحكام وورد في بعض المراجع باسم الإعلام بحدود قواعد الإسلام.

٤ - إكمال المعلم شرح صحيح مسلم.

٥ - الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع وورد في بعض المصادر: الإلماع إلىٰ معرفة أصول الرواية وتقييد السماع وورد أيضًا باسم الإلماع في أصول الرواية والسماع.

٦ ـ بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد وورد في بعض المصادر شرح حديث أم زرع .

٧ ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة مذهب الإمام مالك وورد اسمه ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك .

٨ ـ التنبيهات المستنبطة في شرح مشكلات المدونة والمختلطة في فروع الفقه المالكي .

٩ ـ جامع التاريخ وجاء في بعض المصادر كتاب التاريخ .

١٠ ـ السيف المسلول على من سب أصحاب الرسول .

١١ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى وهو الكتاب الذي نقدم له .

١٢ ـ الصفا بتحرير الشفا .

١٣ ـ العيون الستة في أخبار سبتة .

١٤ ـ غريب الشهاب .

١٥ ـ غنية في أسماء الشيوخ ورد في بعض المصادر (الغنية) في ذكر مشيخته .

١٦ ـ غنية الكاتب وبغية الطالب .

١٧ ـ القواعد وورد في بعض المصادر : الإعلام بحدود قواعد الإسلام .

١٨ ـ كتاب العقيدة .

١٩ ـ مشارق الأنوار في اقتفاء صحيح الآثار : الموطأ والصحيحين في الحديث وورد في بعض المصادر : مشارق الأنوار على صحيح الآثار في تفسير غريب حديث الموطأ والبخاري ومسلم .

وورد أيضًا باسم : مشارق الأنوار في غريب الصحيحين والموطأ .

٢٠ ـ مشارق الأنوار في تفسير غريب الحديث .

٢١ ـ مطامح الأفهام في شرح الأحكام .

٢٢ ـ نظم البرهان على صحة جزم الأذان .

٢٣ ـ مختصر مشارق الأنوار النبوية من صحيح الآثار المصطفوية .

شعره:

يقول ابن العماد الأصفهاني : وله شعر حسن منه :

الله يعلم أني منذ لم أركم كطائر خانه ريش الجناحين
فلو قدرت ركبت البحر نحوكم فإن بعدكم عني جنى حين

وقوله:

انظر إلى الزرع وخاماته تحكي وقد ماست أمام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة شقائق النعمان فيها جراح

رحم الله القاضي عياض ونفعنا بكتابه هذا وكتبه الأخرىٰ ، ونفعه الله أيضًا بها فإذا مات المرء انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له .

* * *

المراجع

لزيادة من المعلومات تفضل بمراجعة:

١ ـ كشف الظنون: حاجي خليفة.
٢ ـ الأعلام: الزركلي.
٣ ـ معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة.
٤ ـ تهذيب الأسماء واللغات: الإمام النووي.
٥ ـ تاريخ قضاة الأندلس: النباهي.
٦ ـ هدية العارفين: البغدادي باشا.
٧ ـ شذرات الذهب: ابن العماد.
٨ ـ لمحات في المكتبة والبحث والمصادر: د/ محمد عجاج الخطيب.
٩ ـ مرجع العلوم الإسلامية: د/ محمد الزحيلي.
١٠ ـ المدرسة القرآنية في المغرب: عبد السلام الكنوني.
١١ ـ الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية: د/ فاطمة محجوب.

* * *

عملنا في الكتاب

لقد تم عملنا في الكتاب على النحو التالي :

(١) عزو أحاديث الصحيحين أو أحدهما إلى موضعهما في الكتابين .

(٢) بيان حكم العلامة الألباني فيما لَم يُخرجه الشيخان في صحيحهما .

(٣) بيان حكم كثير من الأحاديث مما ليس في الصحيحين ولم نقف فيها على حكم الشيخ الألباني رحمه الله .

(٤) بيان معاني بعض المفردات التي قد يشكل على القارئ معناها ، وهو قليل جدًّا في الكتاب .

هذا وقد احتوى الكتاب على كم كبير من الأحاديث الصحيحة إلا أنه ـ وللأسف ـ قد حوي أيضًا كمًّا كبيرًا من الأحاديث الضعيفة والموضوعة وقد نبهنا على أكثرها والحمد لله .

وأخيرًا نسأل الله عز وجل أن يجعل عملنا هذا عملاً صالحًا ، وأن ينفعنا به والمسلمين ، إنه ولي ذلك والقادر عليه . وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

والحمد لله رب العالمين .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل على محمد وآله وسلم.

قال الفقيه القاضي الإمام الحافظ أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي - رضي الله عنه -: الحمد لله المتفرد باسمه الأسمى، المختص بالملك الأعز الأحمى، الذي ليس دونه منتهى، ولا وراءه مرمى، الظاهر لا تخيلاً ووهماً، الباطن تقدساً لا عدماً، وسع كل شيء رحمة وعلماً، وأسبغ على أوليائه نعماً عماً، وبعث فيهم رسولاً من أنفسهم عرباً وعجماً، وأزكاهم محتداً ومنمى، وأرجحهم عقلاً وحلماً، وأوفرهم علماً وفهماً وأقواهم، يقيناً وعزماً، وأشدهم بهم رأفة ورحمى، وزكاه روحاً وجسماً، وحاشه عيباً ووصماً، وآتاه حكمة وحُكماً، وفتح به أعيناً عمياً، وقلوباً غلفاً وآذاناً صماً، فآمن به وعزره ونصره من جعل الله له في مغنم السعادة قسماً، وكذب به وصدف عن آياته من كتب الله عليه الشقاء حتماً، ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٢]. صلى الله عليه وسلم صلاة تنمو وتنمى، وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: أشرق الله قلبي وقلبك بأنوار اليقين، ولطف لي ولك بما لطف لأوليائه المتقين، الذين شرفهم الله بنزل قدسه، وأوحشهم من الخليقة بأنسه وخصهم من معرفته ومشاهدة عجائب ملكوته وآثار قدرته بما ملأ قلوبهم حبرة، ووله عقولهم في عظمته حيرة، فجعلوا همهم به واحداً، ولم يروا في الدارين غيره مشاهداً، فهم بمشاهدة جماله وجلاله يتنعمون، وبين آثار قدرته وعجائب عظمته يترددون، والانقطاع إليه والتوكل عليه يتعززون، لهجين بصادق قوله: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١].

فإنك كررت عليَّ السؤال في مجموع يتضمن التعريف بقدر المصطفى عليه الصلاة والسلام، وما يجب له من توقير وإكرام، وما حكم من لم يوف واجب عظيم ذلك القدر أو قصر في حق منصبه الجليل قلامة ظفر؟ وأن أجمع لك ما لأسلافنا وأئمتنا في ذلك من مقال وأبينه بتنزيل صور وأمثال.

فاعلم - أكرمك الله - أنك حملّتني من ذلك أمراً إمراً، وأرهقتني في ما ندبتني إليه

عسراً، وأرقيتني بما كلفتني مرتقىً صعباً ملأ قلبي رعباً، فإن الكلام في ذلك يستدعي تقرير أصول وتحرير فصول، والكشف عن غوامض ودقائق من علم الحقائق، مما يجب للنبي ﷺ ويضاف إليه، أو يمتنع أو يجوز عليه، ومعرفة النبي والرسول، والرسالة والنبوة، والمحبة والخلة، وخصائص هذه الدرجة العلية، وهاهنا مهامه فيح تحار فيها القطا، وتقصر بها الخطا، ومجاهل تضل فيها الأحلام إن لم تهتد بعلم عليم ونظر سديد، ومداحض تزل بها الأقدام إن لم تعتمد على توفيق من الله وتأييد.

لكني لِمَا رجوته لي ولك في هذا السؤال والجواب من نوال وثواب بتعريف قدره الجسيم، وخلقه العظيم، وبيان خصائصه التي لم تجتمع قبل في مخلوق، وما يدان الله تعالى به من حقه الذي هو أرفع الحقوق ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١] ولما أخذ الله تعالى على الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه، ولما حدثنا به أبو الوليد هشام بن أحمد الفقيه بقراءتي عليه، قال: حدثنا الحسين ابن محمد، حدثنا أبو عمر النمري حدثنا أبو محمد بن عبد المؤمن، حدثنا أبو بكر محمد ابن بكر، حدثنا سليمان بن الأشعث، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، حدثنا علي بن الحكم، عن عطاء، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سُئِل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»(١).

فبادرت إلى نكت مسفرة عن وجه الغرض، مؤدياً من ذلك الحق المفترض، اختلستها على استعجال، لما المرء بصدده من شغل البدن والبال، بما طُوِّقَه من مقاليد المحنة التي ابتلي بها، فكادت تشغل عن كل فرض ونفل، وترد بعد حسن التقويم إلى أسفل سفل، ولو أراد الله بالإنسان خيراً لجعل شغله وهمه كله في ما يحمد غداً أو يذم محله، فليس ثم سوى حضرة النعيم، أو عذاب الجحيم، ولكان عليه بخويصته، واستنقاذ مهجته وعمل صالح يستزيده، وعلم نافع يفيده أو يستفيده.

جبر الله صدع قلوبنا، وغفر عظيم ذنوبنا، وجعل جميع استعدادنا لمعادنا، وتوفر دواعينا في ما ينجينا ويقربنا إليه زلفى، ويحظينا بمنه [وكرمه] ورحمته.

ولما نويت تقريبه، ودرجت تبويبه، ومهدت تأصيله، وخلصت تفصيله، وانتحيت

---

(١) حسن: أخرجه أبو داود (٣٦٥٨)، وابن ماجه (٢٦١، ٢٦٤)، والترمذي (٢٦٤٩)، وأحمد في مسنده (٢/ ٢٦٣، ٢٩٦، ٣٠٥، ٣٤٤، ٣٥٣). وحسنه الألباني رحمه الله في صحيح أبي داود، وصححه في صحيح ابن ماجه (٢١٢، ٢١٣)، وانظر التعليق الرغيب (/ ٧٣) والمشكاة (٢٢٣، ٢٤)، والروض (١١٥٠ـ١١٥٢)، وتخريج العلم.

حصره وتحصيله، ترجمته بـ: «الشفا بتعريف حقوق المصطفى»، وحصرت الكلام فيه في أقسام أربعة:

القسم الأول: في تعظيم العليّ الأعلى لقدر هذا النبي قولاً وفعلاً، وتوجه الكلام فيه في أربعة أبواب:

الباب الأول: في ثنائه تعالى عليه، وإظهاره عظيم قدره لديه، وفيه عشرة فصول.

الباب الثاني: في تكميله تعالى له المحاسن خَلقًا وخُلقًا، وقرانه جميع الفضائل الدينية والدنيوية فيه نسقًا، وفيه سبعة وعشرون فصلاً.

الباب الثالث: في ما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها بعظيم قدره عند ربه ومنزلته، وما خصه به في الدارين من كرامته، وفيه اثنا عشر فصلاً.

الباب الرابع: فيما أظهره الله تعالى على يديه من الآيات والمعجزات، وشرّفه به من الخصائص والكرامات، وفيه ثلاثون فصلاً.

القسم الثاني: فيما يجب على الأنام من حقوقه عليه السلام، ويترتب القول فيه في أربعة أبواب:

الباب الأول: في فرض الإيمان به ووجوب طاعته واتباع سنته، وفيه خمسة فصول.

الباب الثاني: في لزوم محبته ومناصحته، وفيه ستة فصول.

الباب الثالث: في تعظيم أمره ولزوم توقيره وبره، وفيه سبعة فصول.

الباب الرابع: في حكم الصلاة عليه والتسليم وفرض ذلك وفضيلته، وفيه عشرة فصول.

القسم الثالث: فيما يستحيل في حقه، وما يجوز عليه شرعًا، وما يمتنع ويصح من الأمور البشرية أن يضاف إليه.

وهذا القسم - أكرمك الله - هو سر الكتاب، ولباب ثمرة هذه الأبواب، وما قبله له كالقواعد والتمهيدات والدلائل على ما نورده فيه من النكت البينات، وهو الحاكم على ما بعده، والمنجز من غرض هذا التأليف وعده، وعند التقصي لموعدته، والتفصي عن عهدته، يشرق صدر العدو اللعين، ويشرق قلب المؤمن باليقين، وتملأ أنواره جوانح

صدره ويقدر العاقل ، النبيَّ حق قدره. ويتحرر الكلام فيه في بابين:

البـاب الأول: فيما يختص بالأمور الدينية، ويتشبث به القول في العصمة، وفيه ستة عشر فصلاً.

الباب الثاني: في أحواله الدنيوية ، وما يجوز طروءه عليه من الأعراض البشرية، وفيه تسعة فصول.

القسم الرابع: في تصرف وجوه الأحكام على من تَنَقَّصه أو سبه ﷺ ، وينقسم الكلام فيه في بابين:

البـاب الأول: في بيان ما هو في حقه سب ونقص، من تعريض أو نص، وفيه عشرة فصول.

البـاب الثـاني: في حكم شانئه ومؤذيه ومنتقصه وعقوبته، وذكر استتابته، والصلاة عليه، و وِراثَتِه، وفيه عشرة فصول.

وختمناه بباب ثالث جعلناه تَكْمِلَةً لهذه المسألة ووصلة للبابين اللذين قبله: في حكم من سب الله تعالى ورسله وملائكته وكتبه، وآل النبي ﷺ وصحبه.

واختصر الكلام فيه في خمسة فصول، وبتمامها ينتجز الكتاب، وتتم الأقسام والأبواب، وتلوح في غرة الإيمان لمعة منيرة، وفي تاج التراجم درة خطيرة، تزيح كل لبس، وتوضح كل تخمين وحدس، وتشفي صدور قوم مؤمنين، وتصدع بالحق وتعرض عن الجاهلين، وبالله تعالى ـ لا إله سواه ـ أستعين.

القسم الأول
في تعظيم العليّ الأعلى لقدر هذا النبي قولاً وفعلاً

قال الفقيه القاضي الإمام أبو الفضل ـ رضي الله عنه ـ: لا خفاء على من مارس شيئًا من العلم أوخص بأدنى لمحة من فهم بتعظيم الله تعالى قدر نبينا عليه الصلاة والسلام، وخصوصه إياه بفضائل ومحاسن ومناقب لا تنضبط لإمام، وتنويهه من عظيم قدره بما تكل عنه الألسنة والأقلام:

فمنها ما صرح به تعالى في كتابه، ونبه به على جليل نصابه، وأثنى عليه من أخلاقه وآدابه، وحض العباد على التزامه وتقلد إيجابه، فكان جل جلاله هو الذي تفضل وأولى،

ثم طهر وزكى، ثم مدح بذلك وأثنى، ثم أثاب عليه الجزاء الأوفى، فله الفضل بدءاً وعوداً، والحمد أولى وأخرى.

ومنها ما أبرزه للعيان من خلقه على أتم وجوه الكمال والجلال، وتخصيصه بالمحاسن الجميلة، والأخلاق الحميدة، والمذاهب الكريمة، والفضائل العديدة، وتأييده بالمعجزات الباهرة، والبراهين الواضحة، والكرامات البينة التي شاهدها من عاصره، ورآها من أدركه، وعلمها علم يقين من جاء بعده، حتى انتهى علم حقيقة ذلك إلينا، وفاضت أنواره علينا، ﷺ كثيراً.

حدثنا القاضي الشهيد أبو علي الحسين بن محمد الحافظ ـ رحمه الله ـ قراءةً منّي عليه قال أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار وأبو الفضل أحمد بن خيرون: قالا: حدثنا أبو يعلى البغدادي، قال: حدثنا أبو علي السنجي، قال: حدثنا محمد بن أحمد بن محبوب، قال: حدثنا أبو عيسى بن سورة الحافظ، قال: حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن قتادة، عن أنس أن النبي ﷺ أتي بالبراق ليلة أسري به ملجماً مسرجاً، فاستصعب عليه، فقال له جبريل: أبمحمد تفعل هذا؟ فما ركبك أحد أكرم على الله منه. قال: فارفض عرقاً[1].

* * *

(١) صحيح: أخرجه ـ بهذا اللفظ ـ الترمذي (٣١٣١)، وأحمد في مسنده (٣/ ١٦٤)، وابن حبان (٤٦)، وصحح إسناده الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي.

الباب الأول

في ثناء الله تعالى عليه وإظهاره عظيم قدره لديه

اعلم أن في كتاب الله العزيز آيات كثيرة مفصحة بجميل ذكر المصطفى، وعد محاسنه، وتعظيم أمره، وتنويه قدره، اعتمدنا منها على ما ظهر معناه، وبان فحواه، وجمعنا ذلك في عشرة فصول:

الفصل الأول
فيما جاء في المدح والثناء

فيما جاء من ذلك مجيء المدح والثناء وتعداد المحاسن، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

قال السمرقندي: وقرأ بعضهم: من أنفسكم ـ بفتح الفاء. قراءة الجمهور بالضم.

قال القاضي الإمام أبو الفضل وفقه الله: أعلم الله المؤمنين، أو العرب، أو أهل مكة، أو جميع الناس، على اختلاف المفسرين: من المواجه بهذا الخطاب أنه بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يعرفونه، ويتحققون مكانه، ويعلمون صدقه وأمانته، فلا يتهمونه بالكذب وترك النصيحة لهم، لكونه منهم، وأنه لم تكن في العرب قبيلة إلا ولها على رسول ﷺ ولادة أو قرابة، وهو عند ابن عباس وغيره معنى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] وكونه من أشرفهم وأرفعهم وأفضلهم، على قراءة الفتح، وهذه نهاية المدح، ثم وصفه بعد بأوصاف حميدة، وأثنى عليه بمحامد كثيرة، من حرصه على هدايتهم ورشدهم وإسلامهم، وشدة ما يعنتهم ويضر بهم في دنياهم واخراهم وعزته ورأفته ورحمته بمؤمنهم.

قال بعضهم: أعطاه اسمين من أسمائه: رؤوف، رحيم.

ومثله في الآية الأخرى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وفي الآية الأخرى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]. وقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

وروي عن علي بن أبي طالب، عنه ﷺ في قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ - قال: «نسبًا وصهراً وحسبا ليس في آبائي من لدن آدم سفاح، كلنا نكاح»[(١)].

قال: ابن الكلبي: كتبت للنبي ﷺ خمسمائة أم، فما وجدت فيهن سفاحًا ولا شيئًا مما كان عليه الجاهلية.

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - في قوله تعالى: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٩] قال: من نبي إلى نبي، حتى أخرجك نبيًا.

وقال جعفر بن محمد: علم الله عجز خلقه عن طاعته، فعرفهم ذلك لكي يعلموا أنهم لا ينالون الصفو من خدمته، فأقام بينهم وبينه مخلوقًا من جنسهم في الصورة، وألبسه من نعته الرأفة والرحمة، وأخرجه إلى الخلق سفيراً صادقًا، وجعل طاعته طاعته، وموافقته موافقته، فقال تعالى: ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠] وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

قال أبو بكر بن طاهر: زين الله تعالى محمداً ﷺ بزينة الرحمة، فكان كونه رحمة، وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق، فمن أصابه شيء من رحمته فهو الناجي في الدارين من كل مكروه، والواصل فيهما إلى كل محبوب، ألا ترى أن الله يقول: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فكانت حياته رحمة، ومماته رحمة، كما قال عليه السلام: «حياتي خير لكم وموتي خير لكم»[(٢)] وكما قال عليه الصلاة والسلام: «إذا أراد الله رحمة بأمة قبض نبيها قبلها، فجعله لها فرطًا وسلفًا»[(٣)].

وقال السمرقندي: ﴿ رحمة للعالمين ﴾: يعني للجن والإنس.

وقيل: لجميع الخلق، رحمة للمؤمن بالهداية، ورحمة للمنافق بالأمان من القتل، ورحمة للكافر بتأخير العذاب.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: هو رحمة للمؤمنين وللكافرين، إذا عوفوا مما أصاب غيرهم من الأمم المكذبة.

وحكي أن النبي ﷺ قال لجبريل عليه السلام: «هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟»

---

(١) حسنه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣٢٢٥).
(٢) ضعفه الألباني رحمه الله في الضعيفة (٩٧٥).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٨٨).

قال: نعم، كنت أخشى العاقبة فأمنت لثناء الله عز وجل عليَّ بقوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠-٢١].

وروي عن جعفر بن محمد الصادق في قوله تعالى: ﴿فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩١]: أي بك، إنما وقعت سلامتهم من أجل كرامة محمد ﷺ.

وقال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

قال كعب وابن جبير: المراد بالنور الثاني هنا محمد عليه السلام. قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أي: نور محمد ﷺ.

وقال سهل بن عبد الله: المعنى: الله هادي أهل السموات والأرض؛ ثم قال: مثل نور محمد إذ كان مستودعًا في الأصلاب كمشكاة. صفتها كذا؛ وأراد بالمصباح قلبه، وبالزجاجة صدره؛ أي كأنه كوكب دري لما فيه من الإيمان والحكمة، توقد من شجرة مباركة، أي: من نور إبراهيم. وضرب المثل بالشجرة المباركة.

وقوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ أي: تكاد نبوة محمد ﷺ تبين للناس قبل كلامه كهذا الزيت.

وقيل في هذه الآية غير هذا. والله أعلم.

وقد سماه الله تعالى في القرآن في غير هذا الموضع نورًا وسراجًا منيرًا، فقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

ومن هذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح: ١-٨]،

شرح: وسّع. والمراد بالصدر هنا: القلب.

قال ابن عباس: شرحه بالإسلام .

وقال سهل: بنور الرسالة .

وقال الحسن: ملأه حكمًا وعلمًا .

وقيل: معناه ألم نُطَهر قلبك حتى لا يؤذيك الوسواس. ووضَعْنا عنك وِزرك الذي أنقض ظهرك؟!

قيل: ما سلف من ذَنْبك - يعني قبل النبوَّة .

وقيل: أراد ثِقَل أيام الجاهلية .

وقيل: أراد ما أثقل ظَهْرَه من الرسالة حتى بلَّغها . حكاه الماوردي والسُّلَمِي .

وقيل: عَصَمْنَاك، ولولا ذلك لأثقلتِ الذنوبُ ظهرك، حكاه السَّمَرْقَنْدي .

﴿ورفَعْنا لك ذِكْرك﴾: قال يحيى بن آدم: بالنُّبوة. وقيل: إذا ذُكرتُ ذُكرتَ معي؛ قَوْلَ: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. وقيل: في الأَذَان.

قال القاضي أبو الفَضْل: هذا تقريرٌ منَ الله جلَّ اسْمُه لنبيه ﷺ على عَظِيم نِعَمه لَدَيْه، وشَريف منْزِلَته عنده، وكرامتَه عليه، بأَنْ شرحَ قلْبه للإيمان والهداية، ووسَّعه لوَعْي العِلْم، وحَمْل الحِكْمة، ورفَع عنه ثِقَل أُمورِ الجاهلية عليه، وبغَّضَهُ لِسيرها وما كانت عليه، بظهور دِيْنه على الدين كُلِّه، وحطَّ عنه عُهدةَ أعباءِ الرسالة والنبوة لتبليغه للناس ما نُزِّل إليهم، وتنويهه بعظيم مكانه، وجليل رُتْبَته، ورفعة ذِكْرِه، وقِرانِه مع اسمه.

قال قتادة: رفع الله ذِكْرهُ في الدنيا والآخرة فليس خطيبٌ ولا متشهِّد ولا صاحب صلاة إلا يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وروى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «**أتاني جبريلُ عليه السلام، فقال: إن ربِّي وربَّك يقولُ: تدري كيف رفعتُ ذِكْرك؟ قلتُ: الله ورسوله أعْلم. قال: إذا ذُكِرْتِ ذُكِرَتَ معي**»[1].

قال ابنُ عطاء: جعلتُ تمامَ الإيمان بذكْرِي معك .

وقال أيضًا: جعلتُك ذِكْري، فمنْ ذكرك ذكرني .

---

(١) ضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٧١) .

وقال جعفر بن محمد الصادق: لا يذكرك أحد بالرسالة إلا ا ذكرني بالربوبية. وأشار بعضهم في ذلك إلى الشفاعة.

ومن ذكره معه تعالى أن قرن طاعته بطاعته واسمه باسمه، فقال تعالى: ﴿أطيعوا الله والرسول﴾ [آل عمران: ٣٢] ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦].

فجمع بينهما بواو العطف ولا يجوز جمع هذا الكلام في غير حقه عليه السلام.

حدثنا الشيخ أبو علي الحسين بن محمد الجياني الحافظ فيما أجازنيه وقرأته على الثقة عنه، قال: حدثنا أبو عمر النمري، قال حدثنا أبو محمد بن عبد المؤمن، حدثنا أبو بكر بن داسة، حدثنا أبو داود السجزي، حدثنا أبو الوليد الطيالسي، حدثنا شعبة، عن منصور، عن عبد الله بن يسار، عن حذيفة - رضي الله عنه -، عن النبي ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن: ما شاء: الله ثم شاء فلان»[1].

قال الخطابي: أرشدهم ﷺ إلى الأدب في تقديم مشيئة الله تعالى على مشيئة من سواه، واختارهم بثم التي هي للنسق والتراخي، بخلاف الواو التي هي للاشتراك.

ومثله الحديث الآخر: أن خطيبًا خطب عند النبي ﷺ، فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصمها. فقال له النبي ﷺ: «بئس خطيب القوم أنت! قم». أو قال: «اذهب»[2]. قال أبو سليمان: كره منه الجمع بين الأسمين بحرف الكناية لما فيه من التسوية. وذهب غيره إلى أنه إنما كره له الوقوف على «يعصهما».

وقول أبي سليما ن أصح. لما روي في الحديث الصحيح أنه قال: ومن يعصمها فقد غوى، ولم يذكر الوقوف على« يعصهما».

وقد اختلف المفسرون وأصحاب المعاني في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الاحزاب: ٥٦] هل﴿ يُصَلُّونَ﴾ راجعة على الله تعالى والملائكة أم لا؟

فأجازه بعضهم، ومنعه آخرون، لعلة التشريك وخصوا الضمير بالملائكة، وقدروا الآية: إن الله يصلي، وملائكته يصلون.

وقد روي عن عمر - رضي الله عنه - أنه قال: من فضيلتك عند الله أن جعل طاعتك طاعته، فقال تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٩٨٠)، وأحمد (٥/ ٣٨٤، ٣٩٤، ٣٩٨)، وصححه الألباني رحمه الله في الصحيحة (١٣٧).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٨٧٠) بلفظ: «بئس الخطيب أنت..».

وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢].

روي أنه لما نزلت هذه الآية قالوا: إن محمداً يريد أن نتخذه حناناً كما اتخذت النصارى عيسى، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ فقرن طاعته بطاعته رغماً لهم.

وقد اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى في أم الكتاب: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] فقال أبو العالية، والحسن البصري: ﴿الصراط المستقيم﴾ هو رسول الله ﷺ وخيار أهل بيته وأصحابه، حكاه عنهما أبوالحسن الماوردي. وحكى مكي عنهما وقال: هو رسول الله ﷺ وصاحباه، أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

وحكى أبو الليث السمرقندي مثله عن أبي العالية، في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، عن عبد الرحمن بن زيد.

وحكى أبو الرحمن السلمي عن بعضهم، في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]- أنه محمد ﷺ. وقيل: الإسلام. وقيل: شهادة التوحيد.

وقال سهل في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]- قال: نعمته بمحمد ﷺ.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٣-٣٤].

أكثر المفسرين على أن الذي جاء بالصدق هو محمد ﷺ.

وقال بعضهم: وهو الذي صدق به. وقرئ: صدق- بالتخفيف.

وقال غيرهم: الذي صدق به المؤمنون. وقيل: أبو بكر. وقيل: عليّ. وقيل: غير هذا من الأقوال.

وعن مجاهد- في قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]- قال: بمحمد ﷺ وأصحابه.

الفصل الثاني
في وصفه تعالى له بالشهادة

في وصفه تعالىٰ له بالشهادة وما يتعلق بها من الثناء والكرامة. قال الله تعالىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيراً ﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦] جمع الله تعالىٰ في هذه الآية ضروبًا من رتب الأثرة، وجملة أوصاف من المدحة، فجعله شاهداً علىٰ أمته لنفسه بإبلاغهم الرسالة، وهي من خصائصه ﷺ، ومبشراً لأهل طاعته، ونذيراً لأهل معصيته، وداعيًا إلىٰ توحيده وعبادته، وسراجًا منيراً يهتدىٰ به للحق.

حدثنا الشيخ أبو محمد بن عتاب ـ رحمه الله ـ، حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسن القابسي، حدثنا أبو زيد المروزي، حدثنا ابو عبد الله محمد بن يوسف، حدثنا البخاري، حدثنا محمد بن سيلان، حدثنا فليح، حدثنا هلال، عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ [الأحزاب: ٤٥] وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتىٰ يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا(١).

وذكر مثله عن عبد الله بن سلام وكعب الأحبار، وفي بعض طرقه عن ابن إسحاق: ولا صخب في الأسواق، ولا متزين بالفحش، ولا قوال للخنا، أسدده لكل جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوىٰ ضميره، والحكمة مقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدىٰ إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، وأهدي به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، وأسمي به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين قلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأمم متفرقة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس.

---

(١) صحيح: اخرجه البخاري (٢١٢٥، ٤٨٣٨).

وفي حديث آخر: أخبرنا رسول الله ﷺ عن صفته في التوراة: «عبدي أحمد المختار، مولده بمكة، ومهاجره بالمدينة أو قال: ـ طيبة ـ أمته الحمادون لله على كل حال»[1].

وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧ ـ ١٥٨].

وقد قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قال السمرقندي: ذكرهم الله منَّته أنه جعل رسوله رحيمًا بالمؤمنين رؤوفًا لين الجانب، ولو كان فظًا خشنًا في القول لتفرقوا من حوله، ولكن جعله الله تعالى سمحًا سهلاً طلقًا برًا لطيفًا. هكذا قال الضحاك.

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال أبو الحسن القابسي: أبان الله تعالى فضل نبينا ﷺ وفضل أمته بهذه الآية، وفي قوله في الآية [١٠] الأخرى: ﴿ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٨] وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١].

قوله تعالى: ﴿ وسطًا ﴾: أي عدلاً خيارًا. ومعنى هذه الآية: وكما هديناكم فكذلك خصصناكم وفضلناكم بأن جعلناكم أمة خيارًا عدولاً، لتشهدوا للأنبياء عليهم السلام على أممهم، ويشهد لكم الرسول بالصدق.

وقيل: إن الله جل جلاله إذا سأل الأنبياء: هل بلغتم؟ فيقولون: نعم. فتقول أممهم:

(١) ضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٣٤٧٣).

ما جاءنا من بشير ولا نذير، فتشهد أمة محمد ﷺ للأنبياء، ويزكيهم النبي ﷺ.

وقيل: معنى الآية: إنكم حجة على كل من خالفكم، والرسول حجة عليكم، حكاه السمرقندي.

وقال الله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس: ٢]، وقال قتادة، والحسن، وزيد بن أسلم: ﴿ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾: هو محمد ﷺ، يشفع لهم.

وعن الحسن أيضًا: هي مصيبتهم بنبيهم.

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -: هي شفاعة نبيهم محمد ﷺ، هو شفيع صدق عند ربهم.

وقال سهل بن عبد الله التستري: هي سابقة رحمة أودعها الله في محمد ﷺ.

وقال محمد بن علي الترمذي: هو إمام الصادقين والصديقين، الشفيع المطاع، والسائل المجاب محمد ﷺ، حكاه عنه السلمي.

الفصل الثالث

فيما ورد من خطابه إياه مورد الملاطفة والمبرة

من ذلك: قوله تعالى: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٣]. قال أبو محمد مكي: قيل: هذا افتتاح كلام بمنزلة: أصلحك الله، وأعزك الله، وقال عون بن عبد الله: أخبره بالعفو قبل أن يخبر بالذنب.

وحكى السمرقندي عن بعضهم أن معناه: عافاك الله يا سليم القلب: لم أذنت لهم؟ قال: ولو بدأ النبيَّ ﷺ بقوله: ﴿ لم أذنت لهم ﴾ لخيف عليه أن ينشق قلبه من هيبة هذا الكلام، لكن الله تعالى برحمته أخبره بالعفو حتى سكن قلبه، ثم قال له: لم أذنت لهم بالتخلف حتى يتبين لك الصادق في عذره من الكاذب.

وفي هذا من عظيم منزلته عند الله ما لا يخفى على ذي لب.

ومن إكرامه إياه وبره به ما ينقطع دون معرفة غايته نياط القلب. قال نفطويه: ذهب ناس إلى أن النبي ﷺ معاتب بهذه الآية، وحاشاه من ذلك، بل كان مخيراً فلما أذن لهم أعلمه الله تعالى أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا لنفاقهم، وأنه لا حرج عليه في الإذن.

قال القاضي أبو الفضل: يجب على المسلم المجاهد نفسه الرائض بزمام الشريعة

خلقه أن يتأدب بأدب القرآن في قوله وفعله، ومعاطاته ومحاوراته، فهو عنصر المعارف الحقيقية، وروضة الآداب الدينية والدنيوية، وليتأمل هذه الملاطفة العجيبة في السؤال من رب الأرباب، المنعم على الكل، المستغني عن الجميع، ويستثر ما فيها من الفوائد، وكيف ابتدأ بالإكرام قبل العتب، وأنس بالعفو قبل ذكر الذنب إن كان ثم ذنب.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٤]:

قال بعض المتكلمين: عاتب الله تعالىٰ الأنبياء عليهم السلام بعد الزلات، وعاتب نبينا عليه السلام قبل وقوعه، ليكون بذلك أشد انتهاء ومحافظة لشرائط المحبة، هذه غاية العناية.

ثم انظر كيف بدأ بثباته وسلامته قبل ذكر ما عتبه عليه وخيف أن يركن إليه، ففي أثناء عتبه براءته، وفي طي تخويفه تأمينه وكرامته.

ومثله قوله تعالىٰ: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣].

قال علي ـ رضي الله عنه: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣]

وروي: أن النبي ﷺ لما كذبه قومه حزن، فجاءه جبريل عليه السلام قال: ما يحزنك؟ قال: «كذبني قومي!» فقال: إنهم يعلمون أنك صادق، فأنزل الله تعالىٰ الآية.

ففي هذه الآية منزع لطيف المأخذ، من تسليته تعالىٰ له عليه السلام، وإلطافه به في القول، بأن قرر عنده أنه صادق عندهم، وأنهم غير مكذبين له، معترفون بصدقه قولاً واعتقاداً، وقد كانوا يسمونه ـ قبل النبوة ـ الأمين، فدفع بهذا التقرير ارتماض نفسه بسمة الكذب، ثم جعل الذم لهم بتسميتهم جاحدين ظالمين، فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣].

فحاشاه من الوصم، وطوقهم بالمعاندة بتكذيب الآيات حقيقة الظلم، إذ الجحد إنما يكون ممن عَلِمَ علم الشيء ثم أنكره، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤].

ثم عزاه وآنسه بما ذكره عمن قبله، ووعده النصر بقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ

جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

فمن قرأ: ﴿لا يكذبونك﴾ بالتخفيف، فمعناه: لا يجدونك كاذبًا، وقال الفراء والكسائي: لا يقولون إنك كاذب.

وقيل: لا يحتجون على كذبك، ولا يثبتونه.

ومن قرأ بالتشديد فمعناه: لا ينسبونك إلى الكذب. وقيل: لا يعتقدون كذبك.

ومما ذكر من خصائصه وبر الله تعالى به أن الله تعالى خاطب جميع الأنبياء بأسمائهم، فقال تعالى: يا آدم، يا نوح، يا موسى، يا داود، يا عيسى، يا زكريا، يا يحيى، ولم يخاطب هو إلا بـ: ﴿يا أيها الرسول﴾، ﴿يا أيها النبي﴾، ﴿يا أيها المزمل﴾، ﴿يا أيها المدثر﴾.

الفصل الرابع
في قسمه تعالى بعظيم قدره

قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد ﷺ. وأصله ضم العين، من العمر، ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال. ومعناه: وبقائك يا محمد. وقيل: وعيشك. وقيل: وحياتك.

وهذه نهاية التعظيم، وغاية البر والتشريف، قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: ما خلق الله تعالى وما ذرأ وما برأ نفسًا أكرم عليه من محمد ﷺ وما سمعت الله تعالى أقسم بحياة أحد غيره. وقال أبو الجوزاء: ما أقسم الله تعالى بحياة أحد غير محمد ﷺ لأنه أكرم البرية عنده.

وقال تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ١-٢]

اختلف المفسرون في معنى «يس» على أقوال، فحكى أبو مكي [أنه] روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لي عند ربي عشرة أسماء» ذكر منها: «طه ويس» - اسمان له.

وحكى أبو عبد الرحمن السلمي عن جعفر بن الصادق: أنه أراد: يا سيد، مخاطبة لنبيه ﷺ.

وعن ابن عباس: ﴿يس﴾ - يا إنسان، أراد محمداً ﷺ وقال: هو قسم، وهو من أسماء الله تعالى.

وقال الزجاج: قيل معناه: يا محمد. وقيل: يا رجل. وقيل: يا إنسان.

وعن ابن الحنفية: ﴿يس﴾: يا محمد.

وعن كعب: ﴿يس﴾قسم أقسم الله تعالى به قبل أن يخلق السماء والأرض بألفي عام: يا محمد إنك لمن المرسلين. ثم قال: ﴿والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين﴾(١).

فإن قرر أنه بين أسمائهﷺ، وضح فيه أنه قسم كان فيه من التعظيم ما تقدم. ويؤكد فيه القسم عطف القسم الآخر عليه، وإن كان بمعنى النداء فقد جاء قسم آخر بعده لتحقيق رسالته والشهادة بهدايته: أقسم الله تعالى باسمه وكتابه إنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده، وعلى صراط مستقيم من إيمانه، أي: طريق لا اعوجاج فيه، ولا عدول عن الحق.

قال النقاش: لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتاب إلا له، وفيه من تعظيمه وتمجيده - على تأويل من قال: إنه يا سيد - ما فيه، وقد قال عليه السلام: «أنا سيد ولد آدم، ولا فخر»(٢).

وقال تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝١ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾[البلد: ١-٢]:

قيل: لا أقسم به إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه، حكاه مكي.

وقيل: «لا» زائدة، أي: أقسم به وأنت به يا محمد حلال. أو: حل لك ما فعلت فيه على التفسيرين. والمراد بالبلد عند هؤلاء مكة.

وقال الواسطي: أي نحلف لك بهذا البلد الذي شرفته بمكانك فيه حيًا، وببركتك ميتًا - يعني المدينة. والأول أصح، لأن السورة مكية، وما بعده يصححه قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝١ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾[البلد: ٢]، ونحوه قول ابن عطاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾[التين: ٣] قال: أمنها الله تعالى بمقامه فيها وكونه بها، فإن كونه أمان حيث كان.

ثم قال: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾[البلد: ٣] ومن قال: أراد آدم فهو عامٌّ، ومن قال: هو إبراهيم وما ولد - إن شاء الله - إشارة إلى محمدﷺ - فتتضمن السورة القسم بهﷺ في

---

(١) والصواب في قوله تعالى: [يس]، و[طه]، أنهما كسائر الحروف المذكورة في فواتح السور، وكل ما جاء في أنها من أسماء الله عز وجل أو أسماء النبيﷺ، فلا يصح.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٧٨) بدون قوله: «ولا فخر». ووردت في رواية الترمذي (٣١٤٨، ٣٦١٥)، وابن ماجه (٤٣٠٨)، وأحمد (١/ ٢٨١، ٢٩٥)، وكلها من طريق علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف، وقد وردت هذه اللفظة في عدة أحاديث أخرى لكنها ضعيفة كلها. وصحح الحديث - بها - الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٤٦٨).

موضعين.

وقال تعالىٰ: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١-٢].

قال ابن عباس: هذه الحروف أقسام أقسم الله تعالىٰ بها. وعنه وعن غيره فيها غير ذلك.

وقال سهل بن عبد الله التستري: الألف هو الله تعالىٰ واللام جبريل والميم محمد ﷺ.

وحكىٰ هذا القول السمرقندي، ولم ينسبه إلىٰ سهل وجعل معناه: الله أنزل جبريل علىٰ محمد بهذا القرآن لا ريب فيه.

وعلىٰ الوجه الأول يحتمل القسم أن هذا الكتاب حق لا ريب فيه، ثم فيه من فضيلة اسمه باسمه نحو ما تقدم.

وقال ابن عطاء ـ في قوله تعالىٰ: ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ [ق: ١]: أقسم بقوة قلب حبيبه محمد ﷺ حيث حمل الخطاب والمشاهدة ولم يؤثر ذلك فيه لعلو حاله.

و قيل: هو اسم للقرآن. وقيل: هو اسم لله تعالىٰ. وقيل: جبل محيط بالأرض. وقيل غير هذا.

وقال جعفر بن محمد ـ في تفسير: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [النجم: ١] أنه محمد ﷺ، وقال: النجم قلب محمد ﷺ: انشرح من الأنوار. وقال: انقطع عن غير الله.

وقال ابن عطاء ـ في قوله تعالىٰ: ﴿ وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ [الفجر: ١-٢]. الفجر: محمد ﷺ، لأن منه تفجر الإيمان.

الفصل الخامس
في قسمه تعالى جده له، ليحقق مكانته عنده

قال جل اسمه: ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾

[الضحىٰ: ١-١١].

اختلف في سبب نزول هذه السورة، فقيل: كان ترك النبي ﷺ قيام الليل لعذر نزل به،

فتكلمت امرأة في ذلك بكلام. وقيل: بل تكلم به المشركون عند فترة الوحي، فنزلت السورة.

قال القاضي الإمام أبو الفضل: تضمنت هذه السورة من كرامة الله تعالىٰ له، وتنويهه به وتعظيمه إياه ستة وجوه:

الأول: القسم له عما أخبره به من حاله بقوله تعالىٰ: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحىٰ: ١-٢]، أي: ورب الضحىٰ، وهذا من أعظم درجات المبرة.

الثاني: بيان مكانته وحظوته لديه بقوله تعالىٰ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحىٰ: ٣]، أي: ما تركك وما أبغضك. وقيل: ما أهملك بعد أن اصطفاك.

الثالث: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحىٰ: ٤]، قال ابن إسحاق: أي مالك في مرجعك عند الله أعظم مما أعطاك من كرامة الدنيا.

وقال سهل: أما ما ذخرت لك من الشفاعة والمقام المحمود خير لك مما أعطيتك في الدنيا.

الرابع: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحىٰ: ٥].

وهذه آية جامعة لوجوه الكرامة، وأنواع السعادة، وشتات الإنعام في الدارين والزيادة.

قال ابن إسحاق: يرضيه بالفلج في الدنيا، والثواب في الآخرة.

وقيل: يعطيه الحوض والشفاعة.

وروي عن بعض آل النبي ﷺ أنه قال: ليس آية في القرآن أرجىٰ منها، ولا يرضىٰ رسول الله ﷺ أن يدخل أحد من أمته النار.

الخامس: ما عدده تعالىٰ من نعمه، وقرره من آلائه قبله في بقية السورة، من هدايته إلىٰ ما هداه له، أو هداية الناس به علىٰ اختلاف التفاسير، ولا مال له، فأغناه بما آتاه، أو بما جعله في قلبه من القناعة والغنىٰ، ويتيمًا فحدب عليه عمه وآواه إليه.

وقيل: آواه إلىٰ الله. و قيل: ﴿يتيمًا﴾: لا مثال لك، فآواك إليه.

وقيل: المعنىٰ: ألم يجدك فهدىٰ بك ضالاً، وأغنىٰ بك عائلاً، وآوىٰ بك يتيمًا. ذكره بهذه المنن، وأنه علىٰ المعلوم من التفسير لم يهمله في حال صغره وعيلته ويتمه وقبل

معرفته به، ولا ودعه، ولا قلاه، فكيف بعد اختصاصه واصطفائه!.

السادس: أمره بإظهار نعمته عليه وشكر ما شرفه بنشره وإشادة ذكره بقوله تعالى: ﴿وأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، فإن من شكر النعمة الحديث بها، وهذا خاص له، عام لأمته.

وقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١-١٨].

اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ بأقاويل معروفة، منها النجم على ظاهره، ومنها القرآن.

وعن جعفر بن محمد عليه السلام قال: هو قلب محمد.

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ١-٣]: إن النجم هنا أيضاً محمد ﷺ، حكاه السلمي.

تضمنت هذه الآيات من فضله وشرفه العد ما يقف دونه العد، وأقسم جلَّ اسمه على هداية المصطفى، وتنزيهه عن الهوى، وصدقه في ما تلا، وأنه وحي يوحى أوصله إليه - عن الله - جبريل، وهو الشديد القوى.

ثم أخبر تعالى عن فضيلته بقصة الإسراء، وانتهائه إلى سدرة المنتهى، وتصديق بصره في ما رأى، وأنه رأى من آيات ربه الكبرى. وقد نبه على مثل هذا في أول سورة الإسراء.

ولما كان ما كاشفه به عليه السلام من ذلك الجبروت، وشاهده من عجائب الملكوت لا تحيط به العبارات، ولا تستقل بحمل سماع أدناه العقول رمز عنه تعالى بالإيماءة والكناية الدالة على التعظيم، فقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

وهذا النوع من الكلام يسميه أهل النقد والبلاغة بالوحي والإشارة، وهو عندهم أبلغ أبواب الإيجاز.

وقال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾[النجم: ١٨]. انحسرت الأفهام عن تفصيل ما أوحىٰ، وتاهت الأحلام في تعيين تلك الآيات الكبرىٰ.

قال القاضي أبو الفضل: اشتملت هذه الآيات علىٰ إعلام الله تعالىٰ بتزكية جملته عليه السلام، وعصمتها من الآفات في هذا المسرىٰ، فزكىٰ فؤاده ولسانه وجوارحه: فزكىٰ قلبه بقوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم: ١١]، ولسانه بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: ٣]، وبصره بقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم: ١٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ [التكوير: ١٥-٢٥].

«لا أقسم»: أي أقسم. ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ أي كريم عند مرسله. ﴿ذي قوة﴾: علىٰ تبليغ ما حمله من الوحي، ﴿مكين﴾: أي متمكن المنزلة من ربه، رفيع المحل عنده، ﴿مطاع ثم﴾: أي في السماء. ﴿أمين﴾ علىٰ الوحي.

قال علي بن عيسىٰ وغيره: الرسول الكريم هنا محمد ﷺ، فجميع الأوصاف بعد علىٰ هذا له.

وقال غيره: هو جبريل، فترجع الأوصاف إليه.

ولقد رآه - يعني محمداً: قيل: رأىٰ ربه. وقيل: رأىٰ جبريل في صورته.

﴿وما هو علىٰ الغيب بضنين﴾، أي: بمتهم. ومن قرأها بالضاد فمعناه: ما هو ببخيل بالدعاء به، والتذكير بحكمه ويعلمه، وهذه لمحمد عليه السلام باتفاق.

وقال تعالىٰ: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ [القلم: ١-١٦].

أقسم الله تعالىٰ بما أقسم به من عظيم قسمه علىٰ تنزيه المصطفىٰ بما غمصته الكفرة به، وتكذيبهم له، وأنسه وبسط أمله بقوله ـ محسنًا خطابه ـ: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾.

وهذه نهاية المبرة في المخاطبة، وأعلىٰ درجات الآداب في المحاورة؛ ثم أعلمه بما له عنده من نعيم دائم، وثواب غير منقطع، لا يأخذه عد، ولا يمتن به عليه؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ثم أثنىٰ عليه بما منحه من هباته، وهداه إليه، وأكد ذلك تتميمًا للتمجيد، بحرفي التأكيد؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. قيل: القرآن. وقيل: الإسلام. وقيل: الطبع الكريم. وقيل: ليس لك همة إلا الله.

قال الواسطي: أثنىٰ عليه بحسن قبوله لما أسداه إليه من نعمة، وفضله بذلك علىٰ غيره؛ لأنه جبله علىٰ ذلك الخلق؛ فسبحان اللطيف الكريم، المحسن الجواد، الحميد الذي يسر للخير وهدىٰ إليه، ثم أثنىٰ علىٰ فاعله؛ وجازاه عليه سبحانه ما أغمر نواله وأوسع إفضاله؛ ثم سلاه عن قولهم بعد هذا بما وعده به من عقباهم، وتوعدهم بقوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القلم: ٦ـ٧].

ثم عطف بعد مدحه علىٰ ذم عدوه، وذكر سوء خلقه، وعد معايبه، متوليًا ذلك بفضله، ومنتصرًا لنبيه؛ فذكر بضع عشرة خصلة من خصال الذم فيه بقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ٨ـ١٥].

ثم ختم ذلك بالوعيد الصادق بتمام شقائه وخاتمة بواره بقوله: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١ـ١٦]؛ فكانت نصرة الله له أتم من نصرته لنفسه، ورده تعالىٰ علىٰ عدوه أبلغ من رده، وأثبت في ديوان مجده.

الفصل السادس
في ما ورد من قوله تعالى في جهته عليه السلام مورد الشفقة والإكرام

قال تعالىٰ: ﴿طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ [طه: ١-٢]

قيل: طه: اسم من أسمائه عليه السلام. وقيل: هو اسم الله، وقيل: معناه: يا رجل. وقيل: يا إنسان. وقيل: هي حروف مقطعة لمعان[1].

وقال الوسطي: أراد: يا طاهر، يا هادي. وقيل: هو أمر من الوطء، والهاء كناية عن الأرض؛ أي اعتمد على الأرض بقدميك ولا تتعب نفسك بالاعتماد على قدم واحدة، وهو قوله تعالىٰ: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ [طه: ٢].

نزلت الآية في ما كان النبي ﷺ يتكلفه من السهر والتعب وقيام الليل.

أخبرنا القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن، وغير واحد، عن القاضي أبي الوليد الباجي إجازة، ومن أصله نقلت؛ قال: حدثنا أبو ذر الحافظ، حدثنا أبو محمد الحموي، حدثنا إبراهيم بن خزيم الشاشي، حدثنا عبد بن حميد، حدثنا هاشم بن القاسم، عن أبي جعفر، عن الربيع بن أنس؛ قال: كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى؛ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿طه﴾ يعني طأ الأرض يا محمد، ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ [طه: ٢-٤]. ولا خفاء بما في هذا كله من الإكرام وحسن معاملة.

وإن جعلنا ﴿طه﴾ من أسمائه عليه السلام كما قيل، أو جعلت قسمًا لحق الفضل بما قبله.

ومثل هذا - من نمط الشفقة والمبرة -: قوله تعالىٰ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]؛ أي قاتل نفسك لذلك غضبًا أو غيظًا أو جزعًا.

ومثله: قوله تعالىٰ أيضًا: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]؛ ثم

(١) سبق التنبيه على أن الصواب أنها مثل باقي حروف القرآن وسائر فواتح السور، وليست من أسماء الله عز وجل، ولا أسماء النبي ﷺ.

قال: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

ومن هذا الباب: قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٤-٩٧].

وقوله: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

قال مكي: سلاه بما ذكر، وهون عليه ما يلقى من المشركين، وأعلمه أن من تمادى على ذلك يحل به ما حل بمن قبله.

ومثل هذه التسلية قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [فاطر: ٤].

ومن هذا قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[الذاريات: ٥٢].

عزاه الله تعالى بما أخبر به عن الأمم السالفة ومقالهم لأنبيائهم قبله، ومحنتهم بهم؛ وسلاه بذلك من محنته بمثلها من كفار مكة، . وأنه ليس أول من لقي ذلك، ثم طيب نفسه وأبان عذره بقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ [الذاريات: ٥٤]أي أعرض عنهم؛ ﴿فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤]؛ أي في أداء ما بلغت وإبلاغ ما حملت.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨]؛ أي أصبر على أذاهم فإنك بحيث نراك ونحفظك.

سلاه الله تعالى بهذا في آي كثيرة من هذا المعنى.

الفصل السابع
في ما أخبر الله تعالى به في كتابه العزيز من عظيم قدره وشريف منزلته على الأنبياء وحظوة رتبته

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال أبو الحسن القابسي: استخص الله تعالىٰ محمداً ﷺ بفضل لم يؤته غيره، أبانه به، وهو ما ذكره في هذه الآية؛ قال المفسرون: أخذ الله الميثاق بالوحي، فلم يبعث نبيًا إلا ذكر له محمداً ونعته، وأخذ عليه ميثاقه إن أدركه ليؤمنن به.

وقيل: أن يبينه لقومه، ويأخذ ميثاقهم أن يبينوه لمن بعدهم.

وقوله: ﴿ ثُمَّ جَاءَكُمْ ﴾: الخطاب لأهل الكتاب المعاصرين لمحمد ﷺ.

قال عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: لم يبعث الله نبيًا من آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد ﷺ: لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، ويأخذ العهد بذلك علىٰ قومه.

ونحوه عن السدي وقتادة في آي تضمنت فضله من غير وجه واحد.

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب: ٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٣ـ١٦٦].

وروي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال في كلام زكىٰ به النبي ﷺ، فقال بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن بعثك آخر الأنبياء، وذكرك في أولهم، فقال: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب: ٧].

بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لقد بلغ من فضيلتك عنده أنَّ أهل النار يودُّون أن يكونوا أطاعوك بين أطباقها يُعذبون يقولون: ﴿ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴾ [الأحزاب: ٦٦].

قال قتادة: إن النبي ﷺ قال: «كنت أول الأنبياء في الخلق، وآخرهم في البعث»[1]

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن سعد في الطبقات، ومداره علىٰ قتادة مرسلاً، وفي طرقه ضعف، وفي متنه مخالفة للكتاب والسنة.

فلذلك وقع ذكره مقدمًا هنا قبل نوح وغيره.

قال السمرقندي: في هذا تفضيل نبينا ﷺ، لتخصيصه بالذكر قبلهم، وهو آخرهم.

المعنى: أخذ الله تعالى عليهم الميثاق، إذا أخرجهم من ظهر آدم كالذر.

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا﴾ [البقرة: ٢٥٣].

قال أهل التفسير: أراد بقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ ـ محمداً ﷺ؛ لأنه بعث إلى الأحمر والأسود، وأحلت له الغنائم، وظهرت على يديه المعجزات، وليس أحد من الأنبياء أعطي فضيلة أو كرامة إلا وقد أُعطي محمد ﷺ مثلها.

قال بعضهم: ومن فضله أن الله تعالى خاطب الأنبياء بأسمائهم، وخاطبه بالنبوة والرسالة في كتابه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، و ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾.

وحكى السمرقندي عن الكلبي ـ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ٨٣] ـ أن الهاء عائدة على محمد؛ أي إن من شيعة محمد لإبراهيم؛ أي على دينه ومنهاجه. وأجازه الفراء، وحكاه عنه مكي. وقيل: المراد نوح عليه السلام.

الفصل الثامن
في إعلام الله تعالى خلقه بصلواته عليه وولايته له ورفعه العذاب بسببه

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]؛ أي ما كنت بمكة، فلما خرج النبي ﷺ من مكة، وبقي فيها من بقي من المؤمنين نزل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وهذا مثل قوله: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الفتح: ٢٥]. فلما هاجر المؤمنون نزلت: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وهذا من أبين ما يظهر مكانته ﷺ، ودرأ به العذا ب عن أهل مكة بسبب كونه، ثم كون

أصحابه بعده بين أظهرهم، فلما خلت مكة منهم عذبهم الله بتسليط المؤمنين عليهم، وغلبتهم إياهم، وحكم فيهم سيوفهم، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم. وفي الآية أيضًا تأويل آخر:

حدثنا القاضي الشهيد أبو علي - رحمه الله - بقراءتي عليه، قال: حدثنا أبو الفضل ابن خيرون، وأبو الحسين الصيرفي، قالا: حدثنا أبو يعلى ابن زوج الحرة، حدثنا أبو علي السنجي، حدثنا محمد بن محبوب المروزي، حدثنا أبو عيسى الحافظ، حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا ابن نمير، عن إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر، عن عباد بن يوسف، عن أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنزل الله على أمانين لأمتي: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾** [الأنفال: ٣٣]؛ **فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار**»(١).

ونحو منه قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال عليه السلام: «**أنا أمان لأصحابي**»(٢). قيل: من البدع. وقيل: من الاختلاف والفتن.

قال بعضهم: الرسول ﷺ هو الأمان الأعظم ما عاش، وما دامت سنته باقية فيه باق فإذا أميتت سنته فانتظر البلاء والفتن.

وقال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٥٦].

أبان الله تعالى فضل نبيه ﷺ بصلواته عليه، ثم بصلاة ملائكته، وأمر عباده بالصلاة والتسليم عليه.

وقد حكى أبو بكر بن فورك أن بعض العلماء أوّلَ قوله عليه السلام: «**وجُعلَت قُرةُ عيني في الصلاة**»(٣) على هذا أي في صلاة الله تعالى على ملائكته وأمره الأمة بذلك إلى يوم القيامة. والصلاة من الملائكة استغفار، ومنا له دعاء، ومن الله عز وجل رحمة.

وقيل: رحمة. وقيل: يصلون: يباركون.

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٠٨٢)، وقال: هذا حديث غريب، وإسماعيل بن مهاجر يُضعَّف في الحديث.

(٢) أخرجه - بلفظ «أمان» - الطبراني في الكبير (١١/ ٥٣)، وأخرجه مسلم (٢٥٣١) مطولاً، بلفظ: «أمنة لأصحابي».

(٣) صححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣٠٩٨، ٣١٢٤).

وقد فرق النبي ﷺ حين علم الصلاة بين لفظ الصلاة والبركة.

وسنذكر حكم الصلاة عليه.

وذكر بعض المتكلمين في تفسير حروف ﴿كهيعص﴾ - أن الكاف من «كاف»، أي كفاية الله تعالى لنبيه، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]. والهاء هدايته له، قال: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢]. والياء تأييده، قال: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ﴾ [الأنفال: ٦٢]. والعين عصمته له، قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. والصاد: صلواته عليه؛ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]؛ مولاه أي وليه. وصالح المؤمنين: قيل: الأنبياء وقيل: الملائكة. وقيل: أبو بكر، وعمر. وقيل: عليّ. وقيل: المؤمنون على ظاهره.

الفصل التاسع

فيما تضمنته سوة «الفتح» من كراماته ﷺ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١-١٠].

تضمنت هذه الآيات من فضله والثناء عليه وكريم منزلته عند الله تعالى، ونعمته لديه - ما يقصر الوصف عن الانتهاء إليه؛ فابتدأ جل جلاله - بإعلامه بما قضاه له من القضاء البيّن

بظهوره، وغلبته على عدوه، وعلو كلمته وشريعته، وأنه مغفور له، غير مؤاخذ بما كان وما يكون.

قال بعضهم: أراد غفران ما وقع وما لم يقع، أي إنك مغفور لك.

وقال مكي: جعل الله المنة سببًا للمغفرة، وكل من عنده، لا إله غيره، منة بعد منة، وفضلاً بعد فضل.

ثم قال: ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ [الفتح: ٢]: قيل: بخضوع من تكبر عليك.

وقيل: بفتح مكة والطائف وقيل: يرفع ذكرك في الدنيا وينصرك ويغفر لك؛ فأعلمه بتمام نعمته عليه بخضوع متكبري عدوه له، وفتح أهم البلاد عليه وأحبها له، ورفع ذكره، وهدايته الصراط المستقيم المبلغ الجنة والسعادة، ونصره النصر العزيز، ومنته على أمته المؤمنين بالسكينة والطمأنية التي جعلها في قلوبهم، وبشارتهم بما لهم بعد، وفوزهم العظيم، والعفو عنهم، والستر لذنوبهم، وهلاك عدوه في الدنيا والآخرة ولعنهم ويعدهم من رحمته، وسوء منقلبهم.

ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٤٥﴾ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦] ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفتح: ٩].

فعد محاسنه وخصائصه؛ من شهادته على أمته لنفسه، بتبليغه الرسالة لهم.

وقيل: شاهداً لهم بالتوحيد، ومبشراً لأمته بالثواب. وقيل: بالمغفرة. ومنذراً عدوه بالعذاب.

وقيل: محذراً من الضلالات ليؤمن بالله، ثم به ﷺ من سبقت له من الله الحسنى.

ويعزروه: أي يجلونه. وقيل: ينصرونه. وقيل يبالغون في تعظيمه. ويوقروه: أي يعظموه.

وقرأه بعضهم: تعززوه-بزاءين: من العز، والأكثر والأظهر أن هذا في حق محمد ﷺ؛ ثم قال: «وتسبحوه»؛ فهذا راجع إلى الله تعالى.

قال ابن عطاء: جمع للنبي ﷺ في هذه السورة نعم مختلفة؛ من الفتح المبين، وهو من أعلام الإجابة. والمغفرة، وهي من أعلام المحبة. وتمام النعمة، وهي من أعلام الاختصاص. والهداية، وهي من أعلام الولاية، فالمغفرة تبرئة من العيوب، وتمام النعمة إبلاغ الدرجة الكاملة، والهداية وهي الدعوة إلى المشاهدة.

وقال جعفر بن محمد: من تمام نعمته عليه أن جعله حبيبه، وأقسم بحياته، ونسخ به شرائع غيره، وعرج به إلى المحل الأعلى، وحفظه في المعراج حتى ما زاغ البصر وما طغى، وبعثه إلى الأحمر والأسود، وأحل له ولأمته الغنائم، وجعله شفيعًا مشفعًا، وسيد ولد آدم، وقرن ذكره بذكره، ورضاه برضاه، وجعله أحد ركني التوحيد.

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]-يعني بيعة الرضوان؛ أي إنما يبايعون الله ببيعتهم إياك.

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] يريد عند البيعة. قيل: قوة الله، وقيل: ثوابه. وقيل: منته. وقيل: عقده، وهذه استعارة، وتجنيس في الكلام، وتأكيد لعقد بيعتهم إياه. وعظيم شأن المبايع ﷺ.

وقد يكون من هذا قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]؛ وإن كان الأول في باب المجاز، وهذا في باب الحقيقة، لأن القاتل والرامي بالحقيقة هو الله، وهو خالق فعله ورميه، وقدرته عليه ومسببه، ولأنه ليس في قدرة البشر توصيل تلك الرمية حيث وصلت، حتى لم يبق منهم من لم تملأ عينيه، وكذلك قتل الملائكة لهم حقيقة.

وقد قيل في هذه الآية الأخرى إنها على المجاز العربي، ومقابلة اللفظ ومناسبته؛ أي ما قتلتموهم، وما رميتهم أنت إذ رميت وجوهم بالحصباء والتراب، ولكن الله رمى قلوبهم بالجزع، أي إن منفعة الرمي كانت من فعل الله؛ فهو القاتل والرامي بالمعنى وأنت بالاسم.

الفصل العاشر
فيما أظهره الله تعالى في كتابه العزيز من كرامته عليه ومكانته عنده وما خصه الله به من ذلك سوى ما انتظم في ما ذكرناه قبل

من ذلك ما قصه تعالى في قصة الإسراء في سورة: «سبحان»؛ و«النجم» وما انطوت عليه القصة من عظيم منزلته وقربه ومشاهدته ما شاهد من العجائب.

ومن ذلك عصمته من الناس بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ

ويَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقوله: ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠]. وما رفع الله به عنه في هذه القصة من أذاهم بعد تحزبهم لهلكه وخلوصهم نجيًا في أمره، والأخذ على أبصارهم عند خروجه عليهم، وذهولهم عن طلبه في الغار، وما ظهر في ذلك من الآيات، ونزول السكينة عليه، وقصة سراقة بن مالك حسب ما ذكره أهل الحديث والسير في قصة الغار، وحديث الهجرة.

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر: ١-٣].

أعلمه الله تعالى بما أعطاه. والكوثر حوضه. وقيل: نهر في الجنة. وقيل: الخير الكثير. وقيل: الشفاعة. وقيل: المعجزات الكثيرة. وقيل: النبوة. وقيل: المعرفة.

ثم أجاب عنه عدوه، ورد عليه قوله، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر: ٣]. أي عدوك ومبغضك. والأبتر: الحقير الذليل، أو المفرض الوحيد، أو الذي لا خير فيه.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧].

قيل: السبع المثاني السور الطوال الأول. والقرآن العظيم: أم القرآن. وقيل: السبع المثاني: أم القرآن. والقرآن العظيم: سائره. وقيل: السبع المثاني: ما في القرآ من أمر ونهي وبشرى وإنذار وضرب مثل وإعداد نعم وآتيناك نبأ القرآن العظيم.

وقيل: سميت أم القرآن مثاني لأنها تثنّى في كل ركعة. وقيل: بل الله تعالى استثناها لمحمد ﷺ، وذخرها له دون الأنبياء. وسمي القرآن مثاني؛ لأن القصص تثنى فيه. وقيل: السبع المثاني: أكرمناك بسبع كرامات: الهدى، والنبوة، والرحمة، والشفاعة، والولاية، والتعظيم، والسكينة: قال: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤]. وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

قال القاضي: فهذه من خصائصه.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]؛ فخصهم بقومهم، وبعث محمداً ﷺ إلى الخلق كافة، كما قال عليه السلام: «**بعثت إلى الأحمر والأسود**»(١).

وقال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]. قال أهل التفسير ﴿أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ما أنفذه فيهم من أمر فهو ماضٍ عليهم كما يمضي حكم السيد على عبده.

وقيل: اتباع أمره أولى من اتباع رأي النفس.

وأزواجه أمهاتهم؛ أي هنَّ في الحرمة كالأمهات؛ حرم نكاحهن عليهم بعده؛ تكرمة له وخصوصية، ولأنهن له أزواج في الآخرة.

وقد قرئ: وهو أب لهم. ولا يقرأ به الآن لمخالفته المصحف. وقال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

قيل: فضله العظيم بالنبوة. وقيل: بما سبق له في الأزل. وأشار الواسطي إلى أنها إشارة إلى احتمال الرؤية التي لم يحتملها موسى، صلى الله عليهما.

* * *

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٤، ٤/ ٤١٦، ٥/ ١٤٧) من حديث جابر وأبي موسى وأبي ذر على التوالي، والدارمي (٢٤٦٧) من حديث أبي ذر، وأصل حديث أبي ذر عند أبي داود (٤٨٩) مختصراً، وصححه الألباني رحمه الله.

الباب الثاني

في تكميل الله تعالى له المحاسن خَلقًا وخُلقًا، وقرانه جميع الفضائل الدينية والدنيوية نسقًا

الباب الثاني

في تكميل الله تعالى له المحاسن خَلقًا وخُلقًا، وقرانه جميع الفضائل الدينية والدنيوية نسقًا

اعلم أيها المحب لهذا النبي ﷺ الباحث عن تفاصيل جمل قدره العظيم ـ أن خصال الجلال والكمال في البشر نوعان: ضروري دنيوي اقتضته الجبلة وضرورة الحياة الدنيا ومكتسب ديني، وهو ما يحمد فاعله، ويقرب إلى تعالى زلفى.

ثم هي على فنين أيضًا: منها ما يتخلص لأحد الوصفين. ومنها ما يتمازج ويتداخل.

فأما الضروري المحض فما ليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب، مثل ما كان في جبلته من كمال خلقته، وجمال صورته، وقوة عقله، وصحة فهمه، وفصاحة لسانه، وقوة حواسه وأعضائه، واعتدال حركاته، وشرف نسبه، وعزة قومه، وكرم أرضه؛ ويلحق به ما تدعوه ضرورة حياته إليه، من غذائه ونومه، وملبسه ومسكنه، ومنكحه، وماله وجاهه.

وقد تلحق هذه الخصال الآخرة بالأخروية إذا قصد بها التقوى ومعونة البدن على سلوك طريقها، وكانت على حدود الضرورة وقوانين الشريعة.

وأما المكتسبة الأخروية فسائر الأخلاق العلية، والآداب الشرعية: من الدين، والعلم والحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والزهد، والتواضع، والعفو، والعفة، والجود، والشجاعة، والحياء، والمروءة، والصمت، والتؤدة، والوقار، والرحمة، وحسن الأدب، والمعاشرة، وأخواتها، وهي التي جماعها حسن الخلق.

وقد يكون من هذه الأخلاق ما هو في الغريزة وأصل الجبلة لبعض لناس وبعضهم لا تكون فيه، فيكتسبها، ولكنه لابد أن يكون فيه من أصولها في أصل الجبلة شعبة كما سنبينه إن شاء الله.

وتكون هذه الأخلاق دنيوية إذا لم يرد بها وجه الله والدار الآخرة؛ ولكنها كلها محاسن وفضائل باتفاق أصحاب العقول السليمة، وإن اختلفوا في موجب حسنها وتفضيلها.

الفصل الأول

الكمال والجمال

إذا كانت خصال الكمال والجمال ما ذكرناه، ووجدنا الواحد منا يتشرف بواحدة منها أو باثنتين إن اتفقت له ـ في كل عصر، إما من نسب أو جمال، أو قوة، أو علم، أو حلم، أو شجاعة، أو سماحة، حتى يعظم قدره، ويضرب باسمه الأمثال، ويتقرر له بالوصف بذلك في القلوب أثرة وعظمة، وهو منذ عصور خوال رمم بوال، فما ظنك بعظيم قدر من اجتمعت فيه كل هذه الخصال إلى ما لا يأخذه عد، ولا يعبر عنه مقال، ولا ينال بكسب ولا حيلة إلا بتخصيص الكبير المتعال، من فضيلة النبوة والرسالة، والخلة والمحبة، والاصطفاء والإسراء، والرؤية، والقرب والدنو، والوحي، والشفاعة والوسيلة، والفضيلة والدرجة الرفيعة، والمقام المحمود، والبراق والمعراج، والبعث إلى الأحمر والأسود، والصلاة بالأنبياء، والشهادة بين الأنبياء والأمم، وسيادة ولد آدم، ولواء الحمد، والبشارة، والنذارة والمكانة عند ذي العرش والطاعة ثم، والأمانة والهداية ورحمة للعالمين. وإعطاء الرضا والسؤل، والكوثر، وسماع القول، وإتمام النعمة والعفو عما تقدم وما تأخر، وشرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر وعزة النصر، ونزول السكينة، والتأييد بالملائكة، وإيتاء الكتاب والحكمة والسبع المثاني والقرآن العظيم، وتزكية الأمة والدعاء إلى الله، وصلاة الله تعالى والملائكة، والحكم بين الناس بما أراه الله، ووضع الإصر والإغلال عنهم، والقسم باسمه، وإجابة دعوته، وتكليم الجمادات والعجم، وإحياء الموتى، وإسماع الصم، ونبع الماء من بين إصابعه، وتكثير القليل، وانشقاق القمر، ورد الشمس، وقلب الأعيان، والنصر بالرعب، والاطلاع على الغيب، وظل الغمام، وتسبيح الحصا، وإبراء الآلام، والعصمة من الناس، إلى ما لا يحويه محتفل، ولا يحيط بعلمه إلا مانحه ذلك ومفضله به، لا إله غيره، إلى ما أعد له في الدار الآخرة من منازل الكرامة، ودرجات القدس، ومراتب السعادة والحسنى والزيادة التي تقف دونها العقول ويحار دون إدراكها الوهم.

الفصل الثاني

صفاته الخلقية ﷺ

إن قلت - أكرمك الله : لا خفاء على القطع بالجملة أنه ﷺ أعلى الناس قدراً، وأعظمهم محلاً، وأكملهم محاسن وفضلاً، وقد ذهبت في تفاصيل خصال الكمال مذهبًا جميلاً شوقني إلى أن أقف عليها من أوصافه ﷺ تفصيلاً. . . . فاعلم - نور الله قلبي وقلبك، وضاعف في هذا النبي الكريم حبي وحبك - أنك إذا نظرت إلى خصال الكمال التي هي غير مكتسبة وفي جبلة الخلقة وجدته صلى حائزاً لجميعها، ومحيطًا بشتات محاسنها دون خلاف بين نقلة الأخبار لذلك؛ بل قد بلغ بعضها مبلغ القطع.

أما الصورة وجمالها، وتناسب أعضائه في حسنها، فقد جاءت الآثار الصحيحة والمشهورة الكثيرة بذلك، من حديث عليّ، وأنس بن مالك، وأبي هريرة، والبراء بن عازب، وعائشة أم المؤمنين، وابن أبي هالة، وأبي جحيفة وجابر بن سمرة، وأم معبد، وابن عباس، محرِّض بن معيقيب، وأبي الطفيل، والعداء بن خالد، وخريم ابن فاتك، وحكيم بن حزام، وغيرهم، من أنه ﷺ كان أزهر اللون، أدعج، أنجل، أشكل، أهدب الأشفار، أبلج، أزج، أقنى، أفلج، مدور الوجه، واسع الجبين، كث اللحية تملأ صدره، سواء البطن والصدر، واسع الصدر، عظيم المنكبين، ضخم العظام، عبل العضدين والذراعين والأسافل، رحب الكفين والقدمين، سائل الأطراف، أنور المتجرد، دقيق المسربة، ربعة القد، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير المتردد، ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد ينسب إلى الطول إلا طاله ﷺ، رجل الشعر، إذا افترَّ ضاحكًا افترَّ عن مثل سنا البرق، وعن مثل حب الغمام، إذا تكلم رئي كالنور يخرج من ثناياه، أحسن الناس عنقًا، ليس بمطهم ولا مكلثهم، متماسك البدن، ضرب اللحم(١).

قال البراء بن عازب: ما رأيت من ذي لمة في حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ(٢).

وقال أبو هريرة - رضي الله عنه: ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله، كأن الشمس تجري في وجهه، وإذا ضحك يتلألأ في الجدر(٣).

(١) راجع كتاب «مختصر الشمائل المحمدية» للعلامة الألباني رحمه الله.
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٣٧).
(٣) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٦٤٨) وأحمد (٢/ ٣٥٠، ٣٨٠) وفي سنده ابن لهيعة، واستغربه الترمذي، وضعفه الألباني رحمه الله في مختصر الشمائل.

وقال جابر بن سمرة ـ وقال له رجل: كان وجهه ـ ﷺ ـ مثل السيف؟ فقال: لا، بل مثل الشمس والقمر، وكان مستديراً[١].

وقالت أم معبد ـ في بعض ما وصفته به: أجمل الناس من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب ﷺ كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

وفي حديث ابن أبي هالة: يتلألأ وجهه تلألأ القمر ليلة البدر.

وقال عليّ ـ رضي الله عنه ـ في آخر وصفه له: من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ[٢].

والأحاديث في بسط صفته مشهورة كثيرة، فلا نطول بسردها.

وقد اختصرنا في وصفه نكت ما جاء فيها، وجملة مما فيها الكفاية في القصد إلى المطلوب، وختمنا هذه الفصول بحديث جامع لذلك تقف عليه هناك إن شاء الله.

الفصل الثالث
نظافته ﷺ

وأما نظافة جسمه، وطيب ريحه وعرقه، ونزاهته عن الأقذار وعورات الجسد ـ فكان قد خصه الله في ذلك بخصائص لم توجد في غيره، ثم تممها بنظافة الشرع وخصال الفطرة العشرة، وقال: «بني الدين على النظافة»[٣].

حدثنا سفيان بن العاصي وغير واحد، قالوا: حدثنا أحمد بن عمر. حدثنا أبو العباس الرازي، حدثنا أبو أحمد الجلودي، حدثنا ابن سفيان، حدثنا مسلم، قال: حدثنا قتيبة، حدثنا جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس، قال: «ما شممت عنبراً قط، ولا مسكًا، ولا شيئًا أطيب من ريح رسول الله ﷺ»[٤].

وعن جابر بن سمرة أنه ﷺ مسح خده؛ قال: فوجدت ليده برداً وريحًا، كأنما أخرجها من جونة عطار[٥].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٥٥٢)، ومسلم (٢٣٤٤).
(٢) وأحاديث أم معبد، وابن أبي هالة، وعلي رضي الله عنهم ـ المطولة في وصف النبي ﷺ ـ كلها ضعيفة، راجع في ذلك مختصر الشمائل، للألباني رحمه الله.
(٣) ضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٢٤٨٥) بلفظ: «بني الإسلام على النظافة».
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٣٠).
(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٢٩).

قال غيره: مسها بطيب أو لم يمسها، يصافح المصافح فيظل يومه يجد ريحها، ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان بريحها.

ونام رسول الله ﷺ في دار أنس فعرق، فجاءت أمه بقارورة تجمع فيها عرقه، فسألها رسول الله ﷺ عن ذلك، فقالت: نجعله في طيبنا، وهو من أطيب الطيب[1].

وذكر البخاري في تاريخه الكبير، عن جابر: لم يكن النبي ﷺ يمر في طريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه سلكه من طيبه. وذكر إسحاق بن راهويه أن تلك كانت رائحته بلا طيب ﷺ.

وروي المزني، عن جابر: أردفني النبي ﷺ خلفه، فالتقمت خاتم النبوة بفمي، فكان ينم علي مسكًا.

وقد حكى بعض المعتنين بأخباره وشمائله ﷺ أنه كان إذا أراد أن يتغوط انشقت الأرض فابتلعت غائطة وبوله، وفاحت لذلك رائحة طيبة ﷺ.

وأسند محمد بن سعد كاتب الواقدي في هذا خبراً عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت للنبي ﷺ: إنك تأتي الخلاء فلا نرى منك من الأذى! فقال: **«يا عائشة، أو ما علمت أن الأرض تبتلع ما يخرج من الأنبياء، فلا يرى منه شيء»**[2].

وهذا الخبر وإن لم يكن مشهوراً فقد قال قوم من أهل العلم بطهارة الحدثين منه ﷺ وهو قول بعض أصحاب الشافعية، حكاه الإمام أبو نصر بن الصباغ في شامله.

وقد حكى القولين عن العلماء في ذلك أبو بكر بن سابق المالكي في كتابه «البديع في فروع المالكية وتخريج ما لم يقع لهم منها على مذهبهم من تفاريع الشافعية».

وشاهدُ هذا: أنه ﷺ لم يكن منه شيء يكره، ولا غير طيب.

ومنه حديث علي - رضي الله عنه -: غسلت النبي ﷺ فذهبت أنظر ما يكون من الميت لم أجد شيئًا؛ فقلت: طبت حيًا وميتًا. قال: وسطعت منه ريح طيبة لم نجد مثلها قط.

ومثله قال أبو بكر - رضي الله عنه - حين قبل النبي ﷺ بعد موته[3].

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٦٢٨١).

(٢) **ضعيف**: أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ١٧١)، والأحاديث في هذا الباب كله لا تصح، بل هي موضوعة. وقد كان ﷺ إذا أراد أن يتغوط توارى وأبعد، وكان يستنجي بالماء، وكان يتوضأ بعد قضاء حاجته، ولم يرد عنه خبر صحيح يخرجه عن سائر البشر، ولو وجد هذا الخبر صحيحًا لكنا أول من يفرح به ويتمسك، ولكن نصفه كما وصفه الله تعالى في كتابه ووصف هو نفسه ﷺ بأنه بشر مثلنا يوحى إليه. وإن كان هو أفضلنا وخيرنا وسيدنا في الدنيا والآخرة ﷺ.

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٦٧٠).

ومنه: شرب مالك بن سنان دمه يوم أحد، ومصه إياه، وتسويغه ﷺ ذلك له وقوله: **«لن تصيبه النار»**.

ومثله: شرب عبد الله بن الزبير دم حجامته؛ فقال له عليه السلام: **«ويل لك من الناس، ويل لهم منك»**. ولم ينكره عليه(١).

وقد روي نحو من هذا عنه في امرأة شربت بوله؛ فقال لها: **«لن تشتكي وجع بطنك أبدًا»** ولم يأمر واحدًا منهم بغسل فم، ولا نهاه عن عودة.

وحديث هذه المرأة التي شربت بوله صحيح، ألزم الدارقطني مسلمًا والبخاري إخراجه في «الصحيح»، واسم هذه المرأة: بركة. واختلف في نسبها.

وقيل: هي أم أيمن، وكانت تخدم النبي ﷺ، قالت: وكان لرسول الله ﷺ قدح من عيدان يوضع تحت سريره يبول فيها من الليل، فبال فيه ليلة، ثم افتقده، لم يجد فيه شيئًا. فسأل بركة عنه؛ فقالت: قمت وأنا عطشانة فشربته وأنا لا أعلم.

روى حديثها ابن جريج وغيره.

وكان ﷺ قد ولد مختونًا مقطوع السرة(٢).

وروي عن أمه آمنة أنها قالت: قد ولدته نظيفًا ما به قذر.

وعن عائشة - رضي الله عنها -: ما رأيت فرج رسول الله ﷺ قط(٣).

وعن علي - رضي الله عنه -: أوصاني النبي ﷺ لا يغسله غيري: **«فإنه لا يرى أحد عورتي إلا طمست عيناه»**.

وفي حديث عكرمة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أنه ﷺ نام حتى سمع له غطيط، فقام فصلى ولم يتوضأ. قال عكرمة: لأنه ﷺ كان محفوظًا(٤).

---

(١) ضعيف جدًا: أخرجه الدارقطني (١/ ٢٢٨)، بسند ضعيف جدًا.

(٢) ضعيف: ذكر الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٥٣١٠) نحوه بلفظ: «من كرامتي على ربي أني ولدت مختونًا، ولم ير أحد سوءتي».

(٣) ضعيف: أخرجه ابن ماجه (٦٦٢، ١٩٢٢)، وأحمد (٦/ ١٩٠)، وضعفه الألباني رحمه الله كما في ضعيف ابن ماجه، والمشكاة (٣١٢٣)، وآداب الزفاف (ص٣٤)، ومختصر الشمائل (٣٠٨).

(٤) والصحيح ما أخبر به هو عن نفسه ﷺ - كما في الصحيح - من أنه تنام عينه ولا ينام قلبه، فإذا أحدث شعر بذلك بخلاف غيره.

الفصل الرابع
فصاحة لسانه ﷺ

وأما وفور عقله، وذكاء لبه، وقوة حواسه، وفصاحة لسانه، واعتدال حركاته، وحسن شمائله فلا مرية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم.

ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم، وسياسة العامة والخاصة، مع عجيب شمائله، وبديع سيره، فضلاً عما أفاضه من العلم، وقرره من الشرع دون تعلم سبق، ولا ممارسة تقدمت، ولا مطالعة للكتب منه، لم يمتر في رجحان عقله، وثقوب فهمه لأول بديهة؛ وهذا ما لا يحتاج إلىٰ تقريره لتحقيقه.

وقد قال وهب بن منبه: قرأت في أحد وسبعين كتابًا، فوجدت في جميعها أن النبي ﷺ أرجح الناس عقلاً، وأفضلهم رأيًا.

وفي رواية أخرىٰ: فوجدت في جميعها أن الله تعالىٰ لم يعط جميع الناس من بدأ الدنيا إلىٰ انقضائها من العقل في جنب عقله ﷺ إلا كحبة رمل من بين رمال الدنيا.

وقال مجاهد: كان رسول الله ﷺ إذا قام في الصلاة يرىٰ من خلفه كما يرىٰ من بين يديه، وبه فسر قوله تعالىٰ: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٩].

وفي «الموطأ» عنه عليه السلام: «إني لأراكم من وراء ظهري»[(١)].

ونحوه عن أنس في الصحيحين، وعن عائشة مثله؛ قالت: زيادة زاده الله إياها في حجته.

وفي بعض الروايات: «إني لأنظر من ورائي كما أنظر إلى من بين يدي».

وفي أخرىٰ: «إني لأبصر من قفاي كما أبصر من بين يدي».

وحكىٰ بقي بن مخلد، عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يرىٰ في الظلمة كما يرىٰ في الضوء[(٢)].

والأخبار كثيرة صحيحة في رؤيته ﷺ للملائكة والشياطين.

ورفع النجاشي له حتىٰ صلىٰ عليه، وبيت المقدس حين وصفه لقريش، والكعبة حين بنىٰ مسجده.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٤١٨، ٧١٩، ٧٢٥)، ومسلم (٤٢٤).

(٢) **موضوع**: ذكره الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٤٥٤٧)، والضعيفة (٣٤١).

وقد حكي عنه ﷺ أنه كان يرىٰ في الثريا أحد عشر نجمًا.

وهذه كلها محمولة علىٰ رؤية العين، وهو قول أحمد بن حنبل وغيره.

وذهب بعضهم إلىٰ ردها إلىٰ العلم، والظواهر تخالفه، ولا إحالة في ذلك، وهي من خواص الأنبياء وخصالهم، كما أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد العدل من كتابه؛ حدثنا أبو الحسن المقري الفرغاني، حدثتنا أم القاسم بنت أبي بكر، عن أبيها، حدثنا الشريف أبو الحسن عليّ بن محمد الحسني، حدثنا محمد بن محمد بن سعيد، حدثنا محمد بن أحمد بن سليمان، حدثنا محمد بن محمد بن مرزوق، حدثنا همام، قال: حدثنا الحسن، عن قتادة، عن يحيىٰ بن وثاب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لما تجلى الله لموسى عليه السلام كان يبصر النملة على الصفا في الليلة الظلماء مسيرة عشرة فراسخ»[1] ولا يبعد علىٰ هذا أن يختص نبينا بما ذكرناه من هذا الباب بعد الإسراء والحظوة بما رأىٰ من آيات ربه الكبرىٰ.

وقد جاءت الأخبار بأنه صرع ركانة - أشد أهل وقته -، وكان دعاه إلىٰ الإسلام، وصارع أبا ركانة في الجاهلية، وكان شديداً، وعاوده ثلاث مرات، كل ذلك يصرعه رسول الله ﷺ.

وقال أبو هريرة: ما رأيت أحداً أسرع من رسول الله ﷺ في مشيه، كأنما الأرض تطوىٰ له، إنا لنجهد أنفسنا وهو غير مكترث.

وفي صفته: أن ضحكه كان تبسمًا، إذا التفت التفت معًا، وإذا مشىٰ مشىٰ تقلعًا كأنما ينحط من صبب.

الفصل الخامس
فصاحة لسانه وبلاغته ﷺ

وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذي لا يجهل، سلاسة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم، وعلم ألسنة

---

(١) منكر: وهو مُخالف للقرآن، وقول الله عز وجل لموسىٰ عليه السلام: [لن تراني]، وإثبات تَجلي الله عز وجل للجبل واندكاكه عند ذلك، والذي صرع موسىٰ عليه السلام لرؤيته - أي الجبل -، لا لتجلي الله عز وجل له.

العرب، يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثيراً من أصحابها يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله. ومن تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه؛ وليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع ذي المشعار الهمداني، وطهفة النهدي، وقطن بن حارثة العليمي، والأشعث ابن قيس، ووائل بن حجر الكندي، وغيرهم من أقيال حضرموت وملوك اليمن.

وانظر كتابه إلى همدان: «**إن لكم فراعها ووهاطها وعزازها، تأكلون علافها وترعون عفاءها، لنا من دفئهم وصرامهم ما سلموا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصدقة الثلب والناب والفصيل والفارض والداجن والكبش الحوري، وعليهم فيها الصالغ والقارح**».

وقوله لنهد: «**اللهم بارك لهم في محضها ومخضها ومذقها، وابعث راعيها في الدثر، وافجر له الثمد، وبارك له في المال والولد، من أقام الصلاة كان مسلمًا، ومن آتى الزكاة كان محسنًا، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصًا، لكم يا بني نهد ودائع الشرك، ووضائع الملك، لا تلطط في الزكاة، ولا تلحد في الحياة، ولا تتثاقل عن الصلاة**».

وكتب لهم: «**في الوظيفة الفريضة، ولكم الفارض والفريش، وذو العنان الركوب، والفلو الضبيس، لا يمنع سرحكم، ولا يعضد طلحكم، ولا يحبس دركم ما لم تضمروا الرماق، وتأكلوا الرباق، من أقر فله الوفاء بالعهد والذمة، ومن أبى فعليه الربوة**»[1].

ومن كتابه لوائل بن حجر:

«**إلى الأقيال العباهلة، والأرواع المشابيب**».

وفيه «**في التيعة شاة، لا مقورة الألياط، ولا ضناك، وأنطوا الثبجة، وفي السيوب الخمس. ومن زنى مم بكر فاصعقوه مائه، واستوفضوه عامًا، ومن زنى مم ثيب فضرجوه بالأضاميم، ولا توصيم في الدين، ولا غمة في فرائض الله، وكل مسكر حرام، ووائل بن حجر يترفل على الأقيال**»[2].

---

(١) ضعيف: قال ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ١٨٥ ح ٢٨٤): هذا حديث لا يصح وفيه مجهولون وضعفاء.

(٢) ذكره البيهقي في شعب الإيمان (١٤٣٤، ١٤٣٥).

أين هذا من كتابه لأنس في الصدقة المشهور، لما كان كلام هؤلاء على هذا الحد، وبلاغتهم على هذا المنط، وأكثر استعمالهم هذه الألفاظ استعملها معهم، ليبين للناس ما نزل إليهم، وليحدث الناس بما يعلمون.

وكقوله في حديث عطية السعدي: «**فإن اليد العليا هي المنطية، واليد السفلى هي المنطاة**»(١). قال: فكلمنا رسول الله ﷺ بلغتنا. وقوله في حديث العامري حين سأله، فقال له النبي ﷺ: «**سل عنك**». أي سل عم شئت، وهي لغة بني عامر(٢).

وأما كلامه المعتاد، وفصاحته المعلومة، وجوامع كلمه، وحكمه المأثورة فقد ألف الناس فيها الدواوين وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب، وفيها ما لا يوازىٰ فصاحة، ولا يبارىٰ بلاغة؛ كقوله: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم**»(٣).

وقوله: «**الناس كأسنان المشط**»(٤) و «**والمرء مع من أحب**»(٥) و «**لا خير في صحبة من لا يري لك ما ترى له**»(٦). و «**الناس معادن**»(٧). و «**ما هلك امرؤ عرف قدره**»(٨)،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٦٣)، والطبراني في المعجم الأوسط (٣/ ٢٢٦)، وابن حجر في الإصابة (٦/ ٣٣١)، وابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ١٠٧١)، والبيهقي في الكبرىٰ (٤/ ١٩٨)، وأخرجه أحمد (٢/ ٢٢٦) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجال أحمد ثقات. وأصل الحديث في الصحيح بلفظ: «المعطية».

(٢) ضعيف: أخرجه الطبري في تاريخه (١/ ٤٥٧) وفي سنده محمد بن يعلىٰ، وقد بحثت فيما تيسر لي من كتب الجرح والتعديل فلم أجد إلا محمد بن يعلىٰ، يقال له: زنبور، وهو متكلم فيه، متروك الحديث. والله أعلم.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٧٥١) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وحسنه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٧١٢)، وأخرجه ابن ماجه (٢٦٨٣) عن ابن عباس وفي سنده حنش الصنعاني، ضعيف.

(٤) موضوع: أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٤٥)، وفيه سليمان بن عمرو: كذاب، والحديث ذكره الذهبي رحمه الله فيما أنكر عليه في ميزان الاعتدال (٣/ ٣٠٧)، وابن حجر في لسان الميزان (٣/ ٩٨)، والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٢٨٤) واتهمه بالوضع. وفي أسانيده أيضاً: بكار بن شعيب، قال ابن حبان في المجروحين (١/ ١٩٨): يروي عن الثقات ما ليس من حديثهم، لا يجوز الاحتجاج به، وذكر الحديث، وذكره ابن حجر في اللسان (٢/ ٤٢) في ترجمته أيضاً.

(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٦١٦٨، ٦١٦٩) ومسلم (٢٦٤) من حديث ابن مسعود، وأخرجه البخاري (٦١٧٠) من حديث أبي موسىٰ، وذكر مسلم إسناده دون المتن في الموضع السابق.

(٦) لم أقف عليه.

(٧) صحيح: أخرجه البخاري (٣٣٨٣، ٣٤٩٤)، ومسلم (٢٥٢٦، ٢٦٣٨).

(٨) لم أقف عليه.

و«المستشار مؤتمن، وهو بالخيار ما لم يتكلم»(١)، و «رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم»(٢).

وقوله: «أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين»(٣). و «إن أحبكم إلى وأقربكم مني مجالس يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقًا الموطئون أكنافًا الذين يألفون ويؤلفون»(٤).

وقوله: «لعله كان يتكلم بما لا يعنيه، ويبخل بما لا يغنيه»(٥)،

وقوله: «ذو الوجهين لايكون عند الله وجيهًا»(٦). ونهيه عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال، ومنع وهات، وعقوق الأمهات، ووأد البنات(٧).

وقوله: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»(٨).

وقوله: «وخير الأمور أوساطها»(٩).

---

(١) أخرجه أبو داود (٥١٢٨) وابن ماجه (٣٧٤٥، ٣٧٤٦)، والترمذي (٢٣٦٩، ٢٨٢٢، ٢٨٢٣)، وأحمد في المسند (٥/ ٢٧٤)، من حديث أحاديث أبي هريرة وأم سلمة وأبي مسعود ـ متفرقة ـ كلهم بلفظ: «المستشار مؤتمن» ـ بدون الزيادة، وكل الأسانيد لا يخلو من مقال، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٧٠٠)، والصحيحة (١٦٤١)، ومختصر الشمائل (١١٣)، والبوصيري في مصباح الزجاجة (٤/ ١٢٠). ولم أقف على زيادة: «وهو بالخيار ما لم يتكلم».

(٢) أخرجه هناد في الزهد (٢/ ٥٣٥) عن الحسن مرسلاً، وأحمد في الزهد (١/ ٢٠) وهو مرسل أيضًا، وفيه ابن لهيعة، وضعفه الألباني رحمه الله في الجامع (٩٨). وحسن الألباني رحمه الله الحديث ـ بطرقه ـ في صحيح الجامع (٣٤٩٢، ٣٤٩٦، ٣٤٩٧).

(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧، ١٩٤١، ٤٥٥٣)، ومسلم (١٧٧٣)، في قصة هرقل المشهور.

(٤) أخرجه معمر في الجامع (١١/ ١٤٤)، والطبراني في الأوسط (٤/ ٣٥٧)، والبيهقي في الشعب (٦/ ٢٣٢، ٢٧٠) نحوه، وحسنه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٢٣١).

(٥) لم أقف عليه.

(٦) لم أقف عليه بلفظ، وروى ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٢٢٤) عن عكرمة، قال لقمان: ذو الوجهين لا يكون عند الله أمينًا.

(٧) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٤٠٨، ٥٩٧٥)، ومسلم (٥٩٣).

(٨) **حسن**: أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، وأحمد في المسند (٥/ ١٥٣، ١٥٨، ١٧٧، ٢٣٦) عن أبي ذر، وأخرجه الترمذي (٣٤٤٤) عن أنس، وحسنه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٩٧) من حديث أبي ذر ومعاذ وأنس، وانظر مشكاة المصابيح (٥٠٨٣)، ورياض الصالحين (٨٥٥)، وصحيح الكلم الطيب.

(٩) **ضعيف**: أخرجه البيهقي في الشعب (٥/ ١٦٩) مرسلاً، وذكره السخاوي في كشف الخفاء (١/ ٤٦٩)، ونقل تضعيفه مرفوعًا، وقد ورد من أقوال بعض الصحابة والتابعين.

وقوله: «أحبب حبيبك هونًا ما عسى أن يكون بغيضك يومًا ما»[(١)].

وقوله: «الظلم ظلمات يوم القيامة»[(٢)].

وقوله في بعض دعائه: «اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، وتجمع بها أمري، وتلم بها شعثي، وتصلح بها غائبي، وترفع بها شاهدي، وتزكي بها عملي، وتلهمني بها رشدي، وترد بها أُلفتي، وتعصمني بها من كل سوء، اللهم إني أسألك الفوز في القضاء، ونزل الشهداء، وعيش السعداء، والنصر على الأعداء»[(٣)].

إلىٰ ما روته الكافة عن الكافة من مقاماته، ومحاضراته، وخطبه، وأدعيته، ومخاطباته وعهوده، مما لا خلاف أنه نزل من ذلك مرتبة لا يقاس بها غيره، وحاز فيها سبقًا لا يقدر قدره.

وقد جمعت من كلماته التي لم يسبق إليها، ولا قدر أحد أن يفرغ في قالبه عليها؛ كقوله: «حمي الوطيس»[(٤)]. و«مات حتف أنفه»[(٥)]. و«لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»[(٦)]. و«السعيد من وُعظ بغيره»[(٧)]... وفي أخواتها مما يدرك الناظر العجب في

(١) أخرجه الترمذي (١٩٩٧) عن أبي هريرة، واستغربه، وذكر حديث عليٍّ مرفوعًا وضعفه، وصحح الموقوف من قوله. وذكره المقدسي في المختارة (٢/ ٥٥) عن علي مرفوعًا، من طريق ليس فيه الضعيف الذي ضعفه الترمذي بسببه وقال: إسناده لا بأس به، وذكر الهيثمي حديث ابن عمر، وقال: أخرجه الطبراني في الأوسط والكبير، وفيه جَميل بن زيد، وهو ضعيف. وذكر حديث ابن عمرو وقال: أخرجه الطبراني في الأوسط والكبير، وفيه محمد بن كثير النهري، وهو ضعيف، وقال البيهقي في الشعب (٥/ ٢٦٠) في حديث عليٍّ: والمحفوظ الموقوف، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (١/ ٤٤٧) موقوفًا عن علي. وذكره الذهبي في ميزان الاعتدال (٣/ ٣٥٠) في ترجمة سويد بن عمرو، وقال: وإنَّما هذا من قول علي. وذكر ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٧٣٥) حديث أبي هريرة، وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ.. ونقل عن الدارقطني قوله في حديث عليٍّ: وقد روي من حديث عليٍّ عليه السلام من طرق لا تثبت، والصحيح أنه عن علي موقوف.
وخلاصة البحث: أن الحديث الصواب فيه أنه من قول عليٍّ رضي الله عنه، والله أعلم. وقد صححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٧٨) ـ مرفوعًا وموقوفًا ـ بطرقه.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٤٤٧)، ومسلم (٢٥٧٨، ٢٥٧٩).

(٣) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٤١٩) واستغربه، وضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (١١٩٤).

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٧٥).

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ٣٦).

(٦) صحيح: أخرجه البخاري (٦١٣٣)، ومسلم (٢٩٩٨).

(٧) أخرجه مسلم (٢٦٤٥) من قول ابن مسعود موقوفًا، وروىٰ ابن ماجه (٤٦) عن ابن مسعود مرفوعًا في حديث آخر، وضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٢٠٦٣). وضعف كذلك اللفظ من حديث لعقبة بن عامر وأبي الدرداء ـ مرفوعًا ـ في ضعيف الجامع (١٢٣٩).

مضمنها، ويذهب به الفكر في أداني حكمها.

وقد قال له أصحابه: ما رأينا الذي هو أفصح منك. فقال: «**وما يمنعني؟ وإنما أنزل القرآن بلساني، لسان عربي مبين**».

وقال مرة أخرىٰ: «**بيد أني من قريش، ونشأت في بني سعد**»[1] فجمع له بذلك ﷺ - قوة عارضة البادية وجزالتها، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها، إلىٰ التأييد الإلهي الذي مدده الوحي الذي لا يحيط بعلمه بشري.

وقالت أم معبد في وصفها له: حلو المنطق، فصل، لا نزر ولاهذر، كأن منطقه خرزاتٍ نُظِمْنَ. وكان جهير الصوت، حسن النغمة ﷺ[2].

الفصل السادس

شرف نسبه وكرم بلده ومنشئه ﷺ

وأما شرف نسبه وكرم بلده ومنشؤه فمما لا يحتاج إلىٰ إقامة دليل عليه، ولا بيان مشكل ولا خفي منه؛ فإنه نخبة بني هاشم، وسلالة قريش وصميمها، وأشرف العرب، وأعزهم نفراً من قبل أبيه وأمه، ومن أهل مكة من أكرم بلاد الله علىٰ الله وعلىٰ عباده.

حدثنا قاضي القضاة حسين بن محمد الصدفي - رحمه الله -، قال: حدثنا القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف، حدثنا أبو ذر عبد بن أحمد، حدثنا أبو محمد السرخسي، وابن إسحاق، وأبو الهيثم: قالوا: حدثنا محمد بن يوسف، قال: حدثنا محمد ابن إسماعيل، قال: حدثنا قتيبة بن سعيد؛ قال: حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن عمرو، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة - أن رسول الله ﷺ قال: «**بعثت من خير قرون بني آدم قرنًا**

---

(١) ضعيف جداً: رواه الطبراني في المعجم الكبير (٦/ ٣٥) عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا: (.. أنا أعرب العرب، ولدتني قريش، ونشأت في بني سعد بن بكر، فأنىٰ يأتيني اللحن»، قال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢١٨): وفيه مبشر بن عبيد، متروك.

وذكر نحوها العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٧٢) نقلاً عن ثابت السرقسطي في الدلائل، وقال: ثم قال: وبالجملة فهو كما قال ابن تيمية: لا يعرف له إسناد ثابت. وذكره ابن الجوزي في الأحاديث الواهيات فقال: لا يصح ففي إسناده ضعفاء ومجاهيل. وذكره الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير (٤/ ٦).

وذكر العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٢٣٢) تحت حديث: «أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أنِّي من قريش»، وقال: قال في اللآلئ: معناه صحيح لكن لا أصل له.

(٢) سبق الإشارة إلىٰ ضعف حديث أم معبد، وراجع مختصر الشمائل للألباني رحمه الله.

فقرنا، حتي كنت من القرن الذي كنت منه»(١).

وعن العباس، قال: قال النبي ﷺ: «إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم، من خير قرنهم، ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفسًا، وخيرهم بيتًا»(٢).

وعن واثلة بن الأسقع، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفي من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»(٣).

قال الترمذي: وهذا حديث صحيح.

وفي حديث عن ابن عمر، رواه الطبري - أنه ﷺ قال: «إن الله اختار خلقه، فاختار منهم بني آدم، ثم اختار بني آدم فاختار منهم العرب، ثم اختار العرب فاختار منهم قريشًا، ثم اختار قريشًا فاختار منهم بني هاشم، ثم اختار بني هاشم فاختارني منهم، فلم أزل خيارًا من خيار، ألا من أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم»(٤).

وعن ابن عباس: إن قريشًا كانت نورًا بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق آدم بألفي عام، يسبح ذلك النور، وتسبح الملائكة بتسبيحه، فلما خلق الله آدم ألقى ذلك النور في صلبه، فقال رسول الله ﷺ: «فأهبطني الله إلى الأرض في صلب آدم، وجعلني في صلب نوح، وقذف بي في صلب إبراهيم، ثم لم يزل الله تعالى ينقلني من الأصلاب الكريمة والأرحام الطاهرة، حتى أخرجني من بين أبوي لم يلتقيا على سفاح قط».

ويشهد لصحة هذا الخبر شعر العباس في مدح النبي ﷺ المشهور(٥).

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٥٥٧).

(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٦٠٧)، وأحمد (١/ ٢١٠) نحوه، وضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (١٦٠٥) والسلسلة الضعيفة (٣٠٧٣).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٧٦).

(٤) أخرجه الخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق (١/ ٣٠٧)، وذكره ابن عدي في الكامل في الضعفاء (٢/ ٣٩٦)، وفيه حصين بن عمر، ومخارق بن أبي خالد، وهما منكرا الحديث، وروى ابن عدي في الكامل أيضًا (٤/ ٢٩١) عن أبي هريرة مرفوعًا بلفظ: «من أحب العرب فقد أحبني . .» وقال عنه: . . . من رواية أبي معاوية الزعفراني عن محمد بن عمرو، ولأبي معاوية ما ذكرت من الحديث، وعامة ما يرويه لا يتابعه الثقات عليه.

(٥) لم أقف على الحديث، أما الشعر فذكره الشافعي رحمه الله في تأويل مختلف الحديث (١/ ٨٩).

الفصل السابع
حالته في الضروريات ﷺ

وأما ما تدعو ضرورة الحياة إليه مما فصلنا فعلى ثلاثة ضروب: ضرب الفضل في قلته، وضرب الفضل في كثرته، وضرب تختلف الأحوال فيه:

فأما ما التمدح والكمال بقلته اتفاقًا، وعلى كل حال وعادة وشريعة، كالغذاء والنوم، ولم تزل العرب والحكماء تتمادح بقلتهما، وتذم بكثرتهما؛ لأن كثرة الأكل والشراب دليل على النهم والحرص والشره وغلبة الشهوة، مسبب لمضار الدنيا والاخرة، جالب لأدواء الجسد وخثارة النفس وامتلاء الدماغ وقلته دليل على القناعة وملك النفس؛ وقمع الشهوة مسبب للصحة، وصفاء الخاطر، وحدة الذهن، كما أن كثرة النوم دليل على الفسولة، والضعف؛ وعدم الذكاء والفطنة، مسبب للكسل، وعادة العجز، وتضييع العمر في غير نفع، وقساوة القلب وغفلته وموته.

والشاهد على هذا ما يعلم ضرورة، ويوجد مشاهدة، وينقل متواترًا من كلام الأمم المتقدمة، والحكماء السابقين، وأشعار العرب وأخبارها، وصحيح الحديث، وآثار من سلف وخلف، مما لا يحتاج إلى الاستشهاد عليه اختصارًا واقتصارًا على اشتهار العلم به.

وكان النبي ﷺ قد أخذ من هذين الفنين بالأقل.

هذا ما لا يدفع من سيرته، وهو الذي أمر به، وحض عليه، لا سيما بارتباط أحدهما بالآخر.

حدثنا أبو عليّ الصدفي الحافظ بقراءتي عليه، حدثنا أبو الفضل الأصبهاني، حدثنا أبو نعيم الحافظ، حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا أبو بكر بن سهل، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني معاوية بن صالح، أن يحيى بن جابر حدثه عن المقدام بن معد يكرب أن رسول الله ﷺ قال: **«ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»**[1].

ولأن كثرة النوم من كثرة الأكل والشرب.

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٣٣٤٩)، والترمذي (٢٣٨٠)، وأحمد (٤/ ١٣٢)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥٦٧٤)، والصحيحة (٢٢٦٥)، وصحيح ابن ماجه والترمذي.

قال سفيان الثوري: بقلة الطعام يملك سهر الليل.

وقال بعض السلف: لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً، فترقدوا كثيراً، فتخسروا كثيراً.

وقد روي عنه ﷺ أنه كان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف؛ أي كثرة الأيدي. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ لم يمتلئ جوف النبي ﷺ شبعًا قط، وأنه كان في أهله لا يسألهم طعامًا ولا يتشهاه، إن أطعموه أكل، وما أطعموه قبل، وما سقوه شرب.

ولا يعترض على هذا بحديث بريرة، وقوله: «**ألم أر البرمة فيها لحم**»؛إذ لعل سبب سؤاله ظنه ﷺ اعتقادهم أنه لا يحل له؛ فأراد بيان سنته، إذ رآهم لم يقدموه إليه، مع علمه أنهم لا يستأثرون عليه به، فصدق عليهم ظنه، وبين لهم ما جهلوه من أمره بقوله: «**هو لها صدقة ولنا هدية**»(١).

وفي حكمة لقمان: يا بني، إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة.

وقال سحنون: لا يصلح العلم لمن يأكل حتى يشبع.

وفي صحيح الحديث قوله ﷺ: «**أما أنا فلا آكل متكئًا**»(٢).

الاتكاء: هو التمكن للأكل، والتقعد في الجلوس له كالمتربع وشبهه من تمكن الجلسات التي يعتمد فيها الجالس على ما تحته، والجالس على هذه الهيئة يستدعي الأكل ويستكثر منه.

والنبي ﷺ إنما كان جلوسه للأكل جلوس المستوفز مقعيًا، ويقول: «**إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد**»(٣).

وليس معنى الحديث في الاتكاء الميل على شق عند المحققين.

وكذلك نومه ﷺ كان قليلاً، شهدت بذلك الآثار الصحيحة، ومع ذلك فقد قال: «**إن عيني تنامان ولا ينام قلبي**»(٤).

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠٩٧، ٥٢٧٩)، ومسلم (١٠٧٤، ١٠٧٥، ١٥٠٤).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٣٩٨).

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (٥/ ١٠٧) عن يحيى بن أبي كثير مرسلاً، وابن أبي عاصم في الزهد (١/ ٥) عن عطاء بن أبي رباح مرسلاً، وأخرجه هناد في الزهد (٢/ ٤١١) وابن أبي عاصم (١/ ٥) مرسلاً، ورويت عدة أحاديث أخرى في نفس المعنى عن عائشة وغيرها.
والحديث صححه الألباني رحمه الله ـ بطرقه ـ. انظر الصحيحة (٥٤٤) وكذلك (٤٤١، ٦٨٦).

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (١١٤٧، ٢٠١٣، ٢٥٦٩)، ومسلم (٧٣٨).

وكان نومه على جانبه الأيمن استظهاراً على قلة النوم؛ لأنه على الجانب الأيسر أهنأ لهدوء القلب وما يتعلق به من الأعضاء الباطنة حينئذ، لميلها إلى الجانب الأيسر؛ فيستدعي ذلك الاستثقال فيه والطول.

وإذا نام النائم على الأيمن تعلق القلب وقلق، فأسرع الإفاقة ولم يغمره الاستغراق.

الفصل الثامن
زواجه ﷺ

والضرب الثاني : ما يتفق المدح بكثرته، والفخر بوفوره، كالنكاح والجاه. أما النكاح فمتفق فيه شرعًا وعادة؛ فإنه دليل الكمال وصحة الذكورية، ولم يزل التفاخر بكثرته عادة معروفة، والتمادح به سيرة ماضية.

وأما في الشرع فسنة مأثورة؛ وقد قال ابن عباس : أفضل هذه الأمة أكثرها نساء ـ يشير إليه ﷺ .

وقد قال عليه السلام: «تناكحوا تناسلوا، فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة»[(١)].

ونهى عن التبتل مع ما فيه من قمع الشهوة وغض البصر اللذين نبه عليهما ﷺ بقوله: «من كان ذا طول فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج»[(٢)] ، حتى لم يره العلماء مما يقدح في الزهد.

قال سهل بن عبد الله : قد حببن إلى سيد المرسلين، فكيف يزهد فيهن؟ ونحوه لابن عيينة. وقد كان زهاد الصحابة كثيري الزوجات والسراري، كثيري النكاح. وحكي في ذلك عن عليّ، والحسن، وابن عمر، وغيرهم غير شيء. وقد كره غير واحد أن يلقى الله عزبًا. فإن قلت: كيف يكون النكاح وكثرته من الفضائل، وهذا يحيى بن زكريا عليه السلام قد أثنى الله تعالى عليه أنه كان حصوراً؛ فكيف يثني الله بالعجز عما تعده فضيلة؟

وهذا عيسى عليه السلام تبتل عن النساء، ولو كان كما قررته لنكح؟

فاعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى بأنه حصور ليس كما قال بعضهم: إنه كان هيوبًا،

---

(١) ضعيف : أخرجه عبد الرزاق عن سعيد بن أبي هلال مرسلاً بلفظ : « تناكحوا تكثروا فإنّي أباهي بكم الأمم يوم القيامة » ، وضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٢٤٨٤) ، وانظر ـ فيما صح في الباب ـ آداب الزفاف للألباني رحمه الله .

(٢) أخرجه النسائي (٣٢٠٦ ، ٢٢٤٣) ، وأحمد في مسنده (٥٨/١) من حديث عثمان ، وأصله في الصحيحين بلفظ : « من استطاع منكم الباءة » بدل « من كان ذا طول » .

أو لا ذكر له. بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين ونقاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصة وعيب، ولا تليق بالأنبياء.

وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب، أي لا يأتيها، كأنه حصر عنها.

وقيل: مانعًا نفسه من الشهوات.

وقيل: ليست له شهوة في النساء.

فقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة، ثم قمعها؛ إما بمجاهدة، كعيسى عليه السلام، أو بكفاية من الله تعالى، كيحيى عليه السلام- فضيلة زائدة لكونها شاغلة في كثير من الأوقات حاطَّة إلى الدنيا.

ثم هي في حق من أقدر عليها وملكها وقام بالواجب فيها، ولم تشغله عن ربه- درجة عليا، وهي درجة نبينا ﷺ الذي لم تشغله كثرتهن عن عبادة ربه؛ بل زاده ذلك عبادة، لتحصينهن، وقيامه بحقوقهن، واكتسابه لهن، وهدايته إياهن بل صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره؛ فقال: **«حبب إليّ من دنياكم»**... فدل على أن حبه لما ذكر من النساء والطيب اللذين هما من أمور دنيا غيره، واستعماله لذلك ليس لدنياه، بل لآخرته؛ للفوائد التي ذكرناها في التزويج، وللقاء الملائكة في الطيب؛ ولأنه أيضًا مما يحض على الجماع، ويعين عليه، ويحرك أسبابه.

وكان حبه لهاتين الخصلتين لأجل غيره وقمع شهوته؛ وكان حبه الحقيقي المختص بذاته في مشاهدة جبروت مولاه ومناجاته؛ ولذلك ميز بين الحبين، وفصل بين الحالين؛ فقال: **«وجعلت قرة عيني في الصلاة»**[1]؛ فقد ساوى يحيى وعيسى في كفاية فتنتهن، وزاد فضيلة بالقيام بهن.

وكان ﷺ ممن أقدر على القوة في هذا، وأُعطي الكثير منه؛ ولهذا أبيح له من عدد الحرائر ما لم يبح لغيره.

وقد روينا عن أنس أنه- ﷺ- كان يدور على نسائه في الساعة من الليل والنهار، وهن إحدى عشر[2].

---

(١) **صحيح**: أخرجه النسائي (٣٩٣٩، ٣٩٤٠)، وأحمد (٣/١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥) من حديث أنس، وصححه ابن حجر رحمه الله في الفتح (تحت حديث ١١٣٠، ٦٥٠٢)، والألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣١٢٤). وذكر الألباني رحمه الله نحوه من حديث المغيرة في صحيح الجامع (٣٠٩٨).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٦٨).

وعن طاووس: أعطي عليه السلام قوة أربعين رجلاً في الجماع.

ومثله عن صفوان بن سليم.

وقالت سلمى مولاته: طاف النبي ﷺ ليلة على نسائه التسع، وتطهر من كل واحدة قبل أن يأتي الأخرى؛ وقال: «هذا أطيب وأطهر»[(١)].

قال أنس: وكنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين رجلاً. خرجه النسائي[(٢)]، وروي نحوه عن أبي رافع.

وقد قال سليمان ـ عليه السلام ـ: «لأطوفن الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين»، وأنه فعل ذلك[(٣)].

قال ابن عباس: كان في ظهر سليمان ماء مائة رجل أو تسع وتسعين، وكان له ثلاثمائة امرأة وثلاثمائة سرية.

وحكى النقاش وغيره: سبعمائة إمرأة وثلاثمائة سرية.

وقد كان لداود عليه السلام على زهده وأكله من عمل يده تسع وتسعون امرأة، وتمت بزواج «أوريا» مائة[(٤)].

وقد نبه على ذلك في الكتاب العزيز بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ ﴾ [ص: ٢٣].

وفي حديث أنس عنه عليه السلام: «فضلت على الناس بأربع: بالسخاء، والشجاعة، وكثرة الجماع، وقوة البطش»[(٥)].

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/ ١٧٢) من طريق الواقدي، وهو متهم.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٦٨).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٢٤، ٥٢٤٢، ٦٦٣٩، ٦٧٢٠، ٧٤٦٩)، ومسلم (١٦٥٤).

(٤) يشير إلى ما يُذكر من أن داود عليه السلام أعجبته امرأة أحد قواده، فأرسل به في معركة ليقتل ويتزوج بامرأته، وهذا طعن في داود عليه السلام.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير (سورة ص آية ٢٢-٢٥): قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذة من الإسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثًا لا يصح سنده لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه، ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مُجرد تلاوة هذه القصة، وأن يرد علمها إلى الله عز وجل، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضًا.

وانظر أيضًا تفسير السعدي في تفسير هذه الآية فقد أجاد وأفاد في تفسيرها رحمه الله.

(٥) موضوع: ذكره الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٣٩٨٥).

وأما الجاه فمحمود عند العقلاء عادة وبقدر جاهه وعظمه في القلوب.

وقد قال الله تعالى في صفة عيسى عليه السلام: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥]؛ لكن آفاته كثيرة: فهو مضر لبعض الناس لعقبى الآخرة، فلذلك ذمه من ذمه، ومدح ضده.

وورد في الشرع مدح الخمول، وذم العلو في الأرض.

وكان ﷺ قد رزق من الحشمة، والمكانة في القلوب، والعظمة قبل النبوة عند الجاهلية وبعدها، وهم يكذبونه ويؤذون أصحابه، ويقصدون أذاه في نفسه خفية حتى إذا واجههم أعظموا أمره وقضوا حاجته.

وقد كان يبهت ويفرق لرؤيته من لم تره، كما روي عن قيلة أنها لما رأته أرعدت من الفرق، فقال: «يا مسكينة، عليك السكينة»(١).

وفي حديث أبي مسعود أن رجلاً قام بين يديه فأرعد؛ فقال: «هون عليك فإني لست بملك...»(٢) الحديث.

فأما عظم قدره بالنبوة، وشرف منزلته بالرسالة، وإنافة رتبته بالاصطفاء والكرامة في الدنيا فأمر هو مبلغ النهاية، ثم هو في الآخرة سيد ولد آدم.

وعلى معنى هذا الفصل نظمنا هذا القسم بأسره.

الفصل التاسع
ما يتعلق بالمال والمتاع

وأما الضرب الثالث، فهو ما تختلف الحالات في التمدح به والتفاخر بسببه، والتفضيل لأجله، ككثرة المال - فصاحبه على الجملة معظم عند العامة، لاعتقادها توصلها به إلى حاجاتها، وتمكنها أغراضها بسببه، وإلا فليس فضيلة في نفسه، فمتى كان المال بهذه الصورة، وصاحبه منفقًا له في مهمات من اعتراه وأمله؛ وتصريفه في مواضعه مشتريًا به المعالي والثناء الحسن، والمنزلة في القلوب - كان فضيلة في صاحبه عند أهل الدنيا، وإذا

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١/٣١٩، ٢٥/٩) في قصة طويلة. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/٥٦): وحديث قَيْلة أخرجه أبو داود والترمذي في الشمائل والطبراني - وطوله - بسند لا بأس به.

(٢) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٣٣١٢)، وصححه الألباني رحمه الله، كما صححه في صحيح الجامع (٧٠٥٢) والصحيحة (١٨٧٦).

صرفه في وجوه البر، وأنفقه في سبيل الخير، وقصد بذلك الله والدار الآخرة، كان فضيلة عند الكل بكل حال، ومتى كان صاحبه ممكسًا له غير موجهه وجوهه، حريصًا على جمعه، عاد كثره كالعدم، وكان منقصة في صاحبه، ولم يقف به على جدد السلامة؛ بل أوقعه في هوة رذيلة البخل، ومذمة النذالة؛ فإذا التمدح بالمال وفضيلته عند مفضله ليست لنفسه، وإنما هو للتوصل به إلى غيره، وتصريفه في متصرفاته، فجامعه إذا لم يضعه مواضعه ولا وجهه وجوهه غير مليء بالحقيقة ولا غني بالمعنى، ولا ممتدح عند أحد من العقلاء؛ بل هو فقير أبدًا غير واصل إلى غرض من أغراضه؛ إذا ما بيده من المال الموصل لن يسلط عليه، فأشبه خازن مال غيره ولامال له، فكأنه ليس في يده منه شيء.

والمنفق مليء وغني بتحصيله فوائد المال، وإن لم يبق في يده من المال شيء. فانظر سيرة نبينا ﷺ وخلقه في المال تجده قد أوتي خزائن الأرض، ومفاتيح البلاد، وأحلت له الغنائم، ولم تحل لنبي قبله، وفتح عليه في حياته ﷺ بلاد الحجاز واليمن، وجميع جزيرة العرب، وما دانى ذلك من الشام والعراق، وجلبت إليه من أخماسها وجزيتها صدقاتها ما لا يجبى للملوك إلا بعضه، وهادته جماعة من ملوك الأقاليم، فما استأثر بشيء منه، ولا أمسك منه درهمًا؛ بل صرفه مصارفه، وأغنى به غيره، وقوى به المسلمين؛ وقال: «مايسرني أن لي أُحداً ذهبًا يبيت عندي منها دينار، إلا ديناراً أرصده لدَين»[(١)].

وأتته دنانير مرة فقسمها، وبقيت منه ستة؛ فدفعها لبعض نسائه، فلم يأخذه نوم حتى قام وقسمها، وقال: «الآن استرحت»[(٢)].

ومات ودرعه مرهونة في نفقة عياله[(٣)].

واقتصر من نفقته وملبسه ومسكنه على ما تدعو ضرورته إليه.

وزهد في ما سواه، فكان يلبس ما وجده؛ فيلبس في الغالب الشملة والكساء الخشن والبرد الغليظ، ويقسم على من حضره أقبية الديباج المخوصة بالذهب، ويرفع لمن لم يحضره؛ إذ المباهاة في الملابس والتزين بها ليست من خصال الشرف والجلالة، وهي من سمات النساء.

والمحمود منها نقاوة الثوب، والتوسط في جنسه، وكونه لبس مثله غير مسقط المروءة

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٣٨٨، ٦٤٤٤) ومواضع، ومسلم (٩٤، ٩٩١).
(٢) ضعيف: أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢/ ٢٣٧) وفي سنده إسماعيل بن عبد الملك، وهو ضعيف.
(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٤٣٩) وقال الألباني رحمه الله: حسن صحيح.

جنسه مما لا يؤدئ إلى الشهرة في الطرفين.

وقد ذم الشرع ذلك؛ وغاية الفخر فيه في العادة عند الناس إنما يعود إلى الفخر بكثرة الموجود، ووفور الحال.

وكذلك التباهي بجودة المسكن، وسعة المنزل، وتكثير آلاته وخدمه ومركوباته.

ومن ملك الأرض، وجبئ إليه ما فيها، فترك ذلك زهداً وتنزهًا، فهو حائز لفضيلة المال، ومالك للفخر بهذه الخصلة إن كانت فضيلة زائد عليها في الفخر، ومعرق في المدح بإضرابه عنها، وزهده في فانيها، وبذلها في مظانها.

الفصل العاشر
الأخلاق الحميدة

وأما الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة التي اتفق جميع العقلاء على تفضيل صاحبها، وتعظيم المتصف بالخلق الواحد منها، فضلاً عما فوقه، وأثنى الشرع على جميعها، وأمر بها، ووعد السعادة الدائمة للمتخلق بها، ووصف بعضها بأنه من أجزاء النبوة، وهي المسماة بحسن الخلق، وهو الاعتدال في قوئ النفس وأوصافها، والتوسط فيها دون الميل إلى منحرف أطرافها؛ فجميعها قد كانت خلق نبينا محمد ﷺ على الانتهاء في كمالها، والاعتدال إلى غايتها، حتى أثنى الله بذلك عليه، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كان خلقه القرآن، يرضى برضاه، ويسخط بسخطه[١].

وقال ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٢].

قال أنس: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا[٣].

وعن عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ مثله.

وكان في ما ذكره المحققون مجبولاً عليها في أصل خلقته وأول فطرته لم تحصل له

---

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦) من قول عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٨١) بلفظ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق» بسند حسن، وفي رواية للبزار: «مكارم الأخلاق»، ذكرها الحافظ في الفتح، والحديث صححه ابن عبد البر في التمهيد (٢٤/ ٣٣٤)، والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ٢٤٥)، والألباني في صحيح الجامع (٢٣٤٩).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٦٢٠٣)، ومسلم (٦٥٩، ٢١٥٠، ٢٣١٠).

باكتساب ولا رياضة إلا بجود إلهي، وخصوصية ربانية. وهكذا لسائر الأنبياء، ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك، كما عرف من حال عيسى وموسى، ويحيى، وسليمان، وغيرهم عليهم السلام. بل غرزت فيه هذه الأخلاق في الجبلة، وأودعوا العلم والحكمة في الفطرة، قال الله تعالى: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [مريم: ١٢].

قال المفسرون: أعطي يحيى العلم بكتاب الله تعالى في حالة صباه.

وقال معمر: كان يحيى ابن سنتين أو ثلاث، فقال له الصبيان: لم لا تلعب؟ فقال: أللعب خلقت؟!

وقيل في قوله تعالى: ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٣٩]:صدق يحيى بعيسى وهو ابن ثلاث سنين فشهد له أنه كلمة الله وروحه.

وقيل: صدقه وهو في بطن أمه؛ فكانت أم يحيى تقول لمريم: إني أجد ما في بطني يسجد لما في بطنك؛ تحية له.

وقد نص الله تعالى على كلام عيسى لأمه عند ولادتها إياه بقوله لها: ﴿ أَلاَّ تَحْزَنِي ﴾ [مريم ٢٤]- على قراءة من قرأ «من تحتها»، وعليه قول من قال: إن المنادي عيسى.

ونص على كلامه في مهده فقال: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ ﴾ [مريم ٣٠].

وقال: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[الأنبياء: ٧٩].

وقد ذكر من حكم سليمان وهو صبي يلعب في قصة المرجومة وفي قصة الصبي ما اقتدى به داود أبوه. وحكى الطبري أن عمره كان حين أوتي الملك اثني عشر عامًا.

وكذلك قصة موسى مع فرعون وأخذه بلحيته وهو طفل.

وقال المفسرون ـ في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ ﴾ [الأنبياء: ٥١]، أي: هديناه صغيراً؛ قاله مجاهد وغيره. وقال ابن عطاء: اصطفاه قبل إبداء خلقه.

وقال بعضهم: لما ولد إبراهيم عليه السلام بعث الله تعالى إليه ملكًا يأمره عن الله أن يعرفه بقلبه، ويذكره بلسانه؛ فقال: قد فعلت، ولم يقل: أفعل، فذلك رشده.

وقيل: إن إلقاء إبراهيم عليه السلام في النار ومحنته كانت وهو ابن ست عشرة سنة، وإن ابتلاء إسحاق بالذبح كان وهو ابن سبع سنين؛ وإن استدلال إبراهيم بالكوكب والقمر والشمس كان وهو ابن خمسة عشر سنة.

وقيل: أوحي إلى يوسف وهو صبي عندما هم إخوته بإلقائه في الجب، يقول الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [يوسف: ١٥].

إلىٰ غير ذلك مما ذكرنا من أخبارهم.

وقد حكىٰ أهل السير: أن آمنة بنت وهب أخبرت أن نبينا محمداً ﷺ ولد حين ولد باسطًا يديه إلىٰ الأرض، رافعًا رأسه إلىٰ السماء.

وقال في حديثه ـ ﷺ: «**لما نشأت بغضت إليّ الأوثان، وبغض إليّ الشعر، ولم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين، فعصمني الله منهما، ثم لم أعد**»(١).

ثم يتمكن الأمر لهم، وتترادف نفحات الله عليهم، وتشرق أنوار المعارف في قلوبهم، حتىٰ يصلوا الغاية، ويبلغوا ـ باصطفاء الله تعالىٰ لهم بالنبوة في تحصيل هذه الخصال الشريفة ـ النهاية دون ممارسة ولا رياضة؛ قال تعالىٰ: ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا** ﴾ [يوسف: ٢٢].

وقد نجد غيرهم يطبع علىٰ بعض هذه الأخلاق دون جميعها، ويولد عليها، فيسهل عليه اكتساب تمامها عناية من الله تعالىٰ.

كما نشاهد من خلقة بعض الصبيان علىٰ حسن السمت، أو الشهامة، أو صدق اللسان، أو السماحة؛ وكما نجد بعضهم علىٰ ضدها؛ فبالاكتساب يكمل ناقصها، وبالرياضة والمجاهدة يستجلب معدومها ويعتدل منحرفها، وباختلاف هذين الحالين يتفاوت الناس فيها، و«**كل ميسر لما خلق له**»(٢). ولهذا ما قد اختلف السلف فيها: هل هذا الخلق جبلة أو مكتسبة؟ فحكىٰ الطبري عن بعض السلف أن الخلق الحسن جبلة وغريزة في العبد، وحكاه عن عبد الله بن مسعود والحسن، وبه قال هو. والصواب ما أصّلناه.

وقد روىٰ سعد عن النبي ﷺ قال: «**كل الخلال يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب**»(٣).

وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في حديثه: والجرأة والجبن غرائز يضعها الله حيث يشاء.

وهذه الأخلاق المحمودة والخصال الجميلة كثيرة، ولكنا نذكر أصولها، ونشير إلىٰ جميعها، ونحقق وصفه ﷺ بها إن شاء الله تعالىٰ.

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره علىٰ سبيل الحكاية، بدون إسناد ولا عزو.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٧٥٥١)، ومسلم (٢٦٤٩).

(٣) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٢)، وفي سنده الأعمش، مدلس، وقد قال: حُدِّثت عن أبي أمامة، ولم يذكر الواسطة، وذكره الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٤٢٢٦) من حديث سعد، و(٦٤٣١) من حديث ابن عمر.

الفصل الحادي عشر

العقل في بيان أصول هذه الأخلاق وتحقق وصف النبي بها

أما أصل فروعها، وعنصر ينابيعها، ونقطة دائرتها: فالعقل الذي منه ينبعث العلم والمعرفة، ويتفرع عن هذا ثقوب الرأي، وجودة الفطنة والإصابة، وصدق الظن، والنظر للعواقب ومصالح النفس، ومجاهدة الشهوة، وحسن السياسة والتدبير، واقتناء الفضائل، وتجنب الرذائل.

وقد أشرنا إلى مكانه منه عليه السلام، وبلوغه منه ومن العلم الغاية التي لم يبلغها بشر سواه، وإذ جلالة محله من ذلك، ومما تفرع منه ـ متحقق عند من تتبع مجاري أحواله، واطّراد سيره، وطابع جوامع كلامه وحسن شمائله وبدائع سيره، وحكم حديثه، وعمله بما في التوارة والإنجيل والكتب المنزلة وحكم الحكماء وسير الأمم الخالية، وأيامها وضرب الأمثال، وسياسات الأنام، وتقرير الشرائع وتأصيل الآداب النفيسة، والشيم الحميدة، إلى فنون العلوم التي اتخذ أهلها كلامه عليه السلام فيها قدوة، وإشاراته حجة، كالعبارة، والطب، والحساب، والفرائض، والنسب، وغير ذلك مما سنبينه في معجزاته إن شاء الله، دون تعليم ولا مدارسة، ولا مطالعة كتب من تقدم، ولا الجلوس إلى علمائهم؛ بل نبي أمي لم يعرف بشيء من ذلك، حتي شرح الله صدره، وأبان أمره، وعلمه، وأقرأه، يعلم ذلك بالمطالعة والبحث عن حاله ضرورة، وبالبرهان القاطع على نبوته نظراً؛ فلا نطول بسرد الأقاصيص، وآحاد القضايا، إذ مجموعها ما لا يأخذه حصر، ولا يحيط به حفظ جامع، وبحسب عقله كانت معارفه ﷺ إلى سائر ما علمه الله تعالى، وأطلعه عليه من علم ما يكون وما كان، وعجاب قدرته، وعظيم ملكوته، قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ [النساء: ١١٣].

حارت العقول في تقدير فضله عليه، وخرست الألسن دون وصف يحيط بذلك أو ينتهي إليه.

الفصل الثاني عشر
الحلم والعفو

وأما الحلم والاحتمال، والعفو مع القدرة، والصبر على ما يكره، وبين هذه الألقاب فرق:

فإن الحلم: حالة توقر وثبات عند الأسباب المحركات.

والاحتمال: حبس النفس عند الآلام والمؤذيات. ومثلها الصبر، ومعانيها متقاربة.

وأما العفو: فهو ترك المؤاخذة.

وهذا كله مما أدب الله به نبيه ﷺ، فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

روي: أن النبي ﷺ لما نزلت عليه هذه الآية سأل جبريل عليه السلام عن تأويلها، فقال له: حتى أسأل العالم. ثم ذهب فأتاه، فقال: يا محمد إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك(١).

وقال له: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٢٣].

ولا خفاء بما يؤثر من حلمه واحتماله، وأن كل حليم قد عرفت منه زلة، وحفظت عنه هفوة، وهو ﷺ لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبراً، وعلى إسراف الجاهل إلا حلماً.

حدثنا القاضي أبو عبد الله محمد بن عليّ التغلبي وغيره، قالوا: حدثنا محمد بن عتاب، حدثنا أبو بكر بن وافد القاضي وغيره، حدثنا أبو عيسى، حدثنا عبيد الله، قال: حدثنا يحيى ين يحيى، حدثنا مالك، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة ـ رضي الله عنها قالت: ما خير رسول الله ﷺ في أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله

(١) ضعيف: أخرجه الطبري في التفسير (٩/ ١٥٥) وفي سنده حسين الجعفي، ورجل لم يسم، وقد روي من قوله ﷺ، ولا يصح. وإن كان لبعض فقراته شواهد.

تعالىٰ، فينتقم لله بها[١].

وروي أن النبي ﷺ لما كسرت رباعيته وشج وجهه يوم أحد شق ذلك علىٰ أصحابه شديداً، وقالوا: لو دعوت عليهم! فقال: **«إني لم أبعث لعانًا، ولكني بعثت داعيًا ورحمة. اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»**[٢].

وروي عن عمر -رضي الله عنه- أنه قال في بعض كلامه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد دعا نوح علىٰ قومه قال: **﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾** [نوح: ٢٦]. ولو دعوت علينا مثلها هلكنا من عند آخرنا، فلقد وطئ ظهرك، وأدمي وجهك، وكسرت رباعيتك، فأبيت أن تقول إلا خيراً، فقلت: **«اللهم اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون»**[٣].

قال القاضي أبو الفضل وفقه الله: انظر ما في هذا القول من جماع الفضل، ودرجات الإحسان، وحسن الخلق، وكرم النفس، وغاية الصبر والحلم، إذ لم يقتصر ﷺ علىٰ السكوت عنهم حتىٰ عفا عنهم، ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم، فقال: «اغفر» أو «اهد»، ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله: «لقومي»، ثم اعتذر عنهم بجهلهم فقال: **«فإنهم لا يعلمون»**.

ولما قال له الرجل: اعدل، فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله لم يزده في جوابه أن بين ما جهل، ووعظ نفسه، وذكرها بما قال له، فقال: **«ويحك، فمن يعدل إن لم أعدل؟! خبت وخسرت إن لم أعدل»** ونهىٰ من أراد من أصحابه قتله[٤].

ولما تصدىٰ له غورث بن الحارث ليفتك به، ورسول الله ﷺ منتبذ تحت شجرة وحده قائلاً والناس قائلون، في غزاة، فلم ينتبه رسول الله ﷺ إلا وهو قائم والسيف صلتًا في يده، فقال: من يمنعك مني؟ فقال: «الله» فسقط السيف من يده، فأخذه النبي ﷺ وقال: **«من يمنعك مني؟»** قال: كن خير آخذ، فتركه وعفا عنه. فجاء إلىٰ قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس[٥].

ومن عظيم خبره في العفو عفوه عن اليهودية التي سمته في الشاة بعد اعترافها -علىٰ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٧٨٦)، ومسلم (٢٣٢٧).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٩٩).
(٣) ساقه القرطبي في التفسير (٤/ ٢٠٠) بنفس السياق، بدون إسناد ولا عزو.
(٤) ضعيف: أخرجه البخاري (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢).
(٥) ضعيف: أخرجه البخاري (٢٩١٠، ٤١٣٧، ٤١٣٩)، ومسلم (٨٤٣).

الصحيح من الرواية. وأنه لم يؤاخذ لبيد بن الأعصم إذ سحره، وقد أعلم به وأوحي إليه بشرح أمره، ولا عتب عليه فضلاً عن معاقبته.

وكذلك لم يؤاخذ عبد الله بن أبي وأشباهه من المنافقين بعظيم ما نقل عنهم في جهته قولاً وفعلاً، بل قال لمن أشار بقتل بعضهم: **«لايتحدث أن محمداً يقتل أصحابه»**.

وعن أنس-رضي الله عنه-: كنت مع النبي ﷺ، وعليه برد غليظ الحاشية فجبذه الأعرابي بردائه جبذة شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عاتقه، ثم قال: يا محمد، احمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك ومال أبيك. فسكت النبي ﷺ ثم قال: **«المال مال الله، وأنا عبده»**، ثم قال: **«ويُقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي»**. قال: لا. قال: **«لم»**؟ قال: لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة. فضحك النبي ﷺ؛ ثم أمر أن يحمل على بعير شعير، وعلى الآخر تمر[1].

قالت عائشة-رضي الله عنها-: ما رأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلمة ظلمها قط ما لم تكن حرمة من محارم الله وما ضرب بيده شيئًا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما ضرب خادمًا قط ولا امرأة[2].

وجيء إليه برجل، فقيل: هذا أراد أن يقتلك. فقال له النبي ﷺ: **«لن تراع، لن تراع، ولو أردت ذلك لم تسلط علي»**.

وجاءه زيد بن سعنة قبل إسلامه يتقاضاه دينًا عليه، فجبذ ثوبه عن منكبه، وأخذ بمجامع ثيابه، وأغلظ له، ثم قال: إنكم يا بني عبد المطلب مطل، فانتهره عمر، وشدد له في القول، والنبي ﷺ يبتسم. فقال رسول الله ﷺ: **«أنا وهو كنا إلى غير هذا أحوج منك يا عمر، تأمرني بحسن القضاء،و تأمره بحسن التقاضي»**.

ثم قال: **«لقد بقي من أجله ثلاث»**، وأمر عمر يقضيه ما له ويزيده عشرين صاعًا لما روعه؛ فكان سبب إسلامه[3].

وذلك أنه كان يقول: ما بقي من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في محمد إلا اثنتين لم أخبرهما: يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل إلا حلمًا، فاختبره بهذا، فوجده كما وصف.

---

(١) ضعيف: روى نحوه النسائي (٤٧٧٦)، وأبو داود (٤٧٧٥)، وضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف أبي داود (١٠٢٢)، وقال: لكن قصة الأعرابي وجبذه وأمره ﷺ له بعطاء في الصحيحين.
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٢٨).
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٧)، وصححه.

والحديث عن حلمه عليه السلام وصبره وعفوه عند القدرة أكثر من أن نأتي عليه، وحسبك ما ذكرناه مما في «الصحيح» والمصنفات الثابتة إلى ما بلغ متواتراً مبلغ اليقين: من صبره على مقاساة قريش، وأذى الجاهلية، ومصابرته الشدائد الصعبة معهم إلى أن أظفره الله عليهم وحكمه فيهم، وهم لا يشكون في استئصال شأفتهم، وإبادة خضرائهم: فما زاد على أن عفا وصفح، وقال: «ما تقولون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيراً؛ أخ كريم، وابن أخ كريم، فقال: «أقول كما قال أخي يوسف: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[يوسف: ٩٢]، اذهبوا فأنتم الطلقاء»(١).

وقال أنس: هبط ثمانون رجلاً من التنعيم صلاة الصبح ليقتلوا رسول الله ﷺ، فأخذوا، فأعتقهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ [الفتح: ٢٤].

وقال لأبي سفيان - وقد سيق إليه بعد أن جلب إليه الأحزاب، وقتل عمه وأصحابه، ومثل بهم، فعفا عنه، ولاطفه في القول -: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله»: فقال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأوصلك وأكرمك»(٢).

وكان رسول الله ﷺ أبعد الناس غضباً، وأسرعهم رضا ﷺ.

الفصل الثالث عشر
الجود والكرم

وأما الجود والكرم والسخاء والسماحة - فمعانيها متقاربة. وقد فرق بعضهم بينها بفروق؛ فجعلوا الكرم الإنفاق بطيب النفس في ما يعظم خطره ونفعه، وسموه أيضاً حرية، وهو ضد النذالة.

والسماحة: التجافي عما يستحقه المرء عند غيره بطيب نفس، وهو ضد الشكاسة.

والسخاء: سهولة الإنفاق، وتجنب اكتساب ما لا يحمد، وهو الجود، وهو ضد

---

(١٠٤) أخرجه الطبري في التاريخ (٢/ ١٦١) من طريق ابن إسحاق عن قتادة السدوسي مرسلاً، وذكره ابن حبان في الثقات (٢/ ٥٦) في حديث طويل، وقصة الفتح وعفوه ﷺ عمن دخل داره، أو دخل المسجد، أو دخل دار أبو سفيان، فهو آمن.

(١٠٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ١٢)، والطبري في التاريخ (٢/ ١٥٨) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٦٧): رجاله رجال الصحيح.

التقتير.

وكان ﷺ لا يوازىٰ في هذه الأخلاق الكريمة ولا يبارىٰ، بهذا وصفه كل من عرفه.

حدثنا القاضي الشهيد أبو عليّ الصدفي ـ رحمه الله ـ، حدثنا القاضي أبو الوليد الباجي، حدثنا أبو ذر الهروي، حدثنا أبو الهيثم الكُشْمَيْهَنِّي، وأبو محمد السَّرَخْسِيُّ، وأبو إسحاق البَلْخِيُّ؛ قالوا: حدثنا أبو عبد الله الفِرَبْرِيّ؛ قال: حدثنا البخاري، قال: حدثنا محمد بن كثير، حدثنا سفيان، عن ابن المنكدر، سمعت جابر بن عبد الله يقول: ما سئل النبي ﷺ عن شيء فقال لا[1].

وعن أنس وسهل بن سعد مثله.

وقال ابن عباس: كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وأجود ما كان في شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل عليه السلام أجود بالخير من الريح المرسلة[2].

وعن أنس: أن رجلاً سأله فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلىٰ بلده وقال: أسلموا؛ فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشىٰ فاقة[3]. وأعطىٰ غير واحد مائة من الإبل. وأعطىٰ صفوان مائة ثم مائة[4]. وهذه كانت حاله ﷺ قبل أن يبعث. وقد قال له ورقة بن نوفل: إنك تحمل الكل وتكسب المعدوم[5]. ورد علىٰ هوازن سباياها، وكانوا ستة آلاف. وأعطىٰ العباس من الذهب ما لم يطق حمله.

وحمل إليه تسعون ألف درهم، فوضعت علىٰ حصير، ثم قام إليها يقسمها، فما رد سائلاً حتي فرغ منها.

وجاءه رجل، فسأله، فقال: «ما عندي شيء، ولكن ابتع عليَّ، فإذا جاءنا شيء قضيناه». فقال له عمر: ما كلفك الله ما لاتقدر عليه. فكره النبي ﷺ ذلك. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله؛ أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً. فتبسم النبي ﷺ، وعرف البشر في وجهه وقال: «بهذا أمرتُ»، ذكره الترمذي[6].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠٣٤)، ومسلم (٢٣١١).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦، ١٩٠٢، ٣٢٢٠، ٣٥٥٤، ٤٩٩٧)، ومسلم (٢٣٠٨).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣١٢).
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣١٣).
(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٤، ٤٩٥٤)، ومسلم (١٦٠)، والكلام صادر من خديجة رضي الله عنها، لا من ورقة.
(٦) ضعيف: قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٤٢): أخرجه البزار وفيه إسحاق بن إبراهيم الحنيني، وقد ضعفه الجمهور، ووثقه ابن حبان، وقال: يُخطئ.

وذكر عن معوذ بن عفراء قال: أتيت النبي ﷺ بقناع من رطب - يريد طبقًا - وأجر زغب - يريد قثاء -، فأعطاني ملء كفه حليًا وذهبًا(١).

وقال أنس: كان النبي ﷺ لا يدخر شيئًا لغد(٢).

والخبر بجوده ﷺ وكرمه كثير.

وعن أبي هريرة: أتى رجل النبي ﷺ يسأله، فاستسلف له رسول الله ﷺ نصف وسق، فجاء الرجل يتقاضاه، فأعطاه وسقًا وقال: **«نصفه قضاء ونصفه نائل»**.

الفصل الرابع عشر
الشجاعة والنجدة

وأما الشجاعة والنجدة فالشجاعة فضيلة قوة الغضب وانقيادها للعقل. والنجدة: ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت حيث يحمد فعلها دون خوف.

وكان ﷺ منهما بالمكان الذي لا يجهل؛ قد حضر المواقف الصعبة، وفر الكماة والإبطال عنه غير مرة، وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح. وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرة، وحفظت عنه جولة، سواه.

حدثنا أبو علي الجياني فيما كتب لي: حدثنا القاضي سراج، حدثنا أبو محمد الأصيلي، قال: حدثنا أبو زيد الفقيه، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا ابن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق: سمع البراء وسأله رجل: أفررتم يوم حنين عن رسول الله ﷺ؟ قال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر. ثم قال: لقد رأيته على بغلته البيضاء وأبو سفيان آخذ بلجامها والنبي ﷺ يقول: **«أنا النبي لا كذب»**، وزاد غيره: **«أنا ابن عبد المطلب»**(٣).

قيل: فما رئي يومئذ أحد كان أشد منه.

وقال غيره: نزل النبي ﷺ عن بغلته.

وذكر مسلم عن العباس قال: فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين،

---

(١) ضعيف: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٤/ ٢٧٣، ٢٧٤) بأسانيد ضعيفة.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٦٢) موصولاً واستغربه، وذكر أنه روي مرسلاً، وأخرجه ابن حبان (١٤/ ٢٧٣، ٢٧٤)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٤٨٤٦)، ومختصر الشمائل (٣٠٤)، والتعليق الرغيب (٢/ ٤٢).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦).

فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته نحو الكفار، وأنا آخذ بلجامها أكفها إرادة ألا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركابه، ثم نادىٰ: «يا للمسلمين...» الحديث.

وقيل: وكان رسول الله ﷺ إذا غضب - ولا يغضب إلا لله - لم يقم لغضبه شيء.

وقال ابن عمر: ما رأيت أشجع، ولا أنجد، ولا أجود، ولا أرضىٰ، ولا أفضل من رسول الله ﷺ.

وقال عليٌّ - رضي الله عنه -: إنا كنا إذا حمي البأس - ويروىٰ: اشتد البأس - واحمرت الحدق اتقينا برسول الله؛ فما يكون أحد أقرب إلىٰ العدو منه، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ، وهو أقربنا إلىٰ العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسًا[1].

وقيل: كان الشجاع هو الذي يقرب منه ﷺ إذا دنا العدو، لقربه منه.

وعن أنس: كان النبي ﷺ احسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس، لقد فزع أهل المدينة ليلة، فانطلق ناس قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعًا، قد سبقهم إلىٰ الصوت، واستبرأ الخبر علىٰ فرس لأبي طلحة عري، والسيف في عنقه، وهو يقول: «لن تراعوا»[2].

وقال عمران بن حصين: ما لقي رسول الله ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب. ولما رآه أبي بن خلف يوم أحد وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوت إن نجا.

وقد كان يقول للنبي ﷺ - حين افتدىٰ يوم بدر -: عندي فرس أعلفها كل يوم فرقًا من ذرة أقتلك عليها. فقال له النبي ﷺ: **«أنا أقتلك إن شاء الله»**.

فلما رآه يوم أحد شد أبي علىٰ فرسه علىٰ رسول الله ﷺ، فاعترضه رجال من المسلمين، فقال النبي ﷺ هكذا، أي: خلوا طريقه؛ وتناول الحربة من الحارث بن الصمة، فانتفض بها انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله النبي ﷺ، فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مرارًا[3].

وقيل: بل كسر ضلعًا من أضلاعه - فرجع إلىٰ قريش يقول: قتلني محمد، وهم يقولون: لا بأس بك. فقال: لو كان ما بي بجميع الناس لقتلهم، أليس قد قال: **«أنا أقتلك»**؟ والله لو بصق عليّ لقتلني، فمات بسرف في قفولهم إلىٰ مكة.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٥٦، ٢/ ٢٣).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠٣٣).

(٣) ضعيف: أخرجه ابن إسحاق في السيرة (٤/ ٣٣) بلاغًا، وأخرجه عنه الطبراني (٢/ ٦٧).

الفصل الخامس
الحياء والإغضاء

وأما الحياء والإغضاء: فالحياء: رقة تعتري وجه الإنسان عند فعل ما يتوقع كراهته، أو ما يكون تركه خيراً من فعله.

والإغضاء: التغافل عما يكره الإنسان بطبيعته.

وكان النبي ﷺ أشد الناس حياءً، وأكثرهم من العورات إغضاء؛ قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

حدثنا أبو محمد بن عتاب بقراءتي عليه؛ قال: حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسن القابسي، حدثنا أبو زيد المروزي، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا عبدان، حدثنا عبد الله مولى أنس، حدثنا شعبة، عن قتادة، سمعت عبد الله مولى أنس، يحدث عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ: كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئًا عرفناه في وجهه[1].

وكان ﷺ لطيف البشرة، رقيق الظاهر، لا يشافه أحدًا بما يكرهه حياءً وكرمَ نفس.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كان النبي ﷺ إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل: ما بال فلان يقول كذا؟ ولكن يقول: «**ما بال أقوام يصنعون، أو يقولون كذا؟!**» ينهى عنه ولا يسمي فاعله[2].

وروى أنس أنه دخل عليه رجل به أثر صفرة، فلم يقل له شيئًا ـ وكان لا يواجه أحداً بما يكره ـ فلما خرج قال: «**لو قلتم له يغسل هذا**» ـ ويروى: «**ينزعها**»[3].

قالت عائشة في «الصحيح»: لم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا[4]، ولا سخابًا بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٥٦٢، ٦١٠٢، ٦١١٩)، ومسلم (٢٣٢٠).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٧٨٨)، ويصدقه الكثير في الصحيحين.

(٣) حسن: أخرجه أحمد (٣/ ١٦٠)، وإسناده لا بأس به، وإن صح أن النبي ﷺ كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر مواجهةً، وكل حال وإنسان بحسبه وما يناسبه.

(٤) إلى هذا الموضع: أخرجه البخاري (٣٥٥٩، ٣٧٦٠، ٦٠٢٩، ٦٠٣٥)، ومسلم (٢٣٢١) عن عبد الله بن عمرو، وأخرجه تامًا: أحمد في مسنده (٦/ ٢٣٦، ٢٤٦) عن عائشة.

وقد حكي مثل هذا الكلام عن التوراة، من رواية عبد الله بن سلام وعبد الله بن عمرو بن العاص.

وروي عنه أنه كان من حيائه لا يثبت بصره في وجه أحد، وأنه كان يكني عما اضطره الكلام إليه مما يكره.

وعن عائشة: ما رأيت فرج رسول الله ﷺ قط(١).

الفصل السادس عشر
حسن العشرة والأدب وبسط الخلق

وأما حسن عشرته وأدبه وبسط خلقه ﷺ مع أصناف الخلق فبحيث انتشرت به الأخبار الصحيحة.

قال عليّ - رضي الله عنه - في وصفه عليه الصلاة والسلام: كان أوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة.

حدثنا أبو الحسن عليّ بن مشرق الأنماطي فيما أجازنيه، وقرأته على غيره، قال: حدثنا أبو إسحاق الحبال، حدثنا أبو محمد بن النحاس، حدثنا ابن الأعرابي، حدثنا أبو داوود، حدثنا هشام أبو مروان ومحمد بن المثني، قالا: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعي، سمعت يحيىٰ بن أبي كثير يقول: حدثني محمد بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة، عن قيس بن سعد، قال: زارنا رسول الله ﷺ - وذكر قصة في آخرها: فلما أراد الانصراف قرب له سعد حماراً، وطأ عليه بقطيفة، فركب رسول الله ﷺ، ثم قال سعد: يا قيس، اصحب رسول الله ﷺ. قال قيس: فقال رسول الله ﷺ: «اركب»، فأبيت، فقال: «إما أن تركب وإما أن تنصرف». فانصرفت.

وفي رواية أخري: «اركب أمامي، فصاحب الدابة أولى بمقدمها»](٢).

وكان رسول الله ﷺ يؤلفهم، ولا ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم، ويحذر الناس، ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره ولا خلقه، يتفقد أصحابه، ويعطي كل جلسائه نصيبه لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه.

من جالسه أو قاربه لحاجة صابره حتىٰ يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يرده

---

(١) تقدم برقم (٣٢).

(٢) صححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣٧٥٠).

إلا بها، أو بميسور من القول، قد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبًا، وصاروا عنده في الحق سواء.

بهذا وصفه ابن أبي هالة، قال: وكان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب، ولا فحاش ولا عياب، ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤيس منه.

وقال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وقال تعالى: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

وكان يجيب من دعاه، ويقبل الهدية ولو كانت كراعًا، ويكافئ عليها، قال أنس: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أف، قط، وما قال لشيء صنعته: لم صنعته؟ ولا لشيء تركته: لم تركته؟[1]

وعن عائشة - رضي الله عنها -: ما كان أحد أحسن خلقًا من رسول الله ﷺ، ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال: «لبيك».

وقال جرير بن عبد الله: ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم[2].

وكان يمازح أصحابه، ويخالطهم ويحادثهم، ويداعب صبيانهم، ويجلسهم في حجره، ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين، ويعود المرضى في أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذر.

قال أنس: ما التقم أحد أذن رسول الله ﷺ فينحي رأسه حتى يكون الرجل هو[3] الذي ينحي رأسه، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر، ولم ير مقدمًا ركبتيه بين يدي جليس له[4].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٠٩).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠٣٦، ٦٠٩٠)، ومسلم (٢٤٧٥).

(٣) ضعيف: أخرجه أبو داود (٤٧٩٤)، والبيهقي في الشعب (٨١٣١) وفيه المبارك بن فضالة، وهو صدوق إلا أنه يدلس وقد عنعن.

(٤) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٤٩٠)، وابن المبارك في الزهد (٣٩٢)، وذكره ابن عدي في الكامل في الضعفاء (٥/ ٩٠، ٣١٨، ٣٧٣)، والذهبي في الميزان (٦٢٩٠)، وضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الترمذي (٤٤٤).

وكان يبدأ من لقيه بالسلام، ويبدأ أصحابه بالمصافحة، ولم ير قط مادًا رجليه بين أصحابه حتى يضيق بهما على أحد. يكرم من يدخل عليه، وربما بسط له ثوبه، ويؤثره بالوسادة التي تحته، ويعزم عليه في الجلوس عليها إن أبى، ويكني أصحابه، ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم، ولا يقطع على أحد حديثه حتي يتجوز فيقطعه بنهي أو قيام. ويروى: بانتهاء أو قيام.

ويروى: أنه كان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته، وسأله عن حاجته، فإذا فرغ عاد إلى صلاته.

وكان أكثر الناس تبسمًا، وأطيبهم نفسًا، ما لم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب.

قال عبد الله بن الحارث: مارأيت أحدًا أكثر تبسمًا من رسول الله ﷺ.

وعن أنس: كان خدم المدينة يأتون رسول الله ﷺ إذا صلي الغداة بآنيتهم فيها الماء، فما يؤتى بآنية إلا غمس يده فيها، وربما كان ذلك في الغداة الباردة ـ يريدون به التبرك[1].

الفصل السابع عشر
الشفقة والرحمة

وأما الشفقة والرأفة والرحمة لجميع الخلق فقد قال الله تعالى فيه: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقال تعالي: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الانبياء: ١٠٧].

قال بعضهم: من فضله عليه السلام أن الله تعالي أعطاه اسمين من أسمائه، فقال: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وحكى نحوه الإمام أبو بكر بن فُورَكَ. حدثنا الفقية أبو محمد عبد الله بن محمد الخُشْني بقراءتي عليه، حدثنا إمام الحرمين أبو علي الطبري، حدثنا عبد الغافر الفارسي، حدثنا أبو أحمد الجلودي، حدثنا إبراهيم بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا أبو الطاهر، أنبأنا يونس، عن ابن شهاب، قال: غزا رسول الله ﷺ غزوة، وذكر حنينا، قال: فأعطى رسول الله ﷺ صفوان بن أمية مائة من النعم، ثم مائة، ثم مائة.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٢٤).

قال ابن شهاب، حدثنا سعيد بن المسيب أن صفوان قال: والله لقد أعطاني ما أعطاني وإنه لأبغض الخلق إليّ، فما زال يعطيني حتي إنه لأحب الخلق إليّ.

وروي أن أعرابيًا جاءه يطلب منه شيئًا، فأعطاه، ثم قال: «أحسنت إليك»؟ قال الأعرابي: لا، ولا أجملت.

فغضب المسلمون وقاموا إليه، فأشار إليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله، وأرسل إليه، وزاده شيئًا، ثم قال: «أحسنت إليك»؟ قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

فقال له النبي ﷺ: **«إنك قلت ما قلت وفي أنفس أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك»**.

قال: نعم. فلما كان الغد أو العشي جاء، فقال ﷺ: **«إن هذا الأعرابي قال ما قال، فزدناه فزعم أنه رضي، أكذلك»**؟ قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

فقال ﷺ: **«مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه، فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً، فناداهم صاحبها: خلوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه لها بين يديها، فأخذ لها من قمام الأرض، فردها حتي جاءت واستناخت، وشد عليها رحلها، واستوى عليها، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار»**[1].

وروي عنه أنه ﷺ قال: **«لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئًا، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»**[2].

ومن شفقته على أمته عليه السلام تخفيفه وتسهيله عليهم، وكراهته أشياء مخافة أن تفرض عليهم، كقوله: **«لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء»**[3].

وخبر صلاة الليل، ونهيهم عن الوصال، وكراهته دخول مكة لئلا يعنت أمته ورغبته لربه أن يجعل سبه ولعنه لهم رحمة بهم، وأنه كان يسمع بكاء الصبي فيتجوز في صلاته[4].

---

(١) ضعيف جداً: ذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ١٦) وقال: «رواه البزار وفيه إبراهيم بن الحكم بن أبان وهو متروك».

(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٨٩٦)، وأبو داود (٤٨٦٠)، وأحمد (١/ ٣٩٥)، وضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف أبي داود (١٠٣٥).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٨٨٧، ٧٢٤٠)، ومسلم (٢٥٢).

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٧٠٧، ٧٠٨، ٧٠٩، ٧١٠، ٨٦٨)، ومسلم (٤٧٠).

ومن شفقته ﷺ أن دعا ربه وعاهده، فقال: «أيما رجل سببته أو لعنته فاجعل ذلك له زكاة ورحمة، وصلاة وطهوراً، وقربة بها إليك يوم القيامة»[١].

ولما كذبه قومه أتاه جبريل عليه السلام، فقال له: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداه ملك الجبال وسلم عليه، وقال: مرني بما شئت وإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين.

قال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا»[٢].

وروىٰ ابن المنكدر أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: إن الله تعالىٰ أمر السماء، والأرض والجبال أن تطيعك. فقال: «أؤخر عن أمتي لعل الله أن يتوب عليهم».

قالت عائشة: ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما.

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا.

وعن عائشة: أنها ركبت بعيراً وفيه صعوبة، فجعلت تردده، فقال رسول الله ﷺ: «عليك بالرفق»[٣].

الفصل الثامن عشر
الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم

وأما خلقه ﷺ في الوفاء، وحسن العهد، وصلة الرحم ـ فحدثنا القاضي أبو عامر محمد بن إسماعيل بقراءتي عليه، قال: حدثنا أبو بكر محمد بن محمد، حدثنا أبو إسحاق الحبال، حدثنا أبو محمد بن النحاس، حدثنا ابن الأعرابي، قال: حدثنا أبو داود، قال: حدثنا محمد بن يحيى، قال حدثنا محمد بن سنان، قال: حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن بديل، عن عبد الكريم بن عبد الله بن شقيق، عن ابنه، عن عبد الله بن أبي الحمساء، قال: بايعت النبي ﷺ ببيع قبل أن يبعث، وبقيت له بقية، فوعدت أن آتيه بها في مكانه، فنسيت، ثم ذكرت بعد ثلاث، فجئت فإذا هو في مكانه، فقال: «يا فتى، لقد

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٦١)، ومسلم (٢٦٠٠).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠٣٠، ٦٤٠١)، ومسلم (٢٥٩٤).

شققت عليّ، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك»[1].

وعن أنس: كان النبي ﷺ إذا أتي بهدية قال: «اذهبوا بها إلى بيت فلانة، فإنها كانت صديقة لخديجة، إنها كانت تحب خديجة»[2].

وعن عائشة قالت: ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة لما كنت أسمعه يذكرها، وإن كان ليذبح الشاة فيهديها إلى خلائلها[3].

واستأذنت عليه أختها فارتاح إليها[4].

ودخلت عليه امرأة، فهش لها، وأحسن السؤال عنها، فلما خرجت قال: «إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان».

ووصفه بعضهم فقال: كان يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم.

وقال ﷺ: «إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء غير أن لهم رحمًا سأبلها ببلالها».

وقد صلى عليه السلام بأمامة ابنة ابنته يحملها على عاتقه، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها.

وعن أبي قتادة: وفد وفد للنجاشي، فقام النبي ﷺ يخدمهم، فقال له أصحابه: نكفيك. فقال: «إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وإني أحب أن أكافئهم»[5].

ولما جيء بأخته من الرضاعة الشيماء في سبايا هوازن، وتعرفت له بسط له رداءه، وقال لها: «إن أحببت أقمت عندي مكرمة محبة، أو متعتك ورجعت إلى قومك» فاختارت قومها فمتعها.

وقال أبو الطفيل: رأيت النبي ﷺ وأنا غلام إذ أقبلت امرأة حتى دنت منه، فبسط لها رداءه، فجلست عليه، فقلت: من هذه؟ قالوا: أمه التي أرضعته.

(١) ضعيف جدًا: أخرجه أبو داود (٤٩٩٦)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٩٨)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٧٢٦)، وقال: «هذا حديث لا يصح»، في إسناده: عبد الكريم، قال أحمد: ليس بشيء، وكذا قال يحيى، وقال النسائي والدارقطني: متروك.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٣٢)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٩٣)، وفي إسناده مبارك ابن فضالة، وأصله في الصحيحين من حديث عائشة: «وإن كان ليذبح الشاة ثم يهديها إلى خلائلها». وهو الآتي بعده.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣٨١٦)، ومسلم (٢٤٣٥).

(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٣٧).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (٣٦٧)، والصيداوي في معجم الشيوخ (٤٣).

وعن عمر بن السائب - أن رسول الله ﷺ كان جالسًا يومًا، فأقبل أبوه من الرضاعة، فوضع له بعض ثوبه، فقعد عليه، ثم أقبلت أمه فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه، ثم أقبل أخوه من الرضاعة، فقام رسول الله ﷺ فأجلسه بين يديه.

وكان يبعث إلى ثويبة مولاة أبي لهب مرضعته بصلةٍ وكسوة، فلما ماتت سأل: «**من بقي من قرابتها؟**». فقيل: لا أحد.

وفي حديث خديجة - رضي الله عنها - أنها قالت له ﷺ: أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق[(١)].

الفصل التاسع عشر
تواضعه ﷺ

وأما تواضعه ﷺ على علو منصبه ورفعة رتبه - فكان أشد الناس تواضعًا، وأقلهم كبرًا.

وحسبك أنه خير بين أن يكون نبيًا ملكًا أو نبيًا عبدًا، فاختار أن يكون نبيًا عبدًا، فقال له إسرافيل عند ذلك: فإن الله قد أعطاك بما تواضعت له أنك سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من تنشق الأرض عنه، وأول شافع[(٢)].

حدثنا أبو الوليد بن العواد الفقيه - رحمه الله - بقراءتي عليه في منزله بقرطبة سنة سبع وخمسمائة، حدثنا أبو علي الحافظ، حدثنا أبو عمر، حدثنا ابن عبد المؤمن، حدثنا ابن داسة، حدثنا أبو داود، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عبد الله بن نمير، عن مسعر، عن أبي العنبس، عن أبي العدبس، عن أبي مرزوق، عن أبي غالب، عن أبي أمامة، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ متوكئًا على عصًا، فقمنا له. فقال: «**لا تقوموا كما تقوم الأعاجم، يعظم بعضها بعضًا**»[(٣)].

وقال: «**إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد**».

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤، ٢٢٩٨، ٣٩٠٦، ٤٩٥٤)، ومسلم (١٦٠).

(٢) صحيح: مسلم (٣٠٢).

(٣) ضعيف: أخرجه أبو داود (٥٢٣٠)، وأحمد في مسنده (٥/ ٢٥٣)، وضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف أبي داود (١١٢٠)، والضعيفة (٣٤٦)، لكن كراهية القيام للقادم ثابت في أحاديث أخرى، منها: حديث أنس أنه قال: ما كان شخص أحب إليهم رؤية من رسول الله، وكانوا لا يقومون له لِما يعلمون من كراهيته لذلك.

وكان يركب الحمار، ويردف خلفه، ويعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجيب دعوة العبد، ويجلس بين أصحابه مختلطًا بهم حيثما انتهي به المجلس جلس.

وفي حديث عمر عنه: **«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله»**[1].

وعن أنس أن امرأة كان في عقلها شيء جاءته، فقالت: إن لي إليك حاجة. قال: **«اجلسي يا أم فلان في أي طرق المدينة شئت أجلس إليك حتي أقضي حاجتك»**.

قال: فجلست، فجلس النبي ﷺ إليها حتى فرغت من حاجتها.

قال أنس: كان رسول الله ﷺ يركب الحمار، ويجيب دعوة العبد، وكان يوم بني قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف عليه إكاف[2]. قال: وكان يدعى إلى خبز الشعير، والإهالة السنخة فيجيب[3].

وقال: وحج ﷺ على رحل رث، وعليه قطيفة ما تساوي أربعة دراهم، فقال: **«اللهم اجعله حجًا لا رياء فيه ولا سمعة»**[4]. هذا، وقد فتحت عليه الأرض، وأهدى في حجه ذلك مائة بدنة. ولما فتحت عليه مكة ودخلها بجيوش المسلمين طأطأ على رحله رأسه حتى كاد يمس قادمته تواضعًا لله تعالي.

ومن تواضعه ﷺ قوله: **«لا تفضلوني على يونس بن متى، ولا تفضلوا بين الأنبياء، ولا تخيروني على موسى، ونحن أحق بالشك من إبراهيم ولو لبثت ما لبث يوسف في السجن لأجبت الداعي»**[5].

وقال للذي قال له: يا خير البرية: **«ذاك إبراهيم»**[6].

وسيأتي الكلام على هذه الأحاديث بعد هذا إن شاء الله.

وعن عائشة، والحسن، وأبي سعيد، وغيرهم - في صفته، وبعضهم يزيد على بعض:

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٤٥، ٦٨٣٠).

(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي (١٠١٧)، وابن ماجه (٤١٧٨)، وقال الترمذي: «هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث مسلم عن أنس، ومسلم الأعور يُضعف».

(٣) صحيح: أخرجه أبو يعلى (٤٠١٥)، وفيه رواية الأعمش عن أنس ولم يسمع منه، لكن للحديث طريق أخرى عزاها الألباني رحمه الله إلى الشمائل للترمذي وصححه في صحيح الجامع (٤٩٣٩).

(٤) صحيح: صححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٣٠٢).

(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٢٤١١، ٣٤٠٨، ٦٥١٧)، ومسلم (٢٣٧٣).

(٦) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٦٩).

كان في بيته في مهنة أهله يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويرفع ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم نفسه[١]، ويقم البيت، ويعقل البعير، ويعلف ناضحه، ويأكل مع الخادم، ويعجن معها، ويحمل بضاعته من السوق.

وعن أنس: إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت حتي يقضي حاجتها[٢]. ودخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة، فقال له: «**هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد**»[٣].

وعن أبي هريرة: دخلت السوق مع النبي ﷺ، فاشترى سراويل وقال للوزان: «**زن وأرجح**» - وذكر القصة - قال: فوثب إلى يد النبي ﷺ يقبلها، فجذب يده، وقال: «**هذا تفعله الأعاجم بملوكها، ولست بملك، إنما أنا رجل منكم**». ثم أخذ السراويل، فذهبت لأحمله، فقال: «**صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله**»[٤].

الفصل العشرون
عدله وأمانته وعفته وصدق لهجته ﷺ

وأما عدله ﷺ وأمانته وعفته وصدق لهجته - فكان ﷺ آمن الناس، وأعدل الناس، وأعف الناس، وأصدقهم لهجة منذ كان، اعترف له بذلك محادوه وعداه.

وكان يسمي قبل نبوته الأمين.

قال ابن إسحاق: كان يسمي الأمين بما جمع الله فيه من الأخلاق الصالحة. وقال تعالى: ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير: ٢١]: أكثر المفسرين على أنه محمد ﷺ.

ولما اختلفت قريش وتحاربت عند بناء الكعبة فيمن يضع الحجر حكموا أول داخل عليهم، فإذا بالنبي ﷺ داخل - وذلك قبل نبوته، فقالوا: هذا محمد الأمين قد رضينا به.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو يعلى (٤٨٧٣)، وابن حبان في موارد الظمآن (٢١٣٦)، من حديث عائشة، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٤٩٩٦).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠٧٢).

(٣) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٣٣١٢)، والحاكم (٣/ ٥٠) وصححه الألباني رحمه الله في الصحيحة (١٨٧٦)، وصحيح ابن ماجه (٢٦٧٧).

(٤) ضعيف: أخرجه أبو يعلى (٦١٦٢)، وابن حبان في المجروحين (٢/ ٥١)، وغيرهم. وفي إسناده ضعيفان، لكن قوله: «زن وأرجح» قد ثبت في حديث آخر صححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٨٠٥)، وصحيح أبي داود (٢٨٥٤).

عن الربيع بن خُثَيْم: كان يتحاكم إلى رسول الله ﷺ في الجاهلية قبل الإسلام وقال ﷺ: «والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض»(١).

حدثنا أبو عليّ الصدفي الحافظ بقراءتي عليه، حدثنا أبو الفضل بن خيرون، حدثنا أبو يعلى بن زوج الحرة، حدثنا أبو عليّ السِّنجي، حدثنا محمد بن محبوب المروزي، حدثنا أبو عيسى الحافظ، حدثنا أبو كريب، حدثنا معاوية بن هشام، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن ناجية بن كعب، عن عليّ - أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وروى غيره: لا نكذبك ولا أنت فينا بمكذب.

وقيل: إن الأخنس بن شَرِيق لقي أبا جهل يوم بدر، فقال له: يا أبا الحكم، ليس هنا غيري وغيرك يسمع كلامنا، و تخبرني عن محمد، صادق هو أم كاذب؟ فقال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق، وما كذب محمد قط.

وسأل هرقل عنه أبا سفيان، فقال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا(٢).

وقال النضر بن الحارث لقريش: قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا، وأرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة حتي إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر. لا، والله، ما هو بساحر.

وفي الحديث عنه: ما لمست يده يد امرأة قط لا يملك رقها.

وفي حديث عليّ - في وصفه ﷺ: أصدق الناس لهجة.

وقال في «الصحيح»: «ويحك! فمن يعدل إن لم أعدل، خبت وخسرت إن لم أعدل»(٣).

قالت عائشة: ما خير رسول الله ﷺ في أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه(٤).

---

(١) ضعيف: أخرجه الطبراني في الكبير (١/ ٣٣١)، والبزار (٤٦٦)، وذكره الهيثمي في المجمع (٤/ ١٢٦) وقال: «وفيه موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف».

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٧، ٢٩٤١)، ومسلم (١٧٧٣).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣١٣٨، ٣٦١٠، ٦١٦٣)، ومسلم (١٠٦٤).

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٣٥٦٠، ٦١٢٦)، ومسلم (٢٣٢٧).

قال أبو العباس المبرد: قسم كسرىٰ أيامه، فقال: يصلح يوم الريح للنوم، ويوم الغيم للصيد، ويوم المطر للشرب واللهو، ويوم الشمس للحوائج.

قال ابن خالويه: ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون، ولكن نبينا ﷺ جزأ نهاره ثلاثة أجزاء: جزءاً لله، وجزءاً لأهله، وجزءاً لنفسه، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس، فكان يستعين بالخاصة علىٰ العامة، ويقول: «**أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغي، فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها آمنه الله يوم الفزع الأكبر**»(١).

وعن الحسن: كان رسول الله ﷺ لا يأخذ أحداً بقرف أحد، ولا يصدق أحداً علىٰ أحد.

وذكر أبو جعفر الطبري عن عليّ عنه ﷺ: «**ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك، ثم ما هممت بسوء حتي أكرمني الله برسالته، قلت ليلة لغلام كان يرعى معي: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب، فخرجت كذلك حتي جئت أول دار من مكة سمعت عزفًا بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم. فجلست أنظر، فضرب على أذني فنمت، فما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت ولم أقض شيئًا. ثم عراني مرة أخري مثل ذلك، ثم لم أهم بعد ذلك بسوء**»(٢).

الفصل الحادي والعشرون
وقاره وصمته ﷺ

وأما وقاره ﷺ وصمته وتؤدته ومروءته وحسن هديه فحدثنا أبو عليّ الجَيَّانِي الحافظ إجازة، وعارضت بكتابه، قال: حدثنا أبو العباس الدَّلائِي، أنبأنا أبو ذر الهروي، أخبرنا أبو عبد الله الوراق، حدثنا اللؤلؤي، حدثنا أبو داود، حدثنا عبد الرحمن بن سلام، حدثنا حجاج بن محمد، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن عمر ابن عبد العزيز بن وهيب: سمعت خارجة بن زيد يقول: كان النبي ﷺ أوقر الناس في مجلسه، لا يكاد

(١) ضعيف: ضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٤٨).
(٢) ضعيف جداً: أخرجه الطبري في تاريخه (١/ ٥٢٠)، وفي سنده محمد بن حميد الرازي، متروك، وفيه عنعنة ابن إسحاق، وهو مدلس.

يخرج شيئًا من أطرافه(١).

وروىٰ أبو سعيد الخدري: كان رسول الله ﷺ إذا جلس في المجلس احتبىٰ بيديه، وكذلك كان أكثر جلوسه ﷺ محتبيًا(٢).

وعن جابر بن سمرة أنه تربع(٣) وربما جلس القرفصاء(٤)، وهو في حديث قيلة، وكان كثير السكوت لا يتكلم في غير حاجة، يعرض عمن تكلم بغير جميل، وكان ضحكه تبسمًا، وكلامه فصلاً، لا فضول ولا تقصير، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم، توقيراً له، واقتداء به. مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تُؤْبنُ فيه الحرُم، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما علىٰ رءوسهم الطير.

وفي صفته: يخطو تكفئًا، ويمشي هونًا، كأنما ينحط من صبب.

وفي الحديث الآخر: إذا مشىٰ مشىٰ مجتمعًا، يعرف في مشيته أنه غَير غَرِضٍ ولا وَكِلٍ، أي غير ضجر ولا كسلان. وقال عبد الله بن مسعود: إن أحسن الهدي هدي محمد ﷺ. وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ: كان في كلام رسول الله ﷺ ترتيل أو ترسيل.

قال ابن أبي هالة: كان سكوته علىٰ أربع: علىٰ الحلم، والحذر، والتقدير، والتفكر.

قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يحدث حديثًا لو عده العاد أحصاه(٥).

وكان ﷺ يحب الطيب والرائحة الحسنة، ويستعملها كثيراً، ويحض عليهما، ويقول: **«حبب إليّ من دنياكم النساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة»**(٦).

ومن مروءته ﷺ نهيه عن النفخ في الطعام والشراب، والأمر بالأكل مما يلي، والأمر بالسواك(٧)، وإنقاء البراجم والرواجب، واستعمال خصال الفطرة.

---

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود في المراسيل (٥٠٥).

(٢) صحيح بشواهده: أخرجه أبو داود في المراسيل (٤٨٤٦)، والبيهقي في الكبرىٰ (٣/ ٢٣٦)، وصححه الألباني رحمه الله في الصحيحة (٨٢٧).

(٣) حسن: أخرجه أبو داود (٤٨٥٠)، وأصله في صحيح مسلم (٦٧٠).

(٤) صحيح لشواهده: أخرجه أبو داود (٤٨٤٧) من حديث قيلة، وصححه الألباني رحمه الله لشواهده في الصحيحة (٢١٢٤).

(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٣٥٦٧)، ومسلم (٢٤٩٣).

(٦) صحيح بمجموع طرقه: أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥)، والنسائي (٣٩٣٩)، وأبو يعلىٰ (٣٤٨٢، ٣٥٣٠)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣١٢٤).

(٧) صحيح: أخرجه البخاري (٨٨٧)، ومسلم (٢٥٢).

الفصل الثاني والعشرون
زهد في الدنيا

وأما زهده في الدنيا فقد تقدم من الأخبار أثناء هذه السيرة ما يكفي. وحسبك من تقلله منها، وإعراضه عن زهرتها، وقد سيقت إليه بحذافيرها، وترادفت عليه فتوحها إلى أن توفي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله، وهو يدعو ويقول: **«اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا»**(١).

حدثنا سفيان بن العاصي، والحسين بن محمد الحافظ، والقاضي أبو عبد الله التميمي، قالوا: حدثنا أحمد بن عمر، قال: حدثنا أبو العباس الرازي: قال: حدثنا أبو أحمد الجلودي، حدثنا أبو سفيان، حدثنا أبو الحسين مسلم بن الحجاج، حدثنا أبو بكر ابن أبي شيبة، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة، قالت: ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعًا من خبز حتى مضى لسبيله(٢).

وفي رواية أخرى: من خبز شعير يومين متواليين(٣)، ولو شاء الله لأعطاه ما لا يخطر بباله. وفي رواية أخرى: ما شبع آل رسول الله ﷺ من خبز بر حتى لقي الله تعالى.

وقالت عائشة: ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهمًا ولا شاة ولا بعيراً(٤).

وفي حديث عمرو بن الحارث: ما ترك إلا سلاحه وبغلته وأرضًا جعلها صدقة(٥).

قالت عائشة: ولقد مات وما في بيتي شيء يأكل ذو كبد إلا شطر شعير في رَفٍّ لي.

وقال لي: **«إني عرض عليّ أن تجعل لي بطحاء مكة ذهبًا فقلت: لا، يا رب، أجوع يومًا وأشبع يومًا، فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك، وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثني عليك»**(٦).

وفي حديث آخر إن جبريل نزل عليه، فقال له: إن الله تعالى يقرئك السلام، ويقول لك: أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهبًا، وتكون معك حيثما كنت، فأطرق ساعة، ثم قال:

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٤٦٠)، ومسلم (١٠٥٥).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٧٠، ٢٩٧٦).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٧٠).
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (١٦٣٥).
(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٣٩).
(٦) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٣٤٧)، وأحمد (٥/ ٢٥٤)، وفي سنده علي بن يزيد الألهاني، ضعيف.

«ياجبريل، إن الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، قد يجمعها من لا عقل له».

فقال له جبريل: ثبتك الله يا محمد بالقول الثابت.

وعن عائشة قالت: إن كنا آل محمد لنمكث شهراً ما نستوقد ناراً إن هو إلا التمر والماء.

وعن عبد الرحمن بن عوف: هلك رسول الله ﷺ، ولم يشبع هو وأهل بيته من خبز الشعير[1]. وعن عائشة وأبي أمامة، وابن عباس نحوه.

قال ابن عباس: كان ﷺ يبيت هو وأهله الليالي المتتابعة طاوياً لا يجدون عشاء.

وعن أنس: ما أكل رسول الله ﷺ على خوان ولا في سُكُرُّجةُ، ولا خبز له مرقق، ولا رأىٰ شاة سميطًا قط[2]. وعن عائشة: إنما كان فراشه الذي ينام عليه أدمًا حشْوه ليف[3].

وعن حفصة قالت: كان فراش رسول الله ﷺ في بيته مسحًا نثنيه ثنيتين فينام عليه، فثنيناه له ليلة بأربع، فلما أصبح قال: **«ما فرشتم لي الليلة؟»** فذكرنا ذلك له، فقال: **«ردوه بحاله، فإن وطأته منعتني الليلة صلاتي»**.

وكان ﷺ ينام أحيانًا على سرير مرمول بشريط حتي يؤثر في جنبه[4].

وعن عائشة قالت: لم يمتلئ جوف النبي ﷺ شبعًا قط ولم يبث شكوىٰ إلىٰ أحد، وكانت الفاقة أحب إليه من الغنىٰ، وإن كان ليظل جائعًا يتلوىٰ طول ليلته من الجوع فلا يمنعه صيام يومه، ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها، ولقد كنت أبكي له رحمة مما أرىٰ به، وأمسح بيدي علىٰ بطنه مما به من الجوع، وأقول: نفسي لك الفداء، لو تبلغت من الدنيا بما يقوتك، فيقول: **«يا عائشة، ما لي وللدنيا، إخواني من أولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا، فمضوا على حالهم، فقدموا على ربهم، فأكرم مآبهم، وأجزل ثوابهم، فأجدني أستحيي إن ترفهت في معيشتي أن يقصر بي غداً دونهم، وما من شيء هو أحب إليّ من اللحوق بإخواني وأخلائي»**.

قالت: فما أقام بعد إلا شهراً حتي توفي ﷺ.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٧٠).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٣٨٦)، ومسلم (١٩٤٨).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٨٢).
(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١١٦٣)، وأحمد في مسنده (٣/ ١٣٩)، وابن حبان في صحيحه (٦٣٦٢)، من طريق المبارك بن فضالة عن الحسن عن أنس مرفوعًا، وهذا إسناد ضعيف، وله شاهد من حديث عمر.

الفصل الثالث والعشرون
خوفه ربه وطاعته له ﷺ

وأما خوفه ربه، وطاعته له، وشدة عبادته، فعلى قدر علمه بربه، ولذلك قال في ما حدثناه أبو محمد بن عتاب قراءة مني عليه. قال: حدثنا أبو القاسم الطرابلسي، حدثنا أبو الحسن القابسي، حدثنا أبو زيد المروزي، حدثنا أبو عبد الله الفربري، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا يحيي بن بكير، عن الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب - أن أبا هريرة كان يقول: قال رسول الله ﷺ: **«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً»**(١).

زاد في روايتنا، عن أبي عيسى الترمذي - رفعه إلى أبي ذر: **«إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتهم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأورن إلى الله، لوددت أني شجرة تعضد»**(٢).

روي هذا الكلام: وددت أني شجرة تعضد - من قول أبي ذر نفسه. وهو أصح. وفي حديث المغيرة: صلى رسول الله ﷺ حتى انتفخت قدماه(٣).

وفي رواية: كان يصلي حتى تَرِمَ قدماه، فقيل له: أَتَكَلَّفُ هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: **«أفلا أكون عبداً شكوراً»**(٤). ونحوه عن أبي سلمة، وأبي هريرة. وقالت عائشة: كان عمل رسول الله ﷺ ديمة، وأيكم يطيق ما كان يطيق؟(٥)

وقالت: كان يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم. ونحوه عن ابن عباس، وأم سلمة، وأنس.

وقالت: كنت لا تشاء أن تراه من الليل مصليًا إلا رأيته مصليًا، ولا نائمًا إلا رأيته نائمًا.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٠٤٤، ٤٦٢١، ٥٢٢١)، ومسلم (٤٢٦).
(٢) حسن لشواهده: أخرجه أحمد (٥/ ١٧٣)، والترمذي (٢٣١٢)، مرفوعًا، وأخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ١٢٣)، وهناد في الزهد (٤٦٨) موقوفًا على أبي ذر، والموقوف هو المحفوظ، لكن لفقرته الأولى عدة شواهد.
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨١٩).
(٤) تقدم في الحديث السابق.
(٥) صحيح: أخرجه البخاري (١٩٨٧)، ومسلم (٢١١).

وقال عوف بن مالك: كنت مع رسول الله ﷺ ليلة فاستاك ثم توضأ، ثم قام يصلي، فقمت معه، فبدأ فاستفتح البقرة، فلا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ، ثم ركع، فمكث بقدر قيامه، يقول: **«سبحان ذي الجبروت والملكوت والعظمة»**[1]، ثم سجد وقال مثل ذلك، ثم قرأ آل عمران، ثم سورةً سورةً يفعل مثل ذلك.

وعن حذيفة مثله، وقال: سجد نحواً من قيامه، وجلس بين السجدتين نحواً منه، وقال: حتي قرأ البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة[2].

وعن عائشة: قام رسول الله ﷺ بآية من القرآن ليلة[3].

وعن عبد الله بن الشخير: أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي، ولجوفه أزيز كأزيز المرجل[4].

وقال ابن أبي هالة: وكان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة[5].

وقال عليه السلام: **«إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»**- وروي: **«سبعين مرة»**[6].

وعن عليّ -رضي الله عنه-، قال: سألت رسول الله ﷺ عن سنته، فقال: **«المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحب أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والثقة كنزي، والحزن رفيقي، والعلم سلاحي، والصبر ردائي، والرضا غنيمتي، والعجز فخري، والزهد حرفتي، واليقين قوتي، والصدق شفيعي، والطاعة حسبي، والجهاد خلقي، وقرة عيني في الصلاة»**[7].

وفي حديث: **«وثمرة فؤادي في ذكره، وغمِّي لأجل أمتي، وشوقي إلى ربي»**.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٨٧٣)، والنسائي (١٠٤٩، ١١٣٢)، وأحمد (٦/ ٢٤)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح أبي داود (٧٧٦).

(٢) صحيح: صححه الألباني رحمه الله في صلاة التراويح (٥) ص ١٥.

(٣) صحيح: أخرجه بنحوه الترمذي (٤٤٨)، وابن المبارك في الزهد (١٠٤)، مرسلاً، وأما حديث عائشة فقد صححه الألباني رحمه الله في مختصر الشمائل (٢٣٣)، وله شاهد من حديث أبي ذر.

(٤) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٢٥)، وابن خزيمة في صحيحه (٩٠٠)، والنسائي (١٢١٤).
أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/ ١٥٦)، والبيهقي في الشعب (٢/ ١٥٥).

(٥) ضعيف: أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/ ١٥٦)، والبيهقي في الشعب (٢/ ١٥٥).

(٦) صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٠٧).

(٧) موضوع: قاله السيوطي في مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا (٣٢٢) (ط. دار الجنان).

الفصل الرابع والعشرون

صفات الأنبياء والرسل

اعلم - وفقنا الله وإياك - أن صفات جميع الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم، من كمال الخلق، وحسن الصورة، وشرف النسب، وحسن الخلق، وجميع المحاسن، هي هذه الصفة، لأنها صفات الكمال، والكمال والتمام البشري والفضل الجميع لهم صلوات الله عليهم، رتبتهم أشرف الرتب، ودرجاتهم أرفع الدرجات، ولكن فضل الله بعضهم على بعض، قال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وقال: ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الدخان: ٣٢].

وقد قال عليه السلام: «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر»، ثم قال آخر الحديث: «على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، طوله ستون ذارعًا في السماء»(١). وفي حديث أبي هريرة: «رأيت موسى فإذا هو رجل ضرب رجل أقنى، كأنه من رجال شَنُوءَة ،ورأيت عيسى فإذا هو رجل ربعة، كثير خيلان الوجه، أحمر كأنه خرج دِيماس».

وفي حديث آخر: «مبطن مثل السيف»، قال: «وأنا أشبه ولد إبراهيم به». وقال في حديث آخر في صفة عيسى: «كأحسن ما أنت راء من أدم الرجال»(٢) . وفي حديث أبي هريرة، عنه ﷺ: «ما بعث الله تعالى من بعد لوط نبيًا إلا في ذروة من قومه» (٣) ويروى: «في ثروة»، أي كثرة ومنعة.

وحكى الترمذي، عن قتادة، ورواه الدارقطني من حديث قتادة عن أنس: ما بعث الله نبيًا إلا حسن الوجه حسن الصوت، وكان نبيكم أحسنهم وجهًا، وأحسنهم صوتًا(٤) .

وفي حديث هرقل: وسألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في أنساب قومها(٥) .

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٣٢٦، ٣٣٢٧)، ومسلم (٢٨٣٤).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٤٤٠، ٥٩٠٢)، ومسلم (١٦٩).
(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٣١١٦) ، والطبري في تفسيره (١٢/ ٨٨) وابن حبان في صحيحه (٦٢٠٦)، وأحمد (٢/ ٣٣٢، ٣٨٤)، وصححه الألباني رحمه الله في الصحيحة (١٦١٧).
(٤) ضعيف: قال السيوطي في مناهل الصفا (٣٢٦): «هو في الشمائل للترمذي عن قتادة مرسلاً».
(٥) صحيح : تقدم تخريجه .

وقال تعالى في أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٢ ـ ١٥]. وقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٣ـ٣٤].

وقال في نوح: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ [الإسراء: ٣].

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥ـ٤٦].

وقال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠ـ٣١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقال النبي ﷺ: «كان موسى رجلاً حييًا ستيراً ما يُرى من جسده شيء استيحاءً..» الحديث[1].

وقال تعالى عنه: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١].

وقال في وصف جماعة منهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٠٧].

وقال: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

وقال: ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٠٤).

وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٨٤ ـ ٩٠].

فوصفهم بأوصاف جمة من الصلاح والهدىٰ والاجتباء والحكم والنبوة.

وقال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١] و﴿عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨].

وقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الدخان: ١٧ ـ ١٨].

وقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وقال في إسماعيل: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤ ـ ٥٥].

وفي سليمان: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

وقال: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص ٤٥ ـ ٤٧].

وفي داود: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص/٤٥]. ثم قال: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠].

وقال عن يوسف: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

وفي موسىٰ: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ [الكهف: ٦٩].

وقال تعالىٰ عن شعيب: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧].

وقال: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وقال: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٤].

وقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال سفيان: هو الحزن الدائم.

في آي كثيرة، ذكر فيها من خصالهم ومحاسن أخلاقهم الدالة على كمالهم.

وجاء من ذلك في الأحاديث كثير، كقوله: **«إنما الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، نبي ابن نبي ابن نبي ابن نبي»**(١).

وفي حديث أنس: **«وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم»**(٢).

وروي أن سليمان كان مع ما أعطي من الملك لا يرفع بصره إلى السماء تخشعًا وتواضعًا لله تعالى. وكان يطعم الناس لذائذ الأطعمة ويأكل خبز الشعير.

وأوحى الله إليه: يا رأس العابدين، وابن محجة الزاهدين.

وكانت العجوز تعترضه وهو على الريح في جنوده، فيأمر الريح فتقف فينظر في حاجتها ويمضي. وقيل ليوسف: مَا لَك تجوع وأنت على خزائن الأرض؟ قال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع.

وروى أبو هريرة عنه ﷺ: **«خفف على داود القرآن، فكان يأمر بدوابه فتسرج، فيقرأ القرآن قبل أن تسرج، ولا يأكل إلا من عمل يده»**(٣).

وقال الله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ: ١٠-١١].

وكان سأل ربه أن يرزقه عملاً بيده يغنيه عن بيت المال.

وقال عليه السلام: **«أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود: كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يومًا ويفطر يومًا»**(٤) وكان يلبس الصوف، ويفترش الشعر، ويأكل خبز الشعير بالملح والرماد، ويمزج شرابه بالدموع، ولم ير ضاحكًا بعد الخطيئة، ولا شاخصًا ببصره إلى السماء، حياء من ربه، ولم يزل باكيًا حياته كلها.

وقيل: بكى حتى نبت العشب من دموعه، وحتى اتخذت الدموع في خده أخدودًا.

وقيل: كان يخرج متنكرًا يتعرف سيرته، فيستمع الثناء عليه، فيزداد تواضعًا.

وقيل: لعيسى عليه السلام: لو اتخذت حمارًا؟ قال: أنا أكرم على الله من أن يشغلني

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٣٩٠، ٣٣٨٢، ٤٦٨٨).
(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٥٧٠).
(٣) **صحيح**: أخرجه البخاري (٢٠٧٢).
(٤) **صحيح**: أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩).

بحمار. وكان يلبس الشعر، ويأكل الشجر، ولم يكن له بيت، أينما أدركه النوم نام. وكان أحب الأسامي إليه أن يقال له: مسكين. وقيل: إن موسي عليه السلام لما ورد ماء مدين كانت ترىٰ خضرة البقل في بطنه من الهزال.

وقال عليه السلام: «**لقد كان الأنبياء قبلي يبتلى أحدهم بالفقر والقمل وكان ذلك أحب إليه من العطاء إليكم**». وقال عيسىٰ عليه السلام لخنزير لقيه: اذهب بسلام. فقيل له في ذلك، فقال: أكره أن أعود لساني المنطق بسوء. وقال مجاهد: كان طعام يحيىٰ العشب. وكان يبكي من خشية الله حتىٰ اتخذ الدمع مجرىٰ في خده، وكان يأكل من الوحش لئلا يخالط الناس. وحكىٰ الطبري، عن وهب: أن موسىٰ كان يستظل بعريش، ويأكل في نقرة من حجر، ويكرع فيها إذا أراد أن يشرب كما تكرع الدابة، تواضعًا لله بما أكرمه الله به من كلامه. وأخبارهم في هذا كله مسطورة، وصفاتهم في الكمال وجميل الأخلاق وحسن الصور والشمائل معروفة مشهورة، فلا نطول بها، ولا تلتفت إلىٰ ما تجده ما في كتب بعض جهلة المؤرخين والمفسرين مما يخالف هذا.

الفصل الخامس والعشرون

جمع الشمائل

قد أتيناك ـ أكرمك الله ـ في ذكر الأخلاق الحميدة، والفضائل المجيدة، وخصال الكمال العديدة، وأريناك صحتها له ﷺ، وجلينا من الآثار ما فيه مقنع، والأمر أوسع، فمجال هذا الباب في حقه ﷺ ممتد، تنقطع دون نفاده الأَدِلَّاء، وبحر علم خصائصه زاخر لا تكدره الدِّلَاء، لكنا أتينا فيه بالمعروف مما أكثره في «الصحيح» والمشهور من المصنفات، واقتصرنا في ذلك بقُلٍّ من كُلٍّ، وغَيْضٍ من فَيْضٍ، ورأينا أن نختم هذه الفصول بذكر حديث الحسن عن أبي هالة، لجمعه من شمائله وأوصافه كثيرًا، وإدماجه جملة كافية من سيره وفضائله، ونصله بتنبيه لطيف علىٰ غريبه ومشكله.

حدثنا القاضي أبو عليّ الحسين بن محمد الحافظ ـ رحمه الله ـ بقراءتي عليه سنة ثمان وخمسمائة، قال: حدثنا الإمام أبو القاسم عبد الله بن طاهر التميمي قراءة عليه، أخبركم الفقيه الأديب أبو بكر محمد بن عبد الله بن الحسن النيسابوري، والشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحسن المحمدي، والقاضي أبو علي الحسن بن عليّ بن جعفر الوحشي، قالوا: حدثنا أبو القاسم عليّ بن أحمد بن محمد بن الحسن الخزاعي، أخبرنا

أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاشي، أنبأنا أبو عيسى بن سورة الحافظ، قال: حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا جُمَيْع بن عمر بن عبد الرحمن العجلي إملاءً من كتابه، قال: حدثني رجل من بني تميم من ولد أبي هالة زوج خديجة أم المؤمنين - رضي الله عنها -، يكنى أبا عبد الله، عن ابن لأبي هالة، عن الحسن بن عليّ بن أبي طالب - رحمه الله - قال: سألت خالي هند بن أبي هالة.

قال القاضي أبو عليّ - رحمه الله -: وقرأت على الشيخ أبي طاهر أحمد بن الحسن بن أحمد بن خُذَادَاد الكرجي الباقلاني، قال: وأجاز لنا الشيخ الأجل أبو الفضل أحمد بن الحسين بن خيرون، قالا: حدثنا أبو عليّ الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن الحسن بن محمد ابن شاذان بن حرب بن مهران الفارسي قراءة عليه فأقر به، قال: أخبرنا أبو محمد الحسن ابن محمد بن يحيى بن الحسن بن محمد بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن عليّ ابن الحسين بن عليّ بن أبي طالب المعروف بابن أخي طاهر العلوي، قال: حدثنا إسماعيل بن محمد بن إسحاق بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، قال: حدثني عليّ بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين، عن أخيه موسى بن جعفر، عن جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن عليّ، عن عليّ بن الحسين، قال: قال الحسن بن عليّ - واللفظ لهذا السند -: سألت خالي هند بن أبي هالة عن حلية رسول الله ﷺ - وكان وصافًا - وأنا أرجو أن يصف لي منها شيئًا أتعلق به، قال: كان رسول الله ﷺ فخمًا مفخمًا، يتلألأ وجهه تلألأ القمر ليلة البدر، أطول من المربوع، وأقصر من المشذب، عظيم الهامة، رجل الشعر، إن انفرقت عقيقته فرق، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنه إذا هو وفره، أزهر اللون، واسع الجبين، أزج الحواجب، سوابغ، من غير قَرَنٍ، بينهما عِرْقٌ يدره الغضب، أقنى العينين، له نور يعلوه، ويحسبه من لم يتأمله أشم، كث اللحية، أدعج، سهل الخدين، ضليع الفم، أشنب، مفلج الأسنان، دقيق المَسْرُبَة، كأن عنقه جيد دُمْيَة في صفاء الفضة، معتدل الخلق، بادنًا، متماسكًا، سواء البطن والصدر، مشيح الصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس، أنور المتجرد، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط، عاري الثديين، ما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، طويل الزندين، رحب الراحة، شَثْنَ الكفين والقدمين، سائل الأطراف - أو قال: سائن الأطراف، سَبْط العصب، خُمْصَان الأخمصين، مسيح القدمين، ينبو عنهما الماء، إذا زال زال تقلعًا، ويخطو تكفيًا، ويمشي هونًا، ذريع المشية، إذا مشى كأنما ينحط من صبب، وإذا التفت التفت جميعًا، خافض الطرف، نظره إلى

الأرض أطول من نظره إلىٰ السماء، جل نظره الملاحظة يسوق ،أصحابه، ويبدأ من لقيه بالسلام. قلت: صف لي منطقه.

قال: كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكر، ليست له راحة، ولا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم فضلاً، لا فضول فيه ولا تقصير، دمثًا ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم شيئًا، لم يكن يذم ذواقًا، ولا يمدحه، ولايقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حتىٰ ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها، فضرب بإبهامه اليمنىٰ راحته اليسرىٰ، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه، جل ضحكه التبسم، ويفتر عن مثل حب الغمام.

قال الحسن: فكتمتها الحسين بن عليّ زمانًا، ثم حدثته فوجدته قد سبقني إليه، فسأل أباه عن مدخل رسول ا لله ﷺ ومخرجه ومجلسه وشكله، فلم يدع منه شيئًا.

قال الحسين: سألت أبي عن دخول رسول الله ﷺ، فقال: كان دخوله لنفسه مأذونًا له في ذلك، فكان إذا أوىٰ إلىٰ منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءًا لله وجزءًا لأهله، وجزءًا لنفسه، ثم جزء جزأه بينه وبين الناس، فيرد ذلك على العامة بالخاصة، ولايدخر عنهم شيئًا، فكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه وقسمته علىٰ قدر فضلهم في الدين، منهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج، فيتشاغل بهم، ويشغلهم فيما أصلحهم، والأمة من مسألته عنهم وإخبارهم بالذي ينبغي لهم، ويقول: ليبلغ الشاهد منكم الغائب، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي حاجته، فإنه من أبلغ سلطانًا حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة، لا يذكر عنده إلا ذلك، ولايقبل من أحد غيره. وقال في حديث سفيان بن وكيع: يدخلون روادًا، ولايتفرقون إلا عن ذواق، ويخرجونه أدلة ـ يعني فقهاء. قلت: فأخبرني عن مخرجه كيف كان يصنع فيه؟

قال: كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلا مما يعنيهم ويؤلفهم ولا يفرقهم، يكرم كريم كل قوم، ويوليه عليهم، ويحذر الناس، ويحترس منهم، من غير أن يطوي عن أحد بشره وخلقه، ويتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويحسن الحسن ويصوبه، ويقبح القبيح ويوهنه، معتدل الأمر غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا، لكل حال عنده عتاد، لا يقصر عن الحق، ولا يجاوزه إلىٰ غيره، الذين يلونه من الناس خيارهم، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة. فسألته عن مجلسه: عما كان يصنع فيه.

فقال: كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر، ولا يوطن الأماكن، وينهى عن إيطانها، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، ويعطي كل جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه فيه، من جالسه أو قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، من سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول. قد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبا، وصاروا عنده في الحق سواء، متقاربين متفاضلين فيه بالتقوى. وفي الرواية الأخرى: صاروا عنده في الحق سواء، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن فيه الحرم، ولا تنثى فلتاته. وهذه الكلمة من غير الروايتين. يتعاطون فيه بالتقوى متواصفين، يوقرون فيه الكبير، ويرحمون الصغير، ويرفدون ذا الحاجة، ويرحمون الغريب.

فسألته عن سيرته ﷺ في جلسائه.

فقال: كان رسول الله ﷺ دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ. ولا سخاب، ولا فحاش، ولا عياب ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي ولا يوئس منه، قد ترك نفسه من ثلاث: الرياء، والإكثار، وما لا يعنيه. وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحداً، ولا يعيره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا في ما يرجو ثواه، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير، وإذا سكت تكلموا، لا يتنازعون عنده الحديث. من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم حديث أولهم، يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق، ويقول: إذا رأيتم صاحب الحجة يطلبها فأرفدوه، ولا يطلب الثناء إلا من مكافئ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوزه فيقطعه بانتهاء أو قيام.

هنا انتهى حديث سفيان بن وكيع.

وزاد الآخر: قلت: كيف كان سكوته ﷺ؟

قال: كان سكوته على أربع: على الحلم، والحذر، والتقدير، والتفكر. فأما تقريره ففي تسوية النظر والاستماع بين الناس، وأما تفكره ففيما يبقى ويفنى.

وجمع له الحلم ﷺ في الصبر، فكان لا يغضبه شيء يستفزه. وجمع له في الحذر أربع: أخذه بالحسن ليقتدى به، وتركه القبيح لينتهى عنه، واجتهاد الرأي بما أصلح أمته، والقيام لهم بما جمع لهم أمر الدنيا والآخرة.

انتهى الوصف بحمد الله وعونه.

الفصل السادس والعشرون

في تفسير غريب هذا الحديث ومشكله

قوله: «المشذَّب»، أي البائن الطول في نحافة، وهو مثل قوله في الحديث الآخر: «ليس بالطويل الممغط».

والشعر الرجل: الذي كأنه مُشِط قليلاً، ليس بسبط ولا جعد.

والعقيقة: شعر الرأس. أراد: إن انفرقت من ذات نفسها فرقها، وإلا تركها معقوصة. وروي: «عقيصته».

وأزهر اللون: نيره. وقيل: حسن. ومن زهرة الحياة الدنيا أي زينتها.

وهذا كما قال في الحديث الآخر: «ليس بالأبيض الأمهق، ولا بالآدم»(١). والأمهق: هو الناصع البياض. والآدم: الأسمر اللون.

ومثله في الحديث الآخر: «أبيض مشرب»، أي فيه حمرة.

والحاجب الأزج: المقوص الطويل الوافر الشعر.

والأقنى: السائل الأنف، المرتفع وسطه.

والأشم: الطويل قصبة الأنف.

والقرن: اتصال شعر الحاجبين. وضده البلج. ووقع في حديث أم معبد وصفه بالقرن.

والأدعج: الشديد سواد الحدقة.

وفي الحديث الآخر: «أشكل العين، وأسجر العين»، وهو الذي في بياضها حمرة (٢).

والضليع: الواسع.

والشنب: رونق الأسنان، وماؤها.

وقيل: رقتها وتحريز فيها، كما يوجد في أسنان الشباب.

والفلج: فرق بين الثنايا.

ودقيق المسربة: خيط الشعر الذي بين الصدر والسرة.

بادن: ذو لحم متماسك، معتدل الخلق، يمسك بعضه بعضًا، مثل قوله في الحديث

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٥٨)، ومسلم (٢٣٤٧).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٣٩).

الآخر: «لم يكن بالمطهم، ولا بالمكلثم» أي: ليس بمسترخي اللحم.

والمكلثم: القصير الذقن.

وسواء البطن والصدر، أي: مستويهما.

ومشيح الصدر، إن صحت هذه اللفظة فتكون من الإقبال، وهو أحد معاني «أشاح»، أي إنه كان بادي الصدر، ولم يكن في صدره قعس، وهو تطامن فيه. وبه يتضح قوله قبل: «سواء البطن والصدر»، أي: ليس بمتقاعس الصدر، ولا مفاض البطن.

ولعل اللفظة: مسيح ـ بالسين، وفتح الميم ـ بمعنى عريض، كما وقع في الرواية الأخرى، وحكاه ابن دريد.

والكراديس: رءوس العظام، وهو مثل قوله في الحديث الآخر: «جليل المشاش والكتد».

والمشاش: رءوس المناكب. والكتد: مجتمع الكتفين. وشثن الكفين والقدمين: لحيمهما.

والزندان: عظما الذراعين. وسائل الأطراف: أي: طويل الأصابع.

وذكر ابن الأنباري أنه روي: سائل الأطراف، وقال: سائن ـ بالنون: قال: وهما بمعنى، تبدل اللام من النون، إن صحت الرواية بها. وأما على الرواية الأخرى: وسائر الأطراف ـ فإشارة إلى فخامة جوارحه كما وقعت مفصلة في الحديث.

ورحب الراحة: أي واسعها. وقيل: كني به عن سعة العطاء والجود. وخمصان الأخمصين: أي متجافي أخمص القدم، وهو الموضع الذي لا تناله الأرض من وسط القدم.

مسيح القدمين: أي أملسهما، ولهذا قال: ينبو عنهما الماء.

وفي حديث أبي هريرة خلاف هذا، قال فيه: إذا وطئ بقدمه وطئ بكلها، ليس له أخمص. وهذا يوافق معنى قوله: مسيح القدمين، وبه قالوا: سمي المسيح عيسى ابن مريم، أي: إنه لم يكن له أخمص. وقيل: مسيح: لا لحم عليهما. وهذا أيضًا يخالف قوله: شثن القدمين.

والتقلع: هو رفع الرجل بقوة.

والتكفؤ: الميل إلى سَنَنِ المَشْي، وقصده.

والهون: الرفق والوقار.

والذريع: الواسع الخطو، أي إن مشيه كان يرفع فيه رجليه بسرعة، ويمد خطوه،

خلاف مشية المختال، ويقصد سمته، وكل ذلك برفق وتثبت دون عجلة، كما قال: «كأنما ينحط من صبب».

وقوله: «يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه»: أي لسعة فمه. والعرب تتمادح بهذا وتذم بصغر الفم.

وأشاح: مال وانقبض.

وحب الغمام: البرد.

وقوله: فيرد ذلك بالخاصة على العامة، أي جعل من جزء نفسه ما يوصل الخاصة إليه فتوصل عنه للعامة. وقيل: يجعل منه للخاصة، ثم يبدلها في جزء آخر بالعامة.

ويدخلون رواداً، أي محتاجين إليه وطالبين لما عنده.

ولا يتفرقون إلا عن ذواق: قيل: عن علم يتعلمونه، ويشبه أن يكون على ظاهره، أي في الغالب والأكثر.

والعتاد: العدة، والشيء الحاضر المعد.

والمؤازرة: المعاونة.

وقوله: لا يوطن الأماكن، أي: لا يتخذ لمصلاه موضعاً معلوماً.

وقد ورد نهيه عن هذا مفسراً في غير هذا الحديث.

وصابره: أي حبس نفسه على ما يريد صاحبه.

ولا تؤبن فيه الحرم: أي لا يُذْكَرْن فيه بسوء.

ولا تنثى فلتاته: أي لا يتحدث بها، أي لم تكن فيه فلتة، وإن كانت من أحد سترت.

ويرفدون: يعينون.

والسخاب: الكثير الصياح.

وقوله: «ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ قيل: مقتصد في ثنائه ومدحه.

وقيل: إلا من مسلم. وقيل: إلا من مكافئ على يد سبقت من النبي ﷺ له.

ويستفزه: يستخفه.

وفي حديث آخر في وصفه: «منهوس العقب»، أي قليل لحمها[1].

وأهدب الأشفار، أي طويل شعرها.

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

الباب الثالث

فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها بعظيم قدره عند ربه ومنزلته، وما خصه به في الدارين من كرامته ﷺ

لاخلاف أنه أكرم البشر، وسيد ولد آدم، وأفضل الناس منزلة عند الله، وأعلاهم درجة، وأقربهم زلفى.

واعلم أن الأحاديث الواردة في ذلك كثيرة جداً، وقد اقتصرنا منها على صحيحها ومنتشرها، وحصرنا معاني ما ورد منها في اثني عشر فصلاً.

الفصل الأول

مكانته ﷺ

فيما ورد من ذكر مكانته عند ربه، والاصطفاء، ورفعة الذكر، والتفضيل، وسيادة ولد آدم، وما خصه به في الدنيا من مزايا الرتب وبركة اسمه الطيب.

أخبرنا الشيخ أبو محمد عبد الله بن أحمد العدل إذنًا بلفظه، قال: حدثنا أبو الحسن القرغاني، حدثتنا أم القاسم بنت أبي بكر بن يعقوب، عن أبيها، قال: حدثنا حاتم ـ هو ابن عقيل ـ، عن يحيى ـ هو ابن إسماعيل ـ، عن يحيى الحماني، قال: حدثنا قيس، عن الأعمش، عن عباية ربعي، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قسم الخلق قسمين، فجعلني من خيرهم قسمًا، فلذلك قوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾** [الواقعة: ٢٧].

و ﴿**وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ**﴾ [الواقعة: ٤١] **فأنا من أصحاب اليمين، وأنا خير أصحاب اليمين**(١)**: ثم جعل القسمين أثلاثًا، فجعلني في خيرها ثلثًا، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾** [الواقعة: ٨]، ﴿**وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ**﴾ [الواقعة: ٩]، و﴿**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ**﴾ [الواقعة: ١٠]، **فأنا من السابقين، وأنا خير السابقين، ثم جعل الأثلاث قبائل، فجعلني من خيرها قبيلة، وذلك قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** [الحجرات: ١٣]. **فأنا أتقى ولد آدم، وأكرمهم على الله ولا فخر.**

ثم جعل القبائل بيوتًا، فجعلني من خيرها بيتًا. فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]».

وعن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قالوا: يا رسول الله، متى وجبت لك النبوة؟ قال: «**وآدم بين الروح والجسد**»(٢).

وعن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله اصطفى من ولد إبراهيم**

---

(١) ضعيف: أخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ٥٦، ١٢/ ١٠٣)، وذكره الهيثمي (٨/ ٢١٥) وقال: «وفيه يحيى بن عبد الحميد وغسان بن ربعي وكلاهما ضعيف».

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٦٠٩) من حديث أبي هريرة. وأحمد (٤/ ٦٦، ٥/ ٥٩، ٣٧٩)، من حديث ميسرة، وصححه الألباني رحمه الله في ظلال الجنة (٤١٠)، والصحيحة (١٨٥٦).

إسماعيل. واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»(١).

ومن حديث أنس: «أنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر»(٢).

وفي حديث ابن عباس: «أنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر»(٣).

وعن عائشة، عنه عليه السلام: «أتاني جبريل، فقال: قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أر رجلاً أفضل من محمد، ولم أر بني أب أفضل من بني هاشم»(٤).

وعن أنس: أن النبي ﷺ أتي بالبراق ليلة أسري به، فاستصعب عليه، فقال له جبريل: بمحمد تفعل هذا؟ فما ركبك أحد أكرم على الله منه. فارفضَّ عرقًا.

وعن ابن عباس، عنه عليه السلام: «لما خلق الله آدم أهبطني في صلبه إلى الأرض، وجعلني في صلب نوح في السفينة، وقذف بي في النار في صلب إبراهيم، ثم لم يزل ينقلني في الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة حتى أخرجني بين أبويَّ لم يلتقيا على سفاح قط»(٥). وإلى هذا أشار العباس بن عبد المطلب - رضي الله عنه - بقوله:

من قبلها طبت في الظلال وفي ... مستودع حيث يُخْصفُ الْوَرَقُ
ثم هبطْتَ البلاد لا بَشَرٌ ... أنت ولا مضغةٌ ولا علَقُ
بل نطفةٌ تركب السَّفين وقدْ ... أَلْجَمَ نَسْراً وأهلَه الغَرَقُ
تُنْقَلُ مِنَ صالِبٍ إلى رَحِمٍ ... إذا مضى عَالَمٌ بدا طَبَقُ

في بعض النسخ أبيات أخر، وهي قوله:

حتى احتوى بيتك المهيمنُ من ... خِنْدَفَ علياء تحتَها النُّطُقُ
وأنت لما ولدت أشرفت الأر ... ض وضاءت بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضياء وفي النُّور ... وسبل الرشاد نخترق
يا برد نار الخليل يا سببًا ... لعصمةِ النار وَهِيَ تحترق

النطق: أوسط الجبال العالية.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٧٦). (٢) أخرجه الترمذي: (٣٦١٠).

(٣) إسناده ضعيف: أخرج الترمذي (٣٦١٦)، وابن عدي في الكامل (٣/ ٣٣٩).

(٤) ضعيف: أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٤٩٤)، واللالكائي في الاعتقاد (١٤٠٢)، وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٢١٧) وقال: «موسى بن عبيدة الربذي، وهو ضعيف».

(٥) ثبت شطره الأخير في الحديث الحسن بمجموع طرقه كما في إرواء الغليل (١٩٧٢)، وصحيح الجامع (٣٢١٨) للألباني رحمه الله.

وروى عنه ﷺ: أبو ذر، وابن عمر، وابن عباس، وأبو هريرة، وجابر بن عبد الله: أنه قال: «أعطيت خمسًا - وفي بعضها: ستًا - لم يعطهن نبي قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لنبي قبلي، وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة»[1].

وفي رواية بدل هذه الكلمة: «وقيل لي: سل تعطه».

وفي رواية: «وعرض عَلَيَّ أمتي فلم يَخْفَ عليّ التابع من المتبوع».

وفي رواية: «بعثت إلى الأحمر والأسود». قيل: السُّودُ العرب، لأن الغالب على ألوانهم الأدمة، فهم من السود، والحمر: العجم. وقيل: البيض والسود من الأمم.

وقيل: الحمر: الإنس، والسود: الجن.

وفي الحديث الآخر عن أبي هريرة: «نصرت بالرعب، وأوتيت جوامع الكلام، وبينا أنا نائم إذ جيء بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي»[2].

وفي رواية عنه: «وختم بي النبيون».

وعن عقبة بن عامر أنه قال: قال عليه السلام: «إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني قد أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، وإني - والله - ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها».

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «أنا محمد النبي الأمي، لا نبي بعدي، أوتيت جوامع الكلم وخواتمه، وعُلِّمْتُ خزنة النار وحملة العرش»[3].

وعن ابن عمر: «بعثت بين يدي الساعة»[4].

ومن رواية ابن وهب: أنه عليه السلام قال: «قال الله تعالى: سل يا محمد. فقلت: ما أسأل يا رب؟ اتخذت إبراهيم خليلاً، وكلمت موسى تكليمًا، واصطفيت نوحًا، وأعطيت سليمان ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فقال الله تعالى: ما أعطيتك خير من ذلك، أعطيتك الكوثر، وجعلت اسمك مع اسمي، ينادى به في جوف السماء، وجعلت الأرض طهوراً لك ولأمتك، وغفرت لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فأنت

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٣٥، ٤٣٨، ٦٥٧٩)، ومسلم (٥٢١).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٩٧٧، ٤٠٨٥)، ومسلم (٥٢٣، ٢٢٧٤).

(٣) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد (٢/ ١٧٢)، وفيه ابن لهيعة سيئ الحفظ مختلط.

(٤) حسن: أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٥٠، ٩٢).

تمشي في الناس مغفوراً لك، ولم أصنع ذلك لأحد قبلك، وجعلت قلوب أمتك مصاحفها، وخبأت لك شفاعتك، ولم أخبأها لنبي غيرك»[1].

وفي حديث آخر رواه حذيفة: **«بشرني - يعني ربه - بأني أول من يدخل الجنة ومعي من أمتي سبعون ألفًا، مع كل ألف سبعون ألفًا ليس عليهم حساب، وأعطاني ألا تجوع أمتي ولا تغلب، وأعطاني النصر والعزة والرعب يسعى بين يدي أمتي شهراً، وطيب لي ولأمتي المغانم، وأحل لنا كثيراً مما شدد على من قبلنا، ولم يجعل علينا في الدين من حرج»**.

وعن أبي هريرة، عنه عليه السلام: **«ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحى الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»**.

معنى هذا عند المحققين: بقاء معجزته ما بقيت الدنيا، وسائر معجزات الأنبياء ذهبت للحين، ولم يشاهدها إلا الحاضر لها، ومعجزة القرآن يقف عليها قرن بعد قرن عيانًا لا خبراً إلى القيامة. وفيه كلام يطول، هذا نخبته، وقد بسطنا القول فيه وفيما ذكر فيه سوى هذا آخر باب المعجزات.

وعن عليّ - رضي الله عنه -: كل نبي أعطي سبعة نجباء، وأعطي نبيكم ﷺ أربعة عشر نجيبًا، منهم أبو بكر، وعمر، وابن مسعود، وعمار[2].

وقال ﷺ: **«إن الله قد حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنها لا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار»**[3].

وعن العرباض بن سارية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إني عبد الله وخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وعدة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى ابن مريم»**[4].

---

(١) قال السيوطي في مناهل الصفا (٣٦٩): «الحديث هو بعض حديث أبي هريرة في الإسراء أخرجه البيهقي».

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٨٥)، وأحمد (١/ ١٤٢)، وابن الجوزي في العلل (١/ ٢٨١، ٢٨٢)، وانظر علل الدارقطني (٣/ ٢٦٢).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (١٣٤٩، ١٨٣٣)، ومسلم (١٣٥٥).

(٤) ضعيف إلا شطره الأول: أخرجه احمد (٤/ ١٢٧، ١٢٨)، وابن أبي عاصم في السنة (٤٠٩)، وضعفه الألباني رحمه الله في الضعيفة (٢٠٥٨)، إلا شطره الأول فله شاهد صححه لألباني رحمه الله في الصحيحة (١٥٤٦).

وعن ابن عباس قال: إن الله فضل محمداً ﷺ على أهل السماء، وعلى الأنبياء صلوات الله عليهم، قالوا: فما فضله على أهل السماء؟ قال: إن الله تعالى قال لأهل السماء: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾[الأنبياء: ٢٩].

وقال لمحمد ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[الفتح: ١-٢].

قالوا: فما فضله على الأنبياء؟ قال: إن الله تعالي قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾[إبراهيم: ٤]

وقال لمحمد: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾[سبأ: ٢٨].

وعن خالد بن معدان أن نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك- وقد روي نحوه عن أبي ذر، وشداد بن أوس، وأنس بن مالك- فقال: «نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم» - يعني قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] - «وبشرى عيسى ورأت أمي ين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء له قصور بصرى من أرض الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهماً لنا إذ جاءني رجلان عليهما ثياب بيض - وفي حديث آخر: ثلاثة رجال بطست من ذهب مملوءة ثلجاً، وأخذاني فشقاً بطني».

قال في غير هذا الحديث: «من نحري إلى مراق بطني، ثم استخرجا منه قلبي، فشقاه، فاستخرجا منه علقة سوداء، فطرحاها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه».

قال في حديث آخر: «ثم تناول أحدهما شيئاً فإذا بخاتم في يده من نور يحار الناظر دونه، فختم به قلبي، فامتلأ إيماناً وحكمة، ثم أعاده مكانه، وأمر الآخر يده على مفرق صدري فالتأم».

وفي رواية: «إن جبريل قال: قلب وكيع - أي: شديد - فيه عينان تبصران، وأذنان سميعتان، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته، فوزنني فرجحتهم، ثم قال: زنه بمائة من أمته، فوزنني بهم فوزنتهم، ثم قال: زنه بألف من أمته، فوزنني بهم فوزنتهم، ثم قال: دعه عنك، فلو وزنته بأمته لوزنها».

قال في الحديث الآخر: «ثم ضموني إلى صدورهم، وقبلوا رأسي وما بين عيني، ثم

قالوا: يا حبيب لم ترع، إنك لو تدري ما يراد بك من الخير لقرت عيناك».

وفي بقية هذا الحديث من قولهم: «ما أكرمكَ على الله !إن الله معك و ملائكته ».

قال في حديث أبي ذر: «فما هو إلا أن وليا عني، فكأنما أرى الأمر معاينة».

وحكى أبو محمد مكي، وأبو الليث السمرقندي وغيرهما - أن آدم عند معصيته قال: اللهم بحق محمد اغفر لي خطيئتي - ويروى: تقبل توبتي - فقال له الله: من أين عرفت محمداً؟ فقال: رأيت في كل موضع من الجنة مكتوبًا: لا إله إلا الله، محمد رسول الله - ويروى: محمد عبدي ورسولي - فعلمت أنه أكرم خلقك عليك، فتاب الله عليه، وغفر له.

وهذا عند قائله تأويل قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧].

وفي رواية الآجري قال: فقال آدم، لما خلقتني رفعت رأسي إلى عرشك فإذا فيه مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنه ليس أحد أعظم قدراً عندك ممن جعلت اسمه مع اسمك، فأوحى الله إليه: وعزتي وجلالي، إنه لآخر النبيين من ذريتك ولولاه ما خلقتك. قال: وكان آدم يكنى بأبي محمد، وقيل: بأبي البشر.

وروي عن سريج بن يونس أنه قال: إن لله ملائكة سياحين، عيادتها كل دار فيها أحمد، أو محمد، إكرامًا منهم لمحمد ﷺ.

وروى ابن قانع القاضي، عن أبي الحمراء، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أسري بي إلى السماء إذا على العرش مكتوب: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، أيدته بعلي».

وفي التفسير، عن ابن عباس - في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢] قال: لوح من ذهب فيه مكتوب: عجبًا لمن أيقن بالقدر كيف ينصب! عجبًا لمن أيقن بالنار كيف يضحك! عجبًا لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها! أنا الله، ولا إله إلا أنا، محمد عبدي ورسولي.

وعن ابن عباس: على باب الجنة مكتوب: إني أنا الله، لا إله إلا أنا، محمد رسول الله، لا أعذب من قالها. وذكر أنه وجد على الحجارة القديمة مكتوب: محمد تقي مصلح، وسيد أمين. وذكر السِّمَنْطَارِيُّ أنه شاهد في بعض بلاد خراسان مولوداً ولد، على أحد جنبيه مكتوب: لا إلا الله، وعلى الآخر: محمد رسول الله.

وذكر الأخباريون أن ببلاد الهند ورداً أحمر مكتوبًا عليه بالأبيض: لا إله إلا الله، محمداً رسول الله.

وروي عن جعفر بن محمد، عن أبيه: إذا كا ن يوم القيامة نادىٰ مناد: ألا ليقم من اسمه محمد، فليدخل الجنة لكرامة اسمه عليه السلام.

ورویٰ ابن القاسم في سماعه، وابن وهب في «جامعه»، عن مالك، سمعت أهل مكة يقولون: ما من بيت فيه اسم محمد إلا قد وقوا.

وعنه عليه السلام: ما ضر أحدكم أن يكون في بيته محمد ومحمدان وثلاثة.

وعن عبد الله بن مسعود: إن الله نظر إلىٰ قلوب العباد، واختار منها قلب محمد عليه السلام، فاصطفاه لنفسه، فبعثه برسالته.

وحكىٰ النقاش أن النبي ﷺ لما نزلت: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣] قام خطيبًا، فقال: «يا معشر أهل الإيمان، إن الله تعالى فضلني عليكم تفضيلاً، وفضل نسائي على نسائكم تفضيلاً...» الحديث.

الفصل الثاني

كرامة الإسراء

في تفضيله بما تضمنته كرامة الإسراء من المناجاة والرؤية، وإمامة الأنبياء، والعروج به إلىٰ سدرة المنتهىٰ، وما رأىٰ من آيات ربه الكبرىٰ.

ومن خصائصه ـ عليه السلام ـ قصة الإسراء وما انطوت عليه من درجات الرفعة مما نبه عليه الكتاب العزيز، وشرحته صحاح الأخبار، قال الله تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الإسراء: ١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾[النجم: ١ـ١٨].

فلا خلاف بين المسلمين في صحة الإسراء به عليه السلام، إذ هو نص القرآن، وجاءت بتفصيله، وشرح عجائبه، وخواص نبينا محمد عليه السلام فيه أحاديث كثيرة منتشرة ـ رأينا أن نقدم أكملها، ونشير إلى زيادة من غيره يجب ذكرها:

حدثنا القاضي الشهيد أبو عليّ والفقيه أبو بحر بسماعي عليهما، والقاضي أبو عبد الله التميمي، وغير واحد من شيوخنا، قالوا: حدثنا أبو العباس العذري، قالوا: حدثنا أبو العباس الرازي، حدثنا أبو أحمد الجلودي، حدثنا ابن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار، ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه»، قال: «فركبته حتى أتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة.

ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بآدم عليه السلام، فرحب بي، ودعا لي بخير».

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة: عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا ـ عليهما السلام ـ فرحبا بي، ودعوا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة» فذكر مثل الأول، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف عليه السلام، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب بي، ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة» وذكر مثله، «فإذا أنا بإدريس، فرحب بي، ودعا لي بخير، قال الله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٧].

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة» فذكر مثله، «فإذا أنا بهارون، فرحب بي، ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة»، فذكر مثله «فإذا أنا بموسى فرحب بي، ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فذكر مثله «فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه.

ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال»، قال: «فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إليّ ما أوحى، ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم».

قال: «فرجعت إلى ربي، فقلت: يا رب، خفف عن أمتي. فحط عني خمساً، فرجعت إلى موسى، فقلت: حط عني خمساً، قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال: فلم أزل أرجع بين ربي تعالى وبين موسى حتى قال: يا محمد، إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشراً، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب له شيئاً، فإن عملها كتبت سيئة واحدة».

قال: «فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف».

قال رسول الله ﷺ: «فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه»[1].

قال القاضي - رضي الله عنه -: جوَّد ثابت - رضي الله عنه - هذا الحديث عن أنس ما شاء، ولم يأت أحد عنه بأصوب من هذا. وقد خلط فيه غيره عن أنس تخليطاً كثيراً، لا سيما من رواية شريك بن أبي نمر، فقد ذكر في أوله مجيء الملك وشق بطنه وغسله بماء زمزم، وهذا إنما كان وهو صبي وقبل الوحي.

وقد قال شريك في حديثه: وذلك قبل أن يوحى إليه، وذكر قصة الإسراء. ولا خلاف أنها كانت بعد الوحي. وقد قال غير واحد: إنها كانت قبل الهجرة بسنة، وقيل: قبل هذا.

وقد روى ثابت عن أنس، من رواية حماد بن سلمة أيضاً مجيء جبريل إلى النبي ﷺ وهو يلعب مع الغلمان عند ظئره، وشقه قلبه، تلك القصة مفردة من حديث الإسراء كما

---

(١) - صحيح: أخرجه البخاري (١٦٢).

رواه الناس، فجود في القصتين، وفي أن الإسراء إلى بيت المقدس وإلى سدرة المنتهى كان قصة واحدة، وأنه وصل إلى بيت المقدس، ثم عرج به من هناك، فأزاح كل إشكال أوهمه غيره.

وقد روى يونس، عن ابن شهاب، عن أنس، قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فرج سقف بيتي، وأنا بمكة، فنزل جبريل، ففرج صدري، ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيمانًا، فأفرغها في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بنا إلى السماء...»[1] فذكر القصة.

وروي قتادة الحديث بمثله عن أنس عن مالك بن صعصعة، وفيها تقديم وتأخير وزيادة ونقص وخلاف في ترتيب الأنبياء في السموات. وحديث ثابت عن أنس أتقن وأجود.

وقد وقعت في حديث الإسراء زيادات نذكر منها نُكتًا مفيدة في غرضنا:

منها في حديث ابن شهاب، وفيه: قول كل نبي له: «مرحبًا بالنبي الصالح، والأخ الصالح»، إلا آدم وإبراهيم فقالا: «والابن الصالح»[2].

وفيه من طريق ابن عباس: «ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام»[3].

وعن أنس: «ثم انطلق بي حتى أتيت سدرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدري ما هي» قال: «ثم أدخلت الجنة»[4].

وفي حديث مالك بن صعصعة: «فلما جاوزته» - يعني موسى - «بكى، فنودي: ما يبكيك؟ قال: رب، هذا غلام بعثته بعدي يدخل من أمته الجنة أكثر مما يدخل من أمتي».

وفي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -: «وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، فحانت الصلاة فأممتهم، فقال قائل: يا محمد، هذا مالك خازن النار، فسلم عليه. فالتفت فبدأني بالسلام»[5].

وفي حديث أبي هريرة: «ثم سار حتى أتى إلى بيت المقدس، فنزل فربط فرسه إلى

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٩، ٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣).
(٢) صحيح: تقدم.
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٩، ٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣)، وهو قبل السابق.
(٤) صحيح: تقدم.
(٥) أخرجه أبو عوانة في مسنده (٣٥٠)، وابن منده في الإيمان (٧٤٠).

صخرة، فصلى مع الملائكة فلما قضيت الصلاة قالوا: يا جبريل، من هذا معك؟ قال: هذا محمد رسول الله خاتم النبيين. قالوا: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قالوا: حياه الله من أخ وخليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة»! ثم لقوا أرواح الأنبياء فأثنوا على ربهم، وذكر كلام كل واحد منهم، وهم إبراهيم، وموسى، وعيسى، وداود، وسليمان.

ثم ذكر كلام النبي ﷺ، فقال: وإن محمداً ﷺ أثنى على ربه عز وجل فقال: «كلكم أثني على ربه، وأنا أثني على ربي: الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل عليّ الفرقان فيه تبيان كل شيء، وجعل أمتي خير أمة، وجعل أمتي أمة وسطًا، وجعل أمتي هم الأولون، وهم الآخرون، وشرح لي صدري، ووضع عني وزري، ورفع لي ذكري، وجعلني فاتحًا وخاتمًا».

فقال إبراهيم: بهذا فضلكم محمد.

ثم ذكر أنه عرج به إلى السماء الدنيا، ومن سماء إلى سماء، نحو ما تقدم.

وفي حديث ابن مسعود: «وانتهي بي إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها»، قال: ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ [النجم: ١٦]. قال: «فراش من ذهب»[1].

وفي رواية أبي هريرة، من طريق الربيع بن أنس: «فقيل لي: هذه السدرة المنتهى ينتهي إليها كل أحد من أمتك خلا على سبيلك، وهي السدرة المنتهى، يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، وهي شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين عامًا، وإن ورقة منها مظلة الخلق، فغشيها نور، وغشيتها الملائكة».

قال: « فهو قوله: ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ [النجم: ١٦]. فقال الله تبارك وتعالى لي: سل. فقال: إنك اتخذت إبراهيم خليلاً وأعطيته ملكًا عظيمًا. وكلمت موسى تكليمًا، وأعطيت داود ملكًا عظيمًا، وألنت له الحديد، وسخرت له الجبال، وأعطيت سليمان ملكًا عظيمًا،وسخرت له الجن والإنس والشياطين والرياح، وأعطيته ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وعلمت موسى التوراة والإنجيل، وجعلته يبرىء الأكمة والأبرص، وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم، فلم يكن له عليهما سبيل.

(١) صحيح: مسلم (١٧٣).

فقال لي ربي تعالى: قد اتخذتك خليلاً. فهو مكتوب في التوراة: محمد حبيب الرحمن، وأرسلتك إلى الناس كافة، وجعلت أمتك هم الأولون، وهم الآخرون، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي، وجعلتك أول النبيين خلقًا، وآخرهم بعثًا، وأعطيتك سبعًا من المثاني، ولم أعطها نبيًا قبلك، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت عرشي لم أعطها نبيًا قبلك، وجعلتك فاتحًا وخاتمًا».

وفي الرواية الأخرىٰ قال: فأعطي رسول الله ﷺ ثلاثًا: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئًا من أمته المقحمات.

وقال: ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ [النجم: ١١-١٢]. رأي جبريل في صورته، له ستمائة جناح.

وفي حديث شريك: أنه رأىٰ موسىٰ في السابعة - قال: بتفضيل كلام الله.

قال: ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله، فقال موسي: لم أظن أن يرفع عليَّ أحد.

وقد روي عن أنس: أنه ﷺ صلىٰ بالأنبياء ببيت المقدس.

وعن أنس - رضي الله عنه -، قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أنا قاعد ذات يوم إذ دخل جبريل، فوكز بين كتفي، فقمت إلى شجرة فيها مثل وكري الطائر، فقعد في واحدة وقعدت في الأخرى، فَنَمَتْ حتى سدَّت الخافقين. ولو شئت لمسست السماء، وأنا أقلب طرفي نظرت جبريل كأنه حَلْسٌ لَاطِئٌ، فعرفت فضل علمه بالله علي، وفتح لي باب السماء، ورأيت النور الأعظم، ولط دوني الحجاب، وفرجه الدر والياقوت.

ثم أوحى الله إليَّ ما شاء أن يوحي».

وذكر البزار عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: لما أراد الله تعالىٰ أن يعلم رسوله الأذان جاء جبريل بدابة يقال لها: البراق، فذهب يركبها، فاستصعبت عليه، فقال لها جبريل: اسكني، فوالله ما ركبك عبد أكرم علىٰ الله من محمد ﷺ، فركبها حتىٰ أتىٰ إلىٰ الحجاب الذي يلي الرحمن تعالىٰ، فبينا هو كذلك إذ خرج ملك من الحجاب، فقال رسول الله ﷺ: «ياجبريل من هذا؟»

قال: والذي بعثك بالحق، إني لأقرب الخلق مكانًا، وإن هذا الملك ما رأيته منذ خلقت

قبل ساعتي هذه. فقال الملك: الله أكبر. الله أكبر. فقيل له - مِنْ وراء الحجاب: صدق عبدي، أنا أكبر. أنا أكبر. ثم قال الملك: أشهد أن لا إله إلا الله. فقيل من وراء الحجاب: صدق عبدي، أنا الله لا إله إلا أنا.

وذكر مثل هذا في بقية الأذان، إلا أنه لم يذكر جوابًا عن قوله: حي على الصلاة. حي على الفلاح. وقال: ثم أخذ الملك بيد محمد، فقدمه، فأم أهل السماء، فيهم آدم ونوح.

قال أبو جعفر محمد بن عليّ بن الحسين، راويه: أكمل الله تعالى لمحمد ﷺ الشرف على أهل السموات والأرض.

قال القاضي - رضي الله عنه -: ما في هذا الحديث من ذكر الحجاب فهو في حق المخلوق لا في حق الخالق، فهم المحجوبون، والباري جل اسمه منزه عما يحجبه. إذ الحُجُبُ إنما تحيط بمقدر محسوس، ولكن حجبه على أبصار خلقه وبصائرهم وإدراكاتهم بما شاء، وكيف شاء، ومتى شاء، كقوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

فقوله في هذا الحديث: «الحجاب»، و«إذ خرج ملك من الحجاب»: يجب أن يقال: إنه حجاب حجب به من وراءه من ملائكته عن الاطلاع على ما دونه من سلطانه وعظمته وعجائب ملكوته وجبروته. ويدل عليه من الحديث قول جبريل عن الملك الذي خرج من ورائه: إن هذا الملك ما رأيته منذ خلقت قبل ساعتي هذه. فدل على أن هذا الحجاب لم يختص بالذات. ويدل عليه قول كعب في تفسير: ﴿سدرة المنتهى﴾ [النجم: ١٨] قال: إليها ينتهي علم الملائكة، وعندها يجدون أمر الله، لا يجاوزها علمهم.

وأما قوله: «الذي يلي الرحمن» فيحمل على حذف المضاف، أي: يلي عرش الرحمن، أو أمرًا ما من عظيم آياته، أو مبادئ حقائق معارفه، مما هو أعلم به، كما قال تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ أي أهلها [يوسف: ٨٢].

وقوله: «فقيل من وراء الحجاب: صدق عبدي، أنا أكبر»: فظاهره أنه سمع في هذا الموطن كلام الله، ولكن من وراء حجاب، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، أي وهو لا يراه، حجب بصره عن رؤيته.

فإن صح القول بأن محمداً ﷺ رأى ربه - عز وجل - فيحتمل أنه في غير هذا الموطن بعد هذا أو قبله، رفع الحجاب عن بصره حتى رآه. والله أعلم.

الفصل الثالث

حقيقة الإسراء

ثم اختلف السلف والعلماء: هل كان إسراء بروحه أو جسده؟ على ثلاث مقالات:

فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح، وأنه رؤيا منام، مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ووحي، وإلى هذا ذهب معاوية.

وحكي عن الحسن، والمشهور عنه خلافه، وإليه أشار محمد بن إسحاق، وحجتهم قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

وما حكوا عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: ما فقدت جسد رسول الله ﷺ.

وقوله: «بينا أنا نائم».

وقول أنس: وهو نائم في المسجد الحرام... وذكر القصة، ثم قال في آخرها: «فاستيقظت وأنا بالمسجد الحرام».

وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه إسراء بالجسد وفي اليقظة، وهذا هو الحق، وهو قول ابن عباس، وجابر، وأنس، وحذيفة، وعمر، وأبي هريرة، ومالك ابن صعصعة، وأبي حبة البدري، وابن مسعود، والضحاك، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن المسيب، وابن شهاب، وابن زيد، والحسن، وإبراهيم، ومسروق، ومجاهد، وعكرمة، وابن جريج، وهو دليل قول عائشة، وهو قول الطبري، وابن حنبل، وجماعة عظيمة من المسلمين. وقول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين.

وقالت طائفة: كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس، وإلى السماء بالروح، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، فجعل ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا﴾ غاية الإسراء الذي وقع التعجب فيه بعظيم القدرة، والتمدح بتشريف النبي ﷺ به، وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه.

قال هؤلاء: ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره، فيكون أبلغ في المدح. ثم اختلفت هذه الفرقتان: هل صلى ببيت المقدس أم لا؟

ففي حديث أنس وغيره ما تقدم من صلاته فيه. وأنكر ذلك حذيفة بن اليمان وقال: والله ما زالا عن ظهر البراق حتى رجعا.

قال القاضي: والحق من هذا والصحيح - إن شاء الله - أنه إسراء بالجسد والروح في القصة كلها، وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار، ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة، وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة، إذ لو كان منامًا لقال: بروح عبده ولم يقل: ﴿بِعَبْدِهِ﴾. وقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]. ولو كان منامًا لما كانت فيه آية ولا معجزة، ولما استبعده الكفار، ولا كذبوه فيه، ولا ارتد به ضعفاء من أسلم، وافتتنوا به، إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر، بل لم يكن منهم ذلك إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته، إلى ما ذكر في الحديث من ذكر صلاته بالأنبياء ببيت المقدس في رواية أنس - أو في السماء على ما روى غيره، وذكر مجيء جبريل له بالبراق، وخبر المعراج، واستفتاح السماء، فيقال: من معك؟ فيقول: محمد، ولقائه الأنبياء فيها، وخبرهم معه، وترحيبهم به، وشأنه في فرض الصلاة ومراجعته مع موسى في ذلك.

وفي بعض هذه الأخبار: «**فأخذ**» - يعني جبريل - «**فعرج بي إلى السماء...**» إلى قوله: «**ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام**»، وأنه وصل إلى سدرة المنتهى، وأنه دخل الجنة، ورأى فيها ما ذكره.

قال ابن عباس: هي رؤيا عين رآها النبي ﷺ لا رؤيا منام.

وعن الحسن فيه: «**بينا أنا نائم في الحجر جاءني جبريل فهمزني بعقبه، فقمت فلم أر شيئًا، فعدت لمضجعي**» - ذكر ذلك ثلاثًا، فقال في الثالثة: «**فأخذ بعضدي فجرني إلى باب المسجد فإذا بدابة...**» وذكر خبر البراق.

وعن أم هانئ: ما أسري برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي، تلك الليلة صلى العشاء الآخرة، ونام بيننا، فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله ﷺ، فلما صلى الصبح وصلينا قال: «**يا أم هانىء، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم صليت الغداة معكم الآن كما ترون**».

وهذا بين في أنه بجسمه.

وعن أبي بكر من رواية شداد بن أوس عنه: أنه قال للنبي ﷺ ليلة أسري به: طلبتك يا رسول الله البارحة في مكانك فلم أجدك. فأجابه: «**إن جبريل عليه السلام حملني إلى المسجد الأقصى**».

وعن عمر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**صليت ليلة أسري بي في

مقدم المسجد، ثم دخلت الصخرة فإذا بملك قائم معه آنية ثلاث...». وذكر الحديث.

وهذه التصريحات ظاهرة غير مستحيلة، فتحمل على ظاهرها.

وعن أبي ذر، عنه ﷺ: «فرج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل، فشرح صدري، ثم غسله بماء زمزم....» إلى آخر القصة، «ثم أخذ بيدي، فعرج بي».

وعن أنس: «أتيت فانطلق بي إلى زمزم، فشرح عن صدري»[1].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه -: «لقد رأيتني في الحجر، وقريش تسألني عن مسراي، فسألتني عن أشياء لم أثبتها، فكربت كربًا ما كربت مثله قط، فرفعه الله لي أنظر إليه»[2].

ونحوه عن جابر. وقد روى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في حديث الإسراء عنه ﷺ أنه قال: «ثم رجعت إلى خديجة وما تحولت عن جانبها».

الفصل الرابع

في إبطال حجج من قال: إنها نوم

احتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] فسمَّاها رؤية قلنا: قوله سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١] يرده، لأنه لا يقال في النوم: أسرى.

وقوله: ﴿فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾. يؤيد أنها رؤيا عين، وإسراء بشخص، إذ ليس في الحلم فتنة. ولا يكذب به أحد، لأن كل أحد يرى مثل ذلك في منامه من الكون في ساعة واحدة في أقطار متباينة.

على أن المفسرين قد اختلفوا في هذه الآية، فذهب بعضهم إلى أنها نزلت في قضية الحديبية، وما وقع في نفوس الناس من ذلك. وقيل غير هذا.

وأما قولهم: إنه قد سماها في الحديث منامًا.

وقوله في حديث آخر: «بين النائم واليقظان».

وقوله أيضًا: وهو نائم وقوله: «ثم استيقظت» فلا حجة فيه، إذ قد يحتمل أن أول

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٤).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٢).

وصول الملك إليه كان وهو نائم، أو أول حمله والإسراء به وهو نائم، وليس في الحديث أنه كان نائماً في القصة كلها إلا ما يدل عليه: «ثم استيقظت وأنا في المسجد الحرام»، فلعل قوله: «استيقظت» بمعنى أصبحت، أو استيقظ من نوم آخر بعد وصوله بيته.

ويدل عليه أن مسراه لم يكن طول ليله، وإنما كان في بعضه.

وقد يكون قوله: «استيقظت وأنا في المسجد الحرام» لما كان غمره من عجائب ما طالع من ملكوت السموات والأرض، وخامر باطنه من مشاهدة الملأ الأعلى، وما رأى من آيات ربه الكبرى، فلم يستفق ويرجع إلى حال البشرية إلا وهو بالمسجد الحرام.

ووجه ثالث: أن يكون نومه واستيقاظه حقيقة على مقتضى لفظه، ولكنه أسري بجسده وقلبه حاضر، ورؤيا الأنبياء حق، تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم.

وقد مال بعض أصحاب الإشارات إلى نحو من هذا. قال: تغميض عينيه لئلا يشغله شيء من المحسوسات عن الله تعالى. ولا يصح هذا أن يكون في وقت صلاته بالأنبياء، ولعله كانت له في هذا الإسراء حالات.

ووجه رابع، وهو: أن يعبر بالنوم ها هنا عن هيئة النائم من الاضطجاع، ويقويه قوله في رواية عبد بن حميد، عن همام «بينا أنا نائم» وربما قال: «مضطجع». وفي رواية هدبة عنه: «بينا أنا نائم في الحطيم ـ وربما قال: في الحجر ـ مضطجع». وقوله في الرواية الأخرى: «بين النائم واليقظان».

فيكون سمى هيئته بالنوم لما كانت هيئة النائم غالباً.

وذهب بعضهم إلى أن هذه الزيادات من: النوم، وذكر شق البطن، ودنو الرب عزّ وجل الواقعة في هذا الحديث إنما هي من رواية شريك عن أنس، فهي منكرة من روايته، إذ شق البطن في الأحاديث الصحيحة إنما كان في صغره ﷺ وقبل النبوة، ولأنه قال في الحديث: «قبل أن يبعث»، والإسراء بإجماع كان بعد المبعث، فهذا كله يوهن ما وقع في رواية أنس، مع أن أنساً قد بين من غير طريق أنه إنما رواه عن غيره، وأنه لم يسمعه من النبي ﷺ، فقال مرةً: عن مالك بن صعصعة، وفي كتاب مسلم: لعله عن مالك بن صعصعة ـ على الشك. وقال مرةً: كان أبو ذر يحدث.

وأما قول عائشة: «ما فقد جسده»، فعائشة لم تحدث به عن مشاهدة، لأنها لم تكن حينئذ زوجه، ولا في سن من يضبط، ولعلها لم تكن ولدت بعد، على الخلاف في الإسراء متى كان، فإن الإسراء كان في أول الإسلام على قول الزهري ومن وافقه بعد

المبعث بعام ونصف، وكانت عائشة في الهجرة بنت نحو ثمانية أعوام.

وقد قيل: كان الإسراء لخمس قبل الهجرة. وقيل: قبل الهجرة بعام. والأشبه أنه لخمس. والحجة لذلك تطول، وليست من غرضنا، فإذا لم تشاهد ذلك عائشة دل على أنها حدثت بذلك عن غيرها، فلم يرجح خبرها على خبر غيرها، وغيرها يقول خلافه مما وقع نصًا في حديث أم هانئ وغيره.

وأيضًا فليس حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ بالثابت، والأحاديث الأخر أثبت، ولسنا نعني حديث أم هانئ، وما ذكرت فيه خديجة.

وأيضًا فقد روي في حديث عائشة: «ما فقدت»، ولم يدخل بها النبي ﷺ إلا بالمدينة.

وكل هذا يوهنه، بل الذي يدل عليه صحيح قولها: إنه بجسده، لإنكارها أن تكون رؤياه لربه رؤيا عين، ولو كانت عندها منامًا لم تنكره.

فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم: ١١] فقد جعل ما رآه للقلب، وهنا يدل على أنه رؤيا نوم ووحي، لا مشاهدة عين وحس.

قلنا: يقابله قوله تعالى: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]، فقد أضاف الأمر للبصر.

وقد قال أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم: ١١]، أي لم يوهم القلب العين غير الحقيقة، بل صدق رؤيتها. وقيل: ما أنكر قلبه ما رأته عينه.

الفصل الخامس

رؤيته لربه

وأما رؤيته ﷺ لربه ـ جل وعز ـ فاختلف السلف فيها، فأنكرته عائشة.

حدثنا أبو الحسين سراج بن عبد الملك الحافظ بقراءتي عليه، قال: حدثني أبي وأبو عبد الله بن عتاب الفقيه، قالا: حدثنا القاضي يونس بن مغيث، حدثنا أبو الفضل الصقلي، حدثنا ثابت بن قاسم بن ثابت، عن أبيه وجده، قالا: حدثنا عبد الله بن عليّ، قال: حدثنا محمود بن آدم، حدثنا وكيع، عن ابن أبي خالد، عن عامر، عن مسروق: أنه قال لعائشة ـ رضي الله عنها ـ: يا أم المؤمنين، هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد قَفَّ شعري مما قلت، ثلاث من حدثك بهن فقد كذب: من حدثك أن محمدًا رأى ربه فقد

كذب، ثم قرأت: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وذكر الحديث[١].

وقال جماعة بقول عائشة - رضي الله عنها -، وهو المشهور عن ابن مسعود.

ومثله عن أبي هريرة أنه قال: إنما رأىٰ جبريل. واختلف عنه. وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه رآه بعينه.

وروىٰ عطاء عنه - أنه رآه بقلبه. وعن أبي العالية، عنه: رآه بفؤاده مرتين[٢].

وذكر ابن إسحاق أن ابن عمر أرسل إلىٰ ابن عباس - رضي الله عنهما - يسأله: هل رأىٰ محمد ربه؟ فقال: نعم.

والأشهر عنه أنه رأىٰ ربه بعينه، روي ذلك عنه من طرق، وقال: إن الله تعالىٰ اختص موسىٰ بالكلام، وإبراهيم بالخلة، ومحمداً بالرؤية.

وحجته قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١١-١٣].

قال الماوردي: قيل: إن الله تعالىٰ قسم كلامه ورؤيته بين موسىٰ ومحمد ﷺ، فرآه محمد مرتين، وكلمه موسىٰ مرتين.

وحكىٰ أبو الفتح الرازي وأبو الليث السمرقندي الحكاية عن كعب.

وروىٰ عبد الله بن الحارث، قال: اجتمع ابن عباس وكعب، فقال ابن عباس: أما نحن بنو هاشم فنقول: إن محمداً قد رأىٰ ربه مرتين، فكبر كعب حتىٰ جاوبته الجبال، وقال: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسىٰ، فكلمه موسىٰ، ورآه محمد بقلبه.

وروىٰ شريك عن أبي ذر - رضي الله عنه - في تفسير الآية، قال: رأىٰ النبي ﷺ ربه.

وحكىٰ السمرقندي، عن محمد بن كعب القرظي، وربيع بن أنس - أن النبي ﷺ سئل: هل رأيت ربك؟ قال: «رأيته بفؤادي، ولم أره بعيني».

وروىٰ مالك بن يُخَامِرَ، عن معاذ، عن النبي ﷺ قال: «رأيت ربي...» وذكر كلمة، «فقال: يا محمد، فيم يختصم الملأ الأعلى؟..»[٣] الحديث.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٨٥٥، ٧٣٨٠).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٦).
(٣) صححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٥٩).

وحكىٰ عبد الرزاق أن الحسن كان يحلف بالله لقد رأىٰ محمد ربه. وحكاه أبو عمر الطَّلَمَنْكِيّ عن عكرمة.

وحكىٰ بعض المتكلمين هذا المذهب عن ابن مسعود.

وحكىٰ ابن إسحاق أن مروان سأل أبا هريرة. هل رأىٰ محمد ربه؟ فقال: نعم.

وحكىٰ النقاش، عن أحمد بن حنبل أنه قال: أنا أقول بحديث ابن عباس: بعينه رآه. حتىٰ انقطع نفسه ـ يعني نفس أحمد.

وقال أبو عمر: قال أحمد بن حنبل: رآه بقلبه، وجبن عن القول برؤيته في الدنيا بالإبصار.

وقال سعيد بن جبير: لا أقول: رآه، ولا: لم يره.

وقد اختلف في تأويل الآية عن ابن عباس، وعكرمة، والحسن، وابن مسعود، فحكي عن ابن عباس وعكرمة: رآه بقلبه. وعن الحسن وابن مسعود: رأىٰ جبريل.

وحكىٰ عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن أبيه، أنه قال: رآه.

وعن ابن عطاء في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] قال: شرح صدره للرؤية، وشرح صدر موسىٰ للكلام.

وقال أبو الحسن عليّ بن إسماعيل الأشعري ـ رضي الله عنه ـ وجماعة من أصحابه أنه رأىٰ الله تعالىٰ ببصره وعيني رأسه، وقال: كل آية أوتيها نبي من الأنبياء عليهم السلام فقد أوتي مثلها نبينا، وخص من بينهم بتفضيل الرؤية.

ووقف بعض مشايخنا في هذا، وقال: ليس عليه دليل واضح، ولكنه جائز أن يكون.

قال القاضي أبو الفضل: والحق الذي لا امتراء فيه: أن رؤيته تعالىٰ في الدنيا جائزة عقلاً، وليس في العقل ما يحيلها.

والدليل علىٰ جوازها في الدنيا سؤال موسىٰ عليه السلام لها. ومحال أن يجهل نبي ما يجوز علىٰ الله وما لا يجوز عليه، بل لم يسأل إلا جائزاً غير مستحيل، ولكن وقوعه ومشاهدته من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، فقال له الله تعالىٰ: ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]: أي لن تطيق، ولا تحتمل رؤيتي، ثم ضرب له مثلاً مما هو أقوىٰ من نبيه موسىٰ وأثبت، وهو الجبل.

وكل هذا ليس فيه ما يحيل رؤيته في الدنيا، بل فيه جوازها علىٰ الجملة، وليس في الشرع دليل قاطع علىٰ استحالتها ولا امتناعها، إذ كل موجود فرؤيته جائزة غير مستحيلة.

ولا حجة لمن استدل على منعها بقوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأبصار﴾ [الأنعام: ١٠٣]، لاختلاف التأويلات في الآية، وإذ ليس يقتضي قول من قال في الدنيا الاستحالة.

وقد استدل بعضهم بهذه الآيات نفسها على جواز الرؤية وعدم استحالتها على الجملة.

وقد قيل: لا تدركه أبصار الكفار. وقيل: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأبصار﴾: لا تحيط به، وهو قول ابن عباس. وقد قيل: لا تدركه الأبصار، وإنما يدركه المبصرون.

وكل هذه التأويلات لا تقتضي منع الرؤية ولا استحالتها.

وكذلك لا حجة لهم بقوله تعالى: ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]. وقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] لما قدمناه، ولأنها ليست على العموم، ولأن من قال: «معناها: لن تراني في الدنيا» إنما هو تأويل. وأيضًا فليس فيه نص الامتناع، وإنما جاءت في حق موسى، وحيث تتطرق التأويلات وتتسلط الاحتمالات فليس للقطع إليه سبيل.

وقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾، أي من سؤالي ما لم تقدره لي.

وقد قال أبو بكر الهذلي في قوله: ﴿لَن تَرَانِي﴾: أي ليس لبشر أن يطيق أن ينظر إليّ في الدنيا، وإن من نظر إليّ مات.

ولقد رأيت لبعض السلف والمتأخرين ما معناه: إن رؤيته تعالى في الدنيا ممتنعة، لضعف تركيب أهل الدنيا وقواهم، وكونها متغيرة غرضًا للآفات والفناء، فلم تكن لهم قوة على الرؤية، فإذا كان في الآخرة وركبوا تركيبًا آخر، ورزقوا قوى ثابتة باقية، وأتم أنوار أبصارهم وقلوبهم قووا بها على الرؤية. وقد رأيت نحو هذا لمالك بن أنس ـ رحمه الله ـ، قال: لم ير في الدنيا، لأنه باق، ولا يرى الباقي بالفاني، فإذا كان في الآخرة ورزقوا أبصارًا باقية رئي الباقي بالباقي.

وهذا الكلام حسن مليح، وليس فيه دليل على الاستحالة إلا من حيث ضعف القدرة، فإذا قوى الله تعالى من شاء من عباده وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم تمتنع في حقه.

وقد تقدم ما ذكر في قوة بصر موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ونفوذ إدراكهما بقوة إلهية منحاها لإدراك ما أدركاه ورؤية ما رأياه. والله أعلم.

وقد ذكر القاضي أبو بكر ـ في أثناء أجوبته عن الآيتين ـ ما معناه: إن موسى عليه السلام رأى الله، فلذلك خر صعقًا، وإن الجبل رأى ربه فصار دكًا بإدراك خلقه الله له. واستنبط ذلك، والله أعلم، من قوله: ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ثم قال: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف: ١٤٣].
وتجليه للجبل هو ظهوره له حتى رآه على هذا القول.

وقال جعفر بن محمد: شغله بالجبل حتى تجلى، ولولا ذلك لمات صعقًا بلا إفاقة.
وقوله هذا يدل على أن موسى رآه.

وقد وقع لبعض المفسرين - في الجبل - أنه رآه، وبرؤية الجبل له استدل من قال برؤية محمد نبينا له، إذ جعله دليلاً على الجواز. ولا مرية في الجواز، إذ ليس في الآيات نص بالمنع.

وأما وجوبه لنبينا ﷺ، والقول بأنه رآه بعينه فليس فيه قاطع أيضًا ولا نص، إذ المعول فيه على آيتي «النجم»، والتنازع فيهما مأثور، والاحتمال لهما ممكن، ولا أثر قاطع متواتر عن النبي ﷺ بذلك.

وحديث ابن عباس خبر عن اعتقاده لم يسنده إلى النبي ﷺ فيجب العمل باعتقاد مضمنه. ومثله حديث أبي ذر في تفسير الآية.

وحديث معاذ محتمل للتأويل، وهو مضطرب الإسناد والمتن.

وحديث أبي ذر الآخر مختلف محتمل مشكل. فروي: «نور اني أراه».

وحكى بعض شيوخنا أنه روي: « نور إنيَّ أراه »(١).

وفي حديثه الآخر: سألته، فقال: «**رأيت نوراً**». وليس يمكن الاحتجاج بواحد منها على صحة الرؤية، فإن كان الصحيح: «**رأيت نوراً**» فهو قد أخبر أنه لم ير الله، وإنما رأى نوراً منعه وحجبه عن رؤية الله. وإلى هذا يرجع قوله: «**نور أنى أراه**» أي كيف أراه مع حجاب النور المغشي للبصر؟! وهذا مثل ما في الحديث الآخر: «**حجابه النور**»(٢).

وفي الحديث الآخر: «**لم أره بعيني، ولكن رأيته بقلبي مرتين وتلا: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾** [النجم: ٩]»، والله قادر على خلق الإدراك الذي في البصر في القلب، أو كيف شاء، لا إله غيره.

فإن ورد حديث نص بيِّنٌ في الباب اعتقد ووجب المصير إليه، إذ لا استحالة فيه، ولا مانع قطعي يرده، والله الموفق.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٨).
(٢) صحيح: تقدم.

الفصل السادس

مناجاته لله تعالى

وأماما ورد في هذه القصة من مناجاته لله تعالى وكلامه بقوله: ﴿ **فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ** ﴾ [النجم: ١٠]- إلى ما تضمنته الأحاديث - : فأكثر المفسرين على أن الموحي الله عز وجل إلى جبريل، وجبريل إلى محمد ﷺ، إلا شذوذاً منهم، فذكر عن جعفر بن محمد الصادق، قال: أوحى إليه بلا واسطة، ونحوه عن الواسطي، وإلى هذا ذهب بعض المتكلمين: أن محمداً كلم ربه في الإسراء. وحكي عن الأشعري، وحكوه عن ابن مسعود وابن عباس، وأنكره آخرون. وذكر النقاش، عن ابن عباس- في قصة الإسراء، عنه ﷺ في قوله: ﴿ **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ** ﴾ [النجم: ٨]- قال: «**فارقني جبريل، وانقطعت الأصوات عني، فسمعت كلام ربي وهو يقول: ليهدأ روعك يا محمد، ادن، ادن**».

وفي حديث أنس في الإسراء نحواً منه، وقد احتجوا في هذا بقوله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ** ﴾ [الشورى: ٥١]، فقالوا: هي ثلاثة أقسام: من وراء حجاب كتكليم موسى، وبإرسال الملائكة كحال جميع الأنبياء وأكثر أحوال نبينا ﷺ، الثالث: قوله: وحياً، ولم يبق من تقسيم الكلام إلا المشافهة مع المشاهدة. وقد قيل: الوحي هنا: هو ما يلقيه في قلب النبي دون واسطة. وقد ذكر أبو بكر البزار، عن عليّ في حديث الإسراء ما هو أوضح في سماع النبي ﷺ لكلام الله من الآية، فذكر فيه: «**فقال الملك: الله أكبر. الله أكبر، فقيل لي من وراء الحجاب: صدق عبدي، أنا أكبر، أنا أكبر**». وقال في سائر كلمات الأذان مثل ذلك. ويجيء الكلام في مشكل هذين الحديثين في الفصل بعد هذا مع ما يشبهه، وفي أول فصل من الباب منه.

وكلام الله تعالى لمحمد ﷺ ومن اختصه من أنبيائه جائز غير ممتنع عقلاً، ولا ورد في الشرع قاطع يمنعه، فإن صح في خبر احتمل عليه، وكلامه تعالى لموسى كائن حق مقطوع به، نص ذلك في الكتاب، وأكده بالمصدر دلالة على الحقيقة، ورفع مكانه على ما ورد في الحديث: «**في السماء السابعة**» بسبب كلامه. ورفع محمداً فوق هذا كله حتى بلغ مستوىً، وسمع صريف الأقلام، فكيف يستحيل في حق هذا أو يبعد سماع الكلام، فسبحان من خص من شاء بما شاء، وجعل بعضهم فوق بعض درجات.

الفصل السابع

الدنو والقرب

وأما ما ورد في حديث الإسراء وظاهر الآية من الدنو والقرب من قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[النجم: ٨-٩] ،وأكثر المفسرين أن الدنو والتدلي منقسم ما بين محمد وجبريل عليه السلام، أو مختص بأحدهما من الآخر، أو من السدرة المنتهى.

قال الرازي: وقال ابن عباس: هومحمد دنا فتدلى من ربه.

وقيل: معني دنا: قرب، وتدلى: زاد في القرب. وقيل: هما بمعنى واحد، أي قرب.

وحكى مكي، والماوردي ،عن ابن عباس: هو الرب، دنا محمد، فتدلى إليه: أي أمره وحكمه.

وحكى النقاش عن الحسن، قال: دنا من عبده محمد ﷺ فتدلى، فقرب منه، فأراه ما شاء أن يريه من قدرته وعظمته.

قال: وقال ابن عباس: هو مقدم ومؤخر: تدلى الرفرف لمحمد ﷺ ليلة المعراج، فجلس عليه، ثم رفع فدنا من ربه.

قال: «فارقني جبريل، وانقطعت عني الأصوات، وسمعت كلام ربي عز وجل».

وعن أنس في «الصحيح»: «عرج بي جبريل إلى سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة، فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى»، فأوحى إليه بما شاء، وأوحى إليه خمسين صلاة. . وذكر حديث الإسراء. وعن محمد بن كعب: هو محمد، دنا من ربه، فكان كقاب قوسين. قال: وقال جعفر بن محمد: أدناه ربه منه حتى كان منه كقاب قوسين. وقال جعفر بن محمد: والدنو من الله لا حد له، ومن العباد بالحدود. وقال أيضًا: انقطعت الكيفية عن الدنو، الا ترى كيف حجب جبريل عن دنوه، ودنا محمد ﷺ إلى ما أودع قلبه من المعرفة والإيمان، فتدلى بسكون قلبه إلى ما أدناه، وزال عن قلبه الشك والارتياب. قال القاضي أبو الفضل: اعلم أن ما وقع من إضافة الدنو والقرب هنا من الله، أو إلى الله فليس بدنو مكان، ولا قرب مدى، بل كما ذكرناه عن جعفر الصادق: ليس بدنو حد، وإنما دنو النبي ﷺ من ربه وقربه منه إبانة عظيم منزلته، وتشريف رتبته، وإشراق أنوار معرفته، ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته، ومن الله تعالى له مبرة وتأنيس

وبسط وإكرام، ويتأول فيه ما يتأول في قوله: «**ينزل ربنا إلى السماء الدنيا**»[(١)] ـ على أحد الوجوه: نزول إفضال وإجمال وقبول وإحسان. قال الواسطي: من توهم أنه بنفسه دنا جعل ثم مسافة، بل كلما دنا بنفسه من الحق تدلى بعداً. يعني عن درك حقيقته، إذ لا دنو للحق ولا بعد. وقوله: ﴿**فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ**﴾ فمن جعل الضمير عائداً إلى الله، لا إلى جبريل على هذا كان عبارة عن نهاية القرب، ولطف المحل، وإيضاح المعرفة، والإشراف على الحقيقة عن محمد ﷺ وعبارة عن إجابة الرغبة، وقضاء المطالب، وإظهار التحفي، وإنافة المنزل والمرتبة من الله له. ويتأول فيه ما يتأول في قوله: «**من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة**»[(٢)]، قرب بالإجابة والقبول، وإتيان بالإحسان وتعجيل المأمول.

الفصل الثامن

في ذكر تفضيله في القيامة بخصوص الكرامة

حدثنا القاضي أبو عليّ، حدثنا أبو الفضل، وأبو الحسين، قالا: حدثنا أبو يعلى السنجي، حدثنا ابن محبوب، حدثنا الترمذي، حدثنا الحسين بن يزيد الكوفي، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن ليث، عن الربيع بن أنس، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا أول الناس خروجًا إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا، لواء الحمد بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر**».

وفي رواية ابن زحر، عن الربيع بن أنس في لفظ هذا الحديث: «**أنا أول الناس خروجًا إذا بعثوا، وأنا قائدهم إذا وفدوا، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، وأنا شفيعهم إذا حبسوا، وأنا مبشرهم إذا أبلسوا، لواء الكرم بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر، ويطوف عليّ ألف خادم كأنهم لؤلؤ مكنون**».

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «**وأكسى حلة من حلل الجنة، ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم بذلك المقام غيري**».

وعن أبي سعيد، قال: قال رسول ا لله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما نبي يومئذ ـ آدم فمن سواه ـ إلا تحت لوائي، وأنا أول من**

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١١٤٥، ٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

تنشق عنه الأرض ولا فخر».

وعن أبي هريرة، عنه ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع»[1].

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: «أنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع، وأول مشفع، ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلق الجنة، فيفتح لي فأدخلها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر».

وعن أنس: «أنا أول الناس يشفع في الجنة، وأنا أكثر الناس تبعًا»[2].

وعن أنس - رضي الله عنه -، قال النبي ﷺ: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وتدرون بم ذلك؟ يجمع الله الأولين والآخرين» - وذكر حديث الشفاعة[3].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه ﷺ قال: «أطمع أكون أعظم الأنبياء أجراً يوم القيامة».

وفي حديث آخر: «أما ترضون أن يكون إبراهيم وعيسى فيكم يوم القيامة؟!» ثم قال: «إنهما في أمتي يوم القيامة، أما إبراهيم فيقول: أنت دعوتي وذريتي، فاجعلني من أمتك. وأما عيسى، فالأنبياء إخوة بنو علات، أمهاتهم شتي، وإن عيسى أخي ليس بيني وبينه نبي، وأنا أولى الناس به»[4].

قوله: «أنا سيد الناس يوم القيامة». هو سيدهم في الدنيا، ويوم القيامة. ولكن أشار ﷺ لانفراده فيه بالسُّؤدد والشفاعة دون غيره، إذ لجأ الناس إليه في ذلك، فلم والسيد: هو الذي يلجأ الناس إليه في حوائجهم، فكان حينئذ سيداً منفرداً من بين البشر، لم يزاحمه أحد في ذلك، ولا ادعاه، كما قال تعالى: ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

والملك له تعالى في الدنيا والآخرة، لكن في الآخرة انقطعت دعوى المدعين لذلك في الدنيا. وكذلك لجأ إلى محمد ﷺ جميع الناس في الشفاعة، فكان سيدهم في الأخرى دون دعوى.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٧٨).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٨٤).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).
(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٤٣).

وعن أنس -رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة، فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. فيقول: بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك»(١).

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء، وماؤه أبيض من الورق، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منه لم يظمأ أبدًا»(٢).

وعن أبي ذر نحوه، وقال: «طوله ما بين عمان إلى أيلة، يشخب فيه ميزابان من الجنة».

وعن ثوبان مثله، وقال: «أحدهما من ذهب، والآخر من ورق».

وفي رواية حارثة بن وهب: «كما بين المدينة وصنعاء».

وقال أنس: «أيلة وصنعاء».

وقال ابن عمر: «كما بين الكوفة والحجر الأسود».

وروى حديث الحوض أيضًا أنس، وجابر، وسمرة، وابن عمر، وعقبة، وابن عامر، وحارثة بن وهب الخزاعي، والمستورد، وأبو برزة الأسلمي، وحذيفة بن اليمان، وأبو أمامة، وزيد بن أرقم، وابن مسعود، وعبد الله بن زيد، وسهل بن سعد، وسويد بن جبلة، وأبو بكر، وعمر بن الخطاب، وابن بريدة، وأبو سعيد الخدري، وعبد الله الصنابحي، وأبو هريرة، والبراء، وجندب، وعائشة، وأسماء بنت أبي بكر، وأبو بكرة، وخولة بنت قيس، وغيرهم.

الفصل التاسع

في تفضيله بالمحبة والخلة

جاءت بذلك الآثار الصحيحة، واختص على ألسنة المسلمين بحبيب الله، أخبرنا أبو القاسم بن إبراهيم الخطيب وغيره، عن كريمة بنت أحمد، حدثنا أبو الهيثم وحدثنا حسين ابن محمد الحافظ سماعًا عليه، حدثنا القاضي أبو الوليد، حدثنا عبد بن أحمد، وحدثنا

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٨٤).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢).

أبو الهيثم، حدثنا أبو عبد الله محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عبد الله ابن محمد، حدثنا أبو عامر، حدثنا فليح، حدثنا أبو النضر، عن بسر بن سعيد، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ أنه قال: «**لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر**»(١).

وفي حديث آخر: «**وإن صاحبكم خليل الله**»(٢).

ومن طريق عبد الله بن مسعود: «**وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً**».

وعن ابن عباس، قال: جلس ناس من أصحاب النبي ﷺ ينتظرونه، قال: فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون، فسمع حديثهم، فقال بعضهم: عجباً! إن الله اتخذ من خلقه خليلاً، اتخذ إبراهيم خليلاً(٣).

وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام موسى، كلمه الله تكليماً.

وقال آخر: فعيسى كلمة الله وروحه.

وقال آخر: وآدم اصطفاه الله.

فخرج عليهم فسلم، وقال: «**قد سمعت كلامكم وعجبكم، أن الله تعالى اتخذ إبراهيم خليلاً، وهو كذلك، وموسى نجي الله، وهو كذلك، وعيسى روح الله، هو كذلك، وآدم اصطفاه الله، وهو كذلك، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر**»(٤).

وفي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - من قول الله تعالى لنبيه ﷺ: «**إني اتخذتك خليلاً، فهو مكتوب في التوراة: اسم حبيب الرحمن**»(٥).

قال القاضي أبو الفضل: اختلف في تفسير الخلة، وأصل اشتقاقها، فقيل: الخليل المنقطع إلى الله الذي ليس في انقطاعه إليه ومحبته له اختلال.

وقيل: الخليل المختص، واختار هذا القول غير واحد.

وقال بعضهم: أصل الخلة الاستصفاء، وسمي إبراهيم خليل الله لأنه يوالي فيه ويعادي فيه، وخلة الله له نصره، وجعله إماماً لمن بعده.

وقيل: الخليل: أصله الفقير المحتاج المنقطع، مأخوذ من الخلة وهي الحاجة، فسمي بها

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٧)، ومسلم (٥٣٢، ٢٣٨٢).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٨٣).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٨٣).
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) انظر المجمع للهيثمي (١/ ٧١).

إبراهيم، لأنه قصر حاجته على ربه، وانقطع إليه بهمه، ولم يجعله قبل غيره، إذ جاءه جبريل وهو في المنجنيق، ليرمى به في النار، فقال: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا.

وقال أبو بكر بن فورك: الخلة: صفاء المودة التي توجب الاختصاص بتخلل الأسرار.

وقال بعضهم: أصل الخلة المحبة، ومعناه الإسعاف، والإلطاف، والترفيع، والتشفيع، وقد بين ذلك في كتابه تعالى بقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

فأوجب للمحبوب ألا يؤاخذ بذنوبه.

قال: هذا، والخلة أقوى من النبوة، لأن النبوة قد تكون فيها العداوة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

ولا يصح أن تكون عداوة مع خلة: فإذاً تسمية إبراهيم ومحمد عليهما السلام بالخلة إما بانقطاعهما إلى الله ووقف حوائجهما عليه، والانقطاع عمن دونه، والإضراب عن الوسائط والأسباب، أو لزيادة الاختصاص منه تعالى لهما، وخفي ألطافه عندهما، وما خالل بواطنهما من أسرار إلهيته، ومكنون غيوبه ومعرفته، أو لاستصفائه لهما واستصفاء قلوبهما عمن سواه، حتى لم يخاللهما حب لغيره، ولهذا قال بعضهم: الخليل من لا يتسع قلبه لسواه، وهو عندهم معنى قوله ﷺ: «ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، لكن أخوة الإسلام»(١).

واختلف العلماء وأرباب القلوب: أيهما أرفع درجة: الخلة، أو درجة المحبة؟ فجعلهما بعضهم سواءً، فلا يكون الحبيب إلا خليلاً، ولا الخليل إلا حبيبًا، لكنه خص إبراهيم بالخلة، ومحمداً بالمحبة.

وبعضهم قال: درجة الخلة أرفع، واحتج بقوله ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي عز وجل». فلم يتخذه. وقد أطلق المحبة لفاطمة، وابنيها، وأسامة وغيرهم.

وأكثرهم جعل المحبة أرفع من الخلة، لأن درجة الحبيب نبينا أرفع من درجة الخليل إبراهيم.

---

(١) صحيح: تقدم قريبًا.

وأصل المحبة الميل إلى ما يوافق المحب، ولكن هذا في حق من يصح الميل منه والانتفاع بالوفق، وهي درجة المخلوق، فأما الخالق ـ جل جلاله ـ فمنزه عن الأغراض، فمحبته لعبده تمكينه من سعادته، وعصمته وتوفيقه وتهيئة أسباب القرب، وإفاضة رحمته عليه، وقصواها كشف الحُجُب عن قلبه حتى يراه بقلبه وينظر إليه ببصيرته، فيكون كما قال في الحديث: «**فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به**»[1].

ولا ينبغي أن يفهم من هذا سوى التجرد لله، والانقطاع إلى الله، والإعراض عن غير الله، وصفاء القلب لله، وإخلاص الحركات لله، كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كان خلقه القرآن، برضاه يرضى، وبسخطه يسخط.

ومن هذا عبر بعضهم عن الخلة بقوله:

قد تخللت مسلك الروح مني ... وبذا سمي الخليل خليلا

فإذا ما نطقت كنت حديثي ... وإذا ما سكت كنت الغليلا

فإذا مزية الخلة، وخصوصية المحبة حاصلة لنبيناﷺ بما دلت عليه الآثار الصحيحة المنتشرة، المتلقاة بالقبول من الأمة، وكفى بقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[آل عمران: ٣١].

حكى أهل التفسير أن هذه الآية لما نزلت قال الكفار: إنما يريد محمد أن نتخذه حنانًا كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم، فأنزل الله غيظًا لهم، ورغمًا على مقالتهم هذه الآية: ﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ**﴾[آل عمران: ٣٢]، فزاده شرفًا بأمرهم بطاعته، وقرنها بطاعته، ثم توعدهم على التولي عنه بقوله: ﴿**فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقد نقل الإمام أبو بكر بن فورك عن بعض المتكلمين كلامًا في الفرق بين المحبة والخلة يطول، جملة إشاراته إلى تفضيل مقام المحبة على الخلة، ونحن نذكر منه طرفًا يهدي إلى ما بعده:

فمن ذلك قولهم: الخليل يصل بالواسطة، من قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾[الأنعام: ٧٥]. والحبيب يصل لحبيبه به، من قوله: ﴿**فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾[النجم: ٩].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

وقيل: الخليل: الذي تكون مغفرته في حد الطمع، من قوله: ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]. والحبيب الذي مغفرته في حد اليقين، من قوله: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح: ٢].

والخليل قال: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧]. والحبيب قيل له: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ ﴾ [التحريم: ٨]. فابتدئ بالبشارة قبل السؤال.

والخليل قال في المحنة: ﴿ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ١٢٩]. والحبيب قيل له: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٤].

والخليل قال: ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]. والحبيب قيل له: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح: ٤]. أعطي بلا سؤال.

والخليل قال: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. والحبيب قيل له: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وفيما ذكرنا تنبيه على مقصد أصحاب هذا المقال من تفضيل المقامات والأحوال، وكل يعمل على شاكلته، فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً.

الفصل العاشر

في تفضيله بالشفاعة والمقام المحمود

قال الله تعالى: ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩].

أخبرنا الشيخ أبو عليّ الغساني الجياني فيما كتب إليّ بخطه، حدثنا سراج بن عبد الله القاضي، حدثنا أبو محمد الأصيلي، حدثنا أبو زيد وأبو أحمد: قالا: حدثنا محمد بن يوسف، قال: حدثنا محمد بن إسماعيل، قال: حدثنا إسماعيل بن أبان، حدثنا أبو الأحوص، عن آدم بن عليّ، سمعت ابن عمر يقول: إن الناس يصيرون يوم القيامة جثى، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع لنا، يا فلان اشفع لنا، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود[1].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧١٨).

وعن أبي هريرة: سئل عنها رسول الله ﷺ: يعني: قوله: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] فقال «هي الشفاعة»[١]. وروى كعب بن مالك عنه ﷺ «يحشر الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تل ويكسوني ربي حلة خضراء، ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمو د»[٢].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ وذكر حديث الشفاعة ـ قال: فيمشي حتى يأخذ بحلقة الجنة، فيومئذ يبعثه الله المقام المحمود الذي وعده.

وعن ابن مسعود عنه ﷺ أن قيامه عن يمين العرش مقامًا لا يقومه غيره، يغبطه فيه الأولون والآخرون.

ونحوه عن كعب والحسن.

وفي رواية: «هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه».

وعن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لقائم المقام المحمود». قيل: وما هو؟ قال: «ذلك يوم ينزل الله تبارك وتعالى على كرسيه.. » الحديث[٣].

وعن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ، عنه ﷺ: «خيرت بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة، لأنها أعم، أترونها للمتقين؟ لا، ولكنها للمذنبين الخطائين»[٤]. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، قال: قلت: يا رسول الله، ماذا ورد عليك في الشفاعة؟ فقال: «شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصًا، يصدق لسانَه وقلبُه»[٥]. وعن أم حبيبة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «أريت ما تلقى أمتي من بعدي، وسفك بعضهم دماء بعض، وسبق لهم من الله ما سبق للأمم قبلهم، فسألت الله أن يؤتيني شفاعة يوم القيامة فيهم، ففعل»[٦].

وقال حذيفة: يجمع الله الناس في صعيد واحد حيث يسمعهم الداعي، وينفذهم

---

(١) حسن لغيره: أخرجه الترمذي (٣١٣٧)، وحسنه الألباني رحمه الله في الصحيحة (٢٣٦٩).
(٢) صححه الألباني رحمه الله في الصحيحة (٢٣٧٠).
(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣/ ٨٢).
(٤) صححه الألباني رحمه الله في صحيح ابن ماجه (٣٤٨٠)، إلا قوله: «لأنها أعم»، فقد ضعفه في الضعيفة (٣٥٨٥).
(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٧)، وإسحاق بن راهويه (٣٣٧)، والبخاري في التاريخ الكبير (٤/ ١١١)، وانظر علل الدارقطني (٩/ ٤٥).
(٦) صحيح: أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٢١٥)، والآحاد والمثاني (٥/ ٤٢١)، وصححه الألباني رحمه الله في الصحيحة (١٤٤٠).

البصر، حفاة عراة كما خلقوا، سكوتًا لا تكلم نفس إلا بإذنه فينادي محمد فيقول: «**لبيك وسعديك، والخير بين يديك، والشر ليس إليك، والمهتدي من هديت، وعبدك بين يديك، ولك وإليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك تباركت وتعاليت، سبحانك رب البيت**» قال: «**فذلك المقام المحمود الذي ذكر الله**».

وقال ابن عباس - رضي الله عنه -: إذا دخل أهل النار النار، وأهل الجنة الجنة، فتبقى آخر زمرة من الجنة وآخر زمرة من النار، فتقول زمرة النار لزمرة الجنة: ما نفعكم إيمانكم، فيدعون ربهم ويضجون، فيسمعهم أهل الجنة فيسألون آدم وغيره بعده في الشفاعة لهم، فكل يعتذر حتى يأتوا محمداً ﷺ فيشفع لهم، فذلك المقام المحمود.

ونحوه عن ابن مسعود أيضًا، ومجاهد.

وذكره عليّ بن الحسين عن النبي ﷺ.

وقال جابر بن عبد الله ليزيد الفقير: سمعت بمقام محمد - يعني الذي يبعثه الله فيه -؟ قلت: نعم. قال: فإنه مقام محمد المحمود الذي يخرج الله به من يخرج - يعني من النار وذكر حديث الشفاعة في إخراج الجهنميين.

وعن أنس نحوه، وقال: فهذا المقام المحمود الذي وعده.

وعن سلمان: المقام المحمود هو الشفاعة في أمته يوم القيامة.

ومثله عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال قتادة: كان أهل العلم يرون المقام المحمود هو شفاعته يوم القيامة، وعلى أن المقام المحمود مقامه عليه الصلاة والسلام للشفاعة مذاهب السلف من الصحابة والتابعين وعامة أئمة المسلمين.

وبذلك جاءت الشفاعة مفسرة في صحيح الأخبار عنه عليه الصلاة والسلام، وجاءت مقالة في تفسيرها شاذة عن بعض السلف، يجب ألا تثبت، إذا لم يعضدها صحيح أثر، لا سند نظر.

ولو صحت لكان لها تأويل غير مستنكر، لكن ما فسره النبي ﷺ في صحيح الآثار يرده، فلا يجب أن يلتفت إليه، مع أنه لم يأت في كتاب ولا سنة، ولا اتفق على المقال أمة، وفي إطلاق ظاهره منكر من القول وشنعة.

وفي رواية أنس وأبي هريرة وغيرهما، دخل حديث بعضهم في حديث بعض: قال: «**يجمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة فيهتمون - أو قال: فيلهمون - فيقولون: لو**

استشفعنا إلى ربنا»[1].

ومن طريق آخر عنه: «ماج الناس بعضهم في بعض»[2].

وعن أبي هريرة: «وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقولون: ألا تنظرون من يشفع لكم؟ فيأتون آدم فيقولون» - زاد بعضهم: «أنت آدم أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسكنك جنته، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا، ألا ترى ما نحن فيه؟

فيقول: إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب مثله، ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحًا فيقولون: أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبدًا شكورًا، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما بلغنا! ألا تشفع لنا إلى ربك؟ فيقول: إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، نفسي نفسي»[3].

قال في رواية أنس: «ويذكر خطيئته التي أصاب: سؤاله ربه بغير علم».

وفي رواية أبي هريرة - رضي الله عنه -: «وقد كانت لي دعوة دعوتها على قومي، اذهبوا إلى غيري. اذهبوا إلى إبراهيم، فإنه خليل الله».

فيأتون إبراهيم، فيقولون: أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟

فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا..» فذكر مثله، ويذكر ثلاث كلمات كذبهن «نفسي، نفسي، لست لها، ولكن عليكم بموسى، فإنه كليم الله».

وفي رواية: «فإنه عبد آتاه الله التوراة، وكلمه وقربه نجيًا - قال -: يأتون موسى، فيقول: لست لها، ويذكر خطيئته التي أصاب، وقتله النفس، نفسي نفسي، ولكن عليكم بعيسى، فإنه روح الله وكلمته، فيأتون عيسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

فأوتى، فأقول: أنا لها.

---

(١) صحيح: تقدم.
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٩).
(٣) صحيح: تقدم.

فأنطلق فاستأذن على ربي، فيؤذن لي، فإذا رأيته وقعت ساجداً».

وفي رواية: «فآتي تحت العرش، فأخر ساجداً».

وفي رواية: «فأقوم بين يديه، فأحمده بمحامد لا أقدر عليها إلا أن يلهمنيها الله».

وفي رواية: «فيفتح الله عليّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتح على أحد قبلي».

قال: وفي رواية أبي هريرة: «فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي، فأقول: يا رب، أمتي، يا رب، أمتي. فيقول: أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس في ما سوى ذلك من الأبواب»[١].

ولم يذكر في رواية أنس هذا الفصل، وقال مكانه: «ثم أخر ساجداً، فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، واشفع تشفع، وسل تعطه. فأقول: يا رب، أمتي، أمتي. فيقال: انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه، فأنطلق فأفعل. ثم أرجع إلى ربي، فأحمده بتلك المحامد...» وذكر مثل الأول، وقال فيه: «مثقال حبة من خردل. قال: فأفعل، ثم أرجع...» وذكر مثل ما تقدم، وقال فيه: «من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل، فأفعل».

وذكر في المرة الرابعة: «فيقال لي: ارفع رأسك، وقل يسمع، واشفع تشفع وسل تعطه.

فأقول: يا رب، ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله. قال: ليس ذلك إليك ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبروتي لأخرجن من النار من قال: لا إله إلا الله»[٢].

ومن رواية قتادة عنه، قال: «فأقول: يا رب، ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن»، أي وجب عليه الخلود[٣].

وعن أبي بكر، وعقبة بن عامر، وأبي سعيد، وحذيفة مثله، قال: «فيأتون محمداً فيؤذن له، وتأتي الأمانة والرحم فتقومان جنبي الصراط»[٤].

وذكر في رواية أبي مالك، عن حذيفة: «فيأتون محمداً فيشفع، فيضرب الصراط،

---

(١) صحيح: تقدم. (٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٣).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٤٤٧٦، ٦٥٦٥، ٧٤١٠)، ومسلم (١٩٣).

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٨٠٦، ٦٥٧٤، ٧٤٣٨)، ومسلم (١٨٢، ١٨٣).

فيمرون: أولهم كالبرق، ثم كالريح، والطير، وشد الرجال، ونبيكم ﷺ على الصراط يقول: اللهم سلم سلم .حتى يجتاز الناس». وذكر آخرهم جوازاً. . الحديث.

وفي رواية أبي هريرة: «فأكون أول من يجيز».

وعن ابن عباس، عنه ﷺ: «يوضع للأنبياء منابر يجلسون عليها، ويبقى منبري لا أجلس عليه، قائمًا بين يدي ربي منتصبًا، فيقول الله تبارك وتعالى: ما تريد أن أصنع بأمتك؟ فأقول: يا رب، عجل حسابهم فيدعى بهم، فيحاسبون،فمنهم من يدخل الجنة برحمته، ومنهم من يدخل الجنة بشفاعتي، ولا أزال أشفع حتى أعطى صكاكًا برجال قد أمر بهم إلى النار، حتى إن خازن النار ليقول: يا محمد، ما تركت لغضب ربك في أمتك من نقمة».

ومن طريق زياد النميري، عن أنسأن رسول الله ﷺقال: «أنا أول من تنفلق الأرض عن جمجمته ولا فخر، وأنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر، ومعي لواء الحمد يوم القيامة، وأنا أول من تفتح له الجنة ولا فخر، فآتي فآخذ بحلقة الجنة، فيقال: من هذا؟ فأقول: محمداً، فيفتح لي، فيستقبلني الجبار تعالى، فأخر له ساجداً..» وذكر نحو ما تقدم.

ومن رواية أنس: سمعت رسول الله ﷺيقول: «لأشفعن يوم القيامة لأكثر مما في الأرض من حجر وشجر».

فقد اجتمع من اختلاف ألفاظ هذه الآثار أن شفاعته ﷺ، ومقامه المحمود من أول الشفاعات إلى آخرها، من حين يجتمع الناس للحشر، وتضيق بهم الحناجر، ويبلغ منهم العرق والشمس والوقوف مبلغه، وذلك قبل الحساب، فيشفع حينئذ لإراحة الناس من الموقف، ثم يوضع الصراط ويحاسب الناس، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة وحذيفة.

وهذا الحديث أتقن، فيشفع في تعجيل من لا حساب عليه من أمته إلى الجنة ـ كما تقدم في الحديث ـ ثم يشفع فيمن وجب عليه العذاب ودخل النار منهم حسب ما تقضيه الأحاديث الصحيحة، ثم فيمن قال: لا إله إلا الله، وليس هذا لسواه ﷺ.

وفي الحديث المنتشر الصحيح: «لكل نبي دعوة يدعو بها، واختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»[1].

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٠٤، ٧٤٧٤)، ومسلم (١٩٨).

قال أهل العلم: معناه دعوة أعلم أنها تستجاب لهم، ويبلغ فيها مرغوبهم، وإلا فكم لكل نبي منهم من دعوة مستجابة، ولنبينا ﷺ منها ما لا يعد، لكن حالهم عند الدعاء بها بين الرجاء والخوف، وضمنت لهم إجابة دعوة في ما شاءوه، يدعون بها على يقين من الإجابة. وقد قال محمد بن زياد، وأبو صالح، عن أبي هريرة في هذا الحديث: **«لكل نبي دعوة دعا بها في أمته، فاستجيب له، وأنا أريد أن أدخر دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»**.

وفي رواية أبي صالح: **«لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته»**.

ونحوه في رواية أبي زرعة عن أبي هريرة.

وعن أنس مثل رواية ابن زياد، عن أبي هريرة.

فتكون هذه الدعوة المذكورة مخصوصة بالأمة مضمونة الإجابة، وإلا فقد أخبر ﷺ أنه سأل لأمته أشياء من أمور الدين والدنيا وأعطي بعضها، ومنع بعضها، وادخر لهم هذه الدعوة ليوم الفاقة، وخاتمة المحن، وعظيم السؤال والرغبة.

جزاه الله أحسن ما جزى نبيًا عن أمته، وصلّى اللّه عَليهِ وسلم كثيراً.

الفصل الحادي عشر

في تفضيله في الجنة بالوسيلة والدرجة الرفيعة والكوثر والفضيلة

حدثنا القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمي، والفقيه أبو الوليد هشام بن أحمد، بقراءتي عليهما، قالا: حدثنا أبو عليّ الغساني، حدثنا النَّمَرِي، حدثنا ابن عبد المؤمن، حدثنا أبو بكر التمار، حدثنا أبو داود، حدثنا محمد بن سلمة، حدثنا ابن وهب، عن ابن لهيعة، وحيوة، وسعيد بن أبي أيوب، عن كعب بن علقمة، عن عبد الرحمن بن جبير، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أنه سمع النبي ﷺ يقول: **«إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ، فإنه من صلى عليَّ مرة صلى الله عليه عشراً، ثم سلوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة»**[1].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦١١)، ومسلم (٣٨٤).

وفي حديث آخرعن أبي هريرة: «**الوسيلة أعلى درجة في الجنة**»[١].

وعن أنس: قال رسول الله ﷺ: «**بينا أنا أسير في الجنة إذ عرض لي نهر حافتاه قباب اللؤلؤ. قلت لجبريل: ما هذا؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاكه الله**». قال: «**ثم ضرب بيده إلى طينه، فاستخرج مسكًا**»[٢].

وعن عائشة وعبد الله بن عمرو مثله، قال: «**ومجراه على الدر والياقوت، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج**».

وفي رواية عنه: «**فإذا هو يجري، ولم يشق شقًا، عليه حوض ترد عليه أمتي...**».

وذكر حديث الحوض.

ونحوه عن ابن عباس.

وعن ابن عباس أيضًا، قال: الكوثر الخير الذي أعطاه الله إياه.

وقال سعيد بن جبير: والنهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله.

وعن حذيفة فيما ذكر ﷺ عن ربه: «**وأعطاني الكوثر، وهو نهر في الجنة، يسيل في حوضي**»[٣].

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ**﴾ [الضحى: ٥] قال: ألف قصر من لؤلؤ، ترابهن المسك، وفيه ما يصلحهن.

وفي رواية أخرى: وفيه ما ينبغي له من الأزواج والخدم.

الفصل الثاني عشر

الأحاديث الواردة في النهي عن تفضيله

فإن قلت: إذا تقرر من دليل القرآن، وصحيح الأثر، وإجماع الأمة ـ كونه أكرم البشر، وأفضل الأنبياء ـ فما معنى الأحاديث الواردة بنهيه عن التفضيل؟ كقوله فيما حدثنا الأسدي: قال: حدثنا السمرقندي، حدثنا الفارسي، حدثنا الجلودي، حدثنا ابن سفيان، حدثنا مسلم، حدثنا ابن مثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن قتادة: سمعت أبا العالية يقول: حدثني ابن عم نبيكم ﷺ يعني ابن عباس ـ، عن النبي ﷺ، قال: «ما

(١) صححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣٦٣٦).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٩٦٦). (٣) صحيح: أخرجه البخاري (٤٩٦٦).

ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»[1].

وفي غير هذا الطريق عن أبي هريرة قال - يعني: رسول الله ﷺ -: **«ما ينبغي لعبد...»** الحديث.

وفي حديث أبي هريرة - في اليهودي الذي قال: والذي اصطفى موسى على البشر، فلطمه رجل من الأنصار، وقال: تقول ذلك ورسول الله ﷺ بين أظهرنا!

فبلغ ذلك النبي ﷺ. فقال: **«لا تفضلوا بين الأنبياء»**[2] وفي رواية: **«لا تخيروني على موسى»**[3] - فذكر الحديث.

وفيه: **«ولا أقول: إن أحداً أفضل من يونس بن متى»**[4].

وعن أبي هريرة: **«من قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب»**[5].

وعن ابن مسعود: **«لا يقولن أحدكم: أنا خير من يونس بن متى»**.

وفي حديثه الآخر: فجاءه ﷺ رجل، فقال له: يا خير البرية، فقال: **«ذاك إبراهيم...»**.

فاعلم أن للعلماء في هذه الأحاديث تأويلات:

أحدها: أن نهيه عن التفضيل كان قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم، فنهى عن التفضيل، إذ يحتاج إلى توقيف، وأن من فضل بلا علم فقد كذب.

وكذلك قوله: **«لا أقول إن أحداً أفضل منه»** - لا يقتضي تفضيله هو، وإنما هو في الظاهر كف عن التفضيل.

الوجه الثاني: أنه قال ﷺ على طريق التواضع، ونفي التكبر والعجب، وهذا لا يسلم من الاعتراض.

الوجه الثالث: ألا يفضل بينهم تفضيلاً يؤدي إلى تنقُّص بعضهم، أو الغض منه، لا سيما في جهة يونس عليه السلام، إذ أخبر الله عنه بما أخبر لئلا يقع في نفس من لا يعلم

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.
(٢) صحيح: تقدم تخريجه.
(٣) صحيح: تقدم تخريجه.
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٧٣).
(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٠٤).

منه بذلك غضاضة وانحطاط من رتبته الرفيعة، إذ قال تعالى عنه: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الصافات: ١٤٠]. ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فربما يخيل لمن لا علم عنده حطيطته بذلك.

الوجه الرابع: منع التفضيل في حق النبوة والرسالة، فإن الأنبياء فيها على حد واحد، إذ هي شيء واحد لا يتفاضل، وإنما التفاضل في زيادة الأحوال والخصوص، والكرامات، والرتب، والألطاف، وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل، وإنما التفاضل بأمور أخر زائدة عليها، ولذلك منهم رسل، ومنهم أولو عزم من الرسل، ومنهم من رفع مكانًا عليًا، ومنهم من أوتي الحكم صبيًا، وأوتي بعضهم الزبر، وبعضهم البينات، ومنهم من كلم الله، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥]. وقال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

قال بعض أهل العلم: والتفضيل المراد لهم هنا في الدنيا، وذلك بثلاثة أحوال: أن تكون آياته ومعجزاته أبهر وأشهر، أو تكون أمته أزكى وأكثر، أو يكون في ذاته أفضل وأطهر، وفضله في ذاته راجع إلى ما خصه الله به من كرامته، واختصاصه من كلام أو خلة أو رؤية أو ما شاء الله من ألطافه، وتُحف ولايته، واختصاصه.

وقد روي أن النبي ﷺ قال: «**إن للنبوة أثقالاً، وإن يونس تفسخ منها تفسخ الربع**». فحفظ رسول الله ﷺ موضع الفتنة من أوهام من يسبق إليه بسببها حرج في نبوته، أو قدح في اصطفائه، وحط عن رتبته، ووهن في عصمته، شفقة منه ﷺ على أمته.

وقد يتوجه على هذا الترتيب، وجه خامس، وهو أن يكون «أنا» راجعًا إلى القائل نفسه، أي لا يظن أحد ـ وإن بلغ من الذكاء والعصمة والطهارة، ما بلغ ـ أنه خير من يونس، لأجل ما حكى الله عنه، فإن درجة النبوة أفضل وأعلى، وإن تلك الأقدار لم تحطه عنها حبة خردل ولا أدنى.

ونزيد في القسم الثالث في هذا بيانًا إن شاء الله تعالى، فقد بان لك الغرض، وسقط بما حررناه شبهة المعترض.

وبالله التوفيق، وهو المستعان لا إله إلا هو.

الفصل الثالث عشر
في أسمائهﷺ، وما تضمنته من فضيلته

حدثنا أبو عمران موسىٰ بن أبي تليد الفقيه، قال: حدثنا أبو عمر الحافظ، حدثنا سعيد ابن نصر، حدثنا قاسم بن أصبغ، حدثنا محمد بن وضاح، حدثنا يحيىٰ، حدثنا مالك، عن ابن شهاب، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، قال: قال رسول اللهﷺ: «**لي خمسة، أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب**»(١).

وقد سماه الله تعالىٰ في كتابه محمداً، وأحمد.

فمن خصائصه تعالىٰ له أن ضمن أسماءه ثناءه، وطوىٰ أثناء ذكره عظيم شكره.

فأما اسمه أحمد فأفعل، مبالغة من صفة الحمد.

ومحمد: مفعل، مبالغة من كثرة الحمد، فهوﷺ أجل من حمد، وأفضل من حمد، وأكثر الناس حمداً، فهو أحمد المحمودين، وأحمد الحامدين، ومعه لواء الحمد يوم القيامة ليتم له كمال الحمد، ويتشهر في تلك العرصات بصفة الحمد، ويبعثه ربه هناك مقاماً محموداً كما وعده، يحمده فيه الأولون والآخرون بشفاعته لهم، ويفتح عليه فيه من المحامد ـ كما قالﷺ ـ ما لم يعط غيره، وسمي أمته في كتب أنبيائه بالحمادين، فحقيق أن يسمىٰ محمداً وأحمد. ثم في هذين الاسمين من عجائب خصائصه، وبدائع آياته ـ فن آخر، وهو أن الله جل اسمه حمىٰ أن يسمىٰ بهما أحد قبل زمانه.

أما أحمد الذي أتىٰ في الكتب وبشرت به الأنبياء فمنع الله تعالي بحكمته أن يسمىٰ به أحد غيره، ولا يدعىٰ به مَدْعُوٌّ قبله حتىٰ لا يدخل لبسٌ علىٰ ضعيف القلب أو شك.

وكذلك محمد أيضًا لم يسم به أحد من العرب ولا غيرهم إلىٰ أن شاع قبيل وجودهﷺ وميلاده أن نبيًا يبعث اسمه محمد، فسمىٰ قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك، رجاء أن يكون أحدهم هو، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، وهم: محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسي، ومحمد بن مسلمة الأنصارىٰ، ومحمد بن براء البكري، ومحمد بن سفيان بن مجاشع، ومحمد بن حمران الجعفي، ومحمد بن خزاعي السلمي، لا سابع لهم.

ويقال: أول من تسمىٰ بمحمد: محمد بن سفيان. واليمن تقول: بل محمد بن اليحمد

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤).

من الأزد.

ثم حمى الله كل من تسمى به أن يدعي النبوة أو يدعيها أحد له، أو يظهر عليه سبب يشكك أحدًا في أمره حتى تحققت السمتان له ﷺ، ولم ينازع فيهما.

وأما قوله ﷺ: «**وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر**» ففسر في الحديث. ويكون محو الكفر إما من مكة وبلاد العرب، وما زوي له من الأرض، ووعد أنه يبلغه ملك أمته، أو يكون المحو عامًا، بمعنى الظهور والغلبة، كما قال تعالى: ﴿ **لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ [التوبة: ٣٣].

وقد ورد تفسيره في الحديث أنه الذي محيت به سيئات من اتبعه.

وقوله: «**وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي**»، أي على زماني وعهدي، أي ليس بعدي نبي، كما قال: وخاتم النبيين.

وسمي عاقبًا، لأنه عقب غيره من الأنبياء.

وفي الصحيح: «**أنا العاقب الذي ليس بعدي نبي**».

وقيل: معنى «**على قدمي**» أي يحشر الناس بمشاهدتي، كما قال تعالى: ﴿ **لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقيل: «**على قدمي**»: على سابقتي، قال الله تعالى: ﴿ **أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ** ﴾ [يونس: ٢]. وقيل: «**على قدمي**»: أي قدامي، وحولي، أي يجتمعون إلى يوم القيامة. وقيل: «**على قدمي**»: على سنتي.

ومعنى قوله: «**لي خمسة أسماء**»: قيل: إنها موجودة في الكتب المتقدمة وعند أولي العلم من الأمم السالفة، والله أعلم. وقد روي عنه ﷺ: «**لي عشرة أسماء**»[1]، وذكر منها: طه ويس. وحكاه مكي. وقد قيل في بعض تفسير طه: إنه يا طاهر، يا هادي، وفي يس: يا سيد، حكاه السلمي عن الواسطي، وجعفر بن محمد.

وذكره غيره: «**لي عشرة أسماء**»، فذكر الخمسة التي في الحديث الأول، قال: «**وأنا رسول الرحمة، ورسول الراحة، ورسول الملاحم، وأنا المقتفي، قفيت النبيين، وأنا قيم**»[2].

والقيم: الجامع الكامل، كذا وجدته، ولم أروه.

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن عدي في الكامل (٣/ ٤٣٦، ٧/ ٦٤).

(٢) ضعيف: أخرجه ابن عدي في الكامل (٧/ ٦٤).

وأرىٰ أن صوابه قثم ـ بالثاء ـ كما ذكرناه بعد عن الحربي ، وهو أشبه بالتفسير .

وقد وقع أيضًا في كتب الأنبياء ، قال داود عليه السلام : اللهم ابعث لنا محمدًا مقيم السنة بعد الفترة فقد يكون القيم بمعناه . وروىٰ النقاش عنه ﷺ : «**لي في القرآن سبعة أسماء: محمد، وأحمد، ويس، وطه، والمدثر، والمزمل، وعبد الله**».

وفي حديث عن جبير بن مطعم ـ رضي الله عنه ـ : هي ست : «**محمد، وأحمد، وخاتم، وعاقب، وحاشر، وماح**».

وفي حديث أبي موسىٰ الأشعري ـ أنه كان ﷺ يسمي لنا نفسه أسماء ، فيقول : «**أنا محمد، وأحمد، والمقفي، ونبي التوبة، ونبي الملحمة، ونبي الرحمة**»(١) .

ويروىٰ : «**المرحمة، والراحة**». وكل صحيح إن شاء الله .

ومعنىٰ المقفىٰ معنىٰ العاقب .

وأما نبي الرحمة والتوبة والمرحمة والراحة فقال تعالىٰ : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾[الأنبياء : ١٠٧] ، وكما وصفه بأنه يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويهديهم إلىٰ صراط مستقيم ، ﴿ **بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾[التوبة : ١٢٨] .

وقال في صفة أمته : «**إنها أمة مرحومة**».

وقال الله تعالىٰ فيهم : ﴿ **وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ** ﴾[البلد : ١٧] ، أي يرحم بعضهم بعضًا ، فبعثه ربه تعالىٰ رحمة لأمته ، ورحمة للعالمين ، ورحيمًا بهم . ومترحمًا ومستغفراً لهم ، وجعل أمته أمة مرحومة ، ووصفها بالرحمة .

وأمرها ﷺ بالتراحم ، وأثنىٰ عليه ، فقال : «**إن الله يحب من عباده الرحماء**»(٢) .

وقال : «**الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»(٣) . وأما رواية نبي الملحمة فإشارة إلىٰ ما بُعث به من القتال والسيف ﷺ ، وهي صحيحة . وروىٰ حذيفة مثل حديث أبي موسىٰ ، وفيه : «**ونبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملاحم**». وروىٰ الحربي في حديثه ﷺ أنه قال : «**أتاني ملك فقال لي: أنت قثم**» ، أي مجتمع قال : والقثم : الجامع للخير ، وهذا اسم هو في أهل بيته معلوم .

وقد جاءت من ألقابه ﷺ وسماته في القرآن عدة كثيرة سوىٰ ما ذكرناه ، كالنور ،

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (٢٣٥٥) .
(٢) صحيح : أخرجه البخاري (١٢٨٤) ، ومسلم (٩٢٣) .
(٣) صححه الألباني رحمه الله في الصحيحة (٩٢٥) .

والسراج المنير، والمنذر، والنذير، والمبشر، والبشير، والشاهد، والشهيد، والحق المبين، وخاتم النبيين، والرءوف الرحيم، والأمين، وقدم الصدق، والنجم الثاقب، والكريم، والنبي الأمي، وداعي الله، في أوصاف كثيرة، وسمات جليلة.

وجرى منها في كتب الله المتقدمة، وكتب أنبيائه، وأحاديث رسوله، وإطلاق الأمة جملة شافية، كتسميته بالمصطفى، والمجتبى، وأبي القاسم، والحبيب، ورسول رب العالمين، والشفيع، والمتقي، والمصلح، والطاهر، والمهيمن، والصادق، والمصدوق، والهادي، وسيد ولد آدم، وسيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين، وحبيب الله، وخليل الرحمن، وصاحب الحوض المورود، والشفاعة، والمقام المحمود، وصاحب الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة، وصاحب التاج والمعراج، واللواء، والقضيب، وراكب البراق والناقة والنجيب، وصاحب الحجة والسلطان، والخاتم، والعلامة والبرهان، وصاحب الهراوة والنعلين.

ومن أسمائه في الكتب: المتوكل، والمختار، ومقيم السنة، والمقدس، وروح القدس، وروح الحق، وهو معنى البار قليط في الإنجيل. وقال ثعلب: البار قليط: الذي يفرق بين الحق والباطل.

ومن أسمائه في الكتب السالفة: ماذ ماذ، ومعناه: طيب طيب، وحمطايا والخاتم، والخاتم حكاه كعب الأحبار. قال ثعلب: فالخاتم الذي ختم الله به الأنبياء. والخاتم: أحسن الأنبياء خلقًا وخُلقًا. ويسمي بالسريانية: مشفح والمنحمنا، واسمه في التوارة أحيد - روي ذلك عن ابن سيرين. ومعنى صاحب القضيب: أي السيف، وقع ذلك مفسراً في الإنجيل: قال: معه قضيب من حديد يقاتل به، وأمته كذلك. وقد يحمل على أنه القضيب المشوق الذي كان يمسكه ﷺ وهو الآن عند الخلفاء. وأما الهراوة التي وصف بها فهي في اللغة العصا، وأراها - والله أعلم - العصا المذكورة في حديث الحوض: «أذود الناس عنه بعصاي»[1] - لأهل اليمن. وأما التاج فالمراد به العمامة، ولم تكن حينئذ إلا للعرب، والعمائم تيجان العرب. وأوصافه، وألقابه، وسماته في الكتب كثيرة، وفيما ذكرناه منها مقنع إن شاء الله.

وكانت كنيته المشهورة أبا القاسم.

وروي عن أنس أنه لما ولد له إبراهيم جاءه جبريل فقال له: السلام عليك يا أبا إبراهيم.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٠١).

الفصل الرابع عشر

في تشريف الله تعالى له بما سماه من أسمائه الحسنى ووصفه به من صفاته العلا

قال القاضي أبو الفضل وفقه الله تعالى: ما أحرى هذا الفصل بفصول الباب الأول، لانخراطه في سلك مضمونها، وامتزاجه بعذب معينها، لكن لم يشرح الله الصدر للهداية إلى استنباطه، ولا أنار الفكر لاستخراج جوهره والتقاطه إلا عند الخوض في الفصل الذي قبله، فرأينا أن نضيفه إليه، ونجمع به شمله.

فاعلم أن الله تعالى خص كثيراً من الأنبياء بكرامة خلعها عليهم قال الله تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨] من أسمائه، كتسمية إسحاق، وإسماعيل بعليم قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]، وحليم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، وإبراهيم بحليم قال الله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، ونوح بشكور قال الله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ [مريم: ١٤] وقال تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ [مريم: ٣٢]، وعيسى ويحيى ببر قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ [الدخان: ١٧]، وموسى بكريم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وقوي، ويوسف بحفيظ عليم قال الله تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، وأيوب بصابر قال الله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] وإسماعيل بصادق الوعد، كما نطق بذلك الكتاب العزيز من مواضع قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

وفضل نبينا محمد ﷺ: بأن حلاه منها في كتابه العزيز، وعلى ألسنة أنبيائه بعدة كثيرة اجتمع منها جملة بعد إعمال الفكر، وإحضار الذكر، إذ لم نجد من جمع منها فوق اسمين، ولا من تفرغ فيها لتأليف فصلين.

وحررنا منها في هذا الفصل نحو ثلاثين اسمًا، ولعل الله تعالى - كما ألهم إلى ما علم منها وحققه - يتم النعمة بإبانة ما لم يظهره لنا الآن، ويفتح غلقه.

فمن أسمائه تعالى: الحميد، ومعناه المحمود، لأنه حمد نفسه، وحمده عباده،

ويكون أيضاً بمعنى الحامد لنفسه ولأعمال الطاعات.

وسمى الله تعالى النبي ﷺ محمداً، وأحمد، فمحمد بمعنى محمود وكذا وقع اسمه في زبور دواد.

وأحمد بمعني أكبر من حمد، وأجل من حمد، وأشار إلى نحو هذا حسان بقوله:

وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

ومن أسمائه تعالى: الرؤوف الرحيم وهما بمعني متقارب.

وقد سماه في كتابه بذلك، فقال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ومن أسمائه تعالى: الحق المبين. ومعنى الحق: الموجود، والمتحقق أمره. وكذلك المبين، أي البين أمره وإلهيته.

بان، وأبان بمعنى واحد. ويكون بمعنى المبِّن لعباده دينهم ومعادهم.

وسمى النبي - ﷺ بذلك في كتابه، فقال: ﴿حتى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩]. وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: ١٠٨]. وقال: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [الانعام: ٥]، قيل: محمد. وقيل القرآن. ومعناه هنا ضد الباطل، والمتحقق صدقه وأمره. وهو بمعنى الأول.

والمبين: البين أمره ورسالته، أو المبين عن الله ما بعثه به، كما قال تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

ومن أسمائه تعالي: النور، ومعناه ذو النور، أي خالقه، أو منور السموات والأرض بالأنوار، ومنور قلوب المؤمنين بالهداية.

وسماه نوراً، فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]قيل: محمد، وقيل: القرآن. وقال فيه: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الاحزاب: ٤٦] سمي بذلك لوضوح أمره، وبيان نبوته، وتنوير قلوب المؤمنين والعارفين بما جاء به.

ومن أسمائه تعالى:الشهيد، ومعناه العالم. وقيل: الشاهد على عباده يوم القيامة.

وسماه شهيداً وشاهداً، فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، الفتح: ٨]. وقال تعالى: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وهو بمعنى الأول.

ومن أسمائه تعالى:الكريم، ومعناه الكثير الخير. وقيل: المفضل. وقيل: العفو،

وقيل: العلي.

وفي الحديث المروي في أسمائه تعالى «الأكرم»(١).

وسماه تعالى كريمًا بقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[الحاقة: ٤٠، والتكوير: ١٩]، قيل محمد، وقيل: جبريل.

وقال ﷺ: «أنا أكرم ولد آدم»(٢).

ومعاني الاسم صحيحة في حقه ﷺ.

ومن أسمائه تعالى: العظيم، ومعناه الجليل الشأن، الذي كل شيء دونه، وقال في النبي ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤].

ووقع في أول سفر من التوراة عن إسماعيل: وستلد عظيمًا لأمة عظيمة، فهو عظيم وعلى خلق عظيم.

ومن أسمائه تعالى: الجبار، ومعناه المصلح، وقيل القاهر. وقيل العلي العظيم الشأن. وقيل المتكبر.

وسمي النبي ﷺ في كتاب داود بجبار، فقال: تقلد أيها الجبار سيفك، فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك.

ومعناه في حق النبي ﷺ: إما لإصلاحه الأمة بالهداية والتعليم، أو لقهره أعداءه، أو لعلو منزلته على البشر، وعظيم خطره.

ونفى عنه تعالى - في القرآن - جبرية التكبر التي لا تليق به، فقال: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[ق: ٤٥].

ومن أسمائه تعالى: الخبير، ومعناه المطلع بكنه الشيء، العالم بحقيقته. وقيل معناه المخبر.

وقال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾[الفرقان: ٥٩].

قال القاضي بكر بن العلاء: المأمور بالسؤال غير النبي ﷺ والمسئول الخبير هو النبي ﷺ.

---

(١) لم يصح حديث مرفوع في سرد الأسماء الحسنى، كما ذكر الترمذي رحمه الله، وإنما ورد ذكرها في آيات القرآن، وأحاديث صحيحة متفرقة.

(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٦١٠)، والدارمي (٤٨)، والخلال في السنة (٢٣٥)، وفي إسناده: ليث بن أبي سليم، ضعيف.

وقال غيره: بل السائل النبي ﷺ. والمسئول هو الله تعالى، فالنبي خبير بالوجهين المذكورين، قيل: لأنه عالم على غاية من العلم بما أعلمه الله من مكنون علمه، وعظيم معرفته، مخبر لأمته بما أذن له في إعلامهم به.

ومن أسمائه تعالى: الفتاح، ومعناه الحاكم بين عباده، أو فاتح أبواب الرزق والرحمة، والمنغلق من أمورهم عليهم، أو يفتح قلوبهم وبصائرهم لمعرفة الحق، ويكون أيضًا بمعنى الناصر، كقوله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ [الأنفال: ١٩]، أي إن تستنصروا فقد جاءكم النصر، وقيل: معناه مبتدئ الفتح والنصر.

وسمى الله تعالى محمدًا ﷺ بالفاتح في حديث الإسراء الطويل - من رواية الربيع ابن أنس، عن أبي العالية وغيره، عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، وفيه: من قول الله تعالى: «**وجعلتك فاتحًا وخاتمًا**».

وفيه من قول النبي ﷺ في ثنائه على ربه، وتعديد مراتبه: «**ورفع لي ذكري، وجعلني فاتحًا وخاتمًا**»[1]، فيكون الفاتح هنا بمعنى الحاكم، أو الفاتح لأبواب الرحمة على أمته، أو الفاتح لبصائرهم لمعرفة الحق والإيمان بالله أو الناصر للحق، أو المبتدئ بهداية الأمة، أو المبدأ المقدم في الأنبياء والخاتم لهم، كما قال ﷺ: «**كنت أول الأنبياء في الخلق، وآخرهم في البعث**»[2].

ومن أسمائه تعالى في الحديث: الشكور، ومعناه المثيب على العمل القليل. وقيل المثني على المطيعين، ووصف بذلك نبيه نوحًا عليه السلام فقال: ﴿ **إنه كان عبدا شكورا** ﴾[3] [الإسراء: ٣].

وقد وصف النبي ﷺ نفسه بذلك، فقال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»، أي معترفًا بنعيم ربي، عارفًا بقدر ذلك، مثنيًا عليه، مجهدًا نفسي في الزيادة من ذلك، لقوله تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧].

ومن أسمائه تعالى: العليم، والعلام، وعالم الغيب والشهادة.

---

(١) ضعيف: أخرجه معمر في الجامع (١١/ ١١١)، والبيهقي في الشعب (٥٢٠٢) عن أبي قلابة مرسلاً عن عمر بن الخطاب.

(٢) ضعيف: أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ١٤٩) عن قتادة مرسلاً، ووصله ابن عدي في الكامل (٣/ ٤٩، ٣٧٣) من حديث أبي هريرة وفي سنده: سعيد بن بشير، مختلف فيه، وكذلك عنعنة الحسن عن أبي هريرة.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩).

ووصف نبيه ﷺ بالعلم، وخصه بمزية منه: فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] قال: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

ومن أسمائه تعالى: الأول، والآخر، ومعناهما: السابق للأشياء قبل وجودها، والباقي بعد فنائها.

وتحقيقه أنه ليس له أول ولا آخر.

وقال ﷺ: «كنت أول الأنبياء في الخلق، وآخرهم في البعث»، وفسر بهذا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧]، فقدم محمد ﷺ.

وقد أشار إلى نحو منه عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ومنه قوله: «نحن الآخرون السابقون»[١].

وقوله: «أنا أول من تنشق عنه الأرض، وأول من يدخل الجنة، وأول شافع، وأول مشفع»[٢]، وهو خاتم النبيين، وآخر الرسل ﷺ.

ومن أسمائه تعالى: القوي: ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، ومعناه: القادر.

وقد وصفه الله تعالى بذلك، فقال: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠].

قيل: محمد. وقيل: جبريل.

ومن أسمائه تعالى: الصادق، في الحديث المأثور.

وورد في الحديث أيضًا اسمه ﷺ بالصادق المصدوق.

ومن أسمائه تعالى: الولي، والمولى، ومعناهما الناصر، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [المائدة: ٥٥].

وقال ﷺ: «أنا ولي كل مؤمن»[٣].

وقال الله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

وقال ﷺ: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه»

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٣٨، ٨٧٦، ٨٩٨، ٢٩٥٦، ٣٤٨٦، ٦٦٢٤، ٦٨٨٧)، ومسلم (٨٥٥).

(٢) ثبت نحوه في صحيح مسلم (٢٢٧٨)، وكونه ﷺ أول أهل الجنة دخولاً ثابت في الصحيح بغير هذا اللفظ.

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ، لكن ثبت في الصحيحين معناه بلفظ: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم».

ومن أسمائه تعالى: العفو، ومعناه الصفوح.

وقد وصف الله تعالى بهذا نبيه في القرآن، والتوراة، وأمره بالعفو، فقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]

وقال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣].

وقال له جبريل وقد سأله عن قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾، قال: أن تعفو عمن ظلمك.

وقال في التوراة والإنجيل في الحديث المشهور، في صفته: ليس بفظ ولا غليظ، ولكن يعفو ويصفح.

ومن أسمائه تعالى: الهادي، وهو بمعنى توفيق الله لمن أراد من عباده، وبمعنى الدلالة والدعاء. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]. وأصل الجميع من الميل. وقيل: من التقديم.

وقيل في تفسير ﴿طه﴾ إنه يا طاهر، يا هادي، يعني النبي ﷺ. وقال تعالى له: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال فيه: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ [الأحزاب: ٤٦].

فالله تعالى مختص بالمعنى الأول: قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]. وبمعنى الدلالة ينطلق على غيره تعالى.

ومن أسمائه تعالى: المؤمن المهيمن، قيل: هما بمعنًى واحد، فمعنى المؤمن في حقه تعالى: المصدق وعده عباده، والمصدق قوله الحق، والمصدق لعباده المؤمنين ورسله. وقيل: الموحد نفسه. وقيل: المؤمن عباده في الدنيا من ظلمه، والمؤمنين في الآخرة من عذابه.

وقيل: المهيمن بمعنى الأمين، مصغر منه، فقلب الهمزة هاء.

وقد قيل: إن قولهم في الدعاء: «آمين» أنه اسم من أسماء الله تعالى، ومعناه معنى مؤمن. وقيل: المهيمن بمعنى الشاهد والحافظ.

والنبي ﷺ أمين، ومهيمن، ومؤمن، وقد سماه تعالى أمينًا، فقال: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١].

كان ﷺ يعرف بالأمين، وشهر به قبل النبوة وبعدها، وسماه العباس في شعره مهيمنًا في قوله:

ثم احتوى بيتك المهيمن من ... خندف علياء تحتها النطق

قيل: المراد: يا أيها المهيمن، قاله القتبي، والإمام أبو القاسم القشيري.

وقال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]، أي يصدق.

وقال ﷺ: «أنا أمنة لأصحابي»[1]، فهذا بمعنى المؤمن.

ومن أسمائه تعالى: القدوس، ومعناه المنزه عن النقائص المطهر من سمات الحدث، وسمي بيت المقدس، لأنه يتطهر فيه من الذنوب، ومنه: الوادي المقدس وروح القدس.

وقع في كتب الأنبياء في أسمائه ﷺ: المقدس، أي المطهر من الذنوب، كما قال تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، أو الذي يتطهر به من الذنوب، ويتنزه باتباعه عنها، كما قال: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾ [المائدة: ١٦].

أو يكون مقدساً بمعنى مطهراً، من الأخلاق الذميمة والأوصاف الدنية.

ومن أسمائه تعالى: العزيز، ومعناه: الممتنع الغالب، أو الذي لا نظير له، أو المعز لغيره، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ [المنافقون: ٨]، أي الامتناع وجلالة القدر.

وقد وصف الله تعالى نفسه بالبشارة والنذارة، فقال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: ٢١].

وقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩]، ﴿وبِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥].

وسماه الله تعالى مبشراً، ونذيراً، أي مبشراً لأهل طاعته، ونذيراً لأهل معصيته. ومن أسمائه تعالى في ما ذكره بعض المفسرين: طه، ويس. وقد ذكر بعضهم أيضًا أنهما من أسماء محمد ﷺ وشَرَّفَ وكَرَّم.

الفصل الخامس عشر

استدراك في صفات الخالق والمخلوق

قال القاضي أبو الفضل: وفقه الله، وها أنا أذكر نكتة أذيِّل بها هذا الفصل، وأختم بها هذا القسم، وأزيح الإشكال بها في ما تقدم عن كل ضعيف الوهم، سقيم الفهم، تخلصه من مهاوي التشبيه، وتزحزحه عن شبه التمويه، وهو أن يعتقد أن الله تعالى جل اسمه في عظمته وكبريائه وملكوته، وحسنى أسمائه، وعليِّ صفاته، لا يشبه شيئًا من مخلوقاته،

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٣١).

ولا يشبه به، وأن ما جاء مما أطلقه الشرع على الخالق وعلى المخلوق، فلا تشابه في المعنى الحقيقي إذ صفات القديم بخلاف صفات المخلوق فكما أن ذاته لا تشبه الذوات كذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقين، إذ صفاتهم لا تنفك عن الأعراض والأغراض، وهو تعالى منزه عن ذلك، بل لم يزل بصفاته وأسمائه، وكفى في هذا قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى: ١١].

ولله در من قال من العلماء العارفين المحققين: التوحيد إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولامعطلة عن الصفات.

وزاد هذه النكتة الواسطي -رحمه الله- بيانًا، وهي مقصودنا، فقال: ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة، إلا من جهة موافقة اللفظ اللفظ، وجلت الذات القديمة أن تكون لها صفة حديثة، كما استحال أن تكون للذات المحدثة صفة قديمة.

وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة -رضي الله عنهم.

وقد فسر الإمام أبو القاسم القشيري -رحمه الله- قوله هذا، ليزيده بيانًا، فقال: هذه الحكاية تشتمل على جوامع مسائل التوحيد، وكيف تشبه ذاته ذات المحدثات، وهي بوجودها مستغنية، وكيف يشبه فعله فعل الخلق، وهو لغير جلب أنس، أو دفع نقص حصل، ولا لخواطر وأغراض وجد، ولا بمباشرة ومعالجة ظهر، وفعل الخلق لا يخرج عن هذه الوجوه.

وقال آخر -من مشايخنا-: ما توهمتموه بأوهامكم، أو أدركتموه بعقولكم فهو محدث مثلكم.

وقال الإمام أبو المعالي الجويني: من اطمأن إلى موجود انتهى إليه فكره فهو مشبه، ومن اطمأن إلى النفي المحض فهو معطل، وإن قطع بموجود اعترف بالعجز عن درك حقيقته فهو موحد.

وما أحسن قول ذي النون المصري: حقيقة التوحيد أن تعلم أن قدرة الله تعالى في الأشياء بلا علاج، وصنعه لها بلا مزج، وعلة كل شيء صنعه، ولا علة لصنعه، وما تصور في وهمك فالله بخلافه.

وهذا كلام عجيب نفيس محقق، والفصل الآخر تفسير لقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

والثاني تفسير لقوله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. والثالث تفسير لقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

ثبتنا الله وإياك على التوحيد والإثبات والتنزيه، وجنبنا طرفي الضلالة والغواية من التعطيل والتشبيه بمنه ورحمته.

الباب الرابع

في ما أظهره الله تعالى على يديه من المعجزات
وشرّفه به من الخصائص والكرامات

الفصل الأول

المقدمة

قال القاضي أبو الفضل: حسب المتأمل أن يحقق أن كتابنا هذا لم نجمعه لمنكر نبوة نبينا ﷺ، ولا لطاعن في معجزاته، فنحتاج إلى نصب البراهين عليها، وتحصين حوزتها، حتى لا يتوصل المطاعن إليها، ونذكر شروط المعجز والتحدي وحده، وفساد قول من أبطل نسخ الشرائع، ورده: بل ألفناه لأهل ملته، الملبين لدعوته، والمصدقين لنبوته، ليكون تأكيداً في محبتهم له، ومنماة لأعمالهم، وليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم.

ونيتنا أن نثبت في هذا الباب أمهات معجزاته، ومشاهير آياته، لتدل على عظيم قدره عند ربه. وأتينا منها بالمحقق والصحيح الإسناد، وأكثره مما بلغ القطع أو كاد، وأضفنا إليها بعض ما وقع في مشاهير كتب الأئمة.

وإذا تأمل المتأمل المصنف ما قدمناه من جميل أثره، وحميد سيره، وبراعة علمه، ورجاحة عقله وحلمه، وجملة كماله، وجميع خصاله، وشاهد حاله، وصواب مقاله لم يمتر في صحة نبوته، وصدق دعوته.

وقد كفى هذا غير واحد في إسلامه والإيمان به فروينا عن الترمذي، وابن قانع وغيرهما بأسانيدهم: أن عبد الله بن سلام قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جئته لأنظر إليه، فلما استنبأت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب.

حدثنا به القاضي الشهيد أبو عليّ ـ رحمه الله ـ، قال: حدثنا أبو الحسين الصيرفي، وأبو الفضل بن خيرون، عن أبي يعلى البغدادي، عن أبي عليّ السنجي، عن ابن محبوب، عن الترمذي، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الوهاب الثقفي، ومحمد بن جعفر، وابن أبي عدي، ويحيى بن سعيد، عن عوف بن أبي جميلة الأعرابي، عن زرارة بن أوفى، عن عبد الله بن سلام . . . الحديث.

وعن أبي رمثة التيمي: أتيت النبي ﷺ، ومعي ابن لي، فأريته، فلما رأيته قلت: هذا نبي الله.

وروى مسلم وغيره: أن ضماداً لما وفد عليه، فقال له النبي ﷺ: «**إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، من يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله**» ـ قال له: أعد عليّ كلماتك

هؤلاء، فلقد بلغن قاموس البحر، هات يدك أبايعك[1].

وقال جامع بن شداد: كان رجل منا يقال له: طارق، فأخبر أنه رأى النبي ﷺ بالمدينة، فقال: «هل معكم شيء تبيعونه؟» قلنا: هذا البعير، قال: «بكم؟» قلنا بكذا وكذا وسقًا من تمر، فأخذ بخطامه، وسار إلى المدينة، فقلنا: بعنا من رجل لا ندري من هو، ومعنا ظعينة، فقالت: أنا ضامنة لثمن البعير، رأيت وجه رجل مثل القمر ليلة البدر لا يخيس فيكم. فأصبحنا، فجاء رجل بتمر فقال: أنا رسول رسول الله ﷺ إليكم، يأمركم أن تأكلوا من هذا التمر، وتكتالوا حتى تستوفوا. ففعلنا.

وفي خبر الجلندي ملك عمان - لما بلغه أن رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام - قال الجلندي: والله، لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينتهى عن شيء إلا كان أول تارك له، وأنه يغلب فلا يبطر ويغلب فلا يضجر، ويفي بالعهد، وينجز الموعود، وأشهد أنه نبي.

وقال نفطويه - في قوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥]: هذا مثل ضربه الله تعالى لنبيه ﷺ، يقول: يكاد منظره يدل على نبوته وإن لم يتل قرآنًا. كما قال ابن رواحة:

لو لم تكن فيه آيات مبينة ... لكان منظره ينبيك بالخبر

وقد آن نأخذ في ذكر النبوة والوحي والرسالة، وبعده في معجزة القرآن، وما فيه من برهان ودلالة.

الفصل الثاني

بين النبوة والرسالة

اعلم أن الله جل اسمه قادر على خلق المعرفة في قلوب عباده، والعلم بذاته وأسمائه وصفاته وجميع تكليفاته ابتداءً دون واسطة لو شاء، كما حكي عن سنته في بعض الأنبياء، وذكره بعض أهل التفسير في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١].

وجائز أن يوصل إليهم جميع ذلك بواسطة تبلغهم كلامه، وتكون تلك الواسطة إما من

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٨٦٨).

غير البشر كالملائكة مع الأنبياء، أو من جنسهم كالأنبياء مع الأمم، ولا مانع لهذا من دليل العقل.

وإذا جاز هذا ولم يستحل، وجاءت الرسل بما دل على صدقهم من معجزاتهم وجب تصديقهم في جميع ما أتوا به، لأن المعجزة مع التحدي من النبي ﷺ قائم مقام قول الله: صدق عبدي فأطيعوه واتبعوه، وشاهد على صدقه فيما يقوله. وهذا كاف، والتطويل فيه خارج عن الغرض، فمن أراد تتبعه وجده مستوفىً في مصنفات أئمتنا رحمهم الله.

فالنبوة في لغة من همز مأخوذة من النبأ، وهو الخبر، وقد لا تهمز على هذا التأويل تسهيلاً.

والمعنى: أن الله تعالى أطلعه على غيبه، وأعلمه أنه نبيه، فيكون نبي منبأ فعيل بمعنى مفعول، أو يكون مخبراً عما بعثه الله تعالى به، ومنبئًا بما أطلعه الله عليه فعيل بمعنى فاعل، ويكون عند من لم يهمزه من النبوة، وهو ما ارتفع من الأرض، ومعناه أن له رتبة شريفة، ومكانة نبيهة عند مولاه منيفة، فالوصفان في حقه مؤتلفان.

وأما الرسول فهو المرسل، ولم يأت فعول بمعنى مفعل في اللغة إلا نادرًا، وإرساله أمر الله له بالإبلاغ إلى من أرسله إليه، واشتقاقه من التتابع، ومنه قولهم: «جاء الناس أرسالاً» إذا تبع بعضهم بعضًا، فكأنه ألزم تكرير التبليغ، أو ألزمت الأمة اتباعه.

واختلف العلماء: هل النبي والرسول بمعنى، أو بمعنيين؟ فقيل: هما سواء، وأصله من الإنباء وهو الإعلام، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢]، فقد ثبت لهما معًا الإرسال، ولا يكون النبي إلا رسولاً، ولا الرسول إلا نبيًا.

وقيل: هما مفترقان من وجه، إذ قد اجتمعا في النبوة التي هي الاطلاع على الغيب، والإعلام بخواص النبوة أو الرفعة لمعرفة ذلك، وحوز درجتها، وافترقا في زيادة الرسالة للرسول، وهو الأمر بالإنذار والإعلام كما قلنا.

وحجتهم من الآية نفسها التفريق بين الاسمين، ولو كانا شيئًا واحدًا لما حسن تكرارهما في الكلام البليغ. قالوا: والمعنى: ما أرسلنا من رسول إلى أمة أو نبي ليس بمرسل إلى أحد.

وقد ذهب بعضهم إلى أن الرسول من جاء بشرع مبتدأ، ومن لم يأت به نبي غير رسول، وإن أمر بالإبلاغ والإنذار.

والصحيح والذي عليه الجماء الغفير: أن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً.

وأول الرسل آدم، وآخرهم محمد ﷺ.

وفي حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ: «**إن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي**»(١).

وذكر أن الرسل ومنهم ثلاثمائة وثلاثة عشر ـ أولهم آدم عليه السلام.

فقد بان لك معنى النبوة والرسالة، وليستا عند المحققين ذاتًا للنبي، ولا وصف ذات، خلافًا للكرامية، في تطويل لهم وتهويل، ليس عليه تعويل.

وأما الوحي فأصله الإسراع، فلما كان النبي يتلقى ما يأتيه من ربه بعجل سمي وحيًا، وسميت أنواع الإلهامات وحيًا، تشبيهًا بالوحي إلى النبي، وسمي الخط وحيًا، لسرعة حركة يد كاتبه، ووحي الحاجب واللحظ سرعة إشارتهما، ومنه قوله تعالى: ﴿**فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**﴾[مريم: ١١]، أي أومأ ورمز.

وقيل: كتب، ومنه قولهم: الوحا، أي السرعة.

وقيل: أصل الوحي السر والإخفاء، ومنه سمي الإلهام وحيًا، ومنه قوله: ﴿**وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ**﴾ [الأنعام: ١٢١]، أي يوسوسون في صدورهم، ومنه قوله: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ**﴾ [القصص: ٧]، أي ألقي في قلبها.

وقد قيل ذلك في قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا**﴾ [الشورى: ٥١]، أي ما يلقيه في قلبه دون واسطة.

الفصل الثالث

معنى المعجزات

اعلم أن معنى تسميتنا ما جاءت به الأنبياء معجزة، هو أن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها، وهي على ضربين، ضرب هو من نوع البشرة، فعجزوا عنه، فتعجيزهم عنه فعل لله دل على صدق نبيه، كصرفهم عن تمني الموت. وتعجيزهم عن الإتيان بمثل القرآن على رأي بعضهم، ونحوه.

وضرب هو خارج عن قدرتهم، فلم يقدروا على الإتيان بمثله، كإحياء الموتى، وقلب

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٥) من حديث أبي أمامة وفيه: علي بن يزيد الألهاني ضعيف، وأخرجه الحاكم (٢/ ٦٥٢) من حديث أبي ذر، وفيه عنعنة ابن جريج، وهو مدلس.

العصا حية، وإخراج ناقة من صخرة، وكلام شجرة، ونبع الماء من الأصابع، انشقاق القمر، مما لا يمكن أن يفعله أحد إلا الله، فكون ذلك على يد النبي ﷺ من فعل الله تعالى وتحديه من يكذبه أن يأتي بمثله تعجيز له.

واعلم أن المعجزات التي ظهرت على يد نبينا ﷺ دلائل نبوته وبراهين صدقه من هذين النوعين معًا، وهو أكثر الرسل معجزة، وأبهرهم آية، وأظهرهم برهانًا، كما سنبينه، وهي في كثرتها لا يحيط به ضبط، فإن واحداً منها وهو القرآن، لا يحصى عدد معجزاته بألف ولا ألفين، ولا أكثر، لأن النبي ﷺ قد تحدى بسورة منه فعُجز عنها.

قال أهل العلم: وأقصر السور: ﴿إنا أعطيناك الكوثر...﴾ فكل آية أو آيات منه بعددها وقدرها معجزة، ثم فيها نفسها معجزات على ما نفصله فيما انطوى عليه من المعجزات.

ثم معجزاته ﷺ على قسمين: قسم منها علم قطعًا، ونقل إلينا متواتراً كالقرآن، فلا مرية، ولا خلاف، بمجيء النبي به، وظهوره من قبل، واستدلاله بحجته، وإن أنكر هذا معاند جاحد، فهو كإنكاره وجود محمد ﷺ في الدنيا.

وإنما جاء اعتراض الجاحدين في الحجة به، فهو في نفسه وجميع ما تضمنه من معجز معلوم ضرورة.

ووجه إعجازه معلوم ضرورة ونظراً، كما سنشرحه.

قال بعض أئمتنا: ويجري هذا المجرى على الجملة أنه قد جرى على يديه ﷺ آيات وخوارق عادات إن لم يبلغ واحد منها معينًا القطع فيبلغه جميعها، فلا مرية في جريان معانيها على يديه، ولا يختلف مؤمن ولا كافر أنه جرت على يديه عجائب، وإنما خلاف المعاند في كونها من قبل الله.

وقد قدمنا كونها من قبل الله، وأن ذلك بمثابة قوله: صدقت.

فقد علم، وقوع مثل هذا أيضًا من نبينا ضرورة لاتفاق معانيها، كما يعلم ضرورة جود حاتم، وشجاعة عنترة، وحلم أحنف، لاتفاق الأخبار الواردة عن كل واحد منهم على كرم هذا، وشجاعة هذا، وحلم هذا، وإن كان كل خبر بنفسه لا يوجب العلم، ولا يقطع بصحته.

والقسم الثاني: ما لم يبلغ مبلغ الضرورة والقطع، وهو على نوعين: نوع مشتهر منتشر، رواه العدد، وشاع الخبر به عند المحدثين والرواة ونقلة السير والأخبار، كنبع الماء

من بين الأصابع، وتكثيره الطعام.

ونوع منه اختص به الواحد والاثنان، ورواه العدد اليسير، ولم يشتهر اشتهار غيره، لكنه إذا جمع إلىٰ مثله اتفقا في المعنىٰ، واجتمعا علىٰ الإتيان بالمعجز، كما قدمناه.

قال القاضي أبو الفضل: وأنا أقول صدعًا بالحق: إن كثيراً من هذه الآيات المأثورة عنه ﷺ معلومة بالقطع.

أما انشقاق القمر فالقرآن نص بوقوعه، وأخبر عن جوده، ولا يعدل عن ظاهر إلا بدليل، وجاء يرفع احتماله صحيح الأخبار من طرق كثيرة، ولا يوهن عزمنا خلاف أخرق منحل عرىٰ الدين، ولا يلتفت إلىٰ سخافة مبتدع يلقي الشك علىٰ قلوب ضعفاء المؤمنين، بل نرغم بهذا أنفه، وننبذ بالعراء سخفه.

وكذلك قصة نبع الماء، وتكثير الطعام رواه الثقات والعدد الكثير عن الجماء الغفير، عن العدد الكثير من الصحابة.

ومنها ما رواه الكافة عن الكافة متصلاً عمن حدث بها من جملة الصحابة وإخبارهم أن ذلك كان في موطن اجتماع الكثير منهم في يوم الخندق، وفي غزوة بواط، وعمرة الحديبية، وغزوة تبوك، وأمثالها من محافل المسلمين ومجمع العساكر، ولم يؤثر عن أحد من الصحابة مخالفة للرواي فيما حكاه، ولا إنكار لما ذكر عنهم أنهم رأوه كما رآه، فسكوت الساكت منهم كنطق الناطق، إذ هم المنزهون عن السكوت علىٰ باطل، والمداهنة في كذب، وليس هناك رغبة ولا رهبة تمنعهم، ولو كان ما سمعوه منكراً عندهم وغير معروف لديهم لأنكروه، كما أنكر بعضهم علىٰ بعض أشياء رواها من السنن والسير وحروف القرآن، وخطأ بعضهم بعضًا، ووهمه في ذلك، مما هو معلوم، فهذا نوع كله يلحق بالقطعي من معجزاته لما بيناه.

وأيضًا فإن أمثال الأخبار التي لا أصل لها، وبنيت علىٰ باطل، لابد بعد مرور الأزمان وتداول الناس وأهل البحث من انكشاف ضعفها، وخمول ذكرها، كما يشاهد في كثير من الأخبار الكاذبة، والأراجيف الطارئة.

وأعلام نبينا هذه الواردة من طريق الآحاد لا تزداد مع مرور الزمان إلا ظهوراً، ومع تداول الفرق، وكثرة طعن العدو، وحرصه علىٰ توهينها، وتضعيف أصلها، واجتهاد الملحد علىٰ إطفاء نورها إلا قوة وقبولاً، وللطاعنين عليها إلا حسرة وغليلاً.

وكذلك إخباره عن الغيوب، وإنباؤه بما يكون وكان معلوم من آياته علىٰ الجملة

بالضـرورة. وهذا حق لا غطاء عليـه، وقـد قال به من أئمتنا القاضي والأستـاذ أبو بكر وغيرهما رحمهم الله، وما عندي أوجب قول القائل: «إن هذه القصص المشهورة من باب خبر الواحد» إلا قلة مطالعته للأخبار وروايتها، وشغله بغير ذلك من المعارف، وإلا فمن اعتنى بطرق النقل وطالع الأحاديث والسير لم يرتب في صحة هذه القصص المشهورة على الوجه الذي ذكرناه.

ولا يبعد أن يحصل العلم بالتواتر عند واحد ولايحصل عند آخر؛ فإن أكثر الناس يعلمون-بالخبر-كون بغداد موجودة، وأنها مدينة عظيمة، ودار الإمامة والخلافة، وآحاد من الناس لا يعلمون اسمها، فضلاً عن وصفها، وهكذا يعلم الفقهاء من أصحاب مالك بالضرورة وتواتر النقل عنه أن مذهبه إيجاب قراءة أم القرآن في الصلاة للمنفرد والإمام، وإجزاء النية في أول ليلة من رمضان عما سواه، وأن الشافعي يرى تجديد النية كل ليلة، والاقتصار في المسح على بعض الرأس، وأن مذهبهما القصاص في القتل بالمحدد وغيره، وإيجاب النية في الوضوء، واشتراط الولي في النكاح، وأن أبا حنيفة يخالفهما في هذه المسائل، وغيرهم ممن لن يشتغل بمذاهبهم ولا روى أقوالهم لا يعرف هذا من مذاهبهم فضلاً عمن سواه. وعند ذكرنا آحاد هذه المعجزات نزيد الكلام فيها بيانًا إن شاء الله تعالى.

الفصل الرابع

في إعجاز القرآن

قال القاضي أبو الفضل-رحمه الله-:

اعلم-وفقنا الله وإياك-أن كتاب الله العزيز مُنْطَوٍ على وجوه من الإعجاز كثيرة، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه:

أولها: حسن تأليفه، والتئام كلمه، وفصاحته، ووجوه إيجازه، وبلاغته الخارقة عادة العرب، وذلك أنهم كانوا أرباب هذه الشأن، وفرسان الكلام، قد خصوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم، وأتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب، جعل الله لهم ذلك طبعًا وخلقة، وفيهم غريزة وقوة، يأتون منه على البديهة بالعجب، ويدلون به إلى كل سبب: فيخطبون بديهًا في المقامات، وشديد الخطب، ويرتجزون به بين الطعن والضرب، ويمدحون ويقدحون، ويتوسلون ويتوصلون، ويرفعون ويضعون، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال، ويطوقونَ من

أوصافهم أجمل من سمط اللآل، فيخدعون الألباب، ويذللون الصعاب، ويذهبون الإحن، ويهيجون الدمن، ويجرئون الجبان، ويبسطون يد الجعد البنان، ويصيرون الناقص كاملاً، ويتركون النبيه خاملاً. منهم البدوي ذو اللفظ الجزل، والقول الفصل، والكلام الفخم، والطبع الجوهري، والمنزع القوي.

ومنهم الحضري ذو البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعة، والكلمات الجامعة، والطبع السهل، والتصرف في القول القليل الكلفة، الكثير الرونق، الرقيق الحاشية.

وكلا البابين لهما في البلاغة الحجة البالغة، والقوة الدامغة، والقدح الفالج، والمهيع الناهج، لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم، والبلاغة ملك قيادهم، قد حووا فنونها، واستنبطوا عيونها، ودخلوا من كل باب من أبوابها، وعلوا صرحًا لبلوغ أسبابها، فقالوا في الخطير والمهين، وتفننوا في الغث والسمين، وتقاولوا في القل والكثر، وتساجلوا في النظم والنثر، فما راعهم إلا رسول كريم، بكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، أحكمت آياته، وفصلت كلماته، وبهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول، وتضافر إيجازه وإعجازه، وتظاهرت حقيقته ومجازه، وتبارت في الحسن مطالعه ومقاطعه، وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه، واعتدل مع إيجازه حسن نظمه، وانطبق ـ على كثرة فوائده ـ مختار لفظه، وهم أفسح ما كانوا في هذا الباب مجالاً، وأشهر في الخطابة رجالاً، وأكثر في السجع والشعر سجالاً، وأوسع في الغريب واللغة مقالاً، بلغتهم التي بها يتحاورون، ومنازعهم التي عنها يتناضلون، صارخًا بهم في كل حين، ومقرعًا لهم بضعًا وعشرين عامًا على رءوس الملأ أجمعين: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤].

و﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

و﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]. وذلك أن المفترى أسهل، ووضع الباطل والمختلق على الاختيار أقرب، واللفظ إذا تبع المعنى الصحيح كان أصعب، ولهذا قيل: فلان يكتب كما يقال له، وفلان يكتب كما يريد.

وللأول على الثاني فضل، وبينهما شأو بعيد.

فلم يزل يقرعهم ﷺ أشد التقريع، ويوبخهم غاية التوبيخ، ويسفه أحلامهم، ويحط أعلامهم، ويشتت نظامهم، ويذم آلهتهم وآبائهم، ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون عن مماثلته، يخادعون أنفسهم بالتشغيب والتكذيب، والإغراء بالافتراء، وقوله: ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [المدثر: ٢٤]، و ﴿ سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر: ٢]، و ﴿ إِفْكٌ افْتَرَاهُ ﴾ [الفرقان: ٤]، و﴿ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٥]، والمباهتة والرضا بالدنية، كقولهم: ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ [البقرة: ٨٨].

و ﴿ فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت: ٥]، و﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦].

والادعاء مع العجز بقولهم: ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ [الأنفال: ٣١].

وقد قال لهم الله: ولن تفعلوا، فما فعلوا ولا قدروا. ومن تعاطى ذلك من سخفائهم - كمسيلمة - كشف عواره جميعهم وسلبهم الله ما ألفوه، من فصيح كلامهم، وإلا فلم يخف على أهل الميز منهم أنه ليس من نمط فصاحتهم، ولا جنس بلاغتهم، بل ولوا عنه مدبرين، وأتوا مذعنين من بين مهتد وبين مفتون. ولهذا لما سمع الوليد بن المغيرة من النبي ﷺ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠]. قال: والله، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، ما يقول هذا بشر. وذكر أبو عبيد أن أعرابيًا سمع رجلاً يقرأ: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤] فسجد، وقال: سجدت لفصاحته. وسمع آخر رجلاً يقرأ: ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ [يوسف: ٨٠]، فقال: أشهد أن مخلوقًا لا يقدر على مثل هذا الكلام.

وحكي أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان يومًا نائمًا في المسجد فإذا هو بقائم على رأسه يتشهد شهادة الحق، واستخبره، فأعلمه أنه من بطارقة الروم ممن يحسن كلام العرب وغيرها، وأنه سمع رجلاً من أسرى المسلمين يقرأ آية من كتابكم فتأملتها، فإذا هي قد جمع فيها ما أنزل على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢].

وحكى الأصمعي: أنه سمع كلام جارية، فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك! فقالت:

أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧]، فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين، وخبرين، وبشارتين.

بهذا نوع من إعجازه منفرد بذاته، غير مضاف إلى غيره على التحقيق والصحيح من القولين. وكون القرآن من قبل النبي ﷺ وأنه أتى به معلوم ضرورة، وكونه - عليه السلام - متحديًا به معلوم ضرورة، وعجز العرب عن الإتيان به معلوم ضرورة، وكونه في فصاحته خارقًا للعادة معلوم ضرورة للعالمين بالفصاحة ووجوه البلاغة، وسبيل من ليس من أهلها أن يعلم ذلك بعجز المفكرين من أهلها عن معارضته واعتراف المفسرين بإعجاز بلاغته.

وأنت إذا تأملت قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩]. وقوله: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ [سبأ: ٥١]. وقوله: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤]. وقوله: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤].

وقوله: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وأشباهها من الآية - بل أكثر القرآن - حققت ما بينته من إيجاز ألفاظها، وكثرة معانيها، وديباجة عبارتها، وحسن تأليف حروفها، وتلاؤم كلمها، وأن تحت كل لفظة منها جملاً كثيرة، وفصولاً جمة، وعلومًا زواخر، ملئت الدواوين من بعض ما استفيد منها، وكثرت المقالات في المستنبطات عنها.

ثم هو في سرد القصص الطوال، وأخبار القرون السوالف، التي يضعف في عادة الفصحاء عندها الكلام، ويذهب ماء البيان؛ آية لمتأمله، من ربط الكلام بعضه ببعض، والتئام سرده، وتناصف وجوهه كقصة يوسف على طولها.

ثم إذا ترددت قصصه اختلفت العبارات عنها على كثرة ترددها حتى تكاد كل واحدة تنسي في البيان صاحبتها، وتناصف في الحسن وجه مقابلتها، ولا نفور للنفوس من ترديدها، ولا معادة لمعادها.

الفصل الخامس

إعجاز النظم والإسلوب

الوجه الثاني من إعجازه: صورة نظمه العجيب، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه، ووقفت مقاطع آيه، وانتهت فواصل كلماته إليه، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه، بل حارت فيه عقولهم، وتدلهت دونه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم، أو سجع أو رجز، أو شعر.

ولما سمع كلامه ﷺ الوليد بن المغيرة، وقرأ عليه القرآن ـ رق، فجاءه أبو جهل، منكراً عليه قال: والله ما منكم أحد أعلم بالأشعار مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا.

وفي خبره الآخر حين جمع قريشًا عند حضور الموسم، وقال: إن وفود العرب ترد فأجمعوا فيه رأيًا، لا يكذب بعضكم بعضًا، فقالوا: نقول كاهن. قال: والله ما هو بكاهن، ما هو بزمزمته ولا سجعه.

قالوا: مجنون. قال: ما هو بمجنون، ولا بخنقه ولا وسوسته.

قالوا: نقول شاعر. قال: ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر كله، رجزه وهزجه، وقريضه، ومبسوطه، ومقبوضه، ما هو بشاعر. قالوا: فنقول ساحر. قال: ما هو بساحر، ولا نفثه ولا عقده.

قالوا: فما فنقول؟ قال: ما أنتم بقائلين من هذا شيئًا، إلا وأنا أعرف أنه باطل وإن أقرب القول أنه ساحر، فإنه سحر يفرق بين المرء وابنه، والمرء وأخيه، والمرء وزوجه، والمرء وعشيرته. فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرورن الناس، فأنزل الله تعالى في الوليد: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُوداً ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ١١ـ٢٤].

وقال عتبة بن ربيعة حين سمع القرآن: يا قوم، قد علمتم أني لم أترك شيئًا إلا وقد

علمته وقرأته وقلته، والله لقد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة.

وقال النضر بن الحارث نحوه.

وفي حديث إسلام أبي ذر ووصف أخاه أنيسًا، فقال: والله ما سمعت بأشعر من أخي أنيس، لقد ناقض اثني عشر شاعراً في الجاهلية، أنا أحدهم، وإنه انطلق إلى مكة، وجاء إلى أبي ذر بخبر النبي ﷺ. قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر، لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعته على أقراء الشعر فلم يلتئم، وما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، وإنه لصادق، وإنهم لكاذبون.

والأخبار في هذه صحيحة كثيرة.

والإعجاز بكل واحد من النوعين: الإيجاز والبلاغة بذاتها، أو الأسلوب الغريب بذاته، كل واحد منهما نوع إعجاز على التحقيق، لم تقدر العرب على الإتيان بواحد منهما، إذ كل واحد منهما خارج عن قدرتها، مباين لفصاحتها وكلامها، وإلى هذا ذهب غير واحد من أئمة المحققين.

وذهب بعض المحققين المقتدى بهم إلى أن الإعجاز في مجموع البلاغة والأسلوب، وأتى على ذلك بقولٍ تمجه الأسماع، وتنفر منه القلوب.

والصحيح ما قدمناه، والعلم بهذا كله ضرورة قطعًا.

ومن تفنن في علوم البلاغة وأرهف خاطره ولسانه أدب هذه الصناعة لم يخف عليه ما قلناه.

وقد اختلف أئمة أهل السنة في وجه عجزهم عنه، فأكثرهم يقول: إنه ما جمع في قوة جزالته، ونصاعة ألفاظه، وحسن نظمه، وإيجازه، وبديع تأليفه وأسلوبه لا يصح أن يكون في مقدور البشر، وأنه من باب الخوارق الممتنعة عن إقدار الخلق عليها، كإحياء الموتى، وقلب العصا، وتسبيح الحصى.

وذهب الشيخ أبو الحسن إلى أنه مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر، ويقدرهم الله عليه، ولكنه لم يكن هذا ولا يكون، فمنعهم الله هذا، وعجزهم عنه. وقال به جماعة من أصحابه وعلى الطريقين فعجز العرب عنه ثابت، وإقامة الحجة عليهم بما يصح أن يكون في مقدور البشر، وتحديهم بأن يأتوا بمثله قاطع، وهو أبلغ في التعجيز، وأحرى بالتقريع، والاحتجاج بمجيء بشر مثلهم بشيء ليس من قدرة البشر لازم، وهو أبهر آية،

وأقمع دلالة.

وعلى كل حال فما أتوا في ذلك بمقال، بل صبروا على الجلاء والقتل، وتجرعوا كاسات الصغار والذل، وكانوا من شموخ الآنف، وإباية الضيم، بحيث لا يؤثرون ذلك اختياراً، ولا يرضونه إلا اضطراراً، وإلا فالمعارضة لو كانت من قدرهم، والشغل بها أهون عليهم، وأسرع بالنجح وقطع العذر وإفحام الخصم لديهم، وهم ممن لهم قدرة على الكلام، وقدرة في المعرفة به لجميع الأنام، وما منهم إلا من جهد جهده، واستنفد ما عنده في إخفاء ظهوره، وإطفاء نوره، فما جلوا في ذلك خبيئة من بنات شفاههم، ولا أتوا بنطفة من معين مياههم، مع طول الأمد، وكثرة العدد، وتظاهر الوالد وما ولد، بل أبلسوا فما نبسوا، ومنعوا فانقطعوا، فهذان نوعان من إعجازه.

الفصل السادس

الإخبار عن المغيبات

الوجه الثالث من الإعجاز: ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات، وما لم يكن ولم يقع، فوجد كما ورد وعلى الوجه الذي أخبر به، كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٣].

وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]

وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ١-٣]

فكان جميع هذا كما قال، فغلبت الروم فارس في بضع سنين، ودخل الناس في الإسلام أفواجاً، فما مات ﷺ وفي بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام.

واستخلف [الله] المؤمنين في الأرض، ومكن فيها دينهم، وملكهم إياها من أقصى

المشارق إلى أقصى المغارب، كما قال عليه السلام: «زويت لي الأرض، فأوريت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها».

وقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، فكان كذلك، لا يكاد يعد من سعى في تغييره، وتبديل محكمه من الملحدة والمعطلة، لا سيما القرامطة، فأجمعوا كيدهم وحولهم وقوتهم، اليوم نيفًا على خمسمائة عام، فما قدروا على إطفاء شيء من نوره، ولا تغيير كلمة من كلامه، ولا تشكيك المسلمين في حرف من حروفه، والحمد لله.

ومنه قوله: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥].

وقوله: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٤].

وقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣].

وقوله: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾

[آل عمران: ١١١].

فكان كل ذلك.

وما فيه من كشف أسرار المنافقين واليهود، ومقالهم وكذبهم في حلفهم، وتقريعهم بذلك، كقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ [المجادلة: ٨].

وقوله: ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

[آل عمران: ١٥٤].

وقوله: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٤١].

وقوله: ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ﴾ [النساء: ٤٦].

وقد قال مبديًا ما قدره الله واعتقده المؤمنون يوم بدر: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٧].

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥].

ولما نزلت بشر النبي ﷺ بذلك أصحابه بأن الله كفاه إياهم؛ وكان المستهزئون نفرًا بمكة ينفرون الناس عنه ويؤذونه فهلكوا.

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧]. فكان كذلك على كثرة من رام ضره وقصد قتله، والأخبار بذلك معروفة وصحيحة.

الفصل السابع

إخباره عن القرون السالفة والأمم البائدة

الوجه الرابع: ما أنبأ من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الدائرة، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك، فيورده النبي ﷺ على وجهه، ويأتي به على نصه، فيعترف العالم بذلك بصحته وصدقه، وأن مثله لم ينله بتعليم.

وقد علموا أنه ﷺ أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، ولا اشتغل بمدارسة ولا مثافنة، ولم يغب عنهم، ولا جهل حاله أحد منهم.

وقد كان أهل الكتاب كثيرًا ما يسألونه ﷺ عن هذا، فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكرًا، كقصص الأنبياء مع قومهم، وخبر موسى والخضر، ويوسف وإخوته، وأصحاب الكهف، وذي القرنين، ولقمان وابنه، وأشباه ذلك من الأنبياء [والقصص]، وبدء الخلق، وما في التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى، مما صدقه فيه العلماء بها، ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها، بل أذعنوا لذلك، فمن موفق آمن بما سبق له من خير، ومن شقي معاند حاسد، ومع هذا لم يحك عن واحد من النصارى واليهود على شدة عداوتهم له، وحرصهم على تكذيبه، وطول احتجاجه عليهم بما في كتبهم، وتقريعهم بما انطوت عليه مصاحفهم، وكثرة سؤالهم له ﷺ، وتعنيتهم إياه عن أخبار أنبيائهم، وأسرار علومهم، ومستودعات سيرهم، وإعلامه لهم بمكتوم شرائعهم ومضمنات كتبهم، مثل سؤالهم عن الروح، وذي القرنين، وأصحاب الكهف، وعيسى، وحكم الرجم، وما حرم إسرائيل على نفسه، وما حرم عليهم من الأنعام، ومن طيبات

أحلت لهم فحرمت عليهم ببغيهم.

وقوله: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

وغير ذلك من أمورهم التي نزل فيها القرآن، فأجابهم وعرفهم بما أوحي إليه من ذلك أنه أنكر ذلك أو كذبه، بل أكثرهم صرح بصحة نبوته، وصدق مقالته، واعترف بعناده، وحسدهم إياه، كأهل نجران، وابن صوريا، وابني أخطب وغيرهم. ومن باهت في ذلك بعض المباهتة، وادعى أن فيما عندهم من ذلك لما حكاه مخالفة دعي إلى إقامة حجته، وكشف دعوته، فقيل له: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [آل عمران: ٩٣-٩٤].

فقرع ووبخ، ودعا إلى إحضار ممكن غير ممتنع، فمن معترف بما جحده، ومتواقح يُلقي على فضيحته من كتابه يده.

ولم يؤثر أن واحداً منهم أظهر خلاف قوله من كتبه، ولا أبدى صحيحاً ولا سقيماً من صحفه، قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

الفصل الثامن

التحدي والتعجيز في قضايا وإعلامهم أنهم لا يفعلونها

هذه الوجوه الأربعة من إعجازه بينة لا نزاع فيها ولا مرية.

ومن الوجوه البينة في إعجازه من غير هذه الوجوه: آي وردت بتعجيز قوم في قضايا، وإعلامهم أنهم لا يفعلونها فما فعلوا ولا قدروا على ذلك، كقوله لليهود: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٩٤-٩٥].

قال أبو إسحاق الزجاج: في هذه الآية أعظم حجة وأظهر دلالة على صحة الرسالة، لأنه قال: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾، وأعلمهم أنهم لن يتمنوه أبداً، فلم يتمنه واحد منهم.

وعن النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يقولها رجل منهم إلا غص بريقه» - يعني يموت مكانه. فصرفهم الله عن تمنيه وجزعهم، ليظهر صدق رسوله، وصحة ما أوحي إليه، إذ لم يتمنه أحد منهم، وكانوا على تكذيبه أحرص لو قدروا، ولكن الله يفعل ما يريد، فظهرت بذلك معجزته، وبانت حجته.

قال أبو محمد الأصيلي: من أعجب أمرهم أنه لا يوجد منهم جماعة، ولا واحد، من يوم أمر الله بذلك نبيه يقدم عليه، ولا يجيب إليه. وهذا موجود مشاهد لمن أراد أن يمتحنه منهم. وكذلك آية المباهلة من هذا المعنى، حيث وفد عليه أساقفة نجران وأبوا الإسلام، فأنزل الله تعالى عليه آية المباهلة بقوله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]. فامتنعوا منها، ورضوا بأداء الجزية، وذلك أن «العاقب» عظيمهم قال لهم: قد علمتم أنه نبي، وأنه ما لاعن قومًا نبي قط فبقي كبيرهم ولا صغيرهم.

ومثله قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤].

فأخبرهم أنهم لا يفعلون، كما كان.

وهذه الآية أدخل في باب الإخبار عن الغيب. ولكن فيها من التعجيز ما في التي قبلها.

الفصل التاسع

روعته في السمع وهيبته في القلوب

ومنها الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته، لقوة حاله، وإنافة خطره، وهي على المكذبين به أعظم، حتى كانوا يستثقلون سماعه، ويزيدهم نفوراً كما قال تعالى، ويودون انقطاعه لكراهتهم له.

ولهذا قال ﷺ: «إن القرآن صعب مستصعب على من كرهه، وهو الحكم، وأما المؤمن فلا تزال روعته به، وهيبته إياه، ومع تلاوته توليه انجذابًا، وتكسبه هشاشة، لميل قلبه إليه، وتصديقه به».

قال تعالى: ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقال: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١]. ويدل على أن هذا شيء خص به أنه يعتري من لا يفهم معانيه، ولا يعلم تفاسيره، كما روي عن نصراني أنه مر بقارئ، فوقف يبكي، فقيل له: مم بكيت؟ قال: للشجا والنظم.

وهذه الروعة قد اعترت جماعة قبل الإسلام وبعده، فمنهم من أسلم لها لأول وهلة وآمن به، ومنهم من كفر.

فحكي في «الصحيح»، عن جبير بن مطعم، قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧] كاد قلبي أن يطير للإسلام[1]. وفي رواية: وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي.

وعن عتبة بن ربيعة: أنه كلم النبي ﷺ فيما جاء به من خلاف قومه، فتلا عليهم: ﴿ حم ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت: ١-١٣]. فأمسك عتبة بيده على فِيِّ النبي ﷺ، وناشده الرحم أن يكف.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٦٥، ٣٠٥٠، ٤٠٢٣، ٤٨٥٤).

وفي رواية: فجعل النبيﷺ يقرأ وعتبة مصغ ملقٍ يديه خلف ظهره، معتمد عليهما، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ السجدة، فسجد النبيﷺ، وقام عتبة لا يدري بما يراجعه، ورجع إلىٰ أهله، ولم يخرج إلىٰ قومه حتىٰ أتوه، فاعتذر لهم وقال: والله لقد كلمني بكلام والله ما سمعت أذناي بمثله قط، فما دريت ما أقول له. وقد حكي عن غير واحد ممن رام معارضته أنه اعترته روعة وهيبة كف بها عن ذلك.

فحكىٰ أن ابن المقفع طلب ذلك ورامه، وشرع فيه، فمر بصبي يقرأ: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ﴾[هود: ٤٤]، فرجع فمحا ما عمل، و قال: أشهد أن هذا لا يعارض، وما هو من كلام البشر. وكان من أفصح أهل وقته.

وكان يحيىٰ بن حكم الغزال بليغ الأندلس في زمنه، فحكي أنه رام شيئًا من هذا، فنظر في سورة الإخلاص ليحذو علىٰ مثالها، وينسج - بزعمه - علىٰ منوالها، قال: فاعترتني خشية ورقّة حملتني علىٰ التوبة والإنابة.

الفصل العاشر

بقاؤه على الزمن

ومن وجوه إعجازه المعدود: كونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه، فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[الحجر: ٩].

وقال: ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢].

وسائر معجزات الأنبياء انقضت بانقضاء أوقاتها، فلم يبق إلا خبرها، والقرآن العزيز، الباهرة آياته، الظاهرة معجزاته علىٰ ما كان عليه اليوم - مدة خمسمائة عام وخمس وثلاثين سنة لأول نزوله إلىٰ وقتنا هذا - حجته قاهرة، ومعارضته ممتنعة، والأعصار كلها طافحة بأهل البيان، وحملة علم اللسان، وأئمة البلاغة، وفرسان الكلام، وجهابذة البراعة، والملحد فيهم كثير، والمعادي للشرع عتيد، فما منهم من أتىٰ بشيء يؤثر في معارضته، ولا ألف كلمتين في مناقضته، ولا قدر فيه علىٰ مطعن صحيح، ولا قدح المتكلف من ذهنه في ذلك إلا بزند شحيح، بل المأثور عن كل من رام ذلك إلقاؤه في العجز بيديه، والنكوص علىٰ عقبيه.

الفصل الحادي عشر
وجوه أخرى للإعجاز

وقد عد جماعة من الأئمة ومقلدي الأمة في إعجازه وجوهًا كثيرة، منها أن قارئه لا يمله، وسامعه لا يمجه، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبة، لا يزال غضًا طريًا، وغيره من الكلام - ولو بلغ في الحسن والبلاغة مبلغه - يمل مع الترديد، ويعادى إذا أعيد، وكتابنا يستلذ به في الخلوات، ويؤنس بتلاوته في الأزمات، وسواه من الكتب لا يوجد فيها ذلك، حتى أحدث أصحابها لحونًا وطرقًا يستجلبون بتلك اللحون تنشيطهم على قراءتها.

ولهذا وصف رسول الله ﷺ القرآن بأنه: «**لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عبره، ولا تفنى عجائبه، هو الفصل ليس بالهزل، لا يشبع منه العلماء، ولا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، هو الذي لم تنته الجن حين سمعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾**[1] [الجن: ١-٢]».

ومنها جمعه لعلوم ومعارف لم تعهد العرب عامة ولا محمد ﷺ قبل نبوته خاصة بمعرفتها، ولا يحيط بها أحد من علماء الأمم، ولا يشتمل عليها كتاب من كتبهم، فجمع فيه من بيان علم الشرائع، والتنبيه على طرق الحجج العقليات، والرد على فرق الأمم ببراهين قوية، وأدلة بينة سهلة الألفاظ، موجزة المقاصد، رام المتحذلقون بعد أن ينصبوا أدلة مثلها فلم يقدروا عليها، كقوله تعالى: ﴿**أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ**﴾ [يس: ٨١].

و: ﴿**قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ [يس: ٧٩].

و: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾ [الأنبياء: ٢٢].

إلى ما حواه من علوم السير، وأنباء الأمم، والمواعظ، والحكم، وأخبار الدار الآخرة، ومحاسن الآداب والشيم.

قال الله - جل اسمه -: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ [الأنعام: ٣٨].

---

(١) ضعيف جدًا: أخرجه الترمذي (٢٩٠٦)، وفيه الحارث الأعور.

و: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

و: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨].

وقال ﷺ: «إن الله أنزل هذا القرآن آمراً وزاجراً، وسنة خالية، ومثلاً مضروبًا، فيه نبؤكم، وخبر ما كان قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، لا يخلقه طول الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الحق ليس بالهزل، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن خاصم به فلج، ومن قسم به أقسط، ومن عمل به أجر، ومن تمسك به هدي إلى صراط مستقيم، ومن طلب الهدى من غيره أضله الله، ومن حكم بغيره قصمه الله، هو الذكر الحكيم، والنور المبين، والصراط المستقيم، وحبل الله المتين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يعوج فيقوم، ولا يزيغ فيستعتب، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد».

ونحوه عن ابن مسعود، وقال فيه: «ولا يختلف، ولا يُتشانأ، فيه نبأ الأولين والآخرين».

وفي الحديث: قال الله تعالى لمحمد ﷺ: «إني منزل عليك توراة حديثة، تفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفاً، فيها ينابيع العلم، وفهم الحكمة، وربيع القلوب».

وعن كعب: عليكم بالقرآن، فإنه فهم العقول، ونور الحكمة.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦]. وقال: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

فجمع فيه مع وجازة ألفاظه، وجوامع كلمه أضعاف ما في الكتب قبله التي ألفاظها على الضعف منه مرات.

ومنها: جمعه فيه بين الدليل ومدلوله، وذلك أنه احتج بنظم القرآن، وحسن رصفه وإيجازه وبلاغته، وأثناء هذه البلاغة أمره ونهيه، ووعده ووعيده، فالتالي له يفهم موضع الحجة والتكليف معًا من كلام واحد، وسورة منفردة.

ومنها: أن جعله في حيز المنظوم الذي لم يعهد، ولم يكن في حيز المنثور، لأن المنظوم

أسهل على النفوس، وأوعى للقلوب، وأسمع في الآذان، وأحلى على الأفهام، فالناس إليه أميل، والأهواء إليه أسرع.

ومنها: تيسيره تعالى حفظه لمتعلميه، وتقريبه على متحفظيه، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وسائر الأمم لا يحفظ كتبها الواحد منهم، فكيف الجَمَّاءُ على مرور السنين عليهم، والقرآن ميسر حفظه للغلمان في أقرب مدة.

ومنها: مشاكلة بعض أجزائه بعضًا، وحسن ائتلاف أنواعه، والتئام أقسامها، وحسن التخلص من قصة إلى أخرى، والخروج من باب إلى غيره على اختلاف معانيه، وانقسام السورة الواحدة إلى أمر ونهي، وخبر واستخبار، ووعد ووعيد، وإثبات نبوة، وتوحيد وتفريد، وترغيب وترهيب، إلى غير ذلك من فوائده، دون خلل يتخلل فصوله.

والكلام الفصيح إذا اعتوره مثل هذا ضعفت قوته، ولانت جزالته، وقل رونقه، وتقلقت ألفاظه.

فتأمل أول﴿ ص﴾، وما جمع فيها من أخبار الكفار وشقاقهم وتقريعهم بإهلاك القرون من قبلهم، و ما ذكر من تكذيبهم لمحمد ﷺ، وتعجبهم مما أتى به، والخبر عن اجتماع ملئهم على الكفر، وما ظهر من الحسد في كلامهم، وتعجيزهم وتوهينهم، ووعيدهم بخزي الدنيا والآخرة، وتكذيب الأمم قبلهم، وإهلاك الله لهم، ووعيد هؤلاء مثل مصابهم، وتصبير النبي ﷺ على أذاهم، وتسليته بكل ما تقدم ذكره، ثم أخذ في ذكر داود وقصص الأنبياء، كل هذا في أوجز كلام وأحسن نظام.

ومنه: الجملة الكثيرة التي انطوت عليها الكلمات القليلة، وهذا كله وكثير مما ذكرناه أنه ذكر في إعجاز القرآن، إلى وجوه كثيرة ذكرها الأئمة لم نذكرها، إذ أكثرها داخل في باب بلاغته، فلا يجب أن يعد فنًا منفردًا في إعجازه، إلا في باب تفصيل فنون البلاغة، وكذلك كثير مما قدمنا ذكره عنهم يُعد في خواصه وفضائله، لا إعجازه.

وحقيقة الإعجاز الوجوه الأربعة التي ذكرنا، فليعتمد عليها، وما بعدها من خواص القرآن وعجائبه التي لا تنقضي. والله ولي التوفيق.

الفصل الثاني عشر
في انشقاق القمر وحبس الشمس

قال الله تعالىٰ: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١-٢].

أخبر تعالىٰ بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي، وإعراض الكفرة عن آياته، وأجمع المفسرون وأهل السنة علىٰ وقوعه:

أخبرنا الحسين بن محمد الحافظ من كتابه، حدثنا القاضي سراج بن عبد الله، حدثنا الأصيلي، حدثنا المروزي، حدثنا الفربري، حدثنا البخاري، حدثنا مسدد، حدثنا يحيىٰ، عن شعبة، وسفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبي معمر، عن ابن مسعود -رضي الله عنه-، قال: انشق القمر علىٰ عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا».

وفي رواية مجاهد: ونحن مع النبي ﷺ[1].

وفي بعض طرق الأعمش: ونحن بمنًىٰ.

ورواه أيضًا -عن ابن مسعود- الأسود، وقال: حتىٰ رأيت الجبل بين فرجتي القمر.

ورواه عنه مسروق -أنه كان بمكة- وزاد: فقالت كفار قريش: سحركم ابن أبي كبشة!.

فقال رجل منهم: إن محمداً إن كان سحر القمر فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر: هل رأوا هذا؟ فأتوا فسألوهم فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك.

وحكىٰ السمرقندي عن الضحاك نحوه، وقال: فقال أبو جهل: هذا سحر، فابعثوا إلىٰ أهل الآفاق حتىٰ تنظروا: أرأوا ذلك أم لا؟

فأخبر أهل الآفاق أنهم رأوه منشقًا، فقالوا -يعني الكفار-: سحر مستمر. ورواه أيضًا -عن ابن مسعود- علقمة، فهؤلاء أربعة عن عبد الله.

وقد رواه غير ابن مسعود كما رواه ابن مسعود، منهم أنس، وابن عباس، وابن عمر، وحذيفة، وعليّ، وجبير بن مطعم، فقال عليّ -من رواية أبي حذيفة الأرحبي: انشق

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٦٣٦، ٣٨٦٩، ٤٨٦٤)، ومسلم (٢٨٠٠، ٢٨٠١).

القمر ونحن مع النبي ﷺ.

وعن أنس: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر فرقتين حتى رأوا حراء بينهما.

رواه عن أنس قتادة.

وفي رواية معمر وغيره، عن قتادة، عنه: أراهم القمر مرتين انشقاقه، فنزلت: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ . ورواه عن جبير بن مطعم ابنه محمد، وابن ابنه جبير ابن محمد. ورواه عن ابن عباس عبيد الله بن عبد الله بن عتبة.

ورواه عن ابن عمر مجاهد، ورواه عن حذيفة أبو عبد الرحمن السلمي ومسلم بن أبي عمران الأزدي.

وأكثر طرق هذه الأحاديث صحيحة، والآية مصرحة، ولا يلتفت إلى اعتراض مخذول، بأنه لو كان هذا لم يخف على الأرض، إذ هو شيء ظاهر لجميعهم، إذ لم ينقل لنا عن أهل الأرض أنهم رصدوه تلك الليلة فلم يروه انشق، ولو نقل إلينا عمن لا يجوز تمالؤهم ـ لكثرتهم ـ على الكذب، لما كانت علينا به حجة، إذ ليس القمر في حد واحد لجميع أهل الأرض، فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على آخرين، وقد يكون من قوم بضد ما هو من مقابليهم من أقطار الأرض، أو يحول بين قوم وبينه سحاب أو جبال، ولهذا نجد الكسوفات في بعض البلاد دون بعض، وفي بعض جزئية، وفي بعضها كلية، وفي بعضها لا يعرفها إلا المدعون لعلمها، ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [يس: ٣٨].

وآية القمر كانت ليلاً، والعادة من الناس بالليل الهدوء والسكون وإيجاف الأبواب، وقطع التصرف، ولا يكاد يعرف من أمور السماء شيئًا، إلا من رصد ذلك، واهتبل به. ولذلك ما يكون الكسوف القمري كثيراً في البلاد، وأكثرهم لا يعلم به حتى يخبر وكثيراً ما يحدث الثقات بعجائب يشاهدونها من أنوار ونجوم طوالع عظام تظهر في الأحيان بالليل في السماء، ولا علم عند أحد منها.

وخرج الطحاوي في «مشكل الحديث» عن أسماء بنت عميس من طريقين: أن النبي ﷺ كان يوحى إليه، ورأسه في حجر عليّ، فلم يصل العصر حتى غربت الشمس، فقال النبي ﷺ: «أصليت يا عليّ؟» قال: لا. فقال: «اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك فاردد عليه الشمس». قالت أسماء: فرأيتها غربت، ثم رأيتها طلعت بعدما غربت، ووقفت على الجبال والأرض، وذلك بالصهباء في خيبر.

قال: وهذان الحديثان ثابتان ورواتهما ثقات.

وحكى الطحاوي أن أحمد بن صالح كان يقول: لا ينبغي لمن [يكون] سبيله العلم التخلف عن حفظ حديث أسماء، لأنه من علامات النبوة.

وروى يونس بن بكير في زيادة «المغازي» في روايته عن ابن إسحاق: لما أسري برسول الله، وأخبر قومه بالرفقة والعلامة التي في العير قالوا: متى تجيء؟ قال: «يوم الأربعاء»، فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينظرون وقد ولى النهار ولم يجئ، فدعا رسول الله، فزيد له في النهار ساعة، وحبست عليه الشمس.

الفصل الثالث عشر

في نبع الماء من بين أصابعه وتكثيره ببركته

[قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: أما الأحاديث في هذا فكثيرة جداً.

روى حديث نبع الماء من أصابعه ﷺ جماعة من الصحابة منهم: أنس، وجابر، وابن مسعود.

حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر الفقيه بقراءتي عليه، حدثنا القاضي عيسى بن سهل، حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد، حدثنا أبو عمر بن الفخار، حدثنا أبو عيسى، حدثنا يحيى، حدثنا مالك، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: رأيت رسول الله ﷺ، وحانت صلاة العصر، فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأتي رسول الله ﷺ بوَضوء، فوضع رسول الله ﷺ في ذلك الإناء يده، وأمر الناس أن يتوضئوا منه. قال: فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ الناس حتى توضئوا من عند آخرهم[1].

ورواه أيضاً ـ عن أنس ـ، وقال: بإناء فيه ماء يغمر أصابعه أو لا يكاد يغمر.

قال: كم كنتم؟ قال: كنا زهاء ثلاثمائة[2].

وفي رواية عنه: وهم بالزوراء عند السوق[3].

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٠٠، ٣٥٧٢)، ومسلم (٢٢٧٩).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٧٩).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٧٩).

ورواه أيضًا حميد وثابت والحسن، عن أنس.

وفي رواية حميد: قلت: كم كانوا؟ قال: ثمانين.

ونحوه عن ثابت عنه.

وعنه أيضًا: وهم نحو من سبعين رجلاً.

وأما ابن مسعود ففي «الصحيح» من رواية علقمة: بينما نحن مع رسول الله ﷺ، وليس معنا ماء، فقال لنا رسول الله ﷺ: «اطلبوا من معه فضل ماء»، فأتي بماء فصبه في إناء، ثم وضع كفه فيه، فجعل الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ[1].

وفي «الصحيح» عن سالم بن أبي الجعد، عن جابر ـ رضي الله عنه ـ: عطش الناس يوم الحديبية، ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة، فتوضأ منه، وأقبل الناس نحوه، وقالوا: ليس عندنا ماء إلا ما في ركوتك، فوضع النبي ﷺ يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون.

وفيه: فقلت: كم كنتم؟ قالوا: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة[2].

وروي مثله عن أنس، عن جابر، وفيه أنه كان بالحديبية.

وفي رواية الوليد بن عبادة بن الصامت عنه، في حديث مسلم الطويل في ذكر غزوة بواط قال:

قال لي رسول الله ﷺ: «يا جابر، ناد، الوضوء...» وذكر الحديث بطوله، وأنه لم يجد إلا قطرة في عزلاء شجب، فأتي به النبي ﷺ، فغمزه وتكلم بشيء لا أدري ما هو، وقال: «ناد بجفنة الركب»، فأتيت بها، فوضعتها بين يديه، وذكر أن النبي ﷺ بسط يده في الجفنة، وفرق أصابعه، وصب جابر عليه، وقال: بسم الله [كما أمره ﷺ]، قال: فرأيت الماء يفور من بين أصابعه، ثم فارت الجفنة واستدارت حتى امتلأت، وأمر الناس بالاستقاء، فاستقوا حتى رووا.

فقلت: هل بقي أحد له حاجة؟ فرفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهي ملأى[3].

وعن الشعبي: أتي النبي ﷺ في بعض أسفاره بإداوة ماء وقيل: ما معنا يا رسول الله ماء غيرها، فسكبها في ركوة، ووضع إصبعه وسطها، وغمسها في الماء، وجعل الناس

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٥٧٢).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤١٥٢).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣٥٧٥)، ومسلم (٣٠١٣).

يجيئون ويتوضئون ثم يقومون.

قال الترمذي: وفي الباب عن عمران بن حصين.

ومثل هذا في هذه المواطن الحفلة والجموع الكثرية لا تتطرق التهمة إلىٰ المحدث به، لأنهم كانوا أسرع شيء إلىٰ تكذيبه لما جُبلت عليه النفوس من ذلك، ولأنهم كانوا ممن لا يسكت علىٰ باطل فهؤلاء قد رووا هذا، وأشاعوه، ونسبوا حضور الجُماء الغفير له، ولم ينكر أحد من الناس عليهم ما حدثوا به عنهم أنهم فعلوه وشاهدوه، فصار كتصديق جميعهم له.

الفصل الرابع عشر

تفجير الماء ببركته

ومما يشبه هذا من معجزاته: تفجير الماء ببركته وانبعاثه بمسه ودعوته، فيما روىٰ مالك في «الموطأ» عن معاذ بن جبل في قصة غزوة تبوك، وأنهم وردوا العين وهي تبض بشيء من ماء مثل الشراك، فغرفوا من العين بأيديهم حتىٰ اجتمع في شيء، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه، وأعاده فيها، فجرت بماء كثير، فاستقىٰ الناس(١).

قال في حديث ابن إسحاق: فانخرق من الماء ما له حس كحس الصواعق.

ثم قال: «**يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ها هنا قد مليء جنانًا**».

وفي حديث البراء، وسلمة بن الأكوع - وحديثه أتم - في قصة الحديبية: وهم أربع عشرة مائة، وبئرها لا تروي خمسين شاة، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فقعد رسول الله ﷺ علىٰ جباها.

قال البراء: وأتي بدلو منها، فبصق فدعا.

وقال سلمة: فإما دعا، وإما بصق فيها، فجاشت، فأرووا أنفسهم وركابهم.

وفي غير هذه الروايتين - في هذه القصة - من طريق ابن شهاب في الحديبية: فأخرج سهمًا من كنانته، فوضع في قعر قليب ليس فيه ماء؟ فروي الناس حتىٰ ضربوا بعطن.

وعن أبي قتادة - وذكر أن الناس شكوا إلىٰ رسول الله ﷺ العطش في بعض أسفاره: فدعا بالميضأة، فجعلها في ضبنه، ثم التقم فمها، فالله أعلم: نفث فيها أم لا، فشرب

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٠٦).

الناس حتىٰ رووا وملأوا كل إناء معهم، فخيل إليَّ أنها كما أخذها مني، وكانوا اثنين وسبعين رجلاً(١).

ورویٰ مثله عمران بن حصين.

وذكر الطبري حديث أبي قتادة علىٰ غير ما ذكره أهل «الصحيح»: وأن النبي ﷺ خرج بهم ممداً لأهل مؤتة عندما بلغه قتل الأمراء:

وذكر حديثًا طويلاً فيه معجزات وآيات النبي ﷺ، وفيه إعلامهم أنهم يفقدون الماء في غد. وذكر حديث الميضأة، قال: والقوم زهاء ثلاثمائة(٢).

وفي كتاب مسلم أنه قال لأبي قتادة: «**احفظ على ميضأتك، فإنه سيكون لها نبأ...**» وذكر نحوه(٣). ومن ذلك حديث عمران بن حصين حين أصاب النبي ﷺ وأصحابه عطش في بعض أسفارهم، فوجه رجلين من أصحابه، وأعلمهما أنهما يجدان امرأة بمكان كذا معها بعير عليه مزادتان... الحديث، فوجداها وأتيا بها إلىٰ النبي ﷺ، فجعل في إناء من مزادتيها، وقال فيه ما شاء أن يقول، ثم أعاد الماء في المزادتين، ثم فتحت عزاليهما، وأمر الناس فملأوا أسقيتهم حتىٰ لم يدعوا شيئًا إلا ملأوه.

قال عمران: وتخيل إليَّ أنهما لم تزدادا إلا امتلاء، ثم أمر فجمع للمرأة من الأزواد حتىٰ ملأ ثوبها. وقال: «**اذهبي، فإنا لم نأخذ من مائك شيئًا، ولكن الله سقانا...**» الحديث بطوله.

وعن سلمة بن الأكوع: قال نبي الله ﷺ: «**هل من وضوء؟**» فجاء رجل بإداوة فيها نطفة فأفرغها في قدح، فتوضأنا كلنا ندغفقه دغفقة أربع عشرة مائة.. الحديث بطوله(٤).

وفي حديث عمر - في جيش العسرة -: وذكر ما أصابهم من العطش، حتىٰ إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه فرغب أبو بكر إلىٰ النبي ﷺ في الدعاء فرفع يديه فلم يرجعهما حتىٰ قالت السماء فانسكبت، فملأوا ما معهم من آنية، ولم تجاوز العسكر.

وعن عمرو بن شعيب: أن أبا طالب قال للنبي وهو رديفه بذي المجاز: عطشت وليس عندي ماء، فنزل النبي ﷺ، وضرب بقدمه الأرض، فخرج الماء فقال: «**اشرب**».

والحديث في هذا الباب كثير، ومنه: الإجابة بدعاء الاستسقاء وما جانسه.

(١، ٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٧٩).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٦٨١).
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٢٩).

الفصل الخامس عشر

تكثير الطعام

ومن معجزاته تكثير الطعام ببركته ودعائه:

حدثنا القاضي الشهيد أبو عليّ - رحمه الله -، حدثنا العذري، حدثنا الرازي، حدثنا الجلودي، حدثنا أبو سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا الحسن بن أعين، حدثنا معقل، عن أبي الزبير، عن جابر أن رجلاً أتى النبي ﷺ يستطعمه، فأطعمه شطر وسق شعير، فما زال يأكل منه وامرأته وضيفه حتى كاله، فأتى النبيﷺ ، فأخبره، فقال: «لو لم تكله لأكلتم منه ولقام بكم»[١].

ومن ذلك حديث أبي طلحة المشهور، وإطعامهﷺ ثمانين أو سبعين رجلاً من أقراص من شعير جاء بها أنس تحت يده - أي إبطه - فأمر بها ففتت، وقال فيها ما شاء الله أن يقول[٢].

وحديث جابر في إطعامهﷺ يوم الخندق ألف رجل من صاع شعير وعناق.

وقال جابر: فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغظ كما هي، وإن عجيننا ليخبز.

وكان رسول اللهﷺ بصق في العجين والبرمة، وبارك. رواه عن جابر سعيد بن ميناء، وأيمن. وعن ثابت مثله، عن رجل من الأنصار وامرأته، ولم يسمهما، قال: وجيء بمثل الكف، فجعل رسول اللهﷺ يبسطها في الإناء ويقول: «ما شاء الله»، فأكل منه من في البيت والحجرة والدار، وكان ذلك قد امتلأ ممن قدم معهﷺ لذلك، وبقي بعدما شبعوا مثلما كان في الإناء.

وحديث أبي أيوب أنه صنع لرسول اللهﷺ ولأبي بكر من الطعام زهاء ما يكفيهما، فقال له النبيﷺ : «ادع ثلاثين من أشراف الأنصار»، فدعاهم فأكلوا حتى تركوا، ثم قال: «ادع ستين»، فكان مثل ذلك، ثم قال: «ادع سبعين» فأكلوا حتى تركوا، وما خرج منهم أحد حتى أسلم وبايع.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٨١).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٤٠).

قال أبو أيوب: فأكل من طعامي مائة وثمانون رجلاً[١].

وعن سمرة بن جندب: أُتي النبي، بقصعة فيها لحم، فتعاقبوها من غدوة حتى الليل، يقوم قوم ويقعد آخرون.

ومن ذلك حديث عبد الرحمن بن أبي بكر: كنا مع النبي ﷺ ثلاثين ومائة، وذكر في الحديث أنه عُجن صاع من طعام وصنعت شاة، فشوي سواد بطنها، ثم جعل منها قصعتين، فأكلنا منهما أجمعون، وفضل في القصعتين، فحملته على البعير[٢].

ومن ذلك حديث عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري، عن أبيه، ومثله لسلمة بن الأكوع، وأبي هريرة، وعمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، فذكروا مخمصة أصابت الناس مع النبي ﷺ في بعض مغازيه، فدعا ببقية الأزواد، فجاء الرجل بالحثية من الطعام، وفوق ذلك، وأعلاهم الذي أتى بالصاع من التمر، فجمعه على نطع.

قال سلمة: فحزرته كربضة العنز، ثم دعا الناس بأوعيتهم، فما بقي في الجيش وعاء إلا ملؤوه وبقي منه.

وعن أبي هريرة: أمرني النبي ﷺ أن أدعو له أهل الصفة، فتتبعتهم حتى جمعتهم، فوضعت بين أيديهم صفحة، فأكلنا ما شئنا، وفرغنا وهي مثلها حين وضعت إلا أن فيها أثر الأصابع.

وعن عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه -: جمع رسول الله ﷺ بني عبد المطلب، وكانوا أربعين، منهم قوم يأكلون الجذعة، ويشربون الفرق، فصنع لهم مداً من طعام، فأكلوا حتى شبعوا، وبقي كما هو، ثم دعا بعسل فشربوا حتى رووا، وبقي كأنه لم يشرب منه وقال أنس: إن النبي ﷺ حين ابتنى بزينب أمره أن يدعو له قوماً سماهم، وكل من لقيت، حتى امتلأ البيت والحجرة، وقدم إليهم توراً، فيه قدر مدٍّ من تمر جعل حيساً، فوضعه قدامه، غمس ثلاث أصابعه، وجعل القوم يتغدون ويخرجون وبقي التور نحواً مما كان، وكان القوم أحداً، أو اثنين وسبعين[٣].

---

(١) أخرجه الفريابي في دلائل النبوة (١٢)، والطبراني في الكبير (٤/ ١٨٥)، وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٣٠٣) وقال: «في إسناده من لم أعرفه»، قلت: في إسناده المسعودي وهو ثقة لكنه اختلط، والراوي عنه هنا عبد الأعلى، وقد أخرج الشيخان روايته عنه كما في الكواكب النيرات (ص٣٦)، فالظاهر أنه ممن روى عنه قبل الاختلاط.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٦١٨، ٥٣٨٢)، ومسلم (٢٠٥٦).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٥١٦٣)، ومسلم (١٤٢٨).

وفي رواية أخرىٰ في هذه القصة أو مثلها: إن القوم كانوا زهاء ثلاثمائة، وأنهم أكلوا حتىٰ شبعوا. وقال لي: «ارفع»، فلا أدري حين وضعت كانت أكثر أم حين رفعت.

وفي حديث جعفر بن محمد، عن أبيه، عن عليّ - رضي الله عنه - أن فاطمة طبخت قدرًا لغدائها ووجهت عليًا إلىٰ النبي ﷺ ليتغدىٰ معها، فأمرهما فغرفت منها لجميع نسائه صفحة صفحة، ثم له ﷺ ولعليّ، ثم لها، ثم من رفعت القدر، وإنها لتفيض، قالت: فأكلنا منها ما شاء الله.

وأمر عمر بن الخطاب أن يزود أربعمائة راكب من أحمس، فقال: يا رسول الله، ما هي إلا أصوع. قال: «اذهب»، فذهب فزودهم منه، وكان قدر الفصيل الرابض، من التمر، وبقي بحاله. من رواية دكين الأحمسي، ومن رواية جرير.

ومثله من رواية النعمان بن مقرن الخبر بعينه، إلا أنه قال: أربعمائة راكب من مزينة.

ومن ذلك حديث جابر في دين أبيه بعد موته، وقد كان بذل لغرماء أبيه أصل ماله، فلم يقبلوه، ولم يكن في تمرها سنين كفاف دينهم، فجاءه النبي ﷺ بعد أن أمره بجدها، وجعلها بيادر في أصولها، فمشىٰ فيها، ودعا، فأوفىٰ منه جابر غرماء أبيه، وفضل مثل ما كانوا يجدون كل سنة[١].

وفي رواية: مثل أعطاهم، قال: وكان الغرماء يهود، فعجبوا من ذلك.

وقال أبو هريرة - رضي الله عنه -: أصاب الناس مخمصة، فقال لي رسول الله ﷺ: «هل من شيء؟» قلت نعم، شيء من التمر في المزود. قال: «فائتني به»، فأدخل يده فأخرج قبضة، فبسطها ودعا بالبركة، ثم قال: «ادع عشرة». فأكلوا حتىٰ شبعوا، ثم عشرة كذلك، حتىٰ أطعم الجيش كلهم وشبعوا. قال: «خذ ما جئت به وأدخل يدك، واقبض منه ولا تكبه». فقبضت علىٰ أكثر مما جئت به، فأكلت منه وأطعمت حياة رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وعمر، إلىٰ أن قتل عثمان فانتهب مني، فذهب.

وفي رواية: فقد حملت من ذلك التمر كذا و كذا من وسق في سبيل الله.

وذكرت مثل هذه الحكاية في غزوة تبوك، وأن التمر كان بضع عشرة تمرة.

ومنه أيضًا حديث أبي هريرة حين أصابه الجوع، فاستتبعه النبي ﷺ، فوجد لبنًا في قدح قد أهدي إليه، وأمره أن يدعو أهل الصفة. قال: فقلت: ما هذا اللبن فيهم؟ كنت أحق أن

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٥٨٠).

أصيب منه شربة أتقوىٰ بها. فدعوتهم.

وذكر أمر النبيﷺ له أن يسقيهم، فجعلت أعطي الرجل فيشرب حتىٰ يروىٰ، ثم يأخذه الآخر حتىٰ روي جميعهم.

قال: فأخذ النبيﷺ القدح، وقال: «بقيت أنا وأنت، اقعد فاشرب» شربت، ثم قال: «اشرب»، وما زال يقولها وأشرب حتىٰ قلت: لا، والذي بعثك بالحق، ما أجد له مسلكًا، فأخذ القدح فحمد الله وسمىٰ وشرب الفضلة(١).

وفي حديث خالد بن عبد العزىٰ: أنه أجزر النبيﷺ شاة، وكان عيال خالد كثيراً يذبح الشاة فلا تبد عياله عظمًا عظمًا، وإنه النبيﷺ أكل من هذه الشاة وجعل فضلتها في دلو خالد، ودعا له بالبركة، فنثر ذلك لعياله، فأكلوا وأفضلوا ـ ذكر خبره الدولابي.

وفي حديث الآجري في إنكاح النبيﷺ لعليّ فاطمة ـ أن النبي، أمر بلالاً بقصعة من أربعة أمداد أو خمسة، ويذبح جزوراً لوليمتها، قال: فأتيته بذلك فطعن في رأسها، ثم أدخل الناس رفقة رفقة، يأكلون منها حتىٰ فرغوا، وبقيت منها فضلة، فبرك فيها، وأمر بحملها إلىٰ أزواجه، وقال: «كلن وأطعمن من غشيكن».

وفي حديث أنس: تزوج رسول اللهﷺ، فصنعت أمي أم سليم حيسًا، فجعلته في تور، فذهبت به إلىٰ رسول اللهﷺ، فقال: «ضعه، وادع لي فلانًا وفلانًا، ومن لقيت».

فدعوتهم، ولم أدع أحدًا لقيته إلا دعوته، وذكر أنهم كانوا زهاء ثلاثمائة حتىٰ ملأوا الصفة والحجرة، فقال لهم النبيﷺ: «تحلقوا عشرة عشرة»، ووضع النبيﷺ يده علىٰ الطعام، فدعا فيه، وقال ما شاء الله أن يقول، فأكلوا حتىٰ شبعوا كلهم، فقال لي «ارفع»، فما أدري حين وضعت كانت أكثر أم حين رفعت(٢).

وأكثر أحاديث هذه الفصول الثلاثة في «الصحيح». وقد اجتمع علىٰ معنىٰ حدث هذا الفصل بضعة عشر من الصحابة، رواه عنهم أضعافهم من التابعين، ثم من لا ينعد بعدهم.

وأكثرها في قصص مشهورة، ومجاميع مشهودة، ولا يمكن التحدث عنها إلا بالحق، ولا يسكت الحاضر لها علىٰ ما أنكر منها.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٤٥٢).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٤٢٨).

الفصل السادس عشر

في كلام الشجرة وشهادتها له بالنبوة وإجابتها دعوته

حدثنا أحمد بن محمد بن غلبون الصالح فيما أجازنيه عن أبي عمر الطلمنكي، عن أبي بكر بن المهندس، عن أبي القاسم البغوي، حدثنا أحمد بن عمران الأخنسي، حدثنا أبو حيان التيمي - وكان صدوقًا - عن مجاهد عن ابن عمر قال: كنا مع رسول الله في سفره، فدنا منه أعرابي، فقال: **«يا أعرابي، أين تريد؟»** قال: إلى أهلي. قال: **«هل لك إلى خير؟»** قال: وما هو؟ قال: **«تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله»**. قال: من يشهد لك على ما تقول؟ قال: **«هذه الشجرة السمرة، وهي بشاطئ الوادي، وادعها فإنها تجيبك»**.

فأقبلت تخد الأرض حتى قامت بين يديه، فاستشهد ثلاثًا، فشهدت أنه كما قال، ثم رجعت إلى مكانها.

وعن بريدة: سأل أعرابي النبي ﷺ آية، فقال له: **«قل لتلك الشجرة: رسول الله يدعوك»**.

قال: فمالت الشجرة عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها، فتقطعت عروقها، ثم جاءت تخد الأرض تجر عروقها مغبرة حتى وقفت بين يدي رسول الله ، فقالت: السلام عليك يا رسول الله.

قال الأعرابي: مرها فلترجع إلى منبتها، فرجعت، فدلت عروقها فاستوت فقال الأعرابي: ائذن لي أسجد لك.

قال: **«لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»**[1]. قال: فأذن لي أن أقبل يديك ورجليك، فأذن له.

وفي «الصحيح» في حديث جابر بن عبد الله الطويل: ذهب رسول الله يقضي حاجته، فلم ير شيئًا يستتر به، فإذا بشجرتين في شاطئ الوادي، فانطلق رسول الله

---

(١) أخرجه الدارمي (١٦)، والفاكهي في أخبار مكة (٢٣٢٨)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٤٣١) من رواية أبي حيان التيمي عن عطاء عن ابن عمر مرفوعًا، وذكر العلائي في جامع التحصيل (٨٧٥) في ترجمة أبي حيان: «قال أبو حاتم: لم يسمع من عطاء»، لكن قوله: «لو كنت آمرت أحداً أن يسجد لأحد..» ثابت في أحاديث أخرى.

إلى أحداهما، فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: «**انقادي عليّ بإذن الله**»[1]، فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده.

وذكر أنه فعل بالأخرى مثل ذلك، حتى إذا كا ن بالمنصف بيهما قال: «**التئما عليّ بإذن الله**»، فالتأمتا.

وفي رواية أخرى: فقال: «**يا جابر، قل لهذه الشجرة: يقول لك رسول الله ﷺ: الحقي بصاحبتك حتى أجلس خلفكما**». ففعلت، فرجعت حتى لحقت بصاحبتها فجلس خلفهما، فخرجت أحضر، وجلست أحدث نفسي، فالتفت فإذا برسول الله ﷺ مقبلاً والشجرتان قد افترقتا، فقامت كل واحدة منهما على ساق، فوقف رسول الله ﷺ وقفة. فقال برأسه هكذا يمينًا وشمالاً.

وروى أسامة بن زيد نحوه، قال: قال رسول الله ﷺ في بعض مغازيه: «**هل تعني مكانًا لحاجة رسول الله ﷺ؟**» فقلت: إن الوادي ما فيه موضع بالناس. فقال: «**هل ترى من نخل أو حجارة؟**» قلت: أرى نخلات متقاربات. قال: «**انطلق وقل لهن: إن رسول الله ﷺ يأمركن أن تأتين لمخرج رسول الله ﷺ، وقل للحجارة مثل ذلك**».

فقلت ذلك لهن، فوالذي بعثه بالحق لقد رأيت النخلات يتقاربن حتى اجتمعن، والحجارة يتعاقدن حتى صرن ركامًا خلفهن.

فلما قضى حاجته قال لي: «**قل لهن يفترقن**»، فوالذي نفسي بيده لرأيتهن والحجارة يفترقن حتى يعدن إلى مواضعهن[2].

وقال يعلى بن سيابة: كنت مع النبي ﷺ في مير... وذكر نحواً من هذين الحديثين، وذكر: فأمر وديتين فانضمتا. وفي رواية: أشاءتين. وعن غيلان بن سلمة الثقفي مثله: في شجرتين. وعن ابن مسعود، عن النبي ﷺ مثله في غزاة حنين[3].

وعن يعلى بن مرة ـ وهو ابن سيابة ـ أيضًا، وذكر أشياء رآها من رسول الله ﷺ، فذكر أن طلحة أو سمرة جاءت فأطافت به، ثم رجعت إلى منبتها، فقال رسول الله ﷺ: «**إنها استأذنت أن تسلم عليّ**».

---

(١٩٤) أخرجه مسلم (٣٠٠٦) وهو جزء من حديث طويل جداً.

(١٩٥) قال السيوطي في مناهل الصفا (٥٧٧) ذاكراً من أخرج الحديث: «البيهقي، وأبو يعلى بسند حسن».

(١٩٦) قال السيوطي في مناهل الصفا (٥٧٨) ذاكراً من أخرج الحديث: «البيهقي والطبراني بسند حسن».

وفي حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: آذنت النبي ﷺ بالجن ليلة استمعوا له شجرة[١]. وعن مجاهد، عن ابن مسعود في هذا الحديث: إن الجن قالوا: من يشهد لك؟ قال: «هذه الشجرة. تعالي يا شجرة»، فجاءت تجر عروقها لها قعاقع.

وذكر مثل الحديث الأول أو نحوه.

قال القاضي أبو الفضل: فهذا ابن عمر، وبريدة، وجابر، وابن مسعود، ويعلى بن مرة، وأسامة بن زيد، وأنس بن مالك، وعليّ بن أبي طالب، وابن عباس، وغيرهم قد اتفقوا على هذه القصة نفسها أو معناها. وقد رواها عنهم من التابعين أضعافهم، فصارت في انتشارها من القوة حيث هي. وذكر ابن فورك أنه ﷺ سار في غزوة الطائف ليلاً، وهو وسن، فاعترضته سدرة، فانفرجت له نصفين حتى جاز بينهما، وبقيت على ساقين إلى وقتنا هذا، وهي هناك معروفة معظمة. ومن ذلك حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ ـ ورآه حزينًا ـ: أتحب أن أريك آية؟ قال: «نعم». فنظر رسول الله ﷺ إلى شجرة من وراء الوادي، فقال: «ادع تلك الشجرة»، فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه. قال: «مرها فلترجع»، فعادت إلى مكانها[٢].

وعن عليّ نحو هذا، ولم يذكر فيها جبريل، قال: «اللهم أرني آية لا أبالي من كذبني بعدها»، فدعا شجرة[٣] . . . وذكر مثله.

وحزنه ﷺ لتكذيب قومه وطلبه الآية لهم لا له.

وذكر ابن إسحاق أن النبي ﷺ أرى ركانة مثل هذه الآية في شجرة دعاها فأتت حتى وقفت بين يديه، ثم قال: «ارجعي»، فرجعت[٤].

وعن الحسن أنه ﷺ شكا إلى ربه من قومه وأنهم يخوفونه، وسأله آية يعلم بها ألا مخافة عليه، فأوحى إليه أن ائتِ وادي كذا فيه شجرة، فادع غصنًا منها يأتك. ففعل،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٨٥٩)، ومسلم (٤٥٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٨)، وأحمد (٣/ ١١٣)، من حديث الأعمش عن أبي سفيان عن أنس مرفوعًا، قال البوصيري في المصباح (١٩٤١): «هذا إسناد صحيح إن كان أبو سفيان واسمه طلحة ابن نافع سمع من جابر».

(٣) ضعيف: أخرجه أبو يعلى (٢١٥)، والبزار (١/ ٤٣٨) من حديث عمر الآتي ذكره، وفيه علي ابن زيد بن جدعان، ضعيف، ولم أجده من حديث علي، وقال السيوطي في مناهل الصفا (٥٨٢): «لم أجده من حديث علي إنما ورد أيضًا من حديث جابر أخرجه أبو نعيم» اهـ. يقصد أبو نعيم في دلائل النبوة.

(٤) ضعيف للإرسال: وعزاه السيوطي للبيهقي ـ أي في الدلائل ـ في مناهل الصفا (٥٨٤).

فجاء يخط الأرض خطًا حتى انتصب بين يديه، فحبسه ما شاء الله، ثم قال له: «ارجع كما جئت»، فرجع، فقال: «يا رب، علمت أن لا مخافة عليّ».

ونحو منه عن عمر، وقال فيه: «أرني آية لا أبالي من كذبني بعدها...»[١] وذكر نحوه.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه ﷺ قال لأعرابي: «أرأيت إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتشهد أني رسول الله؟» قال: نعم، فدعاه فجعل ينقر حتى أتاه. فقال: «ارجع»، فعاد إلى مكانه. وخرجه الترمذي، وقال: هذا حديث صحيح[٢].

الفصل السابع عشر

في قصة حنين الجذع له ﷺ

ويعضد هذه الأخبار حديث أنين الجذع، وهو في نفسه مشهور منتشر، والخبر به متواتر، قد خرجه أهل الصحيح، ورواه من الصحابة بضعة عشر، منهم أبي بن كعب، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وسهل بن سعد وأبو سعيد الخدري، وبريدة، وأم سلمة، والمطلب بن أبي وداعة، كلهم يحدث بمعنى هذا الحديث.

قال الترمذي: وحديث أنس صحيح[٣].

قال جابر بن عبد الله: كان المسجد مسقوفًا على جذوع نخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتًا كصوت العشار.

وفي رواية أنس: حتى ارتج المسجد بخواره.

وفي رواية سهل: وكثر بكاء الناس لما رأوا ما به.

وفي رواية المطلب وأُبي: حتى تصدع وانشق، حتى جاء النبي ﷺ، فوضع يده عليه فسكت.

زاد غيره: فقال النبي ﷺ: «إن هذا بكى لما فقد من الذكر»[٤].

---

(١) تقدم برقم (١٩٨).
(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٢٨)، والحاكم (٢/ ٦٧٦)، والبخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٣).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣٥٨٥).
(٤) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٠)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣١٩) من حديث جابر.

وزاد غيره: «والذي نفسي بيده: لو لم ألتزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة: تحزنًا على رسول الله ﷺ»، فأمر به ﷺ فدفن تحت المنبر[١].

كذا في حديث المطلب، وسهل بن سعد، و إسحاق، عن أنس.

[وفي بعض الروايات عن سهل: فدفنت تحت منبره، أو جُعلت في السقف].

وفي حديث أبي: فكان إذا صلى النبي ﷺ صلى إليه، فلما هدم المسجد أخذه أبي، فكان عنده إلى أن أكلته الأرض، وعاد رفاتًا.

وذكر الإسفراييني أن النبي ﷺ دعاه إلى نفسه، فجاء يخرق الأرض، فالتزمه، ثم أمره فعاد إلى مكانه.

وفي حديث بريد: فقال: ـ يعني النبي ﷺ ـ: «إن شئت أردك إلى الحائط الذي كنت فيه تنبت لك عروقك، ويكمل خلقك، ويجدد لك خوص وثمرة، وإن شئت أغرسك في الجنة، فيأكل أولياء الله من ثمرك»، ثم أصغى له النبي ﷺ يسمع ما يقول.

فقال: تغرسني في الجنة، فيأكل مني أولياء الله، وأكون في مكان لا أبلى فيه. فسمع من يليه.

فقال النبي ﷺ: «قد فعلت»، ثم قال: «اختار دار البقاء على دار الفناء».

فكان الحسن إذا حدث بهذا بكى، وقال: يا عباد الله، الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقًا إليه لمكانه، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه.

رواه عن جابر حفص بن عبيد الله، ويقال: عبيد الله بن حفص، وأيمن، وأبو نضرة، وابن المسيب، وسعيد بن أبي كرب، وكريب، وأبو صالح.

ورواه عن أنس بن مالك الحسن، وثابت، وإسحاق بن أبي طلحة.

ورواه عن ابن عمر: نافع، وأبو حية، ورواه أبو نضرة، وأبو الوداك، عن أبي سعيد، وعمار بن أبي عمار، عن ابن عباس، وأبو حازم، وعباس بن سهل، عن سهل بن سعد، وكثير بن زيد عن المطلب، وعبد الله بن بريدة عن أبيه، والطفيل بن أبي عن أبيه.

قال القاضي أبو الفضل: فهذا حديث كما تراه خرجه أهل الصحة، ورواه من الصحابة من ذكرنا، وغيرهم من التابعين ضعفهم، إلى من لم نذكره، وبمن دون هذا العدد يقع العلم لمن اعتنى بهذا الباب. والله المثبت على الصواب.

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٥٥٨).

الفصل الثامن عشر

في سائر الجمادات

ومثل هذا في سائر الجمادات:

حدثنا القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمي، حدثنا القاضي أبو عبد الله محمد ابن المرابط، حدثنا المهلب، حدثنا أبو القاسم، حدثنا أبو الحسن القابسي، حدثنا المروزي، حدثنا الفربري، حدثنا البخاري، حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا إسرائيل، عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة، عن ابن مسعود، قال: لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل. وفي غير هذه الرواية عن ابن مسعود: كنا نأكل مع رسول الله ﷺ الطعام ونحن نسمع تسبيحه[1].

وقال أنس: أخذ النبي ﷺ كفًا من حصى، فسبحن في يد رسول الله ﷺ حتى سمعنا التسبيح، ثم صبهن في يد أبي بكر - رضي الله عنه - فسبحن، ثم في أيدينا فما سبحن.

وروى مثله أبوذر، وذكر أنهن سبحن في كف عمر وعثمان.

وقال عليّ: كنا بمكة مع رسول الله ﷺ، فخرج إلى بعض نواحيها فما استقبله شجرة ولا جبل إلا قال له: السلام عليك يا رسول الله[2].

وعن جابر بن سمرة عنه ﷺ: «**إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ**»، قيل: إنه الحجر الأسود[3].

وعن عائشة - رضي الله عنها -: «**لما استقبلني جبريل عليه السلام بالرسالة جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله**»[4].

وعن جابر بن عبد الله: لم يكن النبي ﷺ يمر بحجر ولا شجر إلا سجد له[5].

وفي حديث العباس، إذ اشتمل عليه النبي ﷺ وعلى بنيه بملاءة، ودعا لهم بالستر من

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٥٧٩).
(٢) أخرجه الدارمي (٢١)، والحاكم (٢/ ٦٧٧)، وانظر علل الدارقطني (٤/ ٢٤).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٧٧).
(٤) ضعيف: ذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٦٠) وقال: «رواه البزار عن شيخه عبد الله بن شبيب وهو ضعيف».
(٥) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٢٩٠٢).

النار كستره إياهم بملاءته، فأمنت أسكفة الباب وحوائط البيت: آمين آمين.

وعن جعفر بن محمد، عن أبيه: مرض النبي ﷺ، فأتاه جبريل بطبق فيه رمان وعنب، فأكل منه النبي ﷺ، فسبح.

وعن أنس: صعد النبي ﷺ، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، أحدًا، فرجف بهم، فقال: «اثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان»[١].

ومثله عن أبي هريرة في حراء، وزاد معه: عليّ وطلحة، والزبير، وقال: «فإنما عليك نبي، أو صديق، أو شهيد»[٢]. والخبر في حراء أيضًا عن عثمان، قال: ومعه عشر من أصحابه أنا فيهم. وزاد عبد الرحمن وسعدًا، قال: ونسيت الاثنين.

وفي حديث سعيد بن زيد أيضًا مثله، وزاد عشرة، وزاد نفسه.

وقد روي أنه حين طلبته قريش قال له ثبير: اهبط يا رسول الله، فإني أخاف أن يقتلوك على ظهري فيعذبني الله. فقال حراء: إليّ يا رسول الله.

وروى ابن عمر - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قرأ على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]، ثم قال: «يمجد الجبار نفسه، أنا الجبار، أنا الجبار، أنا الكبير المتعال»، فرجف المنبر حتى قلنا: ليخرن عنه[٣].

وعن ابن عباس: كان حول البيت ستون وثلاثمائة صنم مثبتة الأرجل بالرصاص في الحجارة، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد عام الفتح جعل يشير بقضيب في يده إليها ولا يمسها، ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، فما أشار إلى وجه صنم إلا وقع لقفاه، ولا لقفاه إلا وقع لوجهه، حتى ما بقي منها صنم[٤].

ومثله في حديث ابن مسعود، وقال: فجعل يطعنها ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩].

ومن ذلك حديثه مع الراهب في ابتداء أمره، إذ خرج تاجرًا مع عمه، وكان الراهب لا يخرج لأحد، فخرج وجعل يتخللهم، حتى أخذ بيد رسول الله ﷺ، فقال: هذا سيد العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٦٧٥، ٣٦٨٦).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٦٧٥).

(٣) إسناده صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٧٢، ٨٧)، وابن ماجه (١٩٨، ٤٢٧٥)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٠٢).

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٢٤٧٨، ٤٢٨٧، ٤٧٢٠)، ومسلم (١٧٨٠، ١٧٨١).

فقال له أشياخ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنه لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً له، ولا تسجد إلا لنبي . . . وذكر القصة، ثم قال: فأقبل ﷺ وعليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم وجدهم سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال الفيء إليه[١].

الفصل التاسع عشر

في الآيات في ضروب الحيوانات

حدثنا سراج بن عبد الملك، حدثنا أبو الحسين الحافظ، حدثنا أبي، حدثنا القاضي يونس، قال: حدثنا أبو الفضل الصقلي، حدثنا ثابت بن قاسم بن ثابت، من أبيه وجده، قالا: حدثنا أبو العلاء أحمد بن عمران، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا يونس بن عمرو، حدثنا مجاهد، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ، قالت: كان عندنا داجن، فإذا كان عندنا رسول الله ﷺ قر وثبت مكانه، فلم يجئ ولم يذهب، وإذا خرج رسول الله ﷺ جاء وذهب.

وروي عن عمر أن رسول الله ﷺ كان في محفل من أصحابه إذ جاء أعرابي قد صاد ضبًا، فقال: ما هذا؟ قالوا: نبي الله، فقال: واللات والعزى، لا آمنت بك أو يؤمن هذا الضب، وطرحه بين يدي النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «يا ضب»، فأجابه بلسان مبين يسمعه القوم جميعًا: لبيك وسعديك يا زين من وافى القيامة.

قال: «من تعبد؟» قال: الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي البحر سبيله، وفي الجنة رحمته، وفي النار عقابه.

قال: «فمن أنا؟» قال: رسول رب العالمين، وخاتم النبيين، وقد أفلح من صدقك، وخاب من كذبك.

فأسلم الأعرابي[٢].

ومن ذلك قصة كلام الذئب المشهورة عن أبي سعيد الخدري،

بينا راع يرعى غنمًا له عرض الذئب لشاة منها، فأخذها الراعي منه فأقعى الذئب، وقال

---

(١) إسناده حسن: أخرجه الترمذي (٣٦٢٠)، وابن أبي شيبة (٨/ ٤٣٥)، والحاكم (٢/ ٦٧٢).

(٢) ضعيف: أخرجه الطبراني في الصغير (٩٤٨)، والأوسط (٦/ ١٢٧)، وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٩٣) وقال: «رواه الطبراني في الصغير والأوسط عن شيخه محمد بن علي بن الوليد البصري، قال البيهقي: والحمل في هذا الحديث عليه، قلت: وبقية رجاله رجال الصحيح».

للراعي: ألا تتقي الله! حلت بيني وبين رزقي!.

قال الراعي: العجب من ذئب يتكلم بكلام الإنس! فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ رسول الله بين الحرتين يحدث الناس بأنباء ما قد سبق.

فأتى الراعي النبي ﷺ فأخبره، فقال النبي: «قم فحدثهم»، ثم قال: «صدق»[1]. والحديث فيه قصة، وفي بعضه طول.

وروي حديث الذئب عن أبي هريرة.

وفي بعض الطرق عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، فقال الذئب: أنت أعجب! واقفًا على غنمك، وتركت نبيًا لم يبعث الله نبيًا قط أعظم منه عنده قدرًا، قد فتحت له أبواب الجنة، وأشرف أهلها على أصحابه، ينظرون قتالهم، وما بينك وبينه إلا هذا الشعب، فتصير من جنود الله.

قال الراعي: من لي بغنمي؟ قال الذئب: أنا أرعاها حتى ترجع.

فأسلم الرجل إليه غنمه ومضى.

وذكر قصته وإسلامه ووجوده النبي ﷺ يقاتل، فقال له النبي ﷺ: «عد إلى غنمك تجدها بوفرها».

فوجدها كذلك، وذبح للذئب شاة منها.

وعن أهبان بن أوس: وأنه كان صاحب القصة، والمحدث بها، ومكلم الذئب. وعن سلمة بن عمرو بن الأكوع: وأنه كان صاحب هذه القصة أيضًا، وسبب إسلامه بمثل حديث أبي سعيد.

وقد روى ابن وهب مثل هذا أنه جرى لأبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، مع ذئب وجداه أخذ ظبيًا، فدخل الظبي الحرم، فانصرف الذئب، فعجبا من ذلك، فقال الذئب: أعجب من ذلك محمد بن عبد الله بالمدينة يدعوكم إلى الجنة وتدعونه إلى النار.

فقال أبو سفيان: واللات والعزى، لئن ذكرت هذا بمكة لتتركنها خلوفًا.

وقد روي مثل هذا الخبر، وأنه جرى لأبي جهل وأصحابه.

وعن عباس بن مرداس لما تعجب من كلام ضمار صنمه، وإنشاده الشعر الذي ذكر فيه النبي ﷺ، فإذا طائر سقط، فقال: يا عباس، أتعجب من كلام ضمار ولا تعجب من

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٣/ ٨٨)، وابن سعد في الطبقات (١/ ١٧٣)، وفيه شهر بن حوشب، وتابعه أبو نضرة عند ابن حبان (٦٤٩٤)، والأصبهاني في دلائل النبوة (١/ ١١٣، ١٨٢).

نفسك؟ إن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام وأنت جالس، فكان سبب إسلامه.

وعن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما-، عن رجل أتى النبي ﷺ وآمن به وهو على بعض حصون خيبر، وكان في غنم يرعاها لهم، فقال: يا رسول الله، كيف بالغنم؟ قال: **«احصب وجوهها، فإن الله سيؤدي عنك أمانتك، ويردها إلى أهلها»**[1].

ففعل، فسارت كل شاة حتى دخلت إلى أهلها.

وعن أنس -رضي الله عنه-: دخل النبي ﷺ حائط أنصاري وأبو بكر وعمر ورجل من الأنصار -رضي الله عنهم-، وفي الحائط غنم فسجدت له. فقال أبو بكر: نحن أحق بالسجود لك منها... الحديث.

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه-: دخل النبي ﷺ حائطًا، فجاء بعير فسجد له[2]، وذكر مثله.

ومثله في الجمل عن ثعلبة بن مالك، وجابر بن عبد الله ويعلى بن مرة، وعبد الله بن جعفر، وكان لا يدخل أحد الحائط إلا شد عليه الجمل، فلما دخل عليه النبي ﷺ دعاه، فوضع مشفره، على الأرض، وبرك بين يديه، فخطمه، وقال: **«ما بين السماء والأرض شيء إلا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس»**[3].

وفي خبر آخر في حديث الجمل أن النبي ﷺ سألهم عن شأنه، فأخبروه أنهم أرادوا ذبحه.

وفي رواية أن النبي ﷺ قال لهم: **«إنه شكا كثرة العمل، وقلة العلف من صغره»**، فقالوا: نعم[4].

وقد روي في قصة العضباء وكلامها النبي ﷺ، وتعريفها له بنفسها، ومبادرة العشب إليها في الرعي، وتجنب الوحوش عنها، وندائهم لها: إنك لمحمد، وأنها لم تأكل ولم تشرب بعد موته حتى ماتت. ذكره الإسفراييني.

وروى ابن وهب: أن حمام مكة أظلت النبي ﷺ يوم فتحها، فدعا لها بالبركة.

وروي عن أنس، وزيد بن أرقم، والمغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ قال ليلة الغار: «أمر

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٩/ ١٤٣)، والأصبهاني في دلائل النبوة (١/ ١٨٨).
(٢) ضعيف: أخرجه أحمد (٦/ ٧٦)، وفيه علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف.
(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٣١٠)، والدارمي (١٨)، وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٧) وقال: «رجاله ثقات وفي بعضهم ضعف».
(٤) حسن لغيره: أخرجه أحمد (٤/ ١٧٣) من حديث يعلى بن مرة.

الله شجرة، فنبتت تجاه النبي ﷺ فسترته، وأمر حمامتين فوقفتا بفم الغار»[١].

وفي حديث آخر: وأن العنكبوت نسجت على بابه، فلما أتى الطالبون له، ورأوا ذلك قالوا: لو كان فيه أحد لم تكن الحمامتان ببابه، والنبي ﷺ سمع كلامهم، فانصرفوا.

وعن عبد الله بن قرط: قرب إلى رسول الله ﷺ بدنات خمس أو ست أو سبع، لينحرها يوم عيد، فازدلفن إليه بأيهن يبدأ.

وعن أم سلمة: كان النبي ﷺ في صحراء، فنادته ظبية، يا رسول الله. قال: «ما حاجتك؟» قالت: صادني هذا الأعرابي، ولي خشفان في ذلك الجبل، فأطلقني حتى أذهب فأرضعهما وأرجع.

قال: «وتفعلين؟» قالت: نعم. فأطلقها، فذهبت ورجعت، فأوثقها، فانتبه الأعرابي، وقال: يا رسول الله، ألك حاجة؟ قال: «تطلق هذه الظبية». فأطلقها فخرجت تعدو في الصحراء، وتقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله»[٢].

ومن هذا الباب ما روي من تسخير الأسد لسفينة مولى رسول الله ﷺ، إذ وجهه إلى معاذ باليمن، فلقي الأسد فعرفه أنه مولى رسول الله ﷺ، ومعه كتابه، فهمهم وتنحى عن الطريق، وذكر في منصرفه مثل ذلك.

وفي رواية أخرى عنه أن سفينة تكسرت به، فخرج إلى جزيرة فإذا الأسد، فقلت له: أنا مولى رسول الله ﷺ، فجعل يغمزني بمنكبه حتى أقامني على الطريق.

وأخذ ـ عليه السلام ـ بأذن شاة لقوم من عبد القيس بين إصبعية، ثم خلاها فصار لها ميسمًا، وبقي ذلك الأثر فيها وفي نسلها بعد.

وما روي عن إبراهيم بن حماد بسنده من كلام الحمار الذي أصابه بخيبر، وقال له: اسمي يزيد بن شهاب.

فسماه النبي ﷺ يعفوراً، وأنه كان يوجهه إلى دور أصحابه، فيضرب عليهم الباب برأسه، ويستدعيهم، وأن النبي ﷺ لما مات تردى في بئر جزعًا وحزنًا، فمات.

وحديث الناقة التي شهدت عند النبي ﷺ لصاحبها أنه ما سرقها، وأنه ملكه.

---

(١) منكر: أخرجه خيثمي في حديثه (ص١٣٦)، والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٤٢٢)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٤٤٣) وفيه عون بن عمرو القيسي قال العقيلي: لا يتابع عليه، وانظر ترجمته في الميزان (٥/ ٣٧٠).

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٣٥).

وفي العنز التي أتت رسول الله ﷺ في عسكره، وقد أصابهم عطش، ونزلوا على غير ماء، وهم زهاء ثلاثمائة، فحلبها رسول الله ﷺ، فأروى الجند، ثم قال لرافع: «أملكها وما أُراك». فربطها فوجدها قد انطلقت.

رواه ابن قانع وغيره، وفيه: فقال رسول الله ﷺ: «إن الذي جاء بها هو الذي ذهب بها».

وقال لفرسه - عليه السلام - وقد قام إلى الصلاة في بعض أسفاره: «لا تبرح، بارك الله فيك حتى نفرغ من صلاتنا»، وجعله قبلته، فما حرك عضواً حتى صلى ﷺ.

ويلتحق بهذا ما رواه الواقدي أن النبي ﷺ لما وجه رسله إلى الملوك، فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد، فأصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذي بعثهم إليهم.

والحديث في هذا الباب كثير، وقد جئنا منه بالمشهور، وما وقع في كتب الأئمة.

الفصل العشرون

في إحياء الموتى وكلامهم، وكلام الصبيان والمراضع وشهادتهم له بالنبوة ﷺ

حدثنا أبو الوليد هشام بن أحمد الفقيه بقراءتي عليه، والقاضي أبو الوليد محمد بن رشد، والقاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى التميمي، وغير واحد سماعًا وإذنًا، قالوا: حدثنا أبو عليّ الحافظ، قال: حدثنا أبو عمر الحافظ، حدثنا أبو زيد عبد الرحمن بن يحيى، حدثنا أحمد بن سعيد، حدثنا ابن الأعرابي. . . حدثنا أبو داود، حدثنا وهب بن بقية، عن خالد - هو الطحان -، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن يهودية أهدت النبي ﷺ بخيبر شاة مصلية سمتها، فأكل رسول الله ﷺ منها، وأكل القوم، فقال: «ارفعوا أيديكم، فإنها أخبرتني أنها مسمومة». فمات بشر بن البراء.

وقال لليهودية: «ما حملك على ما صنعت؟» قالت: إن كنت نبيًا لم يضرك الذي صنعت، وإن كنت ملكًا أرحت الناس منك[1].

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٦١٧)، ومسلم (٢١٩٠).

قال: فأمر بها فقتلت. وقد روى هذا الحديث أنس، وفيه: قالت: أردت قتلك. فقال: «ما كان الله ليسلطك على ذلك». فقالوا: نقتلها؟ قال: «لا».

وكذلك روي عن أبي هريرة - من رواية غير وهب - قال: فما عرض لها.

ورواه أيضًا جابر بن عبد الله، وفيه: «أخبرتني هذه الذراع» - قال: ولم يعاقبها.

وفي رواية الحسن: «إن فخذها تكلمني أنها مسمومة».

وفي رواية أبي سلمة بن عبد الرحمن قالت: إني مسمومة.

وكذلك ذكر الخبر ابن إسحاق، وقال فيه: فتجاوز عنها.

وفي الحديث الآخر، عن أنس، قال: فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ.

وفي حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال في وجعه الذي مات فيه: «ما زالت أكلة خيبر تعاودني، فالآن أوان قطع أبهري»[1].

وحكى ابن إسحاق: إن كان المسلمون ليرون أن رسول الله ﷺ قتل اليهودية التي سمته. وقد ذكرنا اختلاف الروايات في ذلك عن أبي هريرة، وأنس، وجابر.

وفي رواية ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه دفعها لأولياء بشر بن البراء فقتلوها. وكذلك قد اختلف في قتله للذي سحره، قال الواقدي: وعفوه عنه أثبت عندنا. وروي عنه أنه قتله.

وروى الحديث البزار عن أبي سعيد، فذكر مثله، إلا أنه قال في آخره: فبسط يده وقال: «كلوا بسم الله»، فأكلنا، وذكر اسم الله، فلم تضر منا أحداً.

قال القاضي أبو الفضل، وقد خرج حديث الشاة المسمومة أهل «الصحيح»، وخرجه الأئمة، وهو حديث مشهور. واختلف أئمة النظر في هذا الباب، فمن قائل يقول: هو كلام يخلقه الله تعالى في الشاة الميتة، والحجر، أو الشجر، وحروف وأصوات يحدثها الله فيها، ويسمعها منها دون تغيير أشكالها، ونقلها عن هيئتها. وهو مذهب الشيخ أبي الحسن، والقاضي أبي بكر - رحمهما الله - . وآخرون ذهبوا إلى إيجاد الحياة بها، ثم الكلام بعده.

وحكي هذا أيضًا عن شيخنا أبي الحسن، وكل محتمل، والله أعلم، إذ لم تجعل الحياة شرطًا لوجود الحروف والأصوات، إذ لا تستحيل وجودها مع عدم الحياة بمجردها. فأما

(١) علقه البخاري بصيغة الجزم في صحيحه من كتاب المغازي - باب: مرض النبي ﷺ ووفاته.

إذا كانت عبارة عن الكلام النفسي فلابد من شرط الحياة لها، إذ لا يوجد كلام النفس إلا من حي، خلافًا للجُبَّائي من بين سائر متكلمي الفرق في إحالة وجود الكلام اللفظي والحروف والأصوات إلا من حي مركب على تركيب من يصح منه النطق بالحروف والأصوات. والتزم ذلك في الحصى، والجذع، والذراع، وقال: إن الله خلق فيها حياة، وخرق لها فمًا ـ ولسانًا، وآلة أمكنها بها من الكلام. وهذا لو كان لكان نقله والتهمم به آكد من التهمم بنقل تسبيحه أو حنينه، ولم ينقل أحد من أهل السير والرواية شيئًا من ذلك، فدل على سقوط دعواه، مع أنه لا ضرورة إليه في النظر، والموفق الله.

وروى وكيع ـ رفعه عن فهد بن عطية ـ : أن النبي ﷺ أتي بصبي قد شب لم يتكلم قط، فقال: «من أنا؟» فقال: رسول الله.

وروي عن مُعرِّض بن معيقيب: رأيت من النبي ﷺ عجبًا، جيء بصبي يوم ولد. . فذكر مثله. وهو حديث مبارك اليمامة، ويعرف بحديث شاصونة ـ اسم راويه ـ وفيه: فقال له النبي ﷺ: «صدقت، بارك الله فيك».ثم إن الغلام لم يتكلم بعدها حتى شب، فكان يسمى مبارك اليمامة. وكانت هذه القصة بمكة في حجة الوداع. وعن الحسن: أتى رجل النبي ﷺ، فذكر له: أنه طرح بُنَيَّة له في وادي كذا، فانطلق معه إلى الوادي، وناداها باسمها: «يا فلانة، أجيبي بإذن الله»، فخرجت وهي تقول: لبيك وسعديك. فقال لها: «إن أبويك قد أسلما، فإن أحببت أن أردك عليهما؟» قالت: لا حاجة لي فيهما، وجدت الله خيرًا لي منهما. وعن أنس أن شابًا من الأنصار توفي وله أم عجوز عمياء فسجَّيناه، وعزيناها، فقالت: مات ابني؟ قلنا: نعم. قالت: اللهم إن كنت تعلم أني هاجرت إليك وإلى نبيك رجاء أن تعينني على كل شدة فلا تحملن عليَّ هذه المصيبة. فما برحنا أن كشف الثوب عن وجهه، فطعم وطعمنا.

وروي عن عبد الله بن عبيد الله الأنصاري: كنت فيمن دفن ثابت بن قيس بن شماس، وكان قتل باليمامة، فسمعناه حين أدخلناه القبر يقول: محمد رسول الله، أبو بكر الصديق، عمر الشهيد، عثمان البر الرحيم، فنظرنا فإذا هو ميت.

وذكر عن النعمان بن بشير أن زيد بن خارجة خر ميتًا في بعض أزقة المدينة، فرفع وسجي إذ سمعوه بين العشاءين والنساء يصرخن حوله يقول: أنصتوا، أنصتوا، فحسر عن وجهه، فقال: محمد رسول الله، النبي الأمي، وخاتم النبيين. كان ذلك في الكتاب الأول، ثم قال: صدق، صدق، وذكر أبا بكر، وعمر، وعثمان، ثم قال: السلام عليك يا رسول الله، ورحمة الله وبركاته، ثم عاد ميتًا كما كان.

الفصل الحادي والعشرون

في إبراء المرضى وذوي العاهات

أخبرنا أبو الحسن عليّ بن مُشرَّف فيما أجازنيه وقرأته على غيره، قال: حدثنا أبو إسحاق الحبال، قال: حدثنا أبو محمد بن النحاس، حدثنا أبو الورد، عن البرقي، عن ابن هشام، عن زياد البُكَّائي، عن محمد بن إسحاق، حدثنا ابن شهاب، وعاصم بن عمر ابن قتادة وجماعة ذكرهم بقضية أحد بطولها، قال: وقالوا: قال سعد بن أبي وقاص: إن رسول الله ﷺ ليناولني السهم لا نصل له، فيقول: «ارم به»، وقد رمى رسول الله ﷺ يومئذ عن قوسه حتى اندقَّتْ، وأصيب يومئذ عين قتادة - يعني ابن النعمان - حتى وقعت على وجنته، فردها رسول الله ﷺ، فكانت أحسن عينيه.

وروى قصة قتادة عاصم بن عمر بن قتادة، ويزيد بن عياض بن عمر بن قتادة. ورواها أبو سعيد الخدري عن قتادة.

وبصق على أثر سهم في وجه أبي قتادة في يوم ذي قرد، قال: فما ضرب عليّ ولا قاح.

وروى النسائي، عن عثمان بن حنيف أن أعمى قال: يا رسول الله، ادع الله أن يكشف لي عن بصري. قال: **«فانطلق فتوضأ، ثم صل ركعتين، ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيٍّ محمد نبي الرحمة، يا محمد، إني أتوجه بك إلى ربك أن يكشف عن بصري، اللهم شفعه فيّ»**[1].

قال: فرجع وقد كشف الله عن بصره.

وروي أن ابن ملاعب الأسنة أصابه استسقاء، فبعث إلى النبي ﷺ، فأخذ بيده حثوة من الأرض، فتفل عليها، ثم أعطاها رسوله، فأخذها متعجبًا، يرى أن قد هزئ به، فأتاه بها، وهو على شفا، فشربها، فشفاه الله.

وذكر العقيلي، عن حبيب بن فُدَيك - ويقال: فُرَيك - : أن أباه ابيضت عيناه، فكان لا

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٥٧٨)، وأحمد (٤/١٣٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٦٩)، وصححه الألباني رحمه الله في التوسل (ص٧٥)، وانظر تعليقه على الحديث في رده على من أساء فهم الحديث فجوز التوسل بالأموات والغائبين.

يبصر بهما شيئًا، فنفث رسول الله ﷺ في عينيه، فأبصر، فرأيته يدخل الخيط في الإبرة وهو ابن ثمانين.

ورمي كلثوم بن الحصين يوم أحد في نحره، فبصق رسول الله ﷺ فيه، فبرأ.

وتفل على شجَّة عبد الله بن أنيس فلم تَمِدَّ.

وتفل في عيني عليّ يوم خيبر، وكان رمدًا، فأصبح بارئًا.

ونفث على ضربة بساق سلمة بن الأكوع يوم خيبر فبرئت، وفي رجل زيد بن معاذ حين أصابها السيف إلى الكعب، حين قتل ابن الأشرف، فبرئت. وعلى ساق عليٍّ بن الحكم يوم الخندق إذ انكسرت، فبرئ مكانه، وما نزل عن فرسه.

واشتكى عليّ بن أبي طالب، فجعل يدعو، فقال النبي ﷺ: «اللهم اشفه»، أو «عافه»، ثم ضربه برجله، فما اشتكى ذلك الوجع بعد.

وقطع أبو جهل يوم بدر يد معوذ بن عفراء، فجاء يحمل يده، فبصق عليها رسول الله ﷺ، وألصقها فلصقت. رواه ابن وهب.

ومن روايته أيضًا: أن خُبيب بن يَساف أصيب يوم بدر مع رسول الله ﷺ بضربة على عاتقه حتى مال شقه، فرده رسول الله ﷺ، ونفث عليه حتى صح.

وأتته امرأة من خَثْعم، معها صبي به بلاء لا يتكلم، فأتي بماء فمضمض فاه، وغسل يديه، ثم أعطاها إياه، وأمرها بسقيه ومسه به، فبرأ الغلام، وعقل عقلاً يفضل عقول الناس.

وعن ابن عباس: جاءت امرأة بابن لها به جنون، فمسح صدره، فثعَّ ثَعةً فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود، فسعى.

وانكفأت القدر على ذراع محمد بن حاطب وهو طفل، فمسح عليه ودعا له، وتفل فيه فبرأ لحينه.

وكانت في كف شرحبيل الجعفي سلعة تمنعه القبض على السيف وعنان الدابة، فشكاها للنبي ﷺ، فما زال يطحنها بكفه حتى رفعها، ولم يبق لها أثر.

وسألته جارية طعامًا، وهو يأكل، فناولها من بين يديه، وكانت قليلة الحياء، فقالت: إنما أريد من الذي في فيك، فناولها ما في فيه، ولم يكن يُسأل شيئًا فيمنعه. فلما استقر في جوفها ألقي عليها من الحياء ما لم تكن امرأة بالمدينة أشد حياء منها.

الفصل الثاني والعشرون
في إجابة دعائه ﷺ

وهذا باب واسع جدًا، وإجابة دعوة النبي ﷺ لجماعة بما دعا لهم وعليهم متواتر على الجملة، معلوم ضرورة.

وقد جاء في حديث حذيفة ـ رضي الله عنه ـ: كان رسول الله ﷺ إذا دعا لرجل أدركت الدعوة ولده وولد ولده.

حدثنا أبو محمد العتابي بقراءتي عليه، حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسن القابسي، حدثنا أبو زيد المروزي، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عبد الله بن أبي الأسود، حدثنا حرمي، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ، قال: قالت أمي: يا رسول الله، خادمك أنس، ادع الله له. قال: «اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيما آتيته»[1].

ومن رواية عكرمة قال أنس: فوالله إن مالي لكثيرٌ، وإنَّ ولدي وَوَلَد ولدي لَيُعادُّونَ اليوم على نحو المائة[2].

وفي رواية: وما أعلم أحدًا أصاب من رخاء العيش ما أصبت، ولقد دفنت بيدي هاتين مائة من ولدي، لا أقول: سقطًا ولا ولد ولد.

ومنه دعاؤه لعبد الرحمن بن عوف بالبركة، قال عبد الرحمن: فلو رفعت حجرًا لرجوت أن أصيب تحته ذهبًا[3]، وفتح الله عليه، ومات فحفر الذهب من تركته بالفئوس حتى مجلت فيه الأيدي، وأخذت كل زوجة ثمانين ألفًا وكن أربعًا.

وقيل: مائة ألف، وقيل: بل صولحت إحداهن، لأنه طلقها في مرضه على نيف وثمانين ألفًا، وأوصى بخمسين ألفًا بعد صدقاته الفاشية في حياته، وعوارفه العظيمة، أعتق يومًا ثلاثين عبدًا، وتصدق مرة بعير فيها سبعمائة بعير، وردت عليه تحمل من كل شيء، فتصدق بها وبما عليها، وبأقتابها وأحلاسها.

ودعا لمعاوية بالتمكين في البلاد، فنال الخلافة، ولسعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٤٨٠).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٨٠).
(٣) صحيح: أخرجه عبد بن حميد (١٣٣٣)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ١٢٦).

أن يجيب الله دعوته، فما دعا على أحد إلا استجيب له.

ودعا بعز الإسلام بعمر ـ رضي الله عنه ـ، أو بأبي جهل، فاستجيب له في عمر.

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر.

وأصاب الناس في بعض مغازيه عطش، فسأله عمر الدعاء، فدعا، فجاءت سحابة، فسقتهم حاجتهم، ثم أقلعت.

ودعا في الاستسقاء، فسقوا، ثم شكوا إليه المطر، فدعا، فَصَحَوْا.

وقال لأبي قتادة: «**أفلح وجهك، اللهم بارك لي في شَعْره وبَشَره**»، فمات وهو ابن سبعين سنة، وكأنه ابن خمس عشرة سنة.

وقال للنابغة: «**لا يفضض الله فاك**»، فما سقطت له سن.

وفي رواية: فكان أحسن الناس ثغراً، إذا سقطت له سن نبتت له أخرى، وعاش عشرين ومائة سنة، وقيل أكثر من هذا.

ودعا لابن عباس: «**اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل**». فسمي بَعْدُ: الحبر وترجمان القرآن[1].

ودعا لعبد الله بن جعفر بالبركة في صفقة يمينه، فما اشترى شيئًا إلا ربح فيه.

ودعا للمقداد بالبركة، فكانت عنده غرائر من المال.

ودعا بمثله لعروة بن أبي الجعد، فقال: فلقد كنت أقوم بالكناسة، فما أرجع حتى أربح أربعين ألفًا.

وقال البخاري في حديثه: فكان لو اشترى التراب ربح فيه.

وروي مثل هذا لغرقدة أيضًا.

وندت له ناقة، فدعا فجاءه بها إعصار ريح، حتى ردها عليه.

ودعا لأم أبي هريرة فأسلمت[2].

ودعا لعليٍّ أن يُكفى الحَر والقُرّ، فكان يلبس في الشتاء ثياب الصيف، وفي الصيف ثياب الشتاء، ولا يصيبه حر ولا برد.

ودعا الله لفاطمة ابنته ألا يجيعها، قالت: فما جعت بعد.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٧٧).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٩١).

وسأله الطفيل بن عمرو آية لقومه، فقال: «اللهم نوِّر له» فسطع له نور بين عينيه، فقال: أخاف أن يقولوا: مُثلة، فتحول إلى طرف سوطه، فكان يضيء في الليلة المظلمة، فسمي ذا النور.

ودعا على مضر فأقحطوا، حتى استعطفته قريش، فدعا لهم فسقوا.

ودعا على كسرى حين مزق كتابه أن يمزق الله ملكه، فلم تبق له باقية، ولا بقيت لفارس رياسة في أقطار الدنيا.

ودعا على صبي قطع عليه الصلاة أن يقطع الله أثره، فأقعد.

وقال لرجل رآه يأكل بشماله: «كل بيمينك». قال: «لا أستطيع». فقال: «لا استطعت». فلم يرفعها إلى فيه[1].

وقال لعتبة بن لهب: «اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك»، فأكله الأسد. وقال لامرأة: «أكلك الأسد». فأكلها.

وحديثه المشهور، من رواية عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، في دعائه على قريش حين وضعوا السلا على رقبته وهو ساجد مع الفرث والدم، وسماهم. قال: فلقد رأيتُهم قتلوا يوم بدر.

ودعا على الحكم بن أبي العاص، وكان يختلج بوجهه، ويغمز عند النبي ﷺ، أي لا، فرآه: «كذلك كن»، فلم يزل يختلج إلى أن مات.

ودعا على محلِّم بن جثامة فمات لسبع، فلفظته الأرض، ثم وري فلفظته مرات، فزلقوه بين صُدَّين، ورضموا عليه بالحجارة.

والصد: جانب الوادي.

وجحده رجل بيع فرس ـ وهي التي شهد فيها خزيمة للنبي ﷺ، فرد الفرس بعد النبي ﷺ على الرجل، وقال: «اللهم إن كان كاذبًا فلا تبارك له فيها». فأصبحت شاصية برجلها، أي رافعة.

وهذا الباب أكثر من أن يحاط به.

---

(١) صحيح: علقه البخاري بصيغة الجزم في صحيحه ـ كتاب الأطعمة، باب التيمن في الأكل وغيره، وأخرجه مسلم (٢٠٢١).

الفصل الثالث والعشرون

في كراماته وبركاته وانقلاب الأعيان له فيما لمسه أو باشره

أخبرنا أحمد بن محمد، حدثنا أبو ذر الهروي، إجازة، حدثنا القاضي أبو عليّ سماعًا، والقاضي أبد عبد الله محمد بن عبد الرحمن وغيرهما، قالوا: حدثنا أبو الوليد القاضي، حدثنا أبو ذر، حدثنا أبو إسحاق، وأبو الهيثم، قالوا: حدثنا الفربري، حدثنا البخاري، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن أنس ان مالك ـ رضي الله عنه ـ أن أهل المدينة فزعوا مرة، فركب رسول الله ﷺ فرسًا لأبي طلحة كان يقطف، أو به قطاف. وقال غيره: يُبطِّأ، فلما رجع قال: «وجدنا فرسك بحراً»، فكان بعد لا يجارىٰ[1].

ونخس جمل جابر، وكان قد أعيا، فنشط حتىٰ كان ما يملك زمامه وَصَنَع مثل ذلك بفرس لجعيل الأشجعي، خفقها بمخفقة معه، وبرك عليها، فلم يملك رأسها نشاطًا، وباع من بطنها باثني عشر ألفًا.

وركب حماراً قطوفًا لسعد بن عبادة فرده هملاجًا لا يساير.

وكانت شعرات من شعره في قلنسوة خالد بن الوليد، فلم يشهد بها قتالاً إلا رزق النصر.

وفي« الصحيح » عن أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنها ـ : أنها أخرجت جبة طيالسة، وقالت: كان رسول الله ﷺ يلبسها، فنحن نغسلها للمرضىٰ يستشفىٰ بها[2].

وحدثنا القاضي أبو عليّ، عن شيخه أبي القاسم بن المأمون: قال: كانت عندنا قصعة من قصاع النبي ﷺ، فكنا نجعل فيها الماء للمرضىٰ، فيستشفون بها. وأخذ جهجاه الغفاري القضيب من يد عثمان ـ رضي الله عنه ـ ليكسره علىٰ ركبته، فصاح الناس به، فأخذته فيها الأكلة فقطعها، ومات قبل الحول. وسكب من فضل وضوئه في بئر قباء فما نزفت بعد. وبزق في بئر كانت في دار أنس، فلم يكن بالمدينة أعذب منها.

ومر علىٰ ماء، فسأل عنه، فقيل له: اسمه بَيْسَانُ، وماؤه ملح، فقال: «بل هو نعمان وماؤه طيب». فطاب.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٨٦٧)، ومسلم (٢٣٠٧).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٦٩).

وأتي بدلو من ماء زمزم، فمج فيه، فصار أطيب من المسك.

وأعطى الحسن والحسين لسانه فمصاه، وكانا يبكيان عطشًا، فسكتا.

وكان لأم مالك عُكَّة تُهدي فيها للنبيﷺ سمنًا، فأمرها النبيﷺ ألا تعصرها، ثم دفعها إليها، فإذا هي مملوءة سمنًا، فيأتيها بنوها يسألونها الأدم، وليس عندهم شيء، فتعمد إليها، فتجد فيها سمنًا، فكانت تقيم أدمها حتى عصرتها[1].

وكان يتفل في أفواه الصبيان المراضع فيجزئهم ريقه إلى الليل.

ومن ذلك بركة يده فيما لمسه وغرسه، ولسلمان - رضي الله عنه - حين كاتبه مواليه على ثلاثمائة ودية يغرسها لهم، كلها تعلق وتطعم. وعلى أربعين أوقية من ذهب، فقام ﷺ وغرسها له بيده إلا واحدة غرسها غيره، فأخذت كلها إلا تلك الواحدة، فقلعها النبي ﷺ وردها، فأخذت.

وفي كتاب البزار: فأطعم النخل من عامه إلا الواحدة، فقلعها رسول اللهﷺ وغرسها فأطعمت من عامها.

وأعطاه مثل بيضة الدجاجة من ذهب بعد أن أدارها على لسانه، فوزن منها لمواليه أربعين أوقية، وبقي عنده مثل ما أعطاهم.

وفي حديث حنش بن عقيل: سقاني رسول اللهﷺ شربة من سويق شرب أولها وشربت آخرها، فما برحت أجد شبعها إذا جعت، وريَّها إذا عطشت، وبَرْدها إذا ظمئت. وأعطى قتادة بن النعمان، وصلى العشاء في ليلة مظلمة مطيرة عرجونًا، وقال: **«انطلق به، فإنه سيضيء لك من بين يديك عشراً ومن خلفك عشراً، فإذا دخلت بيتك فسترى سواداً فاضربه حتى يخرج، فإنه الشيطان»**.

فانطلق فأضاء له العرجون حتى دخل بيته، ووجد السواد فضربه حتى خرج[2].

ومنه دفعه لعكاشة جذْل حطب، وقال: «اضرب به» حين انكسر سيفه يوم بدر، فعاد في يده سيفًا صارمًا، طويل القامة، أبيض، شديد المتن، فقاتل به، ثم لم يزل عنده يشهد به المواقف إلى أن استشهد في قتال أهل الردة. وكان هذا السيف يسمى «العون».

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٤٠).

(٢) ضعيف جدًا: ذكره السيوطي في الجامع الصغير (١/ ٢٩)، وعزاه للترمذي في الشمائل والطبراني في الأوسط والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس، قال الهيثمي: وفيه عبد العزيز بن أبي ثابت، وهو ضعيف جدًا.

ودفعه لعبد الله بن جحش يوم أحد، وقد ذهب سيفه عسيب نخل، فرجع في يديه سيفًا.

ومنه بركته في دور الشياه الحوائل باللبن الكثير، كقصة شاة أم معبد، وأعنُز معاوية بن ثور، وشاة أنس، وغنم حليمة مرضعته وشارفها، وشاة عبد الله بن مسعود، وكانت لم ينز عليها فحل، وشاة المقداد.

ومن ذلك تزويده أصحابه سقاء ماء بعد أن أوكاه، ودعا فيه، فلما حضرتهم الصلاة نزلوا فحلوه، فإذا به لبن طيب وزبدة في فمه ـ من رواية حماد بن سلمة.

ومسح على رأس عمير بن سعد، وبرك، فمات وهو ابن ثمانين، فما شاب.

وروي مثل هذه القصص عن غير واحد، منهم السائب بن يزيد ومدلوك.

وكان يوجد لعتبة بن فرقد طيب يغلب طيب نسائه، لأن رسول الله ﷺ مسح بيده على بطنه وظهره.

وسلت الدم عن وجه عائذ بن عمرو، وكان جرح يوم حنين، ودعا له، فكانت له غرة كغرة الفرس.

ومسح على رأس قيس بن زيد الجذامي، ودعا له، فهلك وهو ابن مائة سنة، ورأسه أبيض، وموضع كف النبي ﷺ وما مرت يده عليه من شعره أسود، فكان يدعى الأغر.

وروي مثل هذه الحكاية لعمرو بن ثعلبة الجهني.

ومسح وجه آخر، فما زال على وجهه نور.

ومسح وجه قتادة بن ملحان، فكان لوجهه بريق حتى كان يُنظر في وجهه كما يُنظر في المرآة.

ووضع يده على رأس حنظلة بن حذيم، وبرك عليه، فكان حنظلة يؤتى بالرجل قد ورم وجهه، والشاة قد ورم ضرعها، فيوضع على موضع كف النبي ﷺ فيذهب الورم.

ونضح في وجه زينب بنت أم سلمة نضحة من ماء، فما يعرف كان في وجه امرأة من الجمال ما بها.

ومسح على رأس صبي به عاهة، فبرأ، واستوى شعره. ومثله روي في خبر المهلب بن قبالة. وعلى غير واحد من الصبيان والمرضى والمجانين، فبرئوا.

وأتاه رجل به أدرة، فأمره أن ينضحها بماء من عين مج فيها، ففعل، فبرأ.

وعن طاووس: لم يؤت النبي ﷺ بأحد به مس فصك في صدره إلا ذهب.

والمس: الجنون.

ومج في دلو من بئر، ثم صب فيها، ففاح منها ريح المسك.

وأخذ قبضة من تراب يوم حنين، ورمىٰ بها في وجوه الكفار، وقال: «شاهت الوجوه»، فانصرفوا يمسحون القذىٰ عن أعينهم.

وشكا إليه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ النسيان، فأمره ببسط ثوبه، وغرف بيده فيه، ثم أمره بضمه، ففعل، فما نسي شيئًا بعد. وما يروىٰ عنه في هذا كثير.

وضرب صدر جرير بن عبد الله، ودعا له، وكان ذكر له أنه لا يثبت علىٰ الخيل، فصار من أفرس العرب وأثبتهم.

ومسح علىٰ رأس عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب وهو صغير، وكان دميمًا، ودعا له بالبركة، فَفَرَعَ الرجال طولاً وتمامًا.

الفصل الرابع والعشرون

ما اطلع عليه من الغيوب

ومن ذلك ما اطلع عليه من الغيوب وما يكون. والأحاديث في هذا الباب بحر لا يدرك قعره، ولا يُنزف غمره.

وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة علىٰ قطع الواصل إلينا خبرها علىٰ التواتر، لكثرة رواتها، واتفاق معانيها علىٰ الاطلاع علىٰ الغيب.

حدثنا الإمام أبو بكر محمد بن الوليد الفهري إجازة، وقرأته علىٰ غيره: قال أبو بكر: حدثنا أبو علي التُّستري، حدثنا أبو عمر الهاشمي، حدثنا اللؤلؤي، حدثنا أبو داود، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن حذيفة، قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا، فما ترك شيئًا يكون في مقامه ذلك إلىٰ قيام الساعة إلا حدثه، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء فأعرفه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه.

ثم قال حذيفة: ما أدري، أنسي أصحابي أم تناسوه؟ والله ما ترك رسول الله ﷺ من

(١) صحيح: اخرجه البخاري (٦٦٠٤)، ومسلم (٢٨٩١).

قائد فتنة إلىٰ أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته.

وقال أبو ذر: لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا ذكَّرنا منه علماً[١].

وقد خرج أهل «الصحيح» والأئمة ما أعلم به أصحابه ﷺ مما وعدهم به من الظهور علىٰ أعدائه، وفتح مكة، وبيت المقدس، واليمن، والشام، والعراق، وظهور الأمن، حتىٰ تظعن المرأة من الحيرة إلىٰ مكة، لا تخاف إلا الله. وأن المدينة ستغزىٰ وتفتح خيبر علىٰ يدي عليّ في غد يومه، وما يفتح الله علىٰ أمته من الدنيا، ويؤتون من زهرتها، وقسمتهم كنوز كسرىٰ وقيصر، وما يحدث بينهم من الفتون والاختلاف والأهواء، وسلوك سبيل من قبلهم، وافتراقهم علىٰ ثلاث وسبعين فرقة، الناجية منها واحدة، وأنه ستكون لهم أنماط، ويغدو أحدهم في حلة ويروح في أخرىٰ، وتوضع بين يديه صحفة وترفع أخرىٰ، ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة.

ثم قال آخر الحديث: «وأنتم اليوم خير منكم يومئذ»، وأنهم إذا مشوا المطيطاء وخدمتهم بنات فارس والروم رد الله بأسهم بينهم، وسلط شرارهم علىٰ خيارهم.

وقتالهم الفرس والخزر والروم وذهاب كسرىٰ وفارس حتىٰ لا كسرىٰ ولا فارس بعده، وذهاب قيصر حتىٰ لا قيصر بعده. وذكر أن الروم ذات قرون إلىٰ آخر الدهر.

وبذهاب الأمثل فالأمثل من الناس، وتقارب الزمان، وقبض العلم، وظهور الفتن، والهرج. وقال: «ويل للعرب من شر قد اقترب»[٢].

وأنه زويت له الأرض فأري مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمته ما زوي له منها.

ولذلك كان، امتدت في المشارق والمغارب ما بين أرض الهند أقصىٰ المشرق إلىٰ بحر طنجة حيث لا عمارة وراءه، وذلك ما لم تملكه أمة من الأمم، ولم تمتد في الجنوب ولا في الشمال مثل ذلك.

وقوله: «لا يزال أهل العرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة»[٣] ذهب ابن المديني إلىٰ أنهم العرب، لأنهم المختصون بالسقي بالغرب ـ وهي الدلو ـ. وغيره يذهب

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ١٥٣) وفيه من لم يُسم.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٣٤٦، ٣٥٩٨)، ومسلم (٢٢٨٠).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٢٥).

إلى أنهم أهل المغرب، وقد ورد المغرب كذا في الحديث بمعناه.

وفي حديث آخر، من رواية أبي أمامة: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، قاهرين لعدوهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك**».

قيل: يا رسول الله، وأين هم؟ قال: «**ببيت المقدس**»[1].

وأخبر بملك بني أمية، وولاية معاوية، ووصاه، واتخاذ بني أمية مال الله دولاً، وخروج ولد العباس بالرايات السود، وملكهم أضعاف ما ملكوا، وخروج المهدي، وما ينال أهل بيته وتقتيلهم وتشريدهم، وقتل عليّ، وأن أشقاها الذي يخضب هذه من هذه، أي لحيته من رأسه، وأنه قسيم النار، يدخل أولياؤه الجنة وأعداؤه النار، فكان فيمن عاداه الخوارج والناصبة، وطائفة ممن ينسب إليه من الروافض كفروه.

وقال: «**يقتل عثمان وهو يقرأ في المصحف**»، وأن الله عسى أن يلبسه قميصًا، وأنهم يريدون خلعه، وأنه سيقطر دمه على قوله: ﴿**فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ**﴾ [البقرة: ١٣٧]، وأن الفتن لا تظهر ما دام عُمَرُ حيًا.

وبمحاربة الزبير لعليّ، وبنباح كلاب الحوأب على بعض أزواجه، وأنه يقتل حولها قتلى كثير، وتنجو بعدما كادت، فنبحت على عائشة عند خروجها إلى البصرة.

وأن عمارًا تقتله الفئة الباغية، فقتله أصحاب معاوية.

وقال لعبد الله بن الزبير: «**ويل للناس منك، وويل لك من الناس**»[2].

وقال في قُزْمان - وقد أبلى مع المسلمين -: «**إنه من أهل النار**»، فقتل نفسه.

وقال في جماعة فيهم أبو هريرة، وسمرة بن جندب، وحذيفة: «**آخركم موتًا في النار**»، فكان بعضهم يسأل عن بعض، فكان سمرة آخرهم موتًا، هرم وخرف، فاصطلى بالنار فاحترق فيها[3].

وقال في حنظلة الغسيل: «**سلوا زوجته عنه، فإني رأيت الملائكة تغسله**»، فسألوها فقالت: إنه خرج جنبًا، وأعجله الحال عن الغسل.

قال أبو سعيد - رضي الله عنه -: وجدنا رأسه يقطر ماء.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٢٠).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٥٧٨)، والدارقطني في سننه (١/ ٢٢٨)، وذكر له الحافظ شاهدًا في ترجمة عبد الله بن الزبير في الإصابة (٤/ ٩٣).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦/ ٢٠٨)، والكبير (٧/ ١٧٧)، والبخاري في التاريخ الصغير (٤٤٦، ٤٤٧).

وقال: «الخلافة في قريش»[1].

و«لن يزال هذا الأمر في قريش ما أقاموا الدين»[2].

وقال: «يكون في ثقيف كذاب ومبير»، فرأوهما: الحجاج، والمختار.

«وأن مسيلمة يعقره الله»[3].

وأن فاطمة أول أهله لحوقًا به[4].

وأنذر بالردة، وبأن الخلافة بعده ثلاثون[5] سنة، ثم تكون ملكًا، فكانت كذلك بمدة الحسن ابن عليّ.

وقال: «إن هذا الأمر بدأ نبوة ورحمة، ثم يكون رحمة وخلافة، ثم يكون ملكًا عَضُوضًا، ثم يكون عتوًا وجبروتًا وفسادًا في الأمة»[6]. وأخبر بشأن أويس القرني، وبأمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها، وسيكون في أمته ثلاثون كذابًا فيهم أربع نسوة.

وفي حديث آخر: «ثلاثون دجالاً كذابًا، آخرهم الدجال الكذاب، كلهم يكذب على الله ورسوله»[7].

وقال: «يوشك أن يكثر فيكم العجم، يأكلون فيئكم ويضربون رقابكم ،ولا تقوم الساعة حتى يسوق الناس بعصاه رجل من قحطان»[8].

وقال: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم. ثم يأتي بعد ذلك قوم يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن»[9].

أخرجه أحمد (٤/ ١٨٥)، وابن أبي عاصم في السنة (١١٠٩)، وانظر كلام الألباني رحمه الله في ظلال الجنة (٢/ ٥٢٧).

أخرجه البخاري (٣٥٠٠، ٧١٣٩).

أخرجه مسلم (٢٢٧٣). صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٥٠).

ثبت هذا في حديث سفينة، أخرجه الترمذي (٢٢٢٦).

أخرجه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٥٣)، والبيهقي في الشعب (٥/ ١٧)، وابن أبي حاتم في العلل (٢/ ٤٠٦).

أخرجه الشافعي في السنن المأثورة (٥٢)، والمقدسي في فضائل بيت المقدس (٣٥)، وهو جزء من خطبة طويلة لسمرة بن جندب، بذكر قصة كسوف الشمس وخطبته النبي ﷺ فيها ، وأخرجه أبو داود والنسائي مختصراً بدون ذكر خطبة الكسوف، وضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف أبي داود (٢٥٣).

(٨) صحيح: أخرجه البخاري (٣٥١٧، ٧١١٧)، ومسلم (٢٩١٠).

أخرجه البخاري (٢٦٥١، ٢٦٥٢، ٣٣٢٧)، ومسلم (٢٥٣٣).

وقال: «لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه»[١].

وقال: «هلاك أمتي على يدي أغيلمة من قريش».

وقال أبو هريرة ـ روايه ـ: «لو شئت سميتهم لكم: بنو فلان، وبنو فلان».

وأخبر بظهور القدرية والرافضة، وسب آخر هذه الأمة أولها، وقلة الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام، فلم يزل أمرهم يتبدد حتى لم يبق لهم جماعة وأنهم سيلقون بعده أثرة[٢].

وأخبر بشأن الخوارج وصفتهم، والمُخَدَّج الذي فيهم، وأن سيماهم التحليق. وترى رعاة الغنم رءوس الناس، والعراة الحفاة يتبارون في البنيان.

وأن تلد الأمة ربتها.

وأن قريشًا والأحزاب لا يغزونه أبدًا، وأنه هو يغزوهم.

وأخبر بالموتان الذي يكون بعد فتح بيت المقدس.

وما وعد من سكنى البصرة، وأنهم يغزون في البحر كالملوك على الأسرة.

وأن الدين لو كان منوطًا بالثريا لناله رجال من أبناء فارس.

وهاجت ريح في غزاته، فقال: «هاجت لموت منافق»، فلما رجعوا إلى المدينة وجدوا ذلك[٣].

وقال لقوم من جلسائه: «ضرس أحدكم في النار أعظم من أحد»[٤].

قال أبو هريرة: فذهب القوم ـ يعني ماتوا ـ وبقيت أنا ورجل، فقتل مرتدًا يوم اليمامة.

وأعلم بالذي غل خرزًا من خرز يهود، فوجدت في رحله.

وبالذي غل الشملة، وحيث هي.

وناقته حين ضلت، وكيف تعلقت بالشجرة بخطامها.

وبشأن كتاب حاطب إلى أهل مكة[٥].

وبقضية عمير مع صفوان حين ساره وشارطه على قتل النبي ﷺ. فلما جاء عمير للنبي

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٠٦٨).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٠٦٨).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٨٢).
(٤) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٥١).
(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٧٣).

ﷺ قاصداً لقتله، وأطلعه رسول الله ﷺ على الأمر والسر أسلم.

وأخبر بالمال الذي تركه عمه العباس - رضي الله عنه - عند أم الفضل بعد أن كتمه، فقال: ما علمه غيري وغيرها، فأسلم.

وأعلم بأنه سيقتل أبي بن خلف.

وفي عتبة بن أبي لهب: أنه يأكله كلب من كلاب الله.

وعن مصارع أهل بدر، فكان كما قال.

وقال في الحسن: «إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين»[1].

ولسعد: «لعلك تُخَلَّف حتى ينتفع بك أقوام ويستضر بك آخرون»[2].

وأخبر بقتل أهل مؤتة يوم قتلوا وبينهم مسيرة شهر أو أزيد.

وبموت النجاشي يوم مات بأرضه.

وأخبر فيروز إذ ورد عليه رسولاً من كسرى بموت كسرى ذلك اليوم، فلما حقق فيروز القصة أسلم.

وأخبر أبا ذر - رضي الله عنه - بتطريده كما كان، ووجده في المسجد نائمًا، فقال له: «كيف بك إذا أخرجت منه؟» قال: أسكن المسجد الحرام. قال: «فإذا أخرجتَ منه...»[3] الحديث.

وبعيشه وحده، وموته وحده.

وأخبر أن أسرع أزواجه به لحوقًا أطولهن يداً، فكانت زينب لطول يدها بالصدقة[4].

وأخبر بقتل الحسين بالطَّفِّ، وأخرج بيده تربة وقال: «فيها مضجعه»[5].

وقال في زيد بن صُوحان: «يسبقه عضو منه إلى الجنة»[6]، فقطعت يده في الجهاد.

وقال في الذين كانوا معه على حراء: «اثبت، فإنما عليك نبي وصدِّيق وشهيد»[7]،

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٢٩٦، ٣٩٣٦، ٤٤٠٩، ٦٣٧٣).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٠٤).
(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٦)، وابن أبي عاصم في السنة (١٠٧٥)، وانظر تخريج الألباني رحمه الله في ظلال الجنة (٢/ ٥١٢).
(٤) صحيح: أخرجه البخاري (١٤٢٠)، ومسلم (٢٤٥٢).
(٥) انظر مجمع الزوائد (٩/ ١٨٨) للهيثمي.
(٦) أخرجه البيهقي في الدلائل (٦/ ٤٧٠).
(٧) صحيح: أخرجه البخاري (٣٦٧٥).

فقتل عليّ، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، وطعن سعد رضي الله عنهم.

وقال لسراقة: «كيف بك إذا ألبست سواري كسرى؟» فلما أتي بهما عمر ألبسهما إياه، وقال: الحمد لله الذي سلبهما كسرىٰ وألبسهما سراقة[١].

وقال: «تبنى مدينة بين دجلة ودجيل وقُطْرُبُل والصراة، تجبى إليها خزائن الأرض، يخسف بها». - يعني بغداد.

وقال: «سيكون في هذه الأمة رجل يقال له: الوليد، هو شر لهذه الأمة من فرعون لقومه»[٢].

وقال: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان دعواهما واحدة»[٣].

وقال لعمر في سهيل بن عمرو: «عسى أن يقوم مقامًا يَسُرُّكَ يا عمر!» فكان كذلك، قام بمكة مقام أبي بكر يوم بلغهم موت النبي ﷺ، وخطب بنحو خطبته، وثبتهم وقوىٰ بصائرهم.

وقال لخالد حين وجهه لأكيدر: «إنك تجده يصيد البقر»[٤].

فوجدت هذه الأمور كلها في حياته وبعد موته كما قال ﷺ.

إلىٰ ما أخبر به جلساءه من أسرارهم وبواطنهم، واطلع عليه من أسرار المنافقين وكفرهم، وقولهم فيه وفي المؤمنين، حتىٰ إن كان بعضهم ليقول لصاحبه: اسكت، فوالله لو لم يكن عنده من يخبره لأخبرته حجارة البطحاء.

وإعلامه بصفة السحر الذي سحره به لبيد بن الأعصم، وكونه في مُشْط ومُشاقَّةٍ، في جُفِّ طلعِ نخلةٍ ذكَرٍ، وأنه ألقي في بئر ذروان، فكان كما قال، ووُجد علىٰ تلك الصفة[٥].

وإعلامه قريشًا بأكل الأرضة ما في صحيفتهم التي تظاهروا بها علىٰ بني هاشم، وقطعوا بها رحمهم، وأنها أبقت فيها كل اسم لله، فوجدوها كما قال. ووصفه لكفار قريش بيت المقدس حين كذبوه في خبر الإسراء، ونعته إياه نعت من عرفه.

---

(١) انظر تخريج الحديث في الإصابة (٣/ ٤١) للحافظ ابن حجر رحمه الله.
(٢) ضعيف: رجح الدارقطني في العلل (٢/ ١٥٩) كونه مرويًا عن سعيد بن المسيب مرسلاً.
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (١٥٧).
(٤) أخرجه البيهقي في الدلائل (٥/ ٢٥٠).
(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٣٢٦٨، ٥٧٦٣)، ومسلم (٢١٨٩).

وإعلامهم بعيرهم التي مرّ عليها في طريقه، وإنذارهم بوقت وصولها، فكان كله كما قال.

إلىٰ ما أخبر به من الحوادث التي تكون ولم تأت بعد، منها ما ظهرت مقدماتها، كقوله: «عمران بيت المقدس خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية»[1].

ومن أشراط الساعة وآيات حلولها، وذكر النشر والحشر، وأخبار الأبرار والفجار، والجنة والنار، وعرصات القيامة.

وبحسب هذا الفصل أن يكون ديوانًا مفرداً يشتمل علىٰ أجزاء وحده، وفيما أشرنا إليه من نكت الأحاديث التي ذكرنا كفاية، وأكثرها في «الصحيح» وعند الأئمة.

الفصل الخامس والعشرون

في عصمة الله تعالى له من الناس وكفايته من آذاه

قال الله تعالىٰ ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾[المائدة: ٦٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾[الطور: ٤٨].

وقال: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر: ٣٦].

قيل: بكاف محمداً ﷺ أعداءه المشركين. وقيل غير هذا.

وقال: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥].

وقال: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[الأنفال: ٣٠].

أخبرنا القاضي الشهيد أبو عليّ الصدفي بقراءتي عليه، والفقيه الحافظ أبو بكر محمد ابن عبد الله المعافري، قالا: حدثنا أبو الحسين الصيرفي، قال: حدثنا أبو يعلىٰ البغدادي، حدثنا أبو العباس المروزي، حدثنا أبو عيسىٰ الحافظ، حدثنا عبد بن حميد، حدثنا مسلم ابن إبراهيم، حدثنا الحارث بن عبيد، عن سعيد الجريري، عن عبد الله بن شقيق، عن

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٤٢٩٤)، والحاكم (٤/ ٤٦٥، ٤٦٧)، وأحمد (٥/ ٢٣٢، ٢٤٥)، وفي سنده عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، ضعيف، انظر الميزان للذهبي (٤/ ٢٦٥)، وعلل الدارقطني (٦/ ٥٣).

عائشة ـ رضي الله عنها ـ، قالت: كان النبي ﷺ يُحرس حتىٰ نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، فقال لهم: «يا أيها الناس انصرفوا، فقد عصمني ربي عزّ وجل»[1].

وروي أن النبي ﷺ كان إذ نزل منزلاً اختار له أصحابه شجرة يقيل تحتها، فأتاه أعرابي فاخترط سيفه ثم قال: من يمنعك مني؟ فقال: «الله عز وجل»، فرعدت يد الأعرابي، وسقط سيفه، وضرب برأسه الشجرة حتىٰ سال دماغه، فنزلت الآية.

وقد رويت هذه القصة في «الصحيح»[2]، وأن غورث بن الحارث صاحب هذه القصة، وأن النبي ﷺ عفا عنه، فرجع إلىٰ قومه، وقال: جئتكم من عند خير الناس.

وقد حكيت مثل هذه الحكاية، وأنها جرت له يوم بدر، وقد انفرد من أصحابه لقضاء حاجته، فتبعه رجل من المنافقين. . . وذكر مثله.

وقد روي أنه وقع له مثلها في غزوة غطفان بذي أمَر، مع رجل اسمه دُعْثور بن الحارث، وأن الرجل أسلم، فلما رجع إلىٰ قومه الذي أغروه ـ وكان سيدهم وأشجعهم ـ قالوا له: أين ما كنت تقول، وقد أمكنك؟ فقال: إني نظرت إلىٰ رجل أبيض طويل دفع في صدري، فوقعت لظهري، وسقط السيف، فعرفت أنه ملك، وأسلمت.

قيل: وفيه نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١].

وفي رواية الخطابي أن غورث بن الحارث المحاربي أراد أن يفتك بالنبي ﷺ، فلم يشعر به إلا وهو قائم علىٰ رأسه منتضيًا سيفه، فقال: «اللهم اكفنيه بما شئت»، فانكب من وجهه من زُلَّخَةٍ زُلِّخَهَا بين كفيه، وندر سيفه من يده.

الزلخة: وجع الظهر.

وقيل في قصته غير هذا، وذكر: أن فيه نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١].

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٠٤٦)، وسعيد بن منصور (٧٦٨)، وصححه الألباني رحمه الله في الصحيحة (٢٤٨٩).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٩١٠، ٤١٣٧)، ومسلم (٨٤٣).

وقيل: كان رسول الله ﷺ يخاف قريشًا، فلما نزلت هذه الآية استلقى، ثم قال: «من شاء فليخذلني».

وذكر عبد بن حميد قال: كانت حمالة الحطب تضع العضاه ـ وهي جمر ـ على طريق رسول الله ﷺ فكأنما يطؤها كثيبًا أهيل.

وذكر ابن إسحاق عنها أنها لما بلغها نزول: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، وذكرها بما ذكرها الله مع زوجها من الذم، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد ومعه أبو بكر، وفي يدها فهر من الحجارة.

فلما وقفت عليهما لم تر إلا أبا بكر، وأخذ الله تعالى ببصرها عن نبيه ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه.

وعن الحكم بن أبي العاص قال: تواعدنا على النبي ﷺ حتى إذا رأيناه سمعنا صوتًا خلفنا ما ظننا أنه بقي بتهامة أحد، فوقعنا مغشيًا علينا، فما أفقنا حتى قضى صلاته ورجع إلى أهله.

ثم تواعدنا ليلة أخرى فجئنا حتى إذا رأيناه جاءت الصفا والمروة فحالت بيننا وبينه.

وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ: تواعدت أنا وأبو جهم بن حذيفة ليلةً قتْلَ رسول الله ﷺ، فجئنا منزله، فسمعنا له، فافتتح وقرأ: ﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ١ ـ ٨]. فضرب أبو جهم على عضد عمر، وقال: انج، وفرا هاربين، فكانت من مقدمات إسلام عمر ـ رضي الله عنه.

ومنه العبرة المشهورة والكفاية التامة عندما أخافته قريش، وأجمعت على قتله وبيَّتوه، فخرج عليهم من بيته، فقام على رءوسهم، وقد ضرب الله تعالى على أبصارهم. وذر التراب على رءوسهم، وخلص منهم.

وحمايته عن رؤيتهم في الغار بما هيأ الله له من الآيات، ومن العنكبوت الذي نسج عليه، حتى قال أمية بن خلف ـ حين قالوا: ندخل الغار ـ: ما أَرَبُكم فيه، وعليه من نسج العنكبوت؟! إما أرى أنه قبل أن يولد محمد.

ووقعت حمامتان على فم الغار، فقالت قريش: لو كان فيه أحد لما كانت هناك الحمام.

وقصته مع سراقة بن مالك بن جعشم حين الهجرة، وقد جعلت قريش فيه وفي أبي بكر الجعائل، فأنذر به، فركب فرسه واتبعه حتى إذا قرب منه دعا عليه النبيُّ ﷺ، فساخت قوائم فرسه، فخر عنها، واستقسم بالأزلام، فخرج له ما يكره[1].

ثم ركب ودنا حتى سمع قراءة النبي ﷺ، وهو لا يلتفت، وأبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يلتفت، وقال النبي ﷺ: أُتينا. فقال: «لا تحزن إن الله معنا»[2]. فساخت ثانية إلى ركبتها، وخر عنها فزجرها فنهضت ولقوائهما مثل الدخان، فناداه بالأمان، فكتب له النبي ﷺ أمانًا، كتبه ابن فهيرة، وقيل أبو بكر، وأخبرهم بالأخبار، وأمره النبي ﷺ ألا يترك أحداً يلحق بهم.

فانصرف يقول للناس: كفيتم ما ها هنا.

وقيل: بل قال لهما: أراكما دعوتما عليّ، فادعوا لي. فنجا، ووقع في نفسه ظهور النبي ﷺ.

وفي خبر آخر: أن راعيًا عرف خبرهما، فخرج يشتد، يعلم قريشًا، فلما ورد مكة ضرب على قلبه، فما يدري ما يصنع وأنسي ما خرج له حتى رجع إلى موضعه.

وجاءه ـ فيما ذكر ابن إسحاق وغيره ـ أبو جهل، بصخرة وهو ساجد، وقريش ينظرون، ليطرحها عليه، فلزقت بيده، ويبست يداه إلى عنقه، وأقبل يرجع القهقرى إلى خلفه، ثم سأله أن يدعو له، ففعل، فانطلقت يداه، وكان قد تواعد مع قريش بذلك، وحلف لئن رآه ليدمغنه، فسألوه عن شأنه، فذكر أنه عَرض لي دونه فحل ما رأيت مثله قط، هم بي أن يأكلني.

فقال النبي ﷺ: «ذاك جبريل، لو دنا لأخذه».

وذكر السمرقندي أن رجلاً من بني المغيرة أتى النبي ﷺ ليقتله، فطمس الله على بصره، فلم ير النبي ﷺ، وسمع قوله، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه.

وذكر أن في هاتين القصتين نزلت: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ الآيتين [يس: ٨-٩].

ومن ذلك ما ذكره ابن إسحاق، وغيره في قصته، إذ خرج إلى بني قريظة في

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠٠٩).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٦١٥)، ومسلم (٢٠٠٩).

أصحابه، فجلس إلىٰ جدار بعض آطامهم، فانبعث عمرو بن جحاش أحدهم ليطرح عليه رحىً، فقام النبي ﷺ فانصرف إلىٰ المدينة وأعلمهم بقصتهم.

وقد قيل: إن قوله تعالىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المائدة: ١١]. في هذه القصة نزلت.

وحكىٰ السمرقندي أنه خرج إلىٰ بني النضير يستعين في عقل الكلابيين اللذين قتلهما عمرو بن أمية، فقال له حيي بن أخطب: اجلس يا أبا القاسم حتىٰ نطعمك ونعطيك ما سألتنا.

فجلس النبي ﷺ مع أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ، فتآمر حيي معهم علىٰ قتله، فأعلم جبريل عليه السلام النبي ﷺ بذلك، فقام كأنه يريد حاجته حتىٰ دخل المدينة.

وذكر أهل التفسير والحديث عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن أبا جهل وعد قريشًا لئن رأىٰ محمدًا يصلي ليطأن رقبته.

فلما صلىٰ النبي ﷺ أعلموه، فأقبل، فلما قرب منه ولىٰ هاربًا ناكصًا علىٰ عقبيه، متقيًا بيديه، فسئل فقال: لما دنوت منه أشرفت علىٰ خندق مملوء نارًا كدت أهوي فيه، وأبصرت هولاً عظيمًا، وخفق أجنحة قد ملأت الأرض.

فقال النبي ﷺ: «تلك الملائكة، لو دنا لاختطفته عضوًا عضوًا».

ثم أنزل علىٰ النبي ﷺ: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۝٨ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ۝١٠ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ۝١٢ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴾ [العلق: ٦ـ١٩].

ويروىٰ أن شيبة بن عثمان الحجبي أدركه يوم حنين، وكان حمزة قد قتل أباه وعمه، فقال: اليوم أدرك ثأري من محمد.

فلما اختلط الناس أتاه من خلفه، ورفع سيفه ليصبه عليه، قال: فلما دنوت منه ارتفع إلىٰ شواظ من نار أسرع من البرق، فوليت هاربًا، وأحس بي النبي ﷺ فدعاني، فوضع يده علىٰ صدره، وهو أبغض الخلق إليّ، فما رفعها إلا وهو أحب الخلق إليّ، وقال لي: «ادنُ فقاتل»، فتقدمت أمامه أضرب بسيفي وأقيه بنفسي، ولو لقيت أبي تلك الساعة

لأوقعت به دونه.

وعن فضالة بن عمرو قال: أردت قتل النبي ﷺ عام الفتح، وهو يطوف بالبيت، فلما دنوت منه قال: «أفضالة؟» قلت: نعم. قال: «ما كنت تحدث به نفسك؟» قلت: لا شيء. فضحك واستغفر لي، ووضع يده على صدري، فسكن قلبي، فوالله ما رفعها حتى ما خلق الله شيئًا أحب إليّ منه. ومن مشهور ذلك خبر عامر بن الطفيل وأربد بن قيس - حين وفدا على النبي ﷺ، وكان عامر قال له: أنا أشغل عنك وجه محمد فاضربه أنت. فلم يره فعل شيئًا، فلما كلمه في ذلك قال له: والله ما هممت أن أضربه إلا وجدتك بيني وبينه، أفأضربك؟! ومن عصمته له تعالى أن كثيراً من اليهود والكهنة أنذروا به وعينوه لقريش، وأخبروهم بسطوته بهم، وحضوهم على قتله، فعصمه الله تعالى حتى بلغ فيه أمره.

ومن ذلك: نصره بالرعب أمامه مسيرة شهر، كما قال ﷺ.

الفصل السادس والعشرون

من معجزاته الباهرة

ومن معجزاته الباهرة: ما جمعه الله له من المعارف والعلوم، وخصه به من الاطلاع على جميع مصالح الدنيا والدين، ومعرفته بأمور شرائعه، وقوانين دينه، وسياسة عباده، ومصالح أمته، وما كان في الأمم قبله، وقصص الأنبياء والرسل والجبابرة والقرون الماضية من لدن آدم إلى زمنه وحفظ شرائعهم وكتبهم، ووعي سيرهم، وسرد أنبائهم وأيام الله فيهم، وصفات أعيانهم، واختلاف آرائهم، والمعرفة بمددهم وأعمارهم، وحكم حكمائهم، ومحاجة كل أمة من الكفرة، ومعارضة كل فرقة من الكتابيين بما في كتبهم، وإعلامهم بأسرارها ومخبآت علومها، وإخبارهم بما كتموا من ذلك وغيروه.

إلى الاحتواء على لغات العرب، وغريب ألفاظ فرقها، والإحاطة بضروب فصاحاتها، والحفظ لأيامها وأمثالها، وحكمها ومعاني أشعارها، والتخصيص بجوامع كلمها.

إلى المعرفة بضرب الأمثال الصحيحة، والحكم البينة لتقريب التفهيم للغامض، والتبيين للمشكل، إلى تمهيد قواعد الشرع الذي لا تناقض فيه ولا تخاذل، مع اشتمال شريعته على محاسن الأخلاق ومحامد الآداب وكل شيء مستحسن مفضل، لم ينكر منه ملحد ذو

عقل سليم شيئًا إلا من جهة الخذلان.

بل كل جاحد له وكافر من الجاهلية به إذا سمع ما يدعو إليه صوبه، واستحسنه دون طلب إقامة برهان عليه. ثم أحل لهم من الطيبات وحرم عليهم من الخبائث، وصان به أنفسهم وأعراضهم وأموالهم من المُعاقَبات والحدود عاجلاً، والتخويف بالنار آجلاً مما لا يعلم علمه، ولا يقوم به ولا ببعضه إلا من مارس الدرس والعكوف على الكتب، ومثافنة بعض هذا. إلى الاحتواء على ضروب العلم، وفنون المعارف؛ كالطب، والعبارة، والفرائض، والحساب، والنسب، وغير ذلك من العلوم مما اتخذ أهل هذه المعارف كلامه ﷺ فيها قدوة وأصولاً في علمهم؛ كقوله ﷺ: **«الرؤيا لأول عابر، وهي على رِجْل طائر»**[1].

وقوله: **«الرؤيا ثلاث؛ رؤيا حق، ورؤيا يحدث بها الرجل نفسه، ورؤيا تخزين من الشيطان»**[2].

وقوله: **«إذا تقارب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب»**[3].

وقوله: **«أصل كل داء البَرَدة»**.

وما روي عنه في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - من قوله: **«المعدة حوض البدن، والعروق إليها واردة»**. وإن كان هذا حديثًا لا نصححه لضعفه وكونه موضوعًا تكلم عليه الدارقطني.

وقوله: **«خير ما تداويتم به السعوط واللدودوالحجامة والمشي[4]، وخير الحجامة يوم سبع عشر، وتسع عشر، وإحدى وعشرين[5]، وفي العود الهندي سبعة أشفية. منها ذات الجنب»**[6].

وقوله: **«ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه»** إلى قوله: **« فإن كان لابد فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس»**[7].

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٠٢٠)، والترمذي (٢٢٧٨)، والدارمي (٢١٤٨)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح ابن ماجه (٣١٦٢).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٦٣).

(٣) ضعيف جداً: ضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٨٩٣).

(٤) ضعيف: ضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الترمذي (٣٥٦).

(٥) صحيح: صححه الألباني رحمه الله في صحيح ابن ماجه (٢٨٠٨)، والصحيحة (٢٧٤٧).

(٦) صحيح: أخرجه البخاري (٥٦٩٣)، ومسلم (٢٨٧).

(٧) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٣٣٤٩)، والترمذي (٢٣٨٠)، والنسائي في الكبرى (٤/١٧٧).

وقوله وقد سئل عن سبأ: أرجل هو أم امرأة أم أرض؟ فقال: «رجل ولد عشرة: تيامن منهم ستة، وتشاءم أربعة...». الحديث بطوله[١].

وكذلك جوابه في نسب قُضاعة، وغير ذلك مما اضطرت العرب على شغلها بالنسب إلى سؤاله عما اختلفوا فيه من ذلك.

وقوله: «حمير رأس العرب ونابها، و مَذْحِج هامتها وغَلْصمتها، والأزد كاهلها وجمجمتها، وهمدن غاربها وذروتها».

وقوله: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»[٢].

وقوله في الحوض: «زواياه سواء».

وقوله في حديث الذكر: «وإن الحسنة بعشر أمثالها؛ فتلك مائة وخمسون على اللسان وألف وخمسمائة في الميزان».

وقوله وهو بموضع: «نعم موضع الحمَّام هذا»[٣].

وقوله: «ما بين المشرق والمغرب قبلة»[٤].

وقوله لعيينة، أو الأقرع: «أنا أفرس بالخيل منك»[٥].

وقوله لكاتبه: «ضع القلم على أذنك، فإنه أذكر للمُملِّ»[٦].

هذا مع أنه ﷺ كان لا يكتب؛ ولكنه أوتي علم كل شيء، حتى قد وردت آثار بمعرفته حروف الخط وحسن تصويرها.

كقوله: «لا تمدوا بسم الله الرحمن الرحيم». رواه ابن شعبان من طريق ابن عباس.

وقوله في الحديث الآخر الذي يروى عن معاوية أنه كان يكتب بين يديه ﷺ، فقال له: «ألق الدواة، وحرِّف القلم، وأقم الباء، وفرق السين، ولا تعور الميم، وحَسِّن الله، ومد الرحمن، وجود الرحيم»[٧].

---

(١) صحيح: صححه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (٢٥٧٤).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣١٩٧، ٤٤٠٦، ٥٥٥٠)، ومسلم (١٦٧٩).
(٣) ضعيف: أخرجه الطبراني في الكبير (١/ ٣٢٠)، وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ٢٧٩)، وانظر علل ابن أبي حاتم (٢/ ٣١٥).
(٤) صحيح: صححه الألباني رحمه الله في صحيح ابن ماجه (٨٢٦)، والإرواء (٢٩٢).
(٥) أخرجه أحمد (٤/ ٣٨٧)، وفي فضائل الصحابة (١٦٥٠)، وانظر المجمع للهيثمي (١٠/ ٤٣، ٤٤).
(٦) ضعيف جداً: أخرجه ابن عدي في الكامل (٤/ ٢٩٤)، وابن سعد في الطبقات (٢/ ٣٥٩).
(٧) ضعيف: أخرجه السمعاني في أدب الإملاء والاستملاء (١/ ١٧٠)، وانظر الفتح (٧/ ٥٠٤).

وهذا، وإن لم تصح الرواية أنه ﷺ كتب فلا يبعد أن يرزق علم هذا ويمنع القراءة والكتابة.

وأما علمه ﷺ بلغات العرب، وحفظه معاني أشعارها، فأمر مشهور، قد نبهنا على بعضه أول الكتاب.

وكذلك حفظه لكثير من لغات الأمم؛ كقوله في الحديث: «سَنَهْ، سَنَهْ» وهي حسنة بالحبشية[1]. وقوله: «ويكثر الهرج»، وهو القتل بها[2].

وقوله - في حديث أبي هريرة: «أشكَنْب درد»؛ أي وجع البطن بالفارسية، إلى غير ذلك مما لا يعلم بعض هذا ولا يقوم به ولا ببعضه إلا من مارس الدرس والعكوف على الكتب ومثافنة أهلها عمره. وهو رجل - كما قال الله تعالى - أمي، لم يكتب ولم يقرأ، ولا عرف بصحبة من هذه صفته، ولا نشأ بين قوم لهم علم ولا قراءة لشيء من هذه الأمور، ولا عرف هو قبل بشيء منها؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٨]. إنما كانت غاية معارف العرب النسب وأخبار أوائلها، والشعر، والبيان؛ وإنما حصل ذلك لهم بعد التفرغ لعلم ذلك، والاشتغال بطلبه، ومباحثة أهله عنه.

وهذا الفن نقطة من بحر علمه ﷺ. ولا سبيل إلى جحد الملحد لشيء مما ذكرناه، ولا وجد الكفرة حيلة في دفع ما نصصناه إلا قولهم: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الفرقان: ٥] و﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

فرد الله قولهم بقوله ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]. ثم ما قالوه مكابرة العيان؛ فإن الذي نسبوا تعليمه إليه إما سلمان أو العبد الرومي؛ وسلمان إنما عرفه بعد الهجرة ونزول الكثير من القرآن وظهور ما لا ينعد من الآيات. وأما الرومي فكان أسلم وكان يقرأ على النبي ﷺ، واختلف في اسمه.

وقيل: بل كان النبي ﷺ يجلس عنده عند المروة، وكلاهما أعجمي اللسان؛ وهم الفصحاء اللد، والخطباء اللُّسنُ، قد عجزوا عن معارضة ما أتى به، والإتيان بمثله؛ بل عن فهم رصفه، وصورة تأليفه ونظمه؛ فكيف بأعجمي ألكن؟! نعم، وقد كان سلمان، أو بلعام الرومي، أو يعيش، أو جبر، أو يسار - على اختلافهم في اسمه - بين أظهرهم يكلمونه مدى أعمارهم؛ فهل حكي عن واحد منهم شيء من مثل ما كان يجيء به محمد

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٠٧١).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٥٧).

ﷺ؟ وهل عُرف واحد منهم بمعرفة شيء من ذلك؟ وما منع العدو حينئذ على كثرة عدده، ودؤوب طلبه، وقوة حسده أن يجلس إلى هذا فيأخذ عليه أيضًا ما يعارض به ويتعلم منه ما يحتج به على شيعته، كفعل النضر بن الحارث بما كان يمخرق به من أخبار كتبه.

ولا غاب النبي ﷺ عن قومه، ولا كثرت اختلافاته إلى بلاد أهل الكتاب؛ فيقال إنه استمد منهم؛ بل لم يزل بين أظهرهم يرعى في صغره وشبابه، على عادة أبنائهم؛ ثم لم يخرج عن بلادهم إلا في سفرة أو سفرتين، لم يطل فيهما مكثه مدة يحتمل فيها تعليم القليل، فكيف الكثير؟! بل كان في سفره في صحبة قومه ورفاق عشيرته، لم يغب عنهم، ولا خالف حاله مدة مقامه بمكة من تعليم واختلاف إلى حبر أو قس، أو كاهن. بل لو كان هذا بعدُ كله لكان مجيء ما أتى به في معجز القرآن قاطعًا لكل عذر، ومدحضًا لكل حجة، ومجليًا لكل أمر.

الفصل السابع والعشرون
أنباؤه مع الملائكة والجن

ومن خصائصه ﷺ، وكراماته، وباهر آياته: أنباؤه مع الملائكة والجن، وإمداد الله له بالملائكة، وطاعة الجن له، ورؤية كثير من أصحابه لهم؛ قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم: ٤].

وقال: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال: ١٢].

وقال: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٩ـ١٠].

وقال: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

حدثنا سفيان بن العاص الفقيه بسماعي عليه، حدثنا أبو الليث السمرقندي؛ قال: حدثنا عبد الغافر الفارسي، حدثنا أبو أحمد الجلودي، حدثنا ابن سفيان، حدثنا مسلم، حدثنا عبيد الله بن معاذ، حدثنا أبي، حدثنا شعبة، عن سليمان الشيباني، سمع زر بن

حبيش عن عبد الله، قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾[النجم: ١٨] ـ قال: رأى جبريل عليه السلام في صورته، له ستمائة جناح. والخبر في محادثته مع جبريل وإسرافيل وغيرهم من الملائكة، وما شاهده من كثرتهم وعظم صور بعضهم ليلة الإسراء مشهور.

وقد رآهم بحضرته جماعة من أصحابه في مواطن مختلفة؛ فرأى أصحابه جبريل عليه السلام في صورة رجل يسأله عن الإسلام والإيمان[1].

ورأى ابن عباس، وأسامة بن زيد، وغيرهما عنده جبريل في صورة دحية.

ورأى سعد على يمينه ويساره جبريل وميكائيل في صورة رجلين عليهما ثياب بيض. ومثله عن غير واحد. وسمع بعضهم زجر الملائكة خيلها يوم بدر. وبعضهم رأى تطاير الرءوس من الكفار، ولا يرون الضارب.

ورأى أبو سفيان بن الحارث يومئذ رجالاً بيضًا على خيل بلق بين السماء والأرض، ما يقوم لها شيء. وقد كانت الملائكة تصافح عمران بن الحصين.

وأرى النبي ﷺ لحمزة جبريل في الكعبة، فخر مغشيًا عليه.

ورأى عبد الله بن مسعود الجن ليلة الجن، وسمع كلامهم، وشبههم برجال الزط.

وذكر ابن سعد أن مصعب بن عمير لما قتل يوم أحد أخذ الراية ملك على صورته، فكان النبي ﷺ يقول له: «تقدم يا مصعب»؛ فقال له الملك: لست بمصعب، فعلم أنه ملك.

وقد ذكر غير واحد من المصنفين عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: بينا نحن جلوس مع النبي ﷺ إذ أقبل شيخ بيده عصا، فسلم على النبي ﷺ، فرد عليه، وقال ـ ﷺ: «نغمة الجن من أنت»؟ قال: أنا هامة بن الهيم بن لاقس بن إبليس؛ فذكر أنه لقي نوحًا ومن بعده.. في حديث طويل؛ وأن النبي ﷺ علمه سورًا من القرآن.

وذكر الواقدي قتل خالد عند هدمه العزى للسوداء التي خرجت له ناشرة شعرها عريانة، فجزلها بسيفه، وأعلم النبي ﷺ؛ فقال له: «تلك العزى».

وقال ﷺ: «إن شيطانًا تفلت البارحة ليقطع عليّ صلاتي؛ فأمكنني الله منه، فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم؛ فذكرت دعوة أخي سليمان: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[ص: ٣٥] فرده الله خاسئًا»[2]. وهذا باب واسع.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم (٨، ٩).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦١، ٤٨٠٨).

الفصل الثامن والعشرون

أخباره وصفاته وعلامات رسالته عند أحبار ورهبان وعلماء ذلك الزمان

ومن دلائل نبوته وعلامات رسالته ما ترادفت به الأخبار عن الرهبان والأحبار وعلماء أهل الكتاب، من صفته وصفة أمته، واسمه وعلاماته، وذكر الخاتم الذي بين كتفيه، وما وجد من ذلك في أشعار الموحدين المتقدمين؛ من شعر تُبَّع، والأوس بن حارثة، وكعب بن لؤي، وسفيان بن مجاشع، وقس بن ساعدة.

وما ذكر عن سيف بن ذي يزن وغيرهم، وما عرَّف به من أمره زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وعثكلان الحميري، وعلماء يهود، وشامول عالمهم صاحب تبَّع من صفته وخبره.

وما ألفي من ذلك في التوارة والإنجيل مما قد جمعه العلماء وبينوه، ونقله عنهما ثقات من أسلم منهم؛ مثل: ابن سلام وابْني سَعْية وابن يامين؛ ومخيريق؛ وكعب، وأشباههم ممن أسلم من علماء يهود، وبحيراء، ونصطور الحبشة، وصاحب بصرىٰ، وضغاطر وأسقف الشام، والجارود، وسلمان، والنجاشي، ونصارىٰ الحبشة، وأساقف نجران، وغيرهم ممن أسلم من علماء النصارىٰ.

وقد اعترف بذلك هرقل وصاحب رومة عالما النصارىٰ ورئيساهم، ومقوقس ـ صاحب مصر ـ، والشيخ صاحبه، وابن صوريا، وابن أخطب، وأخوه، وكعب بن أسد، والزبير بن باطيا، وغيرهم من علماء اليهود، ممن حمله الحسد والنفاسة علىٰ البقاء علىٰ الشقاء.

والأخبار في هذا كثيرة لا تنحصر.

وقد قرع أسماع اليهود والنصارىٰ بما ذكر أنه في كتبهم من صفته وصفة أصحابه، واحتج عليهم بما انطوت عليه من ذلك صحفهم، وذمهم بتحريف ذلك وكتمانه، وليهم ألسنتهم ببيان أمره، ودعوتهم إلىٰ المباهلة علىٰ الكاذب؛ فما منهم إلا من نفر من معارضته، وإبداء ما ألزمهم من كتبهم إظهاره.

ولو وجدوا خلاف قوله لكان إظهاره أهون عليهم من بذل النفوس والأموال وتخريب

الديار ونبذ القتال، وقد قال لهم: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٣]

إلىٰ ما أنذر به الكهان؛ مثل شافع بن كليب، وشِقّ، وسَطيح، وسواد بن قارب، وخُنافر، وأفعىٰ نجران، وجذل بن جذل الكندي، وابن خَلَصَة الدوسي، وسعد ابن بنت كريز، وفاطمة بنت النعمان، ومن لا ينعد كثرة.

إلىٰ ما ظهر علىٰ ألسنة الأصنام من نبوته، وحلول وقت رسالته؛ وسمع من هواتف الجان، ومن ذبائح النصب، وأجواف الصور؛ وما وجد من اسم النبيﷺ والشهادة له بالرسالة مكتوبًا في الحجارة والقبور بالخط القديم ما أكثره مشهور، وإسلام من أسلم بسبب ذلك معلوم مذكور.

الفصل التاسع والعشرون

ما حدث عند مولده

ومن ذلك ما ظهر من الآيات عند مولده، وما حكته أمه ومن حضره من العجائب، وكونه رافعًا رأسه عندما وضعته شاخصًا ببصره إلىٰ السماء؛ وما رأته من النور الذي خرج معه عند ولادته، وما رأته إذ ذاك أم عثمان بن أبي العاص من تدلي النجوم، وظهور النور عند ولادته، حتىٰ ما تنظر إلا النور.

وقول الشَّفَاء أم عبد الرحمن بن عوف: لما سقط ﷺ علىٰ يدي واستهل سمعت قائلاً يقول: رحمك الله؛ وأضاء لي ما بين المشرق والمغرب حتىٰ نظرت إلىٰ قصور الروم.

وما تعرفت به حليمة وزوجها ظئراه من بركته، ودرور لبنها له، ولبن شارفها وخصب غنمها، وسرعة شبابه، وحسن نشأته؛ وما جرىٰ من العجائب ليلة مولده؛ من ارتجاج إيوان كسرىٰ، وسقوط شرفاته، وغيض بحيرة طبرية، وخمود نار فارس، وكان لها ألف عام لم تخمد.

وأنه كان إذا أكل مع عمه أبي طالب وآله وهو صغير شبعوا ورووا؛ فإذا غاب فأكلوا في غيبته لم يشبعوا.

وكان سائر ولد أبي طالب يصبحون شعثًا ويصبح ﷺ صقيلاً دهينًا كحيلاً.

قالت أم أيمن حاضنته: ما رأيته ﷺ شكا جوعًا قط ولا عطشًا صغيراً ولا كبيراً.

ومن ذلك حراسة السماء بالشهب، وقطع رصد الشياطين، ومنعهم استراق السمع.

وما نشأ عليه من بغض الأصنام، والعفة عن أمور الجاهلية؛ وما خصه الله به من ذلك وحماه حتىٰ في ستره في الخبر المشهور عند بناء الكعبة؛ إذ أخذ إزاره ليجعله علىٰ عاتقه، ليحمل عليه الحجارة وتعرىٰ؛ فسقط إلىٰ الأرض حتىٰ رد إزاره عليه.

فقال له عمه: ما بالك؟ فقال: «**إني نهيت عن التعري**».

ومن ذلك إظلال الله له بالغمام في سفره.

وفي رواية أن خديجة ونساءها رأينه لما قدم وملكان يظلانه؛ فذكرت ذلك لميسرة؛ فأخبرها أنه رأىٰ ذلك منذ خرج معه في سفره.

وقد روي أن حليمة رأت غمامة تظله، وهو عندها، وروي ذلك عن أخيه من الرضاعة.

ومن ذلك أنه نزل في بعض أسفاره قبل مبعثه تحت شجرة يابسة، فاعشوشب ما حولها وأينعت هي فأشرقت وتدلت عليه أغصانها بحضرة من رآه.

وميل فيء الشجرة إليه في الخبر الآخر حتىٰ أظلته.

وما ذكر من أنه كان لا ظل لشخصه في شمس ولا قمر؛ لأنه كان نوراً.

وأن الذباب كان لا يقع علىٰ جسده ولا ثيابه.

ومن ذلك تحبيب الخلوة إليه حتىٰ أوحي إليه؛ ثم إعلامه بموته ودنو أجله، وأن قبره في المدينة وفي بيته، وأن بين بيته ومنبره روضة من رياض الجنة؛ وتخيير الله له عند موته؛ وما اشتمل عليه حديث الوفاة من كراماته؛ وتشريفه، وصلاة الملائكة علىٰ جسده علىٰ ما رويناه في بعضها.

واستئذان ملك الموت عليه، ولم يستأذن علىٰ غيره قبله. ونداؤهم الذي سمعوه أن لا تنزعوا القميص عنه عند غسله.

وما روي من تعزية الخضر والملائكة أهل بيته عند موته.

إلىٰ ما ظهر علىٰ أصحابه من كرامته وبركته في حياته وموته، كاستسقاء عمر بعمه، وتبرك غير واحد بذريته.

الفصل الثلاثون

خاتمة وتذييل

قال القاضي أبو الفضل ـ رحمه الله ـ : قد أتينا في هذا الباب على نكت من معجزاته واضحة، وجمل من علامات نبوته مقنعة، في واحد منها الكفاية والغنية، وتركنا الكثير سوى ما ذكرنا، واقتصرنا من الأحاديث الطوال على عين الغرض وفص المقصد، ومن كثير الأحاديث وغريبها على ما صح واشتهر إلا يسيراً من غريبه مما ذكره مشاهير الأئمة، وحذفنا الإسناد في جمهورها، طلبًا للاختصار.

وبحسب هذا الباب لو تقصي أن يكون ديوانًا جامعًا يشتمل على مجلدات عدة.
ومعجزات نبينا ﷺ أظهر من سائر معجزاته الرسل بوجهين:

أحدهما : كثرتها، وأنه لم يؤت نبي معجزة إلا وعند نبينا مثلها أو ما هو أبلغ منها.

وقد نبه الناس على ذلك؛ فإن أردته فتأمل فصول هذا الباب ومعجزات ما تقدم من الأنبياء تقف على ذلك ـ إن شاء الله تعالى.

وأما كونها كثيرة فهذا القرآن، وكله معجز؛ وأقل ما يقع الإعجاز فيه عند بعض أئمة المحققين سورة: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾؛ أو آية في قدرها.

وذهب بعضهم إلى أن كل آية منه كيف كانت معجزة، وزاد آخرون: أن كل جملة منتظمة منه معجزة، وإن كانت من كلمة أو كلمتين.

والحق ما ذكرناه أولاً؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ [يونس: ٣٨]؛ فهو أقل ما تحداهم به، مع ما ينصر هذا من نظر وتحقيق يطول بسطه.

وإذا كان هذا ففي القرآن من الكلمات نحو من سبعة وسبعين ألف كلمة ونيف على عدد بعضهم، وعدد كلمات: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ [الكوثر: ١] عشر كلمات، فتجزئ القرآن على نسبة عدد كلمات ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ أزيد من سبعة آلاف جزء، كل واحد منها معجز في نفسه.

ثم إعجازه ـ كما تقدم ـ بوجهين: طريق بلاغته، وطريق نظمه؛ فصار في كل جزء من هذا العدد معجزتان، فتضاعف العدد من هذا الوجه.

ثم فيه وجوه إعجاز أخر من الإخبار بعلوم الغيب؛ فقد يكون في السورة الواحدة من

هذه التجزئة الخبر عن أشياء من الغيب، كل خبر منها بنفسه معجز؛ فتضاعف العدد كرة أخرىٰ.

ثم وجوه الإعجاز الأخر التي ذكرناها توجب التضعيف، هذا في حق القرآن، فلا يكاد يأخذ العد معجزاته، ولا يحوي الحصر براهينه.

ثم الأحاديث الواردة، والأخبار الصادرة عنه ﷺ في هذه الأبواب وعما دل علىٰ أمره مما أشرنا إلىٰ جمله يبلغ نحواً من هذا.

الوجه الثاني: وضوح معجزاته ﷺ؛ فإن معجزات الرسل كانت بقدر همم أهل زمانهم، وبحسب الفن الذي سما فيه قرنه.

فلما كان زمن موسىٰ غاية علم أهله السحر بُعث إليهم موسىٰ بمعجزة تشبه ما يدعون قدرتهم عليه، فجاءهم منها ما خرق عادتهم، ولم يكن في قدرتهم، وأبطل سحرهم.

وكذلك زمن عيسىٰ أغنىٰ ما كان الطب، وأوفر ما كان أهله؛ فجاءهم أمر لا يقدرون عليه، وأتاهم ما لم يحتسبوه من إحياء الميت، وإبراء الأكمه والأبرص دون معالجة ولا طب.

وهكذا سائر معجزات الأنبياء.

ثم إن الله تعالىٰ بعث محمداً ﷺ وجملة معارف العرب وعلومها أربعة: البلاغة، والشعر، والخبر، والكهانة.

فأنزل عليه القرآن الخارق لهذه الأربعة فصول من الفصاحة، والإيجاز، والبلاغة الخارجة عن نمط كلامهم؛ ومن النظم الغريب، والأسلوب العجيب الذي لم يهتدوا في المنظوم إلىٰ طريقه ولا علموا في أساليب الأوزان منهجه؛ ومن الأخبار عن الكوائن والحوداث، والأسرار، والمخبآت والضمائر، فتوجد علىٰ ما كانت، ويعترف المخبر عنها بصحة ذلك وصدقه، وإن كان أعدىٰ العدو.

فأبطل الكهانة التي تصدق مرة وتكذب عشراً؛ ثم اجتثها من أصلها برجم الشهب، ورصد النجوم.

وجاء من الأخبار عن القرون السالفة، وأنباء الأنبياء، والأمم البائدة، والحوادث الماضية ما يُعجز من تفرغ لهذا العلم عن بعضه علىٰ الوجوه التي بسطناها وبينا المعجز فيها.

ثم بقيت هذه المعجزة الجامعة لهذه الوجوه إلىٰ الفصول الأخر التي ذكرناها في معجزات القرآن ثابتة إلىٰ يوم القيامة بينة الحجة لكل أمة تأتي، لا يخفىٰ وجوه ذلك علىٰ

من نظر فيه، وتأمل وجوه إعجازه.

إلى ما أخبر به من الغيوب على هذه السبيل؛ فلا يمر عصر ولا زمن إلا ويظهر فيه صدقه بظهور مخبره على ما أخبر؛ فيتجدد الإيمان، ويتظاهر البرهان؛ وليس الخبر كالعيان كما قيل.

وللمشاهدة زيادة في اليقين، والنفس أشد طمأنينة إلى عين اليقين منها إلى علم اليقين؛ وإن كان كلٌّ عندها حقًا.

وسائر معجزات الرسل انقرضت بانقراضهم، وعدمت بعدم ذواتها؛ ومعجزة نبينا ﷺ، لا تبيد ولا تنقطع وآياته تتجدد ولا تضمحل؛ ولهذا أشار ﷺ بقوله فيما حدثنا القاضي الشهيد أبو عليّ، حدثنا القاضي أبو الوليد، حدثنا أبو ذر، حدثنا أبو محمد، وأبو إسحاق، وأبو الهيثم؛ قالوا: حدثنا الفربري، حدثنا البخاري، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا الليث، عن سعيد، عن أبيه، عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، عن النبي ﷺ قال: **«ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر؛ وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»**(1).

هذا معنى الحديث عند بعضهم؛ وهو الظاهر والصحيح إن شاء الله.

وذهب غير واحد من العلماء في تأويل هذا الحديث وظهور معجزة نبينا ﷺ إلى معنى آخر من ظهورها بكونها وحيًا وكلامًا لا يمكن التخييل فيه، ولا التحيل عليه، ولا التشبيه؛ فإن غيرها من معجزات الرسل قد رام المعاندون لها بأشياء طمعوا في التخييل بها على الضعفاء كإلقاء السحرة حبالهم وعصيهم وشبه هذا مما يخيله الساحر، أو يتحيل فيه.

والقرآن كلام ليس للحيلة ولا للسحر في التخييل فيه عمل؛ فكان من هذا الوجه عندهم أظهر من غيره من المعجزات، كما لا يتم لشاعر ولا لخطيب أن يكون شاعرًا أو خطيبًا بضربٍ من الحيل والتمويه.

والتأويل الأول أخلص وأرضى.

وفي هذا التأويل الثاني ما يُغمض عليه الجفن ويغضى.

ووجه ثالث على مذهب من قال بالصَّرْفة، وأن المعارضة كانت في مقدور البشر؛ فصُرفوا عنها، أو على أحد مذهبي أهل السنة من أن الإتيان بمثله من جنس مقدورهم؛ ولكن لم يكن ذلك قبل، ولا يكون بعد؛ لأن الله تعالى لم يقدرهم ولا يقدرهم عليه.

(1) صحيح: أخرجه البخاري (٧٢٧٤)، ومسلم (١٥٢).

وبين المذهبين فرق بيِّن، وعليهما جميعًا فترك العرب الإتيان بما في مقدورهم، أو ما هو من جنس مقدورهم، ورضاهم بالبلاء والجلاء، والسباء والإذلال، وتغيير الحال، وسلب النفوس والأموال، والتقريع والتوبيخ، والتعجيز والتهديد والوعيد أبين آية للعجز عن الإتيان بمثله والنكول عن معارضته؛ وأنهم منعوا عن شيء هو من جنس مقدورهم. وإلىٰ هذا ذهب الإمام أبو المعالي الجويني وغيره؛ قال: وهذا عندنا أبلغ في خرق العادة بالأفعال البديعة في أنفسها، كقلب العصا حية ونحوها، فإنه قد يسبق إلىٰ بال الناظر بداراً أن ذلك من اختصاص صاحب ذلك بمزية معرفة في ذلك الفن وفضل علم إلىٰ أن يرد ذلك صحيح النظر. وأما التحدي للخلائق المئين من السنين بكلام من جنس كلامهم ليأتوا بمثله فلم يأتوا، فلم يبق بعد توفر الدواعي علىٰ المعارضة ثم عدمها إلا أن منع الله الخلق عنها بمثابة ما لو قال نبي: آيتي أن يمنع الله القيام عن الناس مع مقدرتهم عليه، وارتفاع الزمانة عنهم؛ فلو كان ذلك؛ وعجزهم الله تعالىٰ عن القيام لكان ذلك من أبهر آية وأظهر دلالة. وبالله التوفيق.

وقد غاب عن بعض العلماء وجه ظهور آيته علىٰ سائر آيات الأنبياء، حتىٰ احتاج للعذر عن ذلك بدقة أفهام العرب، وذكاء ألبابها، ووفور عقولها، وأنهم أدركوا المعجزة فيه بفطنتهم، وجاءهم من ذلك بحسب إدراكهم، وغيرهم من القبط وبني إسرائيل وغيرهم لم يكونوا بهذه السبيل؛ بل كانوا من الغباوة وقلة الفطنة بحيث جوز عليهم فرعون أنه ربهم، وجوز عليهم السامري ذلك في العجل بعد إيمانهم، وعبدوا المسيح مع إجماعهم علىٰ صلبه؛ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم؛ فجاءتهم من الآيات الظاهرة البينة للأبصار بقدر غلظ أفهامهم ما لا يشكون فيه، ومع هذا فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]. ولم يصبروا علىٰ المن والسلوىٰ؛ واستبدلوا الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير. والعرب علىٰ جاهليتها أكثرها يعترف بالصانع، وإنما كانت تتقرب بالأصنام إلىٰ الله زلفىٰ. ومنهم من آمن بالله وحده من قبل الرسول ﷺ بدليل عقله وصفاء لبه. ولما جاءهم الرسول بكتاب الله فهموا حكمته، وتبينوا بفضل إدراكهم لأول وهلة معجزته؛ فآمنوا به، وازدادوا كل يوم إيمانًا، ورفضوا الدنيا كلها في صحبته، وهجروا ديارهم وأموالهم، وقتلوا آباءهم وأبناءهم في نصرته، وأتىٰ في معنىٰ هذا بما يلوح له رونق، ويعجب منه زبرج له احتيج إليه وحقق لكنا قدمنا من بيان معجزة نبينا ﷺ وظهورها ما يغني عن ركوب بطون هذه المسالك وظهورها. وبالله أستعين. وهو حسبي، ونعم الوكيل.

آخر القسم الأول، ويليه الجزء الثاني

محتويات الكتاب

الشفا

بتعريف حقوق المصطفى

للقاضي عياض

أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي

٤٧٦-٥٤٤هـ

تقديم وتحقيق

طه عبد الرؤوف سعد

من علماء الأزهر الشريف

خالد بن محمد بن عثمان

الجزء الثاني

مكتبة الصفا

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الثاني

فيما يجب على الأنام من حقوقه ﷺ

قال القاضي أبو الفضل -رحمه الله-: وهذا قسم لخصنا فيه الكلام في أربعة أبواب على ما ذكرناه في أول الكتاب، ومجموعها في وجوب تصديقه واتباعه في سنَّته وطاعته، ومحبته ومناصحته، وتوقيره، وبره وحكم الصلاة عليه والتسليم، وزيارة قبره ﷺ.

الباب الأول

الفصل الأول

في فرض الإيمان به ووجوب طاعته واتباع سنته

إذا تقرر بما قدمناه - ثبوت نبوته وصحة رسالته، وجب الإيمان به وتصديقه فيما أتى به؛ قال الله تعالى: ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ﴾ [التغابن: ٨]. وقال: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الفتح: ٨، والأحزاب: ٤٥]. وقال: ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فالإيمان بالنبي محمد ﷺ واجب متعين لا يتم إيمان إلا به ولا يصح إسلام إلا معه؛ قال الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴾ [الفتح: ١٣].

حدثنا أبو محمد الخشني الفقيه بقراءتي عليه، حدثنا الإمام أبو عليٍّ الطبري، حدثنا عبد الغافر الفارسي، حدثنا ابن عمرويه، حدثنا ابن سفيان، حدثنا أبو الحسين، حدثنا أمية بن بسطام، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا روح، عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب، عن أبيه، عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، عن رسول الله ﷺ؛ قال: «**أُمرتُ أنْ أقاتلَ الناس حتى يشهدوا أن لا إله الله، ويؤمنوا بي وبما جئتُ به؛ فإذا فعلوا ذلك عصَموا مني دماءهم وأموالهم إلاَّ بحقِّها، وحسابُهم على الله**»(١).

قال القاضي أبو الفضل وفقه الله:

والإيمان به ﷺ هو تصديقُ نُبُوَّته ورسالة الله له، وتصديقُه في جميع ماجاءَ به وما قاله، ومطابقةُ تصديق القلب بذلك شهادةُ اللسان بأنه رسولُ الله ﷺ؛ فإذا اجتمع التصديق به بالقلب، والنطقُ بالشهادةِ بذلك باللسان، ثمَّ الإيمان به والتصديقُ له كما وردَ في هذا الحديث نفسه من رواية عبد الله بن عُمَر - رضي الله عنهما -: «**أُمرْتُ أن أُقاتلَ الناس حتى يشْهدوا أنْ لا إله إلا الله، وأن محمداً رسولُ الله**»(٢).

وقد زاده وضوحًا في حديث جبريل؛ إذ قال: أخبرني عن الإسلام، فقال النبي ﷺ:

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢١).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢).

«أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله»(١) وذكر أركان الإسلام.

ثم سأله عن الإيمان فقال: **«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ... »** الحديث.

فقد قرر أن الإيمان به محتاجٌ إلى العقد بالجنان، والإسلام به مضطر إلى النطق باللسان.

وهذه الحالة المحمودة التامة.

وأما الحالُ المذمومة فالشهادة باللسان دون تصديق القلب، وهذا هو النفاق؛ قال الله تعالى: ﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾ [المنافقون: ١] أي: كاذبون في قولهم ذلك عن اعتقادهم وتصديقهم، وهم لا يعتقدونه؛ فلما لم تُصدِّق ذلك ضمائرهُم لم ينفعهم أن يقولوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم؛ فخرجوا عن اسم الإيمان، ولم يكن لهم في الآخرة حُكمه؛ إذ لم يكن معهم إيمان، ولحقوا بالكافرين في الدرك الأسفل من النار، وبقي عليهم حكم الإسلام، بإظهار شهادة اللسان في أحكام الدنيا المتعلقة بالأئمة وحكام المسلمين الذين أحكامهم على الظواهر، بما أظهروه من علامة الإسلام؛ إذ لم يجعل للبشر سبيل إلى السرائر، ولا أمروا بالبحث عنها؛ بل نهى النبي ﷺ عن التحكم عليها؛ وذم ذلك وقال: **«هلا شققْتَ عن قلبه؟!»**(٢).

والفرق بين القول والعقد ما جُعل في حديث جبريل: الشهادة من الإسلام، والتصديقُ من الإيمان.

وبقيت حالتان أُخريان بين هذين:

إحداهما: أن يُصدِّق بقلبه ثم يُخترم قبل اتساع وقتٍ للشهادة بلسانه؛ فاختلف فيه؛ فشرط بعضهم من تمام الإيمان القول والشهادة به ورآه بعضهم مؤمنا مستوجبًا للجنة؛ لقوله ﷺ: **«يَخرُجُ من النار من كان في قَلْبه مثقالُ ذَرَّةٍ من إيمان»**(٣)؛ فلم يذكر سوىٰ ما في القلْب.

وهذا مؤمنٌ بقلبه غير عاص ولا مفرطٌ بترك غيره.

وهذا هو الصحيح في هذا الوجه.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم (٩).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٨٧٢)، ومسلم (٩٦).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٢٢، ٦٥٦٠)، ومسلم (٣٠٤).

الثانية: أن يُصدِّق بقلبه ويُطول مَهَلَه، وعلم ما يلزمه من الشهادة فلم ينطق بها جملة ولا استشهد في عمره ولا مرة؛ فهذا اختلف فيه أيضًا؛ فقيل: هو مؤمن؛ لأنه مصدق، والشهادة من جملة الأعمال؛ فهو عاص بتركها غير مخلد في النار.

وقيل: ليس بمؤمن حتى يقارن عقده شهادة اللسان؛ إذ الشهادة إنشاء عقد والتزام إيمان؛ وهي مرتبطة مع العقد، ولا يتم التصديق مع المهلة إلا بها.

وهذا هو الصحيح.

وهذا نبذ يفضي إلى متسع من الكلام في الإسلام والإيمان وأبوابهما، وفي الزيادة فيهما والنقصان، وهل التجزي ممتنع على مجرد التصديق لا يصح فيه جملةً، وإنما يرجع إلى ما زاد عليه من عمل، أو قد يُعرض فيه لاختلاف صفاته وتباين حالاته؛ من قوة يقين، وتصميم اعتقاد، ووضوح معرفة، ودوام حالة، وحضور قلب.

وفي بسط هذا خروج عن غرض التأليف؛ وفيما ذكرنا غنية فيما قصدنا إن شاء الله تعالى.

الفصل الثاني

في وجوب طاعته

وأما وجوب طاعته، فإذا وجب الإيمان به وتصديقه فيما جاء به وجبت طاعته؛ لأن ذلك مما أتى به؛ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: ٢٠]، وقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقال: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤].

وقال: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

فجعل تعالى طاعة رسوله طاعته، وقرن طاعته بطاعته، ووعد على ذلك بجزيل الثواب؛

وأوعد على مخالفته بسوء العقاب، وأوجب امتثال أمره واجتناب نهيه.

قال المفسرون والأئمة: طاعة الرسول التزام سنته والتسليم لما جاء به.

وقالوا: ما أرسل الله من رسول إلا فرض طاعته على من أرسله إليه.

وقالوا: من يطع الرسول في سنته يطع الله في فرائضه.

وسئل سهل بن عبد الله عن شرائع الإسلام؛ فقال ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧].

وقال السمرقندي: يقال: أطيعوا الله في فرائضه، والرسول في سنته.

وقيل: أطيعوا الله فيما حرم عليكم، والرسول فيما بلغكم.

ويقال: أطيعوا الله بالشهادة له بالربوبية، والنبي بالشهادة له بالنبوة.

حدثنا أبو محمد بن عتاب بقراءتي عليه، حدثنا حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسن علي بن محمد بن خلف، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا البخاري، حدثنا عبدان، أخبرنا عبد الله، حدثنا يونس، عن الزهري، أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أنه سمع أبا هريرة يقول: إن رسول الله ﷺ قال: **«من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني»**[(١)].

فطاعة الرسول من طاعة الله؛ إذ الله أمر بطاعته؛ فطاعته امتثال لما أمر الله به، وطاعة له. وقد حكى الله عن الكفار في دركات جهنم: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ﴾ [الأحزاب: ٦٦]؛ فتمنوا طاعته حيث لا ينفعهم التمني.

وقال ﷺ **«إذا نهيتك عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»**[(٢)].

وفي حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ؛ عنه ﷺ: **«كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى»** قالوا: يا رسول الله؛ ومن يأبى؟ قال: **«من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»**[(٣)].

وفي الحديث الآخر الصحيح عنه ﷺ: **«مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومًا، فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاءَ؛ فأطاعته**

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٩٥٧، ٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٧٢٨٠).

طائفة من قومه، فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا؛ وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق»[1] .

وفي الحديث الآخر في مثله : «كمثل من بنى داراً وجعل فيها مأدبة وبعث داعيًا؛ فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة؛ فالدار الجنة والداعي محمد ﷺ فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً فقد عصى الله، ومحمد فَرْقٌ بين الناس»[2] .

الفصل الثالث

في وجوب اتباعه، وامتثال أمره، والاقتداء بهديه

وأما وجوب اتباعه وامتثال سنته والاقتداء بهديه؛ فقد قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال: ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]. أي ينقادوا لحكمك؛ يقال: سلّم واستسلم وأسلم؛ إذا انقاد.

وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

قال محمد بن عليّ الترمذي: الأسوة في الرسول الاقتداء به والاتباع لسنته وترك مخالفته في قول أو فعل. وقال غير واحد من المفسرين بمعناه. وقال: هو عتابٌ للمتخلفين عنه. وقال سهل في قوله تعالى: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: ٧]. قال: بمتابعة السنة فأمرهم تعالى بذلك، ووعدهم الاهتداء باتباعه؛ لأن الله تعالى أرسله بالهدى ودين الحق ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويهديهم إلى صراط مستقيم،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٢٨٣)، ومسلم (٢٢٨٣).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٧٢٨١).

ووعدهم محبته تعالىٰ في الآية الأخرىٰ ومغفرته إذا اتبعوه، وآثروه علىٰ أهوائهم، وما تجنح إليه نفوسهم؛ وأن صحة إيمانهم بانقيادهم له، ورضاهم بحكمه، وترك الاعتراض عليه.

وروي عن الحسن أن أقوامًا قالوا: يا رسول الله، إنا نحب الله. فأنزل الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]. وروي أن الآية نزلت في كعب بن الأشرف وغيره، وأنهم قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه؛ ونحن أشد حبًا لله؛ فأنزل الله الآية.

وقال الزجاج: معناه ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ أن تقصدوا طاعته، فافعلوا ما أمركم به؛ إذ محبة العبد لله والرسول طاعته لهما، ورضاه بما أمرا؛ ومحبة الله عفوه عنهم، وإنعامه عليهم برحمته.

ويقال: الحب من الله عصمة وتوفيق ومن العباد طاعة، كما قال القائل:

تعصي الإله وأنت تُظهر حبه ... هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

ويقال: محبة العبد لله تعظيمه له وهيبته منه؛ ومحبة الله له رحمته له، وإرادته الجميل له؛ وتكون بمعنىٰ مدحه وثنائه عليه. قال القشيري: فإذا كان بمعنىٰ الرحمة والإرادة والمدح كان من صفات الذات. وسيأتي بعد في ذكر محبة العبد غير هذا بحول الله تعالىٰ.

حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر الفقيه؛ قال: حدثنا أبو الأصبغ عيسىٰ بن سهل، وحدثنا أبو الحسن يونس بن مغيث الفقيه بقراءتي عليه؛ قالا: حدثنا حاتم بن محمد؛ قال: حدثنا أبو حفص الجهني، حدثنا أبو بكر الآجري، حدثنا إبراهيم بن موسىٰ الجوزي، حدثنا داود بن رشيد، حدثنا الوليد بن مسلم، عن ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن عبد الرحمن بن عمرو الأسلمي، وحُجر الكلاعي، عن العرباض بن سارية في حديثه في موعظة النبي ﷺ أنه قال: **«فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين؛ عضوا عليها بالنواجذ؛ وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»**(١).

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٦٧٦)، والدارمي (٩٥)، وابن ماجه (٤٣)، وأحمد (٤/ ١٢٦)، وابن أبي عاصم في السنة (٥٤) من حديث العرباض بن سارية، وصححه الألباني رحمه الله في تخريج السنة وغيره.

زاد في حديث جابر بمعناه: «وكل ضلالة في النار»[1].

وفي حديث أبي رافع عنه ﷺ: «لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته، يأتيه الأمر من أمري، مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه»[2].

وفي حديث عائشة - رضي الله عنها -: صنع رسول الله ﷺ شيئًا ترخص فيه فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فحمد الله، ثم قال: «ما بال قوم يتنزهون عن الشيء أصنعه؟! فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية»[3].

وروي عنه ﷺ أنه قال: «القرآن صعب مستصعب على من كرهه، وهو الحكم؛ فمن استمسك بحديثي وفهمه وحفظه جاء مع القرآن، ومن تهاون بالقرآن وحديثي خسر الدنيا والآخرة، أمرت أمتي أن يأخذوا بقولي، ويطيعوا أمري ويتبعوا سنتي، فمن رضي بقولي فقد رضي بالقرآن»[4] قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

وقال ﷺ: «من اقتدى بي فهو مني، ومن رغب عن سنتي فليس مني»[5].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه -، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها»[6].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه -، قال: قال النبي ﷺ: «العلم ثلاثة فما سوى ذلك فهو فضل: آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة»[7].

وعن الحسن بن أبي الحسن - رحمهما الله -: قال ﷺ: «عملٌ قليل في سنةٍ خيرٌ من

(١) صحيح: وأصله في صحيح مسلم بدون «وكل ضلالة في النار»، وأخرج هذه الزيادة: أبو نعيم في مستخرجه على صحيح مسلم (١٩٥٣)، والنسائي (١٥٧٨)، واللالكائي في الاعتقاد (١/ ٧٧)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (١٣٥٣).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٦٦٣)، وأبو داود (٤٦٠٤) وغيرهم، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧١٧٢).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٦١٠١، ٧٣٠١).

(٤) ضعيف جداً: أخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ١٨٩)، وذكره الذهبي في الميزان (٥/ ٣٧٢) في ترجمة عيسى بن إبراهيم بن طهمان - أحد رواته - وقال: قال البخاري والنسائي: منكر الحديث، وقال ابن معين: ليس بشيء، وقال أبو حاتم: متروك الحديث.

(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١).

(٦) انظر رسالة خطبة الحاجة للعلامة الألباني رحمه الله.

(٧) ضعيف: أخرجه أبو داود (٢٨٨٥)، وابن ماجه (٥٤)، وضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٣٨٧١).

عملٍ كثير في بدعة»[١].

وقال ﷺ: «إن الله تعالى يدخل العبد الجنة بالسنة تمسك بها».

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ، قال: «المتمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجر مائة شهيد»[٢].

وقال ﷺ: «إن بني إسرائيل افترقوا على اثنتين وسبعين ملة، وإن أمتي تفترق على ثلاث وسبعين، كلها في النار إلا واحدة». وقالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «الذي أنا عليه اليوم وأصحابي»[٣].

وعن أنس: قال ﷺ: «من أحيا سُنّتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة»[٤].

وعن عمرو بن عوف المزني أن النبي ﷺ قال لبلال بن الحارث: «من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدي، فإن له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا، ومن ابتدع بدعة ضلالة لا ترضي الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها، لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيئًا»[٥].

الفصل الرابع

فيما ورد عن السلف والأئمة من اتباع سنته والاقتداء بهديه وسيرته

وأما ما ورد عن السلف والأئمة من اتباع سنته والاقتداء بهديه وسيرته، فحدثنا الشيخ أبو عمران موسى بن عبد الرحمن بن أبي تليد الفقيه سماعًا عليه؛ فقال: حدثنا أبو عمر الحافظ، حدثنا سعيد بن نصر، حدثنا قاسم بن أصبغ، ووهب بن مسرة؛ قالا: حدثنا

(١) ضعيف: أخرجه معمر في الجامع (١١/ ٢٩١)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٢٧٠)، مرسلاً.
(٢) ضعيف: ذكره الهيثمي في المجمع (١/ ١٧٢) وقال: أخرجه الطبراني في الأوسط وفيه محمد بن صالح العدوي ولَم أر من ترجمه، وبقية رجاله ثقات.
(٣) صحيح لشواهده: أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، والحاكم (١/ ٢١٨)، وله عدة شواهد.
(٤) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٦٧٨)، والطبراني في الأوسط (٩/ ١٦٩)، وغيرهما، وضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٥٣٦٠).
(٥) ضعيف: ضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الترمذي (٥٠٠)، وضعيف الجامع (٩٦٥).

محمد بن وضاح، حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا مالك، عن ابن شهاب، عن رجل من آل خالد بن أسيد - أنه سأل عبد الله بن عمر، فقال: يا أبا عبد الرحمن؛ إنا نجد صلاة الخوف وصلاة الحضر في القرآن ولا نجد صلاة السفر؟ فقال ابن عمر: يا ابن أخي، إن الله بعث إلينا محمداً ﷺ، ولا نعلم شيئًا، فإنما نفعل كما رأيناه يفعل.

وقال عمر بن عبد العزيز: سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر بعده سننًا الأخذ بها تصديق بكتاب الله، واستعمال بطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر في رأي من خالفها؛ من اقتدى بها فهو مهتد، ومن انتصر بها منصور، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً.

وقال الحسن بن أبي الحسن: عمل قليل في سنة خيرٌ من عملٍ كثير في بدعة[1].

وقال ابن شهاب: بلغنا عن رجال من أهل العلم قالوا: الاعتصام بالسنة نجاة.

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عماله بتعلم السنة والفرائض واللَّحن، أي اللغة؛ وقال: إن ناسًا يجادلونكم - يعني بالقرآن -، فخذوهم بالسنن، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله.

وفي خبره حين صلى بذي الحليفة ركعتين، فقال: أصنع كما رأيت رسول الله ﷺ يصنع.

وعن عليٍّ - حين قرن فقال له عثمان: ترى أني أنهى الناس عنه وتفعله! قال: لم أكن أدع سنة رسول الله ﷺ لقول أحد من الناس.

وعنه: ألا إني لست بنبي، ولا يوحى إليّ، ولكني أعمل بكتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ ما استطعت.

وكان ابن مسعود يقول: القصد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة.

وقال ابن عمر: صلاة السفر ركعتان، من خالف السنة كفر.

وقال أُبيّ بن كعب: عليكم بالسبيل والسنة؛ فإنه ما على الأرض من عبد على السبيل والسنة ذكر الله في نفسه ففاضت عيناه من خشية ربه، فيعذبه الله أبدًا، وما على الأرض من عبد على السبيل والسنة ذكر الله في نفسه فاقشعر جلده من خشية الله إلا كان مثله كمثل شجرة قد يبس ورقها، فهي كذلك إذ أصابتها ريحٌ شديدةٌ، فتحاتَّ عنها ورقها إلا حط الله خطاياه كما تحاتُّ عن الشجرة ورقها؛ فإن اقتصاداً في سبيل وسنة خير من اجتهاد

(١) ضعيف: تقدم تخريجه.

في خلاف سبيل وسنة وموافقة بدعة؛ وانظروا أن يكون عملكم إن كان اجتهاداً واقتصاداً أن يكون على منهاج الأنبياء وسنتهم.

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إلى عمر بحال بلده، وكثرة لصوصه؛ هل يأخذهم بالظِّنَّة أو يحملهم على البينة وما جرت عليه السنة؟

فكتب إليه عمر: خذهم بالبينة وما جرت عليه السنة، فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله.

وعن عطاء - في قوله: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. أي: إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

وقال الشافعي: ليس في سنة رسول الله ﷺ إلا اتباعها.

وقال عمر - ونظر إلى الحجر الأسود -: إنك حجرٌ لا تنفع ولا تضر؛ ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك؛ ثم قبله[1].

ورئي عبد الله بن عمر يدير ناقته في مكان، فسئل عنه، فقال: لا أدري، إلا أني رأيت رسول الله ﷺ فعله ففعلته.

وقال أبو عثمان الحيري: من أمّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه نطق بالبدعة.

وقال سهل التستري: أصول مذهبنا ثلاثة: الاقتداء بالنبي ﷺ في الأخلاق والأفعال، والأكل من الحلال، وإخلاص النية في جميع الأعمال.

وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]: أنه الاقتداء برسول الله ﷺ.

وحكي عن أحمد بن حنبل؛ قال: كنت يومًا مع جماعة تجردوا ودخلوا الماء، فاستعملت الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر»[2] ولم أتجرد فرأيت تلك الليلة قائلاً لي: يا أحمد، أبشر، فإن الله قد غفر لك باستعمالك السنة وجعلك إمامًا يقتدى بك.

قلت: من أنت؟ قال: جبريل.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٥٩٧، ١٦٠٥)، ومسلم (١٢٧٠).

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (٢٨٠١)، وحسنه الألباني رحمه الله في غاية المرام (١٩٠).

الفصل الخامس

في أنّ مخالفة أمره وتبديل سنته ضلال

ومخالفة أمره وتبديل سنته ضلال وبدعة متوعد من الله تعالى عليه بالخذلان والعذاب، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]. وقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾

[النساء: ١١٥].

حدثنا أبو محمد عبد الله بن أبي جعفر، وعبد الرحمن بن عتاب بقراءتي عليهما؛ قالا: حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسن القابسي، حدثنا أبو الحسين بن مسرور الدباغ، حدثنا أحمد بن أبي سليمان، حدثنا سحنون بن سعيد، حدثنا ابن القاسم، حدثنا مالك، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه عن أبي هريرة - أن رسول الله ﷺ خرج إلى المقبرة.... وذكر الحديث في صفة أمته، وفيه: «**فليُذادنّ رجالٌ عن حوضي كما يذاد البعير الضال فأناديهم: ألا هلم، ألا هلم فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك. فأقول: فسحقًا، فسحقًا، فسحقًا**»[١].

وروى أنس أن النبي ﷺ قال: «**من رغب عن سنتي فليس مني**»[٢].

وقال: «**من أدخل في أمرنا ما ليس منه فهو رد**»[٣].

وروى ابن أبي رافع، عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «**لا ألفين أحدكم مُتكئًا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه**»[٤].

زاد في حديث المقدام «**ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله**».

وقال ﷺ وجيء بكتاب في كتف: «**كفى» بقوم حُمقًا - أو قال: ضلالاً - أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إلى غير نبيهم أو كتاب غير كتابهم**. فنزلت: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٤٩).
(٢) صحيح: وقد تقدم.
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) بلفظ: «من أحدث...».
(٤) صحيح: تقدم تخريجه.

أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ [العنكبوت: ٥١]»، وقال ﷺ «هلك المتنطعون»(١).

وقال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه -: لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، إني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ(٢).

الباب الثاني

الفصل الأول

في لزوم محبته ﷺ

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فكفى بهذا حضًا وتنبيهًا ودلالة وحجة على إلزام محبته، ووجوب فرضها، وعظم خطرها، واستحقاقه لها ﷺ؛ إذ قرَّع تعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله، وأوعدهم بقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: ٢٤].

ثم فسَّقهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله، حدثنا أبو علي الغساني الحافظ فيما أجازنيه، وهو مما قرأته على غير واحد؛ قال: حدثنا سراج بن عبد الله القاضي، حدثنا أبو محمد الأصيلي، حدثنا المروزي، حدثنا أبو عبد الله محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، عن عبد العزيز بن صهيب، عن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»(٣).

وعن أبي هريرة نحوه.

وعن أنس عنه ﷺ: «ثلاث من كُنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٧٠).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٠٩٣)، ومسلم (١٧٥٩).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٧٠).

أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[(١)].

وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال للنبي ﷺ: لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا نفسي التي بين جنبي.

فقال النبي ﷺ: **«لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه»**.

فقال عمر: والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إليّ من نفسي التي بين جنبي.

فقال له النبي ﷺ: **«الآن يا عمر»**.

قال سهل: من لم ير ولاية الرسول عليه في جميع الأحوال، ويرىٰ نفسه في ملكه ﷺ لا يذوق حلاوة سنته لأن النبي ﷺ قال: **« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه»** الحديث.

الفصل الثاني

في ثواب محبته ﷺ

حدثنا أبو محمد بن عتاب بقراءتي عليه، حدثنا أبو القاسم حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسن عليّ بن خلف، حدثنا أبو زيد المروزي، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عبدان، حدثنا أبي، حدثنا شعبة، عن عمرو بن مرة، عن سالم بن أبي الجعد، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رجلاً أتىٰ النبي ﷺ فقال: متىٰ الساعة يا رسول الله؟ قال: **«ما أعددت لها؟»** قال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله قال: **«أنت مع من أحببت»**[(٢)].

وعن صفوان بن قدامة: هاجرت إلىٰ النبي ﷺ فأتيته، فقلت: يا رسول الله، ناولني يدك أبايعك. فناولني يده، فقلت: يا رسول الله؛ إني أحبك. قال: **«المرء مع من أحب»**[(٣)].

ورویٰ هذا اللفظ عن النبي ﷺ عبد الله بن مسعود، وأبو موسىٰ وأنس، وعن أبي ذر

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٦٨٨، ٦١٦٧، ٦١٧١، ٧١٥٣)، ومسلم (٢٦٣٩).

(٣) أخرجه المقدسي في المختارة (٨/ ٤٩)، وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٣٦٤)، وقوله: «المرء مع من أحب» في الصحيحين من وجهٍ آخر.

بمعناه.

وعن عليّ أن النبي ﷺ أخذ بيد حسن وحسين فقال: «من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة»(١).

وروي أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله؛ لأنت أحب إليّ من أهلي ومالي؛ وإني لأذكرك فما أصبر حتى أجيء فأنظر إليك؛ وإني ذكرت موتي وموتك، فعرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلتها لا أراك.

فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] فدعا به فقرأها عليه.

وفي حديث آخر: كان رجل عند النبي ﷺ ينظر إليه لا يطرف، فقال: ما بالك؛ قال: بأبي أنت وأمي! أتمتع من النظر إليك، فإذا كان يوم القيامة رفعك الله بتفضيله؛ فأنزل الله الآية.

وفي حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ: «من أحبني كان معي في الجنة»(٢).

الفصل الثالث

فيما روي عن السلف والأئمة من محبتهم للنبي ﷺ وشوقهم له

حدثنا القاضي الشهيد، حدثنا العذري؛ حدثنا الرازي، حدثنا الجلودي، حدثنا ابن سفيان، حدثنا مسلم، حدثنا قتيبة، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن سهيل، عن أبيه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من أشد أمتي لي حبًا ناس يكونون بعدي؛ يود أحدهم لو رآني بأهله وماله»(٣). ومثله عن أبي ذر.

وتقدم حديث عمر ـ رضي الله عنه ـ وقوله للنبي ﷺ لأنت أحب إليّ من نفسي. وما تقدم عن الصحابة في مثله.

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٧٣٣)، وأحمد (١/ ٧٧)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٣٤٤).

(٢) ضعيف: وتقدم ذكر طرقه وتخريجه.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٣٢).

وعن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ : ما كان أحدٌ أحبّ إليّ من رسول الله ﷺ.

وعن عبدة بنت خالد بن معدان ؛ قالت : ما كان خالدٌ يأوي إلىٰ فراش إلا وهو يذكر من شوقه إلىٰ رسول الله ﷺ وإلىٰ أصحابه من المهاجرين والأنصار يسميهم ويقول : هم أصلي وفصلي ، وإليهم يحن قلبي ، طال شوقي إليهم فعجّل رب قبضي إليك حتىٰ يغلبه النوم .

وروي عن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ أنه قال للنبي ﷺ : والذي بعثك بالحق لإسلام أبي طالب كان أقر لعيني من إسلامه ـ يعني أباه أبا قحافة ؛ وذلك أن إسلام أبي طالب كان أقر لعينك .

ونحوه عن عمر بن الخطاب ؛ قال للعباس ـ رضي الله عنه ـ : أن تسلم أحب إليّ من أن يسلم الخطاب ؛ لأن ذلك أحب إلىٰ رسول الله ﷺ .

وعن ابن إسحاق أن امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله ﷺ ، فقالت : ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا : خيراً هو بحمد الله كما تحبين . قالت : أرونيه حتىٰ أنظر إليه . فلما رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل .

وسئل عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ : كيف كان حُبكم لرسول الله ﷺ؟ قال : كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا ، ومن الماء البارد علىٰ الظمأ .

وعن زيد بن أسلم : خرج عمر ـ رضي الله عنه ـ ليلة يحرس الناس ، فرأىٰ مصباحًا في بيت ، وإذا عجوز تنفش صوفًا ، وتقول :

علىٰ محمد صلاةُ الأبرار ... صلىٰ عليه الطيبون الأخيارْ

قد كنت قوامًا بكا بالأسحار ... يا ليت شعري والمنايا أطوار

هل تجمعني وحبيبي الدار

تعني النبي ﷺ ، فجلس عمر ـ رضي الله عنه ـ يبكي ؛ وفي الحكاية طول .

وروي أن عبد الله بن عمر خدرت رجله فقيل له : اذكر أحب الناس إليك يزل عنك . فصاح : يا محمداه! فانتشرت .

ولما احتضر بلال ـ رضي الله عنه ـ نادت امرأته : واحزناه! فقال : واطرباه! غداً ألقىٰ الأحبة . محمداً وحزبه .

ومثله عن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ .

ويروىٰ أن امرأة قالت لعائشة ـ رضي الله عنها ـ : اكشفي لي قبر رسول الله ﷺ ؛

فكشفته لها فبكت حتى ماتت.

ولما أخرج أهل مكة زيد بن الدثنة من الحرم ليقتلوه قال له أبو سفيان بن حرب: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك يُضرب عنقه، وإنك في أهلك.

فقال زيد: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة وإني جالس في أهلي.

فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً!.

وعن ابن عباس: كانت المرأة إذا أتت النبي ﷺ حلفها بالله: ما خرجت من بغض زوج، ولا رغبة بأرض عن أرض، وما خرجت إلا حبًا لله ورسوله[1].

ووقف ابن عمر على ابن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ بعد قتله فاستغفر له، وقال: كنت والله ما علمت صوامًا قوامًا تحب الله ورسوله.

الفصل الرابع

في علامة محبته ﷺ

اعلم أن من أحب شيئًا آثره وآثر موافقته، وإلا لم يكن صادقًا في حبه، وكان مدعيًا.
فالصادق في حب النبي ﷺ من تظهر علامة ذلك عليه؛ وأولها الاقتداء به، واستعمال سنته واتباع أقواله وأفعاله، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والتأدب بآدابه في عسره ويسره، ومنشطه ومكرهه، وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وإيثار ما شرعه وحض عليه على هوى نفسه، وموافقة شهوته؛ قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].
وإسخاط العباد في رضا الله تعالى.

حدثنا القاضي أبو عليّ الحافظ، حدثنا أبو الحسين الصيرفيّ، وأبو الفضل بن خيرون؛ قالا: حدثنا أبو يعلى البغدادي، حدثنا أبو عليّ السنجي، حدثنا محمد بن محبوب، حدثنا أبو عيسى، حدثنا مسلم بن حاتم، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، عن أبيه

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٣٠٨).

، عن عليّ بن زيد، عن سعيد بن المسيب؛ قال: قال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: قال لي رسول الله ﷺ: **«يا بني، إن قدرت أن تصبح وتمسي ليس في قلبك غش لأحد فافعل»**. ثم قال لي: **«يا بني؛ وذلك من سنتي، ومن أحيا سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة»**.

فمن اتصف بهذه الصفة فهو كامل المحبة لله ورسوله، ومن خالفها في بعض هذه الأمور فهو ناقص المحبة، ولا يخرج عن اسمها.

ودليله قوله ﷺ للذي حده في الخمر فلعنه بعضهم وقال: ما أكثر ما يؤتى به! فقال النبي ﷺ: **«لا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله»**[١].

ومن علامات محبة النبي ﷺ كثرة ذكره له؛ فمن أحب شيئًا أكثر ذكره.

ومنها كثرة شوقه إلى لقائه؛ فكل حبيب يحب لقاء حبيبه.

وفي حديث الأشعريين عن قدومهم المدينة أنهم كانوا يرتجزون:

غدًا نلقى الأحبة محمدًا وصحبه

وتقدم قول بلال. ومثله قال عمار قبل قتله. وما ذكرناه من قصة خالد بن معدان.

ومن علاماته مع كثرة ذكره تعظيمه له وتوقيره عند ذكره، وإظهار الخشوع والانكسار مع سماع اسمه.

قال إسحاق التُّجَيبي: كان أصحاب النبي ﷺ بعده لا يذكرونه إلا خشعوا واقشعرت جلودهم وبكوا.

وكذلك كثير من التابعين منهم من يفعل ذلك محبة له وشوقًا إليه؛ ومنه من يفعله تهيبًا وتوقيرًا.

ومنها محبته لمن أحب النبي ﷺ، ومن هو بسببه من آل بيته وصحابته من المهاجرين والأنصار؛ وعداوة من عاداهم، وبغض من أبغضهم وسبهم؛ فمن أحب شيئًا أحب من يحبه.

وقد قال النبي ﷺ في الحسن والحسين: **«اللهم إني أحبهما فأحبهما»**[٢].

وفي رواية ـ في الحسن ـ: **«اللهم إني أحبه فأحب من يحبه»**[٣]. وقال: **«من أحبهما**

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٧٨٠).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٧٤٧).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٤٩)، ومسلم (٢٤٢٢).

فقد أحبني ومن أحبني فقد أحب الله، ومن أبغضهما فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله»[١].

وقال: «الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضًا بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»[٢].

وقال في فاطمة ـ رضي الله عنها ـ: «إنها بضعة مني، يغضبني ما أغضبها»[٣].

وقال لعائشة ـ في أسامة بن زيد ـ: «أحبيه فإني أحبه»[٤].

وقال: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغضهم»[٥].

وفي حديث ابن عمر: «من أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم»، فبالحقيقة من أحب شيئًا أحب كل شيء يحبه[٦]. وهذه سيرة السلف حتى في المباحات وشهوات النفس.

وقد قال أنس حين رأى النبي ﷺ يتتبع الدُّبَّاء من حوالي القصعة: فما زلت أحب الدباء من يومئذٍ[٧].

وهذا الحسن بن عليّ وعبد الله بن عباس وابن جعفر أتوا سلمى وسألوها أن تصنع لهم طعامًا مما كان يعجب رسول الله ﷺ.

وكان ابن عمر يلبس النعال السبتية، ويصبغ بالصفرة؛ إذ رأى النبي ﷺ يفعل نحو ذلك[٨].

ومنها بغض من أبغض الله ورسوله، ومعاداة من عاداه، ومجانبة من خالف سنته وابتدع في دينه، واستثقاله كل أمر يخالف شريعته؛ قال الله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٢٨٨، ٤٤٠)، من حديث أبي هريرة، ولبعضه شواهد.
(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٨٦٢)، وأحمد (٤/ ٨٧)، (٥/ ٥٤، ٥٧)، وابن أبي عاصم في السنة (٩٩٢) وضعفه الألباني رحمه الله في تخريج السنة، والسلسلة الضعيفة (٢٩٠١).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣٧٦٧).
(٤) صحيح: أخرجه الترمذي (٣١٣٨)، وابن حبان (٧٠٥٨)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (٣٠٠١).
(٥) صحيح: أخرجه البخاري (١٧)، ومسلم (١٢٨).
(٦) منكر: ذكره الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة (٣٣٨).
(٧) صحيح: أخرجه البخاري (٥٤٣٣)، ومسلم (٢٠٤١).
(٨) صحيح: أخرجه البخاري (٥٨٥١)، ومسلم (١١٨٧).

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وهؤلاء أصحابه ﷺ قد قتلوا أحباءهم، وقاتلوا آباءهم وأبناءهم في مرضاته. وقال له عبد الله بن عبد الله بن أبي: لو شئت لأتيتك برأسه - يعني أباه.

ومنها أن يحب القرآن الذي أتى به ﷺ، وهدى به واهتدى، وتخلق به حتى قالت عائشة - رضي الله عنها -: كان خلقه القرآن[1].

وحبه للقرآن تلاوته، والعمل به وتفهمه ويحب سنته ويقف عند حدودها.

وقال سهل بن عبد الله: علامة حب الله حب القرآن؛ وعلامة حب القرآن حب النبي ﷺ، وعلامة حب النبي ﷺ حب السنة، وعلامة حب السنة حب الآخرة، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا ألا يدخر منها إلا زادًا وبلغة إلى الآخرة.

وقال ابن مسعود: لا يسأل أحد عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله ورسوله.

ومن علامات حبه للنبي ﷺ شفقته على أمته ونصحه لهم، وسعيه في مصالحهم ورفع المضار عنهم؛ كما كان رسول الله ﷺ بالمؤمنين رءوفًا رحيمًا.

ومن علامة تمام محبته زهد مدعيها في الدنيا وإيثاره الفقر، واتصافه به.

وقد قال ﷺ لأبي سعيد الخدري: «إن الفقر إلى من يحبني منكم أسرع من السيل من أعلى الوادي، أو الجبل إلى أسفله»[2].

وفي حديث عبد الله بن مغفل: قال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله؛ إني أحبك. فقال: «انظر ما تقول». قال: والله إني أحبك - ثلاث مرات. قال: «إن كنت تحبني فأعد للفقر تجفافًا»[3]. ثم ذكر نحو حديث أبي سعيد بمعناه.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٤٦).

(٢) حسن لغيره: أخرجه أحمد (٣/ ٤٢)، والبيهقي في الشعب (١٤٧٣، ١٠٤٤٢) مرسلاً. ويشهد له ما بعده.

(٣) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٣٥٠)، والحاكم (٤/ ٣٦٧)، وضعفه - بهذا اللفظ - الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٢٩٢٢)، وحسنه في صحيح الجامع (١٥٩٢) بلفظ: «إن البلايا أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه».

الفصل الخامس

في معنى المحبة للنبي ﷺ وحقيقتها

اختلف الناس في تفسير محبة الله ومحبة النبي ﷺ، وكثرت عباراتهم في ذلك؛ وليست ترجع بالحقيقة إلى اختلاف مقال، ولكنها اختلاف أحوال:

فقال سفيان: المحبة اتباع الرسول ﷺ ـ كأنه التفت إلى قوله تعالى: : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال بعضهم: محبة الرسول اعتقاد نصرته، والذب عن سنته، والانقياد لها، وهيبة مخالفته.

وقال بعضهم: المحبة دوام الذكر للمحبوب.

وقال آخر: إيثار المحبوب.

وقال بعضهم: المحبة الشوق إلى المحبوب.

وقال بعضهم: المحبة مواطأة القلب لمراد الرب؛ يحب ما أحب، ويكره ما كره.

وقال آخر: المحبة ميل القلب إلى موافق له.

وأكثر العبارات المتقدمة إشارة إلى ثمرات المحبة دون حقيقتها.

وحقيقة المحبة الميل إلى ما يوافق الإنسان. وتكون موافقته له إما لاستلذاذه بإدراكه كحب الصور الجميلة، والأصوات الحسنة، والأطعمة والأشربة اللذيذة، وأشباهها مما كل طبع سليم مائل إليها لموافقتها له، أو لاستلذاذه بإدراكه بحاسة عقله وقلبه معاني باطنة شريفة كمحبة الصالحين والعلماء وأهل المعروف، والمأثور عنهم السير الجميلة والأفعال الحسنة؛ فإن طبع الإنسان مائل إلى الشغف بأمثال هؤلاء حتى يبلغ التعصب بقوم لقوم، والتشيع من أمة في آخرين ما يؤدي إلى الجلاء عن الأوطان، وهتك الحرم واحترام النفوس؛ أو يكون حبه إياه لموافقته له من جهة إحسانه له وإنعامه عليه؛ فقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها.

فإذا تقرر لك هذا نظرت هذه الأسباب كلها في حقه ﷺ فعلمت أنه ﷺ جامع لهذه المعاني الثلاثة الموجبة للمحبة.

أما جمال الصورة والظاهر وكمال الأخلاق والباطن، فقد قررنا منها قبل فيما مر في

الكتاب ما لا يحتاج إلى زيادة.

وأما إحسانه وإنعامه على أمته فكذلك قد مر منه في أوصاف الله تعالى له من رأفته بهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، وشفقته عليهم، واستنقاذهم به من النار، وأنه بالمؤمنين رءوف رحيم، ورحمة للعالمين، ومبشراً ونذيراً، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، ويتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويهديهم إلى صراط مستقيم.

فأي إحسان أجل قدراً، وأعظم خطرًا من إحسانه إلى جميع المؤمنين؟ وأي إفضال أعم منفعة وأكثر فائدة من إنعامه على كافة المسلمين؛ إذ كان ذريعتهم إلى الهداية، ومنقذهم من العماية، وداعيهم إلى الفلاح والكرامة، ووسيلتهم إلى ربهم، وشفيعهم والمتكلم عنهم، والشاهد لهم، والموجب لهم البقاء الدائم والنعيم السرمد.

فقد استبان لك أنه ﷺ مستوجب للمحبة الحقيقية شرعًا بما قدمناه من صحيح الآثار، وعادة وجبلة بما ذكرناه آنفًا، لإفاضته الإحسان، وعمومه الإجمال، فإذا كان الإنسان يحب من منحه في دنياه مرة أو مرتين معروفًا، أو استنقذه من هلكة أو مضرة مدة التأذي بها قليل منقطع فمن منحه ما لا يبيد من النعيم ووقاه ما لا يفنى من عذاب الجحيم أولى بالحب.

وإذا كا ن يحب بالطبع ملك لحسن سيرته، أو حاكم لما يؤثر من قوام طريقته، أو قاص بعيد الدار لما يشاد من علمه أو كرم شيمته، فمن جمع هذ الخصال على غاية مراتب الكمال أحق بالحب، وأولى بالميل.

وقد قال عليّ - رضي الله عنه - في صفته ﷺ: من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه.

وذكرنا عن بعض الصحابة أنه كان لا يصرف بصره عنه محبة فيه.

الفصل السادس

في وجوب مناصحته ﷺ

قال الله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١].

قال أهل التفسير: ﴿إذا نصحوا لله ورسوله﴾ [التوبة: ٩١]: إذا كانوا مخلصين مسلمين في السر والعلانية.

حدثنا القاضي الفقيه أبو الوليد بقراءتي عليه، حدثنا حسين بن محمد، حدثنا يوسف ابن عبد الله، حدثنا ابن عبد المؤمن، حدثنا أبو بكر التمار، حدثنا أبو داود، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا سهيل بن أبي صالح، عن عطاء بن يزيد، عن تميم الداري؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الدين النصيحة. إن الدين النصحية. إن الدين النصيحة»** قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: **«لله ولكتابه ولرسوله، وأئمة المسلمين وعامتهم»**.

قال أئمتنا: النصيحة لله ولرسوله وأئمة المسلمين وعامتهم واجبة[1].

قال الإمام أبو سليمان البستي: النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة إرادة الخير للمنصوح له؛ وليس يمكن أن يعبر عنها بكلمة واحدة تحصرها. ومعناها في اللغة الإخلاص؛ من قولهم: نصحت العسل، إذا خلصته من شمعه.

وقال أبو بكر بن إسحاق الخفاف: النصح فعل الشيء الذي به الصلاح والملاءمة، مأخوذ من النصاح؛ وهو الخيط الذي يخاط به الثوب. وقال أبو إسحاق الزجاج نحوه.

فنصيحة الله تعالى صحة الاعتقاد له بالواحدنية، ووصفه بما هو أهله، وتنزيهه ما لا يجوز عليه، والرغبة في محابّه، والبعد عن مساخطه، والإخلاص في عبادته.

والنصيحة لكتابه: الإيمان به، والعمل بما فيه، وتحسين تلاوته، والتخشع عنده، والتعظيم له، وتفهمه والتفقه فيه، والذب عنه من تأويل الغالين، وطعن الملحدين.

والنصيحة لرسوله: التصديق بنبوته، وبذل الطاعة له في ما أمر به ونهى عنه؛ قاله أبو سليمان.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٥٥).

وقال أبو بكر: ومؤازرته ونصرته وحمايته حيًا وميتًا، وإحياء سنته بالطلب، والذب عنها، ونشرها، والتخلق بأخلاقه الكريمة وآدابه الجميلة.

وقال أبو إبراهيم إسحاق التجيبي: نصيحة رسول الله ﷺ التصديق بما جاء به والاعتصام بسنته ونشرها، والحض عليها، والدعوة إلى الله وإلى كتابه وإلى رسوله، وإليها وإلى العمل بها.

وقال أحمد بن محمد: من مفروضات القلوب اعتقاد النصيحة لرسول الله ﷺ.

وقال أبو بكر الآجري وغيره: النصح له يقتضي نصحين: نصحًا في حياته، ونصحًا بعد مماته، : ففي حياته نصح أصحابه له بالنصر والمحاماة عنه، ومعاداه من عاداه، والسمع والطاعة له، وبذل النفوس والأموال دونه؛ كما قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقال: ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

وأما نصيحة المسلمين له بعد وفاته فالتزام التوقير والإجلال، وشدة المحبة له، والمثابرة على تعلم سنته، والتفقه في شريعته؛ ومحبة آل بيته وأصحابه، ومجانبة من رغب عن سنته وانحرف عنها، وبغضه والتحذير منه، والشفقة على أمته، والبحث عن تعرف أخلاقه وسيره وآدابه، والصبر على ذلك.

فعلى ما ذكره تكون النصيحة إحدى ثمرات المحبة، وعلامة من علاماتها كما قدمنا.

وحكى الإمام أبو القاسم القشيري: أن عمرو بن الليث ـ أحد ملوك خراسان ومشاهير الثوار المعرف بالصفار ـ رُئي في النوم، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، فقيل: بماذا؟ قال: صعدت ذروة جبل يومًا، فأشرفت على جنودي، فأعجبتني كثرتهم، فتمنيت أني حضرت رسول الله ﷺ فأعنته ونصرته؛ فشكر الله لي ذلك وغفر لي.

وأما النصح لأئمة المسلمين فطاعتهم في الحق، ومعونتهم فيه، وأمرهم به، وتذكيرهم إياه على أحسن وجه وتنبيههم على ما غفلوا عنه وكُتم عنهم من أمور المسلمين، وترك الخروج عليهم، وتضريب الناس وإفساد قلوبهم عليهم.

والنصح لعامة المسلمين إرشادهم إلى مصالحهم، ومعونتهم في أمر دينهم ودنياهم بالقول والفعل، وتنبيه غافلهم، وتبصير جاهلهم، وَرَفْدُ محتاجهم، وستر عوراتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع إليهم.

الباب الثالث

الفصل الأول

في تعظيم أمره ووجوب توقيره وبره

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١]

و: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٢-٤].

وقال تعالى: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً﴾ [النور: ٦٣].

فأوجب الله تعالى تعزيره وتوقيره، وألزم إكرامه وتعظيمه.

قال ابن عباس: ﴿تُعَزِّرُوهُ﴾: تجلوه.

وقال المبرد: ﴿تُعَزِّرُوهُ﴾: تبالغوا في تعظيمه.

وقال الأخفش: تنصرونه.

وقال الطبري: تعينونه.

وقرئ: تعززوه - بزايين - من العز.

ونهى عن التقدم بين يديه بالقول؛ وسوء الأدب بسبقه بالكلام، على قول ابن عباس وغيره؛ وهو اختيار ثعلب.

قال سهل بن عبد الله: لا تقولوا قبل أن يقول؛ وإذا قال فاستمعوا له وأنصتوا.

ونُهو عن التقدم والتعجل بقضاء أمر قبل قضائه فيه؛ وأن يَفتاتوا بشيء في ذلك من قتال أو غيره من أمر دينهم إلا بأمره، ولا يسبقوه به.

وإلى هذا يرجع قول الحسن ومجاهد والضحاك والسدي والثوري.

ثم وعظهم وحذرهم مخالفة ذلك، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

[الحجرات: ١]. قال الماوردي: اتقوه ـ يعني في التقدم.

وقال السلمي: اتقوا الله في إهمال حقه وتضييع حرمته، إنه سميع لقولكم، عليم بفعلكم. ثم نهاهم عن رفع الصوت فوق صوته، والجهر له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض ويرفع صوته. وقيل: كما ينادي بعضهم بعضاً باسمه.

قال أبو محمد مكي: أي: لا تسابقوه بالكلام، وتغلظوا له بالخطاب، ولا تنادوه باسمه نداء بعضكم بعضاً؛ ولكن عظموه ووقروه ونادوه بأشرف ما يحب أن ينادىٰ به: يا رسول الله، يا نبي الله.

وهذا كقوله في الآية الأخرىٰ: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]. علىٰ أحد التأويلين. وقال غيره: لا تخاطبوه إلا مستفهمين.

ثم خوفهم الله تعالىٰ بحبط أعمالهم إن هم فعلوا ذلك، وحذرهم منه.

قيل: نزلت الآية في وفد بني تميم ـ وقيل في غيرهم ـ؛ أتوا النبي ﷺ فنادوه: يا محمد، يا محمد، اخرج إلينا، فذمهم الله تعالىٰ بالجهل، ووصفهم بأن أكثرهم لا يعقلون.

وقيل: نزلت الآية الأولىٰ في محاورة كانت بين أبي بكر وعمر بين يدي النبي ﷺ، واختلاف جرىٰ بينهما، حتىٰ ارتفعت أصواتهما.

وقيل: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس خطيب النبي ﷺ في مفاخرة بني تميم، وكان في أذنيه صمم؛ فكان يرفع صوته، فلما نزلت هذه الآية أقام في منزله، وخشي أن يكون حبط عمله، ثم أتىٰ النبي ﷺ فقال: يا نبي الله، لقد خشيت أن أكون هلكت؛ نهانا الله أن نجهر بالقول وأنا امرؤ جهير الصوت.

فقال النبي ﷺ «يا ثابت؛ أما ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟!» فقتل يوم اليمامة. وروي أن أبا بكر لما نزلت هذه الآية قال: والله يا رسول الله، لا أكلمك بعدها إلا كأخي السِّرَارِ. وأن عمر كان إذا حدثه حدثه كأخي السرار؛ ما كان يُسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتىٰ يستفهمه؛ فأنزل الله تعالىٰ فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣]. وقيل: نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ...﴾ [الحجرات: ٤]. في غير بني تميم نادوه باسمه.

وروىٰ صفوان بن عسال: بينا النبي ﷺ في سفر إذ ناداه أعرابي بصوت له جهوري: أيا محمد. أيا محمد. فقلنا له: اغضض من صوتك؛ فإنك قد نهيت عن رفع الصوت.

وقال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا .... ﴾ [البقرة: ١٠٤]. قال بعض المفسرين: هي لغةٌ كانت في الأنصار؛ نهوا عن قولها تعظيمًا للنبي ﷺ، وتبجيلاً له، لأن معناها: ارعنا نرعك؛ فنهوا عن قولها؛ إذ مقتضاها كأنهم لا يرعونه إلا برعايته لهم؛ بل حقه أن يُرعى على كل حال.

وقيل: كانت اليهود تعرض بها للنبي ﷺ بالرعونة فنهي المسلمون عن قولها؛ قطعًا للذريعة ومنعًا للتشبه بهم في قولها، لمشاركة اللفظة. وقيل غير هذا.

الفصل الثاني

في عادة الصحابة في تعظيمه ﷺ وتوقيره وإجلاله

حدثنا القاضي أبوعليّ الصدفي، وأبو بحر الأسدي بسماعي عليهما في آخرين؛ قالوا: حدثنا أحمد بن عمر، حدثنا أحمد بن الحسن، حدثنا محمد بن عيسى، حدثنا إبراهيم بن سفيان، حدثنا مسلم، حدثنا محمد بن مثنى، وأبو معن الرقاشي، وإسحاق بن منصور؛ قالوا: حدثنا الضحاك بن مخلد، أخبرنا حيوة بن شريح، حدثنا يزيد بن أبي حبيب، عن ابن شماسة المهري، قال: حضرنا عمرو بن العاص..

فذكر حديثًا طويلاً فيه عن عمرو، قال: وما كان أحد أحب إليّ من رسول الله ﷺ، ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له؛ ولو سئلت أن أصفه ما أطقت؛ لأني لم أكن أملأ عيني منه[1].

وروى الترمذي، عن أنس: أن رسول الله ﷺ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس، وفيهم أبو بكر وعمر؛ فلا يرفع أحد منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر؛ فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما، ويتبسمان إليه ويتبسم لهما[2].

وروى أسامة بن شريك؛ قال: أتيت النبي ﷺ وأصحابه حوله كأنما على رءوسهم الطير[3].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٢١).

(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٦٦٨)، وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث الحكم بن عطية، وقد تكلم بعضهم في الحكم بن عطية.

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٨٥٥)، وأحمد (٤/ ٢٧٨)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢٩٣٠).

وفي حديث صفته: إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير[١].

وقال عروة بن مسعود حين وجهته قريش عام القضية إلى رسول الله ﷺ، ورأى من تعظيم أصحابه له ما رأى، وأنه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، وكادوا يقتتلون عليه، ولا يبصق بصاقًا، ولا يتنخم نخامة إلا تلقوها بأكفهم فدلكوا بها وجوههم وأجسادهم؛ ولا تسقط منه شعرة إلا ابتدروها؛ وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره؛ وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له. فلما رجع إلى قريش قال: يا معشر قريش؛ إني جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه؛ وإني والله ما رأيت ملكًا في قوم قط مثل محمدٍ في أصحابه.

وفي رواية: إن رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه مايعظم محمداً أصحابه، وقد رأيت قومًا لا يسلمونه أبدًا.

وعن أنس: لقد رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه، وقد أطاف به أصحابه، فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل. ومن هذا لما أذنت قريش لعثمان في الطواف بالبيت حين وجهه النبي ﷺ إليهم في القضية أبى وقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ.

وفي حديث طلحة: إن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لأعرابي جاهل: سله عمن قضى نحبه - وكانوا يهابونه ويوقرونه - فسأله فأعرض عنه، إذ طلع طلحة فقال رسول الله ﷺ: **«هذا ممن قضى نحبه»**[٢].

وفي حديث قَيْلة: فلما رأيت رسول الله ﷺ جالسًا القرفصاء أرعدت من الفرق. وذلك هيبة له وتعظيمًا[٣].

وفي حديث المغيرة: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقرعون بابه بالأظافير[٤].

وقال البراء بن عازب: لقد كنت أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن الأمر فأؤخره سنين من هيبته.

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ٤٢٤)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ١٥٨)، والبيهقي في الشعب (١٤٣٠).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٧٤٢) وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٩٩٨).

(٣) حسن لشواهده: أخرجه أبو داود (٤٨٤٧)، والبخاري في الأدب المفرد (١١٧٨)، وذكره الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٢١٢٤).

(٤) أخرجه الحاكم في معرفة علوم الحديث (ص١٩)، والبيهقي في المدخل (٦٥٩).

الفصل الثالث

في تعظيم النبي ﷺ بعد موته

واعلم أن حرمة النبي ﷺ بعد موته وتوقيره وتعظيمه لازم كما كان حال حياته؛ وذلك عند ذكره ﷺ وذكر حديثه وسنته، وسماع اسمه وسيرته، ومعاملة آله وعترته وتعظيم أهل بيته وصحابته. وقال أبو إبراهيم التجيبي: واجب على كل مؤمن متى ذكره أو ذكر عنده أن يخضع ويخشع ويتوقر ويسكن من حركته، ويأخذ في هيبته وإجلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه، ويتأدب بما أدبنا الله به.

قال القاضي أبو الفضل: وهذه كانت سيرة سلفنا الصالح وأئمتنا الماضين رضي الله عنهم. حدثنا القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الأشعري، وأبو القاسم أحمد ابن بقي الحاكم، وغير واحد، فيما أجازونيه؛ قالوا: أنبأنا أبو العباس أحمد بن عمر بن دلهاث، قال: حدثنا أبو الحسن عليّ بن فهر، حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن الفرج، حدثنا أبو الحسن عبد الله بن المنتاب، حدثنا يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل، حدثنا ابن حميد قال: ناظر أبو جعفر - أميرُ المؤمنين - مالكًا في مسجد رسول الله ﷺ فقال له مالك: يا أمير المؤمنين؛ لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله تعالى أدب قومًا فقال: ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

ومدح قومًا فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣]. وذم قومًا فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤]. وإن حرمته ميتًا كحرمته حيًا. فاستكان لها أبو جعفر، وقال: يا أبا عبد الله، أأستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله ﷺ؟ فقال: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به، فيشفعه الله؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤](١).

---

(١) لا يصح هذا عن مالك رحمه الله، وفي تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد: «قال ابن القيم: . . وأما المجيء إلى قبره والاستغفار عنده والاستشفاع به والاستدلال بالآية على ذلك فهو استدلال =

وقال مالك - وقد سئل عن أيوب السختياني - : ما حدثتكم عن أحد إلا وأيوب أفضل منه . وقال : وحج حجتين ، فكنت أرمقه ولا أسمع منه ، غير أنه كان إذا ذكر النبي ﷺ بكى حتى أرحمه فلما رأيت منه ما رأيت وإجلاله للنبي ﷺ كتبت عنه .

وقال مصعب بن عبد الله : كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه ، وينحني حتى يصعب ذلك على جلسائه ؛ فقيل له يومًا في ذلك فقال : لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم عليّ ما ترون ؛ ولقد كنت أرى محمد بن المنكدر - وكان سيد القراء - لا نكاد نسأله عن حديث أبدًا إلا يبكي حتى نرحمه . ولقد كنت أرى جعفر بن محمد الصادق وكان كثير الدعابة والتبسم فإذا ذكر عنده النبي ﷺ اصفر ، وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة . وقد اختلفت إليه زمانًا فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال : إما مصليًا وإما صامتًا وإما يقرأ القرآن ولا يتكلم فيما لا يعنيه ؛ وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله عز وجل . ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي ﷺ فينظر إلى لونه كأنه نزف منه الدم ، وقد جف لسانه في فمه هيبة منه لرسول الله ﷺ . ولقد كنت آتي عامر بن عبد الله بن الزبير فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع . ولقد رأيت الزهري وكان من أهنأ الناس وأقربهم ، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ فكأنه ما عرفك ولا عرفته . ولقد كنت آتي صفوان بن سليم ، وكان من المتعبدين المجتهدين ؛ فإذا ذكر النبي ﷺ بكى ، فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه . وروي عن قتادة أنه كان إذا سمع الحديث أخذه العويل والزويل . ولما كثر على مالك الناس قيل له : لو جعلت مستمليًا يُسمعهم ، فقال : قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] . وحرمته حيًا وميتًا سواء . وكان ابن سيرين ربما يضحك ؛ فإذا ذكر عنده حديث النبي ﷺ خشع .

وكان عبد الرحمن بن مهدي إذا قرأ حديث النبي ﷺ أمرهم بالسكوت ؛ وقال : ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] يتأول أنه يجب له من الإنصات عند قراءة حديثه ما يجب له عند سماع قوله .

= على ما لا تدل الآية عليه بوجه من وجوه الدلالة ، لأنه ليس في الآية إلا المجيء إليه ﷺ لا المجيء إلى قبره واستغفاره لهم لاستشفاعهم به بعد موته فعُلم أن ذلك باطل ، يوضح ذلك : أن الصحابة الذين هم أعلم الناس بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ما فهموا هذا من الآية ، فعلم أن ذلك بدعة ، وأكثر ما استدل به من أجاز ذلك رواية العتبي عن أعرابي مجهول ، على أن القصة لا نعلم لها إسنادًا ، ومثل هذا لو كان حديثًا أو أثرًا عن صحابي لم يجز الاحتجاج به ، ولم يلزمنا حكمه لعدم صحته ، فكيف يجوز الاحتجاج في هذا بقصة لا تصح عن بدوي لا يعرف . اهـ .

الفصل الرابع

في سيرة السلف في تعظيم رواية حديث رسول الله ﷺ وسنته

حدثنا الحسين بن محمد الحافظ، حدثنا أبو الفضل بن خَيْرُون، حدثنا أبو بكر البرقاني وغيره، وحدثنا أبو الحسن الدارقطني، حدثنا أحمد بن سنان القطان، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا المسعودي، عن مسلم البطين، عن عمرو بن ميمون؛ قال: اختلفت إلى ابن مسعود سنة فما سمعته يقول: قال رسول الله ﷺ، إلا أنه حدث يومًا فجرى على لسانه: قال رسول الله ﷺ، ثم علاه كرب، حتى رأيت العرق يتحدَّر عن جبهته، ثم قال: هكذا إن شاء الله، أو فوق ذا، أو ما دون ذا، أو ما هو قريب من ذا.

وفي رواية: فتربَّد وجهه.

وفي رواية: وقد تغرغرت عيناه، وانتفخت أوداجُه.

وقال إبراهيم بن عبد الله بن قُرَيم الأنصاري قاضي المدينة: مر مالك بن أنس على أبي حازم، وهو يحدث، فجازه، وقال: إني لم أجد موضعًا أجلس فيه، فكرهت أن آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم.

وقال مالك: جاء رجلٌ إلى ابن المسيب، فسأله عن حديث وهو مضطجع، فجلس وحدثه؛ فقال له الرجل: وددت أنك لم تتعن، فقال: إني كرهت أن أحدثك عن رسول الله ﷺ وأنا مضطجع.

وروي عن محمد بن سيرين أنه قد يكون يضحك، فإذا ذكر عنده حديث النبي ﷺ خشع.

وقال أبو مصعب: كان مالك بن أنس لا يحدث بحديث رسول الله ﷺ إلا وهو على وضوء، إجلالاً له.

وحكى مالك ذلك عن جعفر بن محمد.

وقال مصعب بن عبد الله: كان مالك بن أنس إذا حدث عن رسول الله ﷺ توضأ وتهيأ، ولبس ثيابه، ثم يحدث.

قال مصعب: فسئل عن ذلك، فقال: إنه حديث رسول الله ﷺ.

قال مُطرف: كان إذا أتى الناس مالكًا خرجت إليهم الجارية فتقول لهم: يقول لكم الشيخ: تريدون الحديث أو المسائل؟ فإن قالوا: «المسائل» خرج إليهم، وإن قالوا: «الحديث» دخل مغتسله، واغتسل وتطيب، ولبس ثيابًا جددًا، ولبس ساجه وتعمم ووضع على رأسه رداءه، وتُلْقى له منصة؛ فيخرج فيجلس عليها وعليه الخشوع، ولا يزال يبخر بالعود حتى يفرغ من حديث رسول الله ﷺ.

قال غيره: ولم يكن يجلس على تلك المنصة إلا إذا حدث عن رسول الله ﷺ. قال ابن أبي أويس: فقيل لمالك في ذلك، فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ ولا أحدث به إلا عن طهارة متمكنًا.

قال: وكان يكره أن يحدث في الطريق، أو هو قائم، أو مستعجل.

وقال: أحب أن أُفهِّم حديث رسول الله ﷺ.

قال ضرار بن مرة: كانوا يكرهون أن يحدثوا بحديث على غير وضوء.

ونحوه عن قتادة.

وكان الأعمش إذا حدث وهو على غير وضوء تيمم.

وكان قتادة لا يحدث إلا على طهارة، ولا يقرأ حديث النبي ﷺ إلا على وضوء.

قال عبد الله بن المبارك: كنت عند مالك، وهو يحدثنا، فلدغته عقرب ست عشرة مرة، وهو يتغير لونه ويصفر و لا يقطع حديث رسول الله ﷺ. فلما فرغ من المجلس، وتفرق الناس عنه قلت له: يا أبا عبد الله؛ لقد رأيت اليوم منك عجبًا، قال: نعم؛ لدغتني عقرب ست عشرة مرة، وأنا صابر في جميع ذلك وإنما صبرت إجلالاً لحديث رسول الله ﷺ.

قال ابن مهدي: مشيت يومًا مع مالك إلى العقيق، فسألته عن حديث، فانتهرني وقال لي: كنت في عيني أجل من أن تسأل عن حديث رسول الله ﷺ ونحن نمشي.

وسأله جرير بن عبد الحميد القاضي عن حديث وهو قائم، فأمر بحبسه، فقيل له: إنه قاض. قال: القاضي أحق من أُدِّب.

وذكر أن هشام بن الغازي سأل مالكًا عن حديث وهو واقف فضربه عشرين سوطًا، ثم أشفق عليه، فحدثه عشرين حديثًا، فقال هشام: وددت لو زادني سياطًا ويزيدني حديثًا.

قال عبد الله بن صالح: كان مالك والليث لا يكتبان الحديث إلا وهما طاهران.

وكان قتادة يستحب ألا تقرأ أحاديث النبي إلا على وضوء ولا يحدث إلا على طهارة.

وكان الأعمش إذا أراد أن يحدث وهو على غير وضوء تيمم.

الفصل الخامس

في توقيره، وبر آله، وذريته، وأمهات المؤمنين أزواجه

ومن توقيره ﷺ وبره وبر آله وذريته وأمهات المؤمنين أزواجه، كما حض عليه ﷺ، وسلكه السلف الصالح ـ رضي الله عنهم ـ.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] وقال تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]

أخبرنا الشيخ أبو محمد بن أحمد العَدْل من كتابه، وكتبت من أصله: حدثنا أبو الحسن المقرئ الفرغاني، حدثتني أم القاسم بنت الشيخ أبي بكر الخفاف، قالت: حدثني أبي، حدثنا حاتم ـ هو ابن عقيل ـ حدثنا يحيى ـ هو ابن إسماعيل ـ حدثنا يحيى ـ هو الحماني ـ، حدثنا وكيع، عن أبيه، عن سعيد بن مسروق، عن يزيد بن حيان، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أنشدكم الله أهل بيتي... ثلاثًا». قلنا لزيد: من أهل بيته؟ قال: آل عليّ، وآل جعفر، وآل عقيل، وآل العباس[1].

وقال ﷺ: **«إني تارك فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي؛ فانظروا كيف تخلفوني فيهما»**[2].

وقال ﷺ: **«معرفة آل محمد ﷺ براءة من النار، وحب آل محمد جواز على الصراط، والولاية لآل محمد أمانٌ من العذاب»**[3].

قال بعض العلماء: معرفتهم هي معرفة مكانهم من النبي ﷺ، وإذا عرفهم بذلك عرف وجوب حقهم وحرمتهم بسببه. وعن عمر بن أبي سلمة: لما نزلت: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]. ـ وذلك في بيت أم سلمة ـ دعا فاطمة وحسنًا وحُسينًا، فجللهم بكساء، وعليّ خلف ظهره فجلله بكسائه، ثم

---

(١) أصله في صحيح مسلم (٢٤٠٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٨٦)، والحاكم (٣/ ١١٨)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢٤٥٨).

(٣) لم أقف عليه، وعلامات التشيع ظاهرة عليه، وإن كان حُب النبي ﷺ وآله من الإيمان، بل لا تخلو صلاة من الصلاة على النبي ﷺ وآله، في التشهد. أما الغلو فيهم بالتوسل إليهم وبهم، والطواف حول قبورهم، ودعائهم من دون الله عز وجل، وغير ذلك، فهو من مظاهر الشرك، الذي يتبرأ منه الرسول ﷺ وآله بيته وسائر المسلمين.

قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي؛ فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً»(١).

وعن سعد بن أبي وقاص: لما نزلت آية المباهلة دعا النبيﷺ عليًا وحسنًا والحسين وفاطمة، وقال: «اللهم هؤلاء أهلي»(٢).

وقال النبيﷺ في عليّ: «من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه»(٣). وقال فيه: «لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق».

وقال للعباس: «والذي نفسي بيده، لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ورسوله، ومن آذى عمي فقد آذاني، وإنما عم الرجل صنو أبيه»(٤).

وقال للعباس: «اغدُ عليّ يا عم مع ولدك» فجمعهم وجللهم بملاءته، وقال: «هذا عمي وصنو أبي؛ وهؤلاء أهل بيتي؛ فاسترهم من النار كستري إياهم»؛ فأمَّنت أُسكُفة الباب وحوائط البيت: آمين. آمين. وكان يأخذ بيد أسامة بن زيد والحسن؛ ويقول: «اللهم إني أحبهما فأحبهما». وقال أبو بكر: ارقبوا محمداً في أهل بيته(٥).

وقال أيضًا: والذي نفسي بيده لقرابة رسول اللهﷺ أحب إليَّ أن أصل من قرابتي(٦).

وقالﷺ: «أحب الله من أحب حسنًا وحسينًا»(٧). وقال: «من أحبني وأحب هذين - وأشار إلى حسن وحسين - وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة».

وقالﷺ: «من أهان قريشًا أهانه الله»(٨).

قالﷺ: «قدِّموا قريشًا ولا تقدَّموها»(٩).

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٢٠٥، ٣٧٨٧)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (٢٥٦٢)، وأصله في مسلم (٢٤٢٤) من حديث عائشة، وفي الباب عن أنس وواثلة.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٣٢).

(٣) صحيح: أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ١٢٦)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٣٢، ١٣٤، ١٣٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٣٦٨)، وصححه الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٧٥٠) وقال: «وأما ما يذكره الشيعة في هذا الحديث وغيره أن النبي ﷺ قال في علي رضي الله عنه: إنه خليفتي من بعدي. فلا يصح بوجه من الوجوه، بل هو من أباطيلهم الكثيرة» اهـ.

(٤) ضعيف: ضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٥٠٣٣)، وضعيف ابن ماجه (٢٥)، والسلسلة الضعيفة (٤٤٣٠).

(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٣٧١٣، ٣٧٥١). (٦) صحيح: أخرجه البخاري (٣٧١٢).

(٧) روى الترمذي عن البراء أن النبي ﷺ أبصر حسنًا وحسينًا فقال: «اللهم إني أحبهما فأحبهما». وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (٢٩٧٦)، والصحيحة (٢٧٨٩).

(٨) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٦٤، ١٨٣) وابن أبي عاصم في السنة (١٥٠٥)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦١١٢).

(٩) صححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٤٣٨٢).

وقال ﷺ لأم سلمة: «لا تؤذيني في عائشة»

وعن عقبة بن الحارث: رأيت أبا بكر -رضي الله عنه-، وجعل الحسن على عنقه وهو يقول: بأبي شبيه بالنبي، ليس شبيهًا بعليّ -وعليّ رضي الله عنه يضحك[1].

وروي عن عبد الله بن حسن بن حسين؛ قال: أتيت عمر بن عبد العزيز في حاجة، فقال لي: إذا كان لك حاجة فأرسل إليّ أو اكتب؛ فإني أستحيي من الله أن يراك على بابي.

وعن الشعبي قال: صلى زيد بن ثابت على جنازة أمه، ثم قربت له بلغته ليركبها، فجاء ابن عباس فأخذ بركابه، فقال زيد: خل عنه يا بن عم رسول الله. فقال: هكذا نفعل بالعلماء. فقبل زيد يد ابن عباس وقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا.

ورأى ابنُ عمر محمدَ بن أسامة بن زيد، فقال: ليت هذا عبدي؛ فقيل له: هو محمد ابن أسامة، فطأطأ ابن عُمر رأسه، ونقر بيده الأرض، وقال: لو رآه رسول الله ﷺ لأحبه[2].

وقال الأوزاعي: دخلت بنت أسامة بن زيد صاحب رسول الله ﷺ على عمر بن عبد العزيز ومعها مولى لها يمسك بيدها، فقام لها عمر، ومشى إليها حتى جعل يدها بين يديه، ويداه في ثيابه، ومشى بها حتى أجلسها على مجلسه، وجلس بين يديها، وما ترك لها حاجة إلا قضاها.

ولما فرض عمر بن الخطاب لابنه عبد الله في ثلاثة آلاف، ولأسامة بن زيد في ثلاثة آلاف وخمسمائة قال عبد الله لأبيه: لم فضلته؛ فوالله ما سبقني إلى مشهد؟ فقال له: لأن زيدًا كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك، وأسامة أحب إليه منك؛ فآثرت حب رسول الله ﷺ على حبي.

وبلغ معاوية أن كابس بن ربيعة يُشبَّه برسول الله ﷺ؛ فلما دخل عليه من باب الدار قام عن سريره وتلقاه وقبل بين عينيه، وأقطعه المرغاب لشبهه صورة رسول الله ﷺ.

وروي أن مالكًا -رحمه الله- لما ضربه جعفر بن سليمان، ونال منه ما نال، وحمل مغشيًا عليه دخل عليه الناس فأفاق، فقال: أشهدكم أني جعلت ضاربي في حل. فسئل بعد ذلك، فقال: خفت أن أموت فألقى النبي ﷺ فأستحيي منه أن يدخل بعض آله النار

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٧٥٠).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٧٣٤).

بسببي. وقيل: إن المنصور أقاده من جعفر، فقال له: أعوذ بالله! والله ما ارتفع منها سوط عن جسمي إلا وقد جعلته في حل؛ لقرابته من رسول الله ﷺ.

وقال أبو بكر بن عياش: لو أتاني أبو بكر وعمر وعليّ لبدأت بحاجة عليّ قبلهما؛ لقرابته من رسول الله ﷺ ولأن أخرَّ من السماء إلى الأرض أحب إليّ من أن أقدمه عليهما. وقيل لابن عباس: ماتت فلانة - لبعض أزواج النبي ﷺ -، فسجد؛ فقيل له: أتسجد هذه الساعة؟ فقال: أليس قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم آية فاسجدوا»[1]، وأي آية أعظم من ذهاب أزواج النبي ﷺ؟! وكان أبو بكر وعمر يزوران أم أيمن مولاة النبي ﷺ ويقولان: كان رسول الله ﷺ يزورها. ولما وردت حليمة السعدية على النبي ﷺ بسط لها رداءه وقضى حاجتها؛ فلما توفي وفدت على أبي بكر وعمر فصنعا بها مثل ذلك.

الفصل السادس

من توقيره وبره توقير أصحابه وبرهم

ومن توقيره وبره ﷺ توقير أصحابه وبرهم ومعرفة حقهم، والاقتداء بهم، وحسن الثناء عليهم، والاستغفار لهم، والإمساك عما شجر بينهم، ومعاداة من عاداهم، والإضراب عن أخبار المؤرخين، وجهلة الرواة وضلال الشيعة والمبتدعين القادحة في أحد منهم؛ وأن يلتمس لهم في ما نقل عنهم من مثل ذلك فيما كان بينهم من الفتن أحسن التأويلات، ويخرج لهم أصوب المخارج؛ إذ هم أهل ذلك، ولا يذكر أحدٌ منهم بسوء، ولا يغمص عليه أمر؛ بل تذكر حسناتهم وفضائلهم وحميد سيرهم، ويسكت عما وراء ذلك؛ كما قال ﷺ: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا»[2].

قال الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

---

(١) صححه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (٣٠٥٤)، وصحيح أبي داود (١٠٨١).

(٢) صحيح: أخرجه الطبراني في الكبير (٢/٩٦، ١٠/١٩٨)، واللالكائي في الاعتقاد (٢١٠)، وصححه الألباني رحمه الله في الصحيحة (٣٤).

وقــال: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨].

وقـال: ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

حدثنا القاضي أبو عليّ، حدثنا أبو الحسين وأبـو الفضل، قالا: حدثنا أبو يعلى، حدثنا أبو عليّ السنجي، حدثنا محمد بن محبوب، حدثنا الترمذي، حدثنا الحسن بن الصباح، حدثنا سفيان بن عيينة، عن زائدة، عن عبد الملك بن عمير، عن ربعي بن حِراش، عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتدوا باللذَين من بعدي: أبي بكر وعمر»[١].

وقال: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»[٢].

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل أصحابي كمثل الملح في الطعام؛ لا يصلح الطعام إلا به»[٣].

وقـال: «الله الله في أصحابي؛ لا تتخذوهم غرضًا بعدي؛ فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»[٤].

وقال: «لا تسبوا أصحابي؛ فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[٥].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٦٢)، وابن ماجه (٩٧)، وأحمد (٥/ ٣٨٢، ٣٨٥، ٣٩٩، ٤٠٢).

(٢) موضوع: ذكره الذهبي في الميزان (٢/ ١٤١) في ترجمة جعفر بن الواحد الهاشمي، ونقل قول الدارقطني عنه: يضع الحديث، وقال أبو زرعة: روى أحاديث لا أصل لها، وذكر هذا الحديث من بلاياه، وانظر: التلخيص الحبير لابن حجر (٢٠٩٨)، والإحكام لابن حزم (٥/ ٦١).

(٣) ضعيف: أخرجه أبو يعلى في مسنده (٢٧٦٢)، وابن المبارك في الزهد (٥٧٢)، والطبراني في الكبير (٧/ ٢٦٨) وفي إسناده إسماعيل بن مسلم المكي وهو ضعيف، وكذلك هو مرسل عن الحسن.

(٤) ضعيف: تقدم، وهو في ضعيف الجامع (١١٦٠).

(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

وقال: «من سبَّ أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً»(١). وقال: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا».

وقال في حديث جابر: «إن الله اختار أصحابي على جميع العالمين سوى النبيين والمرسلين، واختار لي منهم أربعة: أبا بكر وعمر وعثمان وعليًا؛ فجعلهم خير أصحابي، وفي أصحابي كلهم خير»(٢).

وقال: «من أحب عمر فقد أحبني، ومن أبغض عمر فقد أبغضني»(٣).

وقال مالك بن أنس، وغيره: من أبغض الصحابة وسبهم فليس له في فيء المسلمين حق، ونزع بآية الحشر: ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٦-٧]. إلى قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

وقال: من غاظه أصحاب محمد فهو كافر؛ قال الله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال عبد الله بن المبارك: خصلتان من كانتا فيه نجا: الصدق، وحب أصحاب محمد ﷺ. قال أيوب السختياني: من أحب أبا بكر فقد أقام الدين، ومن أحب عمر فقد أوضح السبيل، ومن أحب عثمان فقد استضاء بنور الله، ومن أحب عليًا فقد أخذ بالعروة الوثقى، ومن أحسن الثناء على أصحاب محمد ﷺ فقد برئ من النفاق، ومن انتقص أحدًا منهم فهو مبتدع مخالف للسنة والسلف الصالح؛ وأخاف ألا يصعد له عمل إلى السماء حتى يحبهم جميعًا، ويكون قلبه سليمًا.

وفي حديث خالد بن سعيد أن النبي ﷺ قال: «أيها الناس، إني راض عن أبي بكر فاعرفوا له ذلك، أيها الناس، إني راض عن عمر وعن عليّ وعن عثمان وطلحة،

---

(١) حسنه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٢٨٥).

(٢) ضعيف: أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٣/ ١٦٢)، والذهبي في الميزان (٤/ ١٢٢)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٦).

(٣) ضعيف: أخرجه الطبراني في الأوسط (٧/ ١٨)، والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٥٦).

والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف؛ فاعرفوا لهم ذلك».

«أيها الناس؛ إن الله غفر لأهل بدر والحديبية، أيها الناس، احفظوني في أصحابي وأصهاري وأختاني، لا يطالبنكم أحدٌ منهم بمظلمة؛ فإنها مظلمة لا توهب في القيامة غداً»[1]. وقال رجلٌ للمعافى بن عمران: أين عمر بن عبد العزيز من معاوية؟ فغضب وقال: لا يقاس بأصحاب النبي ﷺ أحدٌ، معاوية صاحبه وصهره وكاتبه وأمينه على وحي الله. وأُتي النبي ﷺ بجنازة رجل فلم يصل عليه، وقال: «كان يبغض عثمان، فأبغضه الله»[2].

وقال ﷺ في الأنصار: «اعفوا عن مسيئهم، واقبلوا من محسنهم»[3].

وقال: «احفظوني في أصحابي وأصهاري؛ فإنه من حفظني فيهم حفظه الله في الدنيا والآخرة، ومن لم يحفظني فيهم تخلى الله منه، ومن تخلى الله منه يوشك أن يأخذه». وعنه ﷺ: «من حفظني في أصحابي كنت له حافظًا يوم القيامة»[4].

وقال: «من حفظني في أصحابي ورد عليَّ الحوض، ومن لم يحفظني في أصحابي لم يردْ على الحوض، ولم يرني إلا من بعيد»[5].

قال مالك ـ رحمه الله ـ: هذا النبي مؤدِّب الخلق الذي هدانا الله به، وجعله رحمة للعالمين، يخرج في جوف الليل إلى البقيع، فيدعو لهم ويستغفر كالمودع لهم؛ وبذلك أمره الله، وأُمر النبي بحبهم وموالاتهم، ومعاداة من عاداهم.

وروي عن كعب: ليس أحدٌ من أصحاب محمد ﷺ إلا له شفاعة يوم القيامة.

وطلب من المغيرة بن نوفل أن يشفع له يوم القيامة.

قال سهل بن عبد الله التستري: لم يؤمن بالرسول من لم يوقر أصحابه، ولم يُعز أوامره.

(١) ضعيف: أخرجه الطبراني في الكبير (٦/ ١٠٤)، وابن عدي في الكامل (٦/ ٥٩)، وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ١٥٧) وقال: «فيه جماعة لَم أعرفهم». اهـ.

(٢) ضعيف جداً: أخرجه الترمذي (٣٧٠٩)، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ومحمد بن زياد صاحب ميمون بن مهران ـ أحد رواته ـ ضعيف في الحديث جداً.

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣٧٩٩)، ومسلم (٢٥١٠).

(٤) ضعيف: أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١٧٣٣) عن عطاء بن أبي رباح مرسلاً.

(٥) ضعيف جداً: أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ٣٠٥) (١٠٢٥)، والكبير (١٢/ ٢٨٣)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٢٣) وقال: «فيه حبيب كاتب مالك وهو متروك».

الفصل السابع

ومن إعظامه وإكباره

ومن إعظامه وإكباره إعظام جميع أسبابه، وإكرام مشاهده وأمكنته من مكة والمدينة، ومعاهده، وما لمسه ﷺ أو عُرف به.

وروي عن صفية بنت نجدة؛ قالت: كان لأبي محذورة قصة في مُقدَّم رأسه إذا قعد وأرسلها أصابت الأرض، فقيل له: ألا تحلقها؟ فقال: لم أكن بالذي أحلقها وقد مسها رسول الله ﷺ بيده. وكانت في قلنسوة خالد بن الوليد شعرات من شعره ﷺ فسقطت قلنسوته في بعض حروبه، فشد عليها شدة أنكر عليه أصحاب النبي ﷺ كثرة من قتل فيها؛ فقال: لم أفعلها بسبب القلنسوة؛ بل لما تضمنته من شعره ﷺ لئلا أسلب بركتها وتقع في أيدي المشركين. ورئي ابن عمر واضعًا يده على مقعد النبي ﷺ من المنبر، ثم وضعها على وجهه. ولهذا كان مالك - رحمه الله - لا يركب بالمدينة دابة؛ وكان يقول: أستحيي من الله أن أطأ تربة فيها رسول الله ﷺ بحافر دابة. وروي عنه أنه وهب للشافعي كراعًا كثيرًا كان عنده، قال له الشافعي: أمسك منها دابة. فأجابه بمثل هذا الجواب. وقد حكى أبو عبد الرحمن السلمي عن أحمد بن فضلويه الزاهد - وكان من الغزاة الرماة أنه قال: ما مسست القوس بيدي إلا على طهارة منذ بلغني أن النبي ﷺ أخذ القوس بيده.

وقد أفتى مالك - فيمن قال: تربة المدينة رديةٌ - : يضرب ثلاثين درة وأمر بحبسه، وكان له قدر؛ وقال: ما أحوجه إلى ضرب عنقه! تربة دفن فيها النبي ﷺ يزعم أنها غير طيبة.

وفي «الصحيح» أنه قال ﷺ في المدينة: **«من أحدث فيها حدثًا أو آوى محدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً»**[1].

وحكي: أن جهجاهًا الغفاري أخذ قضيب النبي ﷺ من يد عثمان - رضي الله عنه -، وتناوله ليكسره على ركبته، فصاح به الناس فأخذته الآكلة في ركبته فقطعها ومات قبل الحول. وقال ﷺ: **«من حلف على منبري كاذبًا فليتبوأ مقعده من النار»**[2].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٨٧٠، ٣١٨٠، ٦٧٥٥، ٧٣٠٦)، ومسلم (١٣٦٦، ١٣٧٠).

(٢) صحيح: أخرجه مالك في الموطأ (١٤٠٨)، ومن طريقه: الشافعي في السنن المأثورة (٥٤٤)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٩١)، وغيرهما، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٢٠٥).

وحدثت أن أبا الفضل الجوهري لما ورد المدينة زائراً وقرب من بيوتها ترجل ومشي باكياً منشداً:

ولما رأينا رسم من لم يَدَعْ لنا ... فؤاداً لعرفان الرسوم ولا لبَّا
نزلنا عن الأكوار نمشي كرامةً ... لمن بان عنه أن نُلِمَّ به ركْبَا

وحكي عن بعض المريدين أنه لما أشرفَ على مدينة الرسول ﷺ أنشأ يقول متمثلاً:

رُفع الحجاب لنا فلاح لناظر ... قمر تقطع دونه الأوهامُ
وإذا المطي بنا بلغن محمداً ... فظهورهن على الرحال حرامُ
قربننا من خير من وطئ الثرى ... فلها علينا حرمة وذمامُ

وحكي عن بعض المشايخ أنه حج ماشياً؛ فقيل له في ذلك، فقال: العبد الآبق لا يأتي إلى بيت مولاه راكباً! لو قدرت أن أمشي على رأسي ما مشيتُ على قدمي.

قال القاضي: وجدير لَمواطن عمرت بالوحي والتنزيل، وتردد بها جبريل وميكائيل، وعرجت منها الملائكة والروح، وضجت عرصاتها بالتقديس والتسبيح، واشتملت تربتها على جسد سيد البشر، وانتشر عنها من دين الله وسنة رسوله ما انتشر، مدارسُ آياتٍ، ومساجد وصلوات، ومشاهد الفضائل والخيرات، ومعاهد البراهين والمعجزات، ومناسك الدين، ومشاعر المسلمين، ومواقف سيد المرسلين، ومتبوأ خاتم النبيين، حيث انفجرت النبوة، وأين فاض عبابها، ومواطن طويت فيها الرسالة؛ وأول أرض مس جلد المصطفى ترابها أن تعظم عرصاتها تُتنسم نفحاتها، وتقبّل ربوعها وجدرانها:

يا دار خير المرسلين ومن به ... هُدي الأنام وخص بالآيات
عندي لأجلك لوعة وصبابة ... وتشوُّق متوقد الجمرات
وعليّ عهد إن ملأتُ محاجري ... من تلكم الجدران والعرصات
لأعفِّرن مصون شيبي بينها ... من كثرة التقبيل والرشفات
لولا العوادي والأعادي زرتها ... أبداً ولو سحبًا على الوجنات
لكن سأُهدي من حفيل تحيتي ... لقطين تلك الدار والحجرات
أزكى من المسك المفتَّق نفحة ... تغشاه بالآصال والبُكُرات
وتخصه بزواكي الصلوات ... ونوامي التسليم والبركات

الباب الرابع

الفصل الأول

في حكم الصلاة عليه والتسليم
وفرض ذلك وفضيلته معنى الصلاة عليه ﷺ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

قال ابن عباس: معناه: إن الله وملائكته يباركون على النبي. وقيل: إن الله يترحم على النبي، وملائكته يدعون له. قال المبرد: وأصل الصلاة الترحم، فهي من الله رحمة ومن الملائكة رقة واستدعاء للرحمة من الله. وقد ورد في الحديث صفة صلاة الملائكة على من جلس ينتظر الصلاة: «اللهم اغفر له، اللهم ارحمه؛ فهذا دعاء»[1].

وقال أبو بكر القشيري: الصلاة من الله تعالى لمن دون النبي ﷺ رحمة، وللنبي ﷺ تشريف وزيادة تكرمة. وقال أبو العالية: صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء. قال القاضي أبو الفضل: وقد فرق النبي ﷺ في حديث تعليم الصلاة بين لفظ الصلاة ولفظ البركة؛ فدل أنهما بمعنيين. وأما التسليم الذي أمر الله تعالى به عباده فقال القاضي أبو بكر بن بكير: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ فأمر الله أصحابه أن يسلموا عليه؛ وكذلك من بعدهم أُمروا أن يسلموا على النبي ﷺ عند حضورهم قبره، وعند ذكره. وفي معنى السلام عليه ثلاثة وجوه:

أحدها: السلامة لك ومعك، ويكون السلام مصدراً كاللَّذاذ واللَّذاذة.

الثاني: أي: السلام على حفظك ورعايتك مُتَولٍّ له وكفيل به، ويكون هنا السلام اسم الله.

الثالث: أن السلام بمعنى المسالمة له والانقياد؛ كما قال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٩)، ومسلم (٢٧٢).

الفصل الثاني

حكم الصلاة على النبي

اعلم أن الصلاة على النبي ﷺ فرض على الجملة، غير محدد بوقت، لأمر الله تعالى بالصلاة عليه، وحمل الأئمة والعلماء له على الوجوب، وأجمعوا عليه.

وحكى أبو جعفر الطبري أن محمل الآية عنده على الندب؛ وادعى فيه الإجماع؛ ولعله فيما زاد على مرة؛ والواجب منه الذي يسقط به الحرج ومأثم ترك الفرض مرة؛ كالشهادة له بالنبوة؛ وما عدا ذلك فمندوب مُرغَّب فيه، من سنن الإسلام وشعار أهله.

قال القاضي أبو الحسن بن القصار: المشهور عن أصحابنا أن ذلك واجب في الجملة على الإنسان، وفرض عليه أن يأتي بها مرة من دهره مع القدرة على ذلك.

وقال القاضي أبو بكر بن بكير: افترض الله على خلقه أن يصلوا على نبيه ويسلموا تسليماً، ولم يجعل ذلك لوقت معلوم؛ فالواجب أن يكثر المرء منها ولا يغفل عنها.

قال القاضي أبو محمد بن نصر: الصلاة على النبي ﷺ واجبة في الجملة.

قال القاضي أبو عبد الله محمد بن سعيد: ذهب مالك وأصحابه وغيرهم من أهل العلم أن الصلاة على النبي ﷺ فرض بالجملة بعقد الإيمان لا يتعين في الصلاة، وأن من صلى عليه مرة واحدة من عمره سقط الفرض عنه.

وقال أصحاب الشافعي: الفرض منها الذي أمر الله تعالى به ورسوله ﷺ هو في الصلاة.

وقالوا: وأما في غيرها فلا خلاف أنها غير واجبة.

وأما في الصلاة فحكى الإمامان أبو جعفر الطبري والطحاوي وغيرهما إجماع جميع المتقدمين والمتأخرين من علماء الأمة على أن الصلاة على النبي ﷺ في التشهد غير واجبة.

وشذ الشافعي في ذلك؛ فقال: من لم يصلْ على النبي ﷺ من بعد التشهد الأخير قبل السلام فصلاته فاسدة، وإن صلى عليه قبل ذلك لم تجزه، ولا سلف له في هذا القول ولا سنة يتبعها.

وقد بالغ في إنكار هذه المسألة عليه لمخالفته فيها من تقدمه جماعة، وشنعوا عليه الخلاف فيها، منهم الطبري والقشيري وغير واحد.

وقال أبو بكر بن المنذر: يستحب ألاَّ يصلي أحد صلاة إلا صلى فيها على رسول الله ﷺ فإن ترك ذلك تاركٌ فصلاته مجزئة في مذهب مالك وأهل المدينة وسفيان الثوري وأهل الكوفة من أصحاب الرأي وغيرهم، وهو قول جُل أهل العلم.

وحكي عن مالك وسفيان أنها في التشهد الأخير مستحبة، وأن تاركها في التشهد مسيء.

وشذ الشافعي فأوجب على تاركها في الصلاة الإعادة وأوجب إسحاق الإعادة مع تعمد تركها دون النسيان.

وحكى أبو محمد بن أبي زيد، عن محمد بن المواز: أن الصلاة على النبي ﷺ فريضة.

قال أبو محمد: يريد ليست من فرائض الصلاة. وقاله محمد بن عبد الحكم وغيره.

وحكى ابن القصار وعبد الوهاب :ـ أن محمد بن المواز يراها فريضة في الصلاة كقول الشافعي.

وحكى أبو يعلى العبدي المالكي عن المذهب فيها ثلاثة أقوال في الصلاة: الوجوب، والسنة، والندب.

وقد خالف الخطابي من أصحاب الشافعي وغيره ـ الشافعي في هذه المسألة؛ قال الخطابي: وليست بواجبة في الصلاة، وهو قول جماعة الفقهاء إلا الشافعي، ولا أعلم له فيها قدوة.

والدليل على أنها ليست من فروض الصلاة عمل السلف الصالح قبل الشافعي، وإجماعهم عليه.

وقد شنع الناس عليه في هذه المسألة جداً.

وهذا تشهد ابن مسعود الذي اختاره الشافعي، وهو الذي علمه له النبي ﷺ ليس فيه الصلاة على النبي ﷺ وكذلك كل من روى التشهد عن النبي ﷺ كأبي هريرة وابن عباس وجابر وابن عمر، وأبي سعيد الخدري، وأبي موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير ـ لم يذكروا فيه صلاة على النبي ﷺ.

وقد قال ابن عباس وجابر: كان النبي ﷺ يعلمنا التشهد كما يعلمنا السورة من القرآن(١).

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٦٠، ٦١).

ونحوه عن أبي سعيد.

وقال ابن عمر: كان أبو بكر يعلمنا التشهد على المنبر كما يعلمون الصبيان في الكُتاب.

وعلمه أيضًا على المنبر عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

وفي الحديث: «**لا صلاة لمن لم يصل عليّ**»[1].

قال ابن القصار: معناه: كاملة، أو لمن لم يصل عليَّ مرة في عمره.

وضعف أهل الحديث كلهم رواية هذا الحديث.

وفي حديث أبي جعفر، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ: «**من صلى صلاة لم يصل فيها عليّ وعلى أهل بيتي لم تقبل منه**»[2].

قال الدارقطني: الصواب أنه من قول أبي جعفر محمد بن عليّ بن الحسين: لو صليت صلاة لم أصل فيها على النبي ﷺ ولا على أهل بيته لرأيت أنها لا تتم.

الفصل الثالث
في المواطن التي يُستحب فيها الصلاة والسلام على النبي ﷺ

ويُرغَّب من ذلك في تشهد الصلاة كما قدمناه؛ وذلك بعد التشهد وقبل الدعاء: حدثنا القاضي أبو عليّ ـ رحمه الله ـ بقراءتي عليه، قال: حدثنا الإمام أبو القاسم البلخي؛ قال: حدثنا الفارسي، عن أبي القاسم الخزاعي، عن أبي الهيثم بن كليب، عن أبي عيسى الحافظ، قال: حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا حَيْوة بن شريح، حدثني أبو هانئ الخولاني: أن عمرو بن مالك الجنبي، أخبره أنه سمع فضالة بن عبيد يقول: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو في صلاته، فلم يصل على النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «**عَجِلَ هذا**» ثم دعاه فقال له ولغيره: **إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه، ثم لَيصل على النبي ﷺ، ثم ليدع بعد بما شاء**»[3].

ويروى من غير هذا السند بتمجيد الله، وهو أصح.

---

(١) ضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٦٣٠٠).

(٢) ضعيف مرفوعًا.

(٣) صححه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (٢٧٦٧).

وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، قال: الدعاء والصلاة معلق بين السماء والأرض؛ فلا يصعد إلىٰ الله منه شيء حتىٰ يصلىٰ علىٰ النبي ﷺ.

وعن عليّ عن النبي ﷺ بمعناه، وعن عليّ: وعلىٰ آل محمد.

وروي أن الدعاء محجوب حتىٰ يصلي الداعي علىٰ النبي ﷺ[1].

وعن ابن مسعود: «**إذا أراد أحدكم أن يسأل الله شيئًا فليبدأ بمدحه والثناء عليه بما هو أهله؛ ثم يصلِّ على النبي ﷺ، ثم ليسأل، فإنه أجدر أن ينجح**».

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تجعلوني كقدح الراكب، فإن الراكب يملأ قدحه ثم يضعه، ويرفع متاعه؛ فإن احتاج إلى شراب شربه، أو الوضوء توضأ، وإلا هراقه، ولكن اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخره**»[2].

وقال بان عطاء: للدعاء أركان وأجنحة وأسباب وأوقات، فإن وافق أركانه قوي، وإن وافق أجنحته طار في السماء، وإن وافق مواقيته فاز، وإن وافق أسبابه أنجح، فأركانه حضور القلب والرقة، والاستكانة والخشوع وتعلق القلب بالله وقطعه من الأسباب. وأجنحته الصدق ومواقيته الأسحار، وأسبابه الصلاة علىٰ محمد ﷺ.

وفي الحديث: «**الدعاء بين الصلاتين لا يرد**».

وفي حديث آخر: «**كل دعاء محجوب دون السماء، فإذا جاءت الصلاة عليّ صعد الدعاء**»[3].

وفي دعاء ابن عباس الذي رواه عنه حَنَش؛ فقال في آخره: واستجب دعائي، ثم تبدأ بالصلاة علىٰ النبي ﷺ فتقول: اللهم إني أسألك أن تصلي علىٰ محمد عبدك ونبيك ورسولك أفضل ما صليت علىٰ أحد من خلقك أجمعين آمين. ومن مواطن الصلاة: عليه عند ذكره وسماع اسمه، أو كتابته، أو عند الأذان.

وقد قال ﷺ: «**رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليّ**»[4].

---

(١) ضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٣٠٠٢).

(٢) ضعيف: أخرجه عبد بن حميد (١١٣٢)، والبيهقي في الشعب (١٥٧٨)، وفي إسناده: موسىٰ ابن عبيدة، ضعيف.

(٣) ضعيف مرفوعًا: أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ٢٢٠)، والبيهقي في الشعب (١٥٧٥) موقوفًا علىٰ عليٍّ رضي الله عنه، وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٦٠) وقال: «رجاله ثقات»، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٢٥٨٩) وقال: «رواته ثقات ورفعه بعضهم والموقوف أصح».

(٤) صححه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (٢٨١٠)، ومشكاة المصابيح (٩٢٧).

وكره ابن حبيب ذكر النبي ﷺ عند الذبح. وكره سحنون الصلاة عليه عند التعجب؛ وقال: لا يصلىٰ عليه إلا علىٰ طريق الاحتساب وطلب الثواب.

قال أصبغ عن ابن القاسم: موطنان لا يذكر فيهما إلا الله: الذبيحة، والعطاس، فلا تقل فيهما بعد ذكر الله: محمد رسول الله ﷺ، ولو قال بعد ذكر الله: «صلىٰ الله علىٰ محمد» لم يكن تسمية له مع الله. وقاله أشهب؛ قال: ولا ينبغي أن تجعل الصلاة علىٰ النبي ﷺ فيه استنانًا.

وروىٰ النسائي، عن أوس بن أوس، عن النبي ﷺ: الأمر بالإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة[1].

ومن مواطن الصلاة والسلام: دخول المسجد.

قال أبو إسحاق بن شعبان: وينبغي لمن دخل المسجد أن يصلي علىٰ النبي ﷺ، وعلىٰ آله ويترحم عليه وعلىٰ آله، ويبارك عليه وعلىٰ آله، ويسلم تسليمًا؛ ويقول: «**اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك**». وإذا خرج فعل مثل ذلك، وجعل موضع «**رحمتك**»: «**فضلك**»[2].

وقال عمرو بن دينار في قوله تعالىٰ: ﴿ **فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ** ﴾ [النور: ٦١].

قال: إن لم يكن في البيت أحد فقل: السلام علىٰ النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلىٰ عباد الله الصالحين، السلام علىٰ أهل البيت ورحمة الله وبركاته.

قال ابن عباس: المراد بالبيوت هنا المساجد.

وقال النخعي: إذا لم يكن في المسجد أحد فقل: السلام علىٰ رسول الله ﷺ وإذا لم يكن في البيت أحدٌ فقل: السلام علينا وعلىٰ عباد الله الصالحين.

وعن علقمة: إذا دخلتُ المسجد أقول: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، صلىٰ الله وملائكته علىٰ محمد. ونحوه عن كعب إذا دخل وإذا خرج، ولم يذكر الصلاة. واحتج ابن شعبان لما ذكره بحديث فاطمة بنت رسول الله ﷺ - أن النبي ﷺ كان يفعله إذا دخل المسجد.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٠٤٧)، والنسائي في المجتبىٰ (١٣٧٤)، وابن ماجه (١٠٨٥)، وأحمد (٤/ ٨).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٦٨).

ومثله عن أبي بكر بن عمرو بن حزم. وذكر السلام والرحمة.

وقد ذكرنا هذا الحديث آخر القسم، والاختلاف في ألفاظه.

ومن مواطن الصلاة عليه أيضًا: الصلاة على الجنائز. وذكر عن أبي أمامة أنها من السنة. ومن مواطن الصلاة التي مضى عليها عمل الأمة ولم تنكرها: الصلاة على النبي ﷺ وآله في الرسائل، وما يكتب بعد البسملة؛ ولم يكن هذا في الصدر الأول؛ وأحدث عند ولاية بني هاشم؛ فمضى به عمل الناس في أقطار الأرض. ومنهم من يختم به أيضًا الكتب.

وقال ﷺ: **«من صلى عليّ في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام اسمي في ذلك الكتاب»**[1]. ومن مواطن السلام على النبي ﷺ: تشهد الصلاة.

حدثنا أبو القاسم خلف بن إبراهيم المقرئ الخطيب -رحمه الله- وغيره، قال: حدثتني كريمة بنت محمد؛ قالت: حدثنا أبو الهيثم، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو نعيم، حدثنا الأعمش، عن شقيق بن سلمة، عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: **«إذا صلى أحدكم فليقل: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإنكم إذا قلتموها أصابت كل عبد صالح في السماء والأرض»**[2]. هذا أحد مواطن التسليم عليه؛ وسنته أول التشهد.

وقد روى مالك عن ابن عمر أنه كان يقول ذلك إذا فرغ من تشهده وأراد أن يسلم، واستحب مالك في «المبسوط» أن يسلم بمثل ذلك قبل السلام.

قال محمد بن مسلمة: أراد ما جاء عن عائشة وابن عمر أنهما كانا يقولان عند سلامهما: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. السلام عليك. واستحب أهل العلم أن ينوي الإنسان حين سلامه كل عبد صالح في السماء والأرض من الملائكة وبني آدم والجن.

قال مالك في «المجموعة»: وأحب للمأموم إذا سلم إمامه أن يقول: السلام على النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. السلام عليكم.

---

(١) موضوع: أخرجه الطبراني في الأوسط (٢/ ٢٣٢)، والسمعاني في أدب الإملاء والاستملاء (١/ ٦٤)، وذكره الذهبي في الميزان (٢/ ٣٢) وقال: «وهو موضوع».

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٨٣١)، ومسلم (٤٠٢).

الفصل الرابع

في كيفية الصلاة عليه والتسليم

حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن جعفر الفقيه بقراءتي عليه، حدثنا القاضي أبو الأصبغ، حدثنا أبو عبد الله بن عتاب، حدثنا أبو بكر بن واقد وغيره، قالوا: حدثنا أبو عيسى، حدثنا عبيد الله، حدثنا يحيى، حدثنا مالك، عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم، عن أبيه، عن عمرو بن سليم الزرقي أنه قال: أخبرني أبو حميد الساعدي أنهم قالوا: يا رسول الله، كيف نصلي عليك؟ فقال: «**قولوا: اللهم صلِّ على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد**»[1].

وفي رواية مالك عن أبي مسعود الأنصاري، قال: **قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آله كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد. والسلام كما قد عُلِّمتم**»[2].

وفي رواية كعب بن عُجرة: «**اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم، إنك حميد مجيد**»[3].

وعن عقبة بن عمرو في حديثه: « **اللهم صل على محمد النبي الأمي، وعلى آل محمد**».

وفي رواية أبي سعيد الخدري: «**اللهم صل على محمد عبدك ورسولك...**»وذكر[4] معناه.

وحدثنا القاضي أبو عبد الله التميمي سماعًا عليه، وأبو عليّ الحسن بن طريف النحوي بقراءتي عليه؛ قالا: حدثنا أبو عبد الله بن سعدون الفقيه، حدثنا أبو بكر المطوعي، حدثنا أبو عبد الله الحاكم، عن أبي بكر بن أبي دارم الحافظ، عن عليّ بن أحمد العجلي، عن

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٦٠)، ومسلم (٤٠٧).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٤٠٥).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٥٧)، ومسلم (٤٠٦).
(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٥٧).

حـرب بن الحسن، عن يحيىٰ بن المساور، عن عمرو بن خالد، عن زيد بن عليّ بن الحسين، عن أبيه عليّ، عن أبيه الحسين، عن أبيه عليّ بن أبي طالب؛ قال: عدَّهن في يدي رسول الله ﷺ وقال: «**عدهن في يدي جبريل، وقال: هكذا نزلت من عند رب العزة؛**

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم باركْ على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

اللهم وترحَّم على محمد وعلى آل محمد كما ترحَّمتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

اللهم وتحنن على محمد وعلى آل محمد كما تحننت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

اللهم وسلم على محمد وعلى آل محمد كما سلمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «**من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل: اللهم صل على محمد النبي، وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته وأهل بيته، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد**»[1].

وفي رواية زيد بن خارجة الأنصاري: سألت النبي ﷺ كيف نصلي عليك؟

فقال: «**صلوا واجتهدوا في الدعاء ثم قولوا: اللهم بارك على محمد وعلى آله محمد كما باركت على إبراهيم إنك جميد مجيد**»[2].

وعن سلامة الكِندي كان عليٌّ يعلمنا الصلاة على النبي ﷺ: «اللهم داحي المدحوات وبارئ المسموكات، اجعل شرائف صلواتك ونوامي بركاتك، ورأفة تحننك على محمد عبدك ورسولك، الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، والمعلن الحق بالحق، والدامغ لجيشات الأباطيل، كما حُمل، فاضطلع بأمرك لطاعتك، مستوفزًا في مرضاتك واعيًا لوحيك، حافظًا لعهدك، ماضيًا على نفاذ أمرك، حتى أَوْرَىٰ قبسًا لقابس، آلاء الله تصل بأهله

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (٩٨٢)، والبخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٨٧)، والعقيلي في الضعفاء (١/ ٣١٨).

(٢) أخرجه النسائي (١٢٩٢)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣٧٨٣).

أسبابه، به هديت القلوب بعد خوضات الفتن والإثم، وأَبْهَج موضحات الأعلام، ونائرات الأحكام، ومنيرات الإسلام، فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، وبعيثك نعمة، ورسولك بالحق رحمة؛ اللهم أفسح له في عدلك، واجزه مضاعفات الخير من فضلك، مهنئات له غير مكدرات من فوز ثوابك المحلول، وجزيل عطائك المعلول.

اللهم أعلِ على بناء الناس بناه، وأكرم مثواه لديك ونزله، وأتم له نوره، واجزه من ابتعاثك له مقبول الشهادة، ومرضي المقالة، ذا منطق عدل، وخطة فصل، وبرهان عظيم.

وعنه أيضًا في الصلاة على النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

لبيك اللهم ربي وسعديك، صلوات الله البر الرحيم والملائكة المقربين، والنبيين والصديقيين، والشهداء والصالحين، وما سبح لك من شيء يا رب العالمين، على محمد ابن عبد الله خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين، الشاهد البشير، الداعي اليك بإذنك السراج المنير، وعليه السلام.

وعن عبد الله بن مسعود: «اللهم اجعل صلواتك وبركاتك ورحمتك على سيد المرسلين، وإمام المتقين وخاتم النبيين، محمد عبدك ورسولك؛ إمام الخير ورسول الرحمة».

اللهم ابعثه مقامًا محمودًا يغبطه فيه الأولون والآخرون.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم، إنك حميد مجيد؛ وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

وكان الحسن البصري يقول: من أراد أن يشرب بالكأس الأوفى من حوض المصطفى فليقل: اللهم صل على محمد وعلى آله وأصحابه وأولاده وأزواجه وذريته وأهل بيته وأصهاره وأنصاره وأشياعه ومحبيه وأمته، وعلينا، معهم أجمعين، يا أرحمن الراحمين.

وعن طاووس؛ عن ابن عباس أنه كان يقول: اللهم تقبل شفاعة محمد الكبرى، وارفع درجته العليا، وآته سؤله في الآخرة والأولى، كما آتيت إبراهيم وموسى.

وعن وهيب بن الورد أنه كان يقول في دعائه: اللهم أعط محمدًا أفضل ما سألك لنفسه، وأعط محمدًا أفضل ما سألك له أحد من خلقك، وأعط محمدًا أفضل ما أنت

مسئول له إلى يوم القيامة.

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه كان يقول: إذا صليتم على النبي ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه؛ فإنكم لا تدرون، لعل ذلك يعرض عليه؛ وقولوا: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين، وإمام المتقين وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك إمام الخير وقائد الخير، ورسول الرحمة.

اللهم ابعثه مقامًا محمودًا يغبطه فيه الأولون والآخرون؛ اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد.

اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد.

وما يؤثر في تطويل الصلاة وتكثير الثناء على أهل البيت وغيرهم كثير.

وقوله: **«والسلام كما قد علمتم»**: هو ما علمهم الله في التشهد من قوله: **«السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»**[1].

وفي تشهد عليٍّ: السلام على نبي الله، السلام على أنبياء الله ورسله، السلام عليك رسول الله، السلام على محمد بن عبد الله، السلام علينا وعلى المؤمنين والمؤمنات من غاب منهم ومن شهد.

اللهم اغفر لمحمد وتقبل شفاعته، واغفر لأهل بيته، واغفر لي ولوالدي وما ولدا وارحمهما.

السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

جاء في هذا الحديث عن عليٍّ: الدعاء للنبي ﷺ بالغفران.

وفي حديث الصلاة عليه أيضًا قبل: الدعاء له بالرحمة؛ ولم يأت في غيره من الأحاديث المرفوعة المعروفة. وقد ذهب أبو عمر بن عبد البر وغيره إلى أنه لا يدعى للنبي ﷺ بالرحمة؛ وإنما يدعى له بالصلاة والبركة التي تختص به، ويدعى لغيره بالرحمة والمغفرة. وقد ذكر أبو محمد بن أبي زيد في الصلاة على النبي ﷺ: **«اللهم ارحم محمداً وآل محمد كما ترحمت على إبراهيم وآل إبراهيم»**.

ولم يأت هذا في حديث صحيح: وحجته قوله في السلام: **«السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته»**.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٨٣١)، ومسلم (٤٠٢).

الفصل الخامس

في فضيلة الصلاة على النبي والتسليم عليه والدعاء له

حدثنا أحمد بن محمد الشيخ الصالح من كتابه، حدثنا القاضي يونس بن مغيث، حدثنا أبو بكر بن معاوية، حدثنا النسائي، أخبرنا سويد بن نصر، أخبرنا عبد الله، عن حيوة بن شريح، قال: أخبرني كعب بن علقمة، أنه سمع عبد الرحمن بن جبير مولى نافع، أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، وصلوا عليّ؛ فإنه من صلى عليّ مرة واحدة صلى الله عليه عشراً؛ ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجوا أن أكون أنا هو؛ فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة»**[1].

وروى أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: **«من صلى على صلاة صلى الله عليه عشر صلوات، وحط عنه عشر خطيئات، ورفع له عشر درجات»**[2].

وفي رواية: **«وكتب له عشر حسنات»**.

وعن أنس، عنه ﷺ: **«إن جبريل ناداني، فقال: من صلى عليك صلاة صلى الله عليه عشراً، ورفعه عشر درجات»**.

ومن رواية عبد الرحمن بن عوف، عنه ﷺ لقيت جبريل فقال لي: إني أبشرك أن الله تعالى يقول: من سلم عليك سلمت عليه، ومن صلى عليك صليت عليه. ونحوه من رواية أبي هريرة، ومالك بن أوس بن الحدثان، وعبيد الله بن أبي طلحة وعن زيد بن الحباب: سمعت النبي ﷺ يقول: **«من قال: اللهم صل عليّ محمد وأنزله المنزل المقرب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتي»**.

وعن ابن مسعود: **« أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة »**،

وعن أبي هريرة، عنه ﷺ: **« من صلّى عليّ في كتابٍ لم تزل الملائكة تستغفر له ما بقي اسمي في ذلك الكتاب »**[3].

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣٨٤).

(٢) صححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٣٥٩).

(٣) ضعيف: أخرجه الطبراني في الأوسط (٢/ ٢٣٢)، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات، وضعفه السيوطي في تدريب الراوي، وذكره المنذري في الترغيب (١٥٧) وقال: « وروي من كلام جعفر ابن محمد موقوفًا عليه وهو أشبه » اهـ.

وعن عامر بن ربيعة: سمعت النبي ﷺ يقول: «من صلى عليّ صلاة صلت عليه الملائكة ما صلى عليّ، فليقلل من ذلك عبد أو ليكثر».

وعن أبي بن كعب: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ربع الليل قام فقال: «يا أيها الناس؛ اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه».

فقال أبي بن كعب: يا رسول الله؛ إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: «ما شئت». قال: الربع؟ قال: «ما شئت، وإن زدت فهو خير» قال: الثلث؟ قال: «ما شئت، وإن زدت فهو خير». قال: النصف؟ قال: «ما شئت، وإن زدت فهو خير». قال: الثلثين؟ قال: «ما شئت، وإن زدت فهو خير» قال: يا رسول الله، فأجعل صلاتي كلها لك؟ قال: «إذًا تكفى ويغفر ذنبك»[1].

وعن أبي طلحة: دخلت على النبي ﷺ فرأيت من بشره وطلاقته ما لم أره، فسألته فقال: «وما يمنعني وقد خرج جبريل آنفًا، فأتاني ببشارة من ربي عز وجل: إن الله بعثني إليك أبشرك أنه ليس أحد من أمتك يصلي عليك إلا صلى الله عليه وملائكته بها عشراً».

وعن جابر بن عبد الله؛ قال: قال النبي ﷺ: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محموداً الذي وعدته ـ حلت له الشفاعة يوم القيامة»[2].

وعن سعد بن أبي وقاص من قال حين يسمع المؤذن: وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، رضيت بالله ربًا وبمحمد رسولاً وبالإسلام دينًا غفر له[3].

وروى ابن وهب أن النبي ﷺ قال: «من سلم عليّ عشراً فكأنما أعتق رقبة».

وفي بعض الآثار: «ليردن عليّ أقوام ما أعرفهم إلا بكثرة صلاتهم على».

وفي آخر: إنّ أنجاكم يوم القيامة من أهوالها ومواطنها أكثركم على صلاة.

وعن أبي بكر الصديق: الصلاة على النبي ﷺ أمحق للذنوب من الماء البارد للنار، والسلام عليه أفضل من عتق الرقاب.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٤٥٧)، وأحمد (٥/ ١٣٦).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦١٤، ٤٧١٩).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٣٨٦).

الفصل السادس

في ذم من لم يصل على النبي ﷺ وإثمه

حدثنا القاضي الشهيد أبو عليّ ـ رحمه الله ـ ، حدثنا أبو الفضل بن خيرون، وأبو الحسين الصيرفي؛ قالا: حدثنا أبو يعلى، حدثنا السنجي، حدثنا محمد بن محبوب، حدثنا أبو عيسى حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي، حدثنا ربعي بن إبراهيم، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة: قال: قال رسول الله ﷺ: **«رَغِم أنف رجل ذكرت عنده فلم يُصل عليّ، ورغِم أنف رجل دخل رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة»**[1].

وقال عبد الرحمن: وأظنه قال: أو أحدهما.

وفي حديث آخر: أن النبي ﷺ صعد المنبر فقال: آمين، ثم صعد، فقال: آمين. ثم صعد فقال: آمين، فسأله معاذ عن ذلك، فقال: **«إن جبريل أتاني فقال: يا محمد؛ من سميت بين يديه فلم يصل عليك فمات فدخل النار، فأبعده الله، قل آمين، فقلت آمين»**. وقال فيمن أدرك رمضان فلم يقبل منه فمات مثل ذلك.

ومن أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما فمات مثله[2].

وعن عليّ بن أبي طالب: عنه ﷺ أنه قال: **«البخيل الذي ذكرت عنده فلم يصل عليّ»**[3]. عن جعفر بن محمد، عن أبيه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من ذكرت عنده فلم يصل عليّ أخطئ به طريق الجنة»**[4].

وعن عليّ بن أبي طالب: أن رسول الله ﷺ قال: **«إن البخيل كل البخيل من ذكرت عنده فلم يصل عليّ»**.

وعن أبي هريرة، قال أبو القاسم ﷺ: **«أيما قوم جلسوا مجلسًا ثم تفرقوا قبل أن يذكروا الله ويصلوا على النبي ﷺ كانت عليهم من الله ترة إن شاء عذبهم وإن شاء**

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٥١).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٥٤٥)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (٢٨١٠).

(٣) صححه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (٢٨١١)، والمشكاة (٩٣٣).

(٤) حسن لغيره: وذكره الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٢٣٣٧).

غفر لهم»(١).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «من نسي الصلاة عليّ نسي طريق الجنة»(٢).

وعن قتادة، عنه ﷺ: «من الجفاء أن أذكر عند الرجل فلا يصلي عليّ»(٣).

وعن جابر عنه ﷺ: «ما جلس قوم مجلسًا ثم تفرقوا على غير صلاة على النبي ﷺ، إلا تفرقوا على أنتن من ريح الجيفة».

وعن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «لا يجلس قوم مجلسًا لا يصلون فيه على النبي ﷺ إلا كان عليهم حسرة وإن دخلوا الجنة لما يرون من الثواب»(٤).

وحكى أبو عيسى الترمذي، عن بعض أهل العلم؛ قال: إذا صلى الرجل على النبي مرة في المجلس أجزأ عنه ما كان في ذلك المجلس.

الفصل السابع

في تخصيصه ﷺ بتبليغ صلاة من صلى عليه أو سلم من الأنام

حدثنا القاضي أبو عبد الله التميمي، حدثنا الحسين بن محمد، حدثنا أبو عمر الحافظ، حدثنا ابن عبد المؤمن، حدثنا ابن داسة، حدثنا أبو داود، حدثنا ابن عوف، حدثنا المقرئ، حدثنا حيوة، عن أبي صخر حميد بن زياد، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد يسلم عليّ إلا رد الله عليّ روحي حتى أرد عليه السلام»(٥).

وذكر أبو بكر بن أبي شيبة، عن أبي هريرة: قال: قال رسول الله ﷺ «من صلى عليّ عند قبري سمعته؛ ومن صلي عليّ نائيًا بلغته»(٦).

---

(١) صححه الألباني رحمه الله في صحيح الترمذي (٢٦٩١)، والصحيحة (٧٤).

(٢) حسن: وذكره الألباني رحمه الله في صحيح ابن ماجه (٧٤٠)، والصحيحة (٢٣٣٧).

(٣) مرسل ضعيف: أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢/ ٢١٧) (٣١٢١) عن محمد بن علي مرسلاً.

(٤) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٣٨٠)، وأحمد (٢/ ٤٦٦، ٤٥٣، ٤٨١)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧٦٢٤).

(٥) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٥٢٧)، وأبو داود (٢٠٤١)، والبيهقي في الكبرى (٥/ ٢٤٥)، وفي الشعب (١٥٨١).

(٦) موضوع: ذكره الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٥٦٧٠).

وعن ابن مسعود: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام»[1].

ونحوه عن أبي هريرة.

وعن ابن عمر: «أكثروا من السلام على نبيكم كل جمعة، فإنه يؤتى به منكم في كل جمعة».

وفي رواية: «فإن أحدًا لا يصلي عليّ إلا عرضت صلاته عليّ حين يفرغ منها».

وعن الحسن، عنه ﷺ: «حيثما كنتم فصلوا عليّ؛ فإن صلاتكم تبلغني»[2].

وعن ابن عباس: «ليس أحد من أمة محمد يسلم عليه ويصلي عليه إلا بُلِّغَهُ» وذكر بعضهم أن العبد إذا صلى على النبي ﷺ عرض عليه اسمه.

وعن الحسن بن عليّ: إذا دخلت المسجد فسلم على النبي ﷺ فإن رسول الله ﷺ قال: «لا تتخذوا بيتي عيدًا، ولا تتخذوا بيوتكم قبورًا، وصلوا عليّ حيث كنتم؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»[3].

وفي حديث أنس: «أكثروا عليّ من الصلاة يوم الجمعة، فإن صلاتكم معروضة عليّ».

وعن سليمان بن سحيم: رأيت النبي ﷺ في النوم فقلت: يا رسول الله؛ هؤلاء الذين يأتونك فيسلمون عليك، أتفقه سلامهم؟ قال: «نعم، وأردّ عليهم».

وعن ابن شهاب: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «أكثروا من الصلاة عليّ في الليلة الزهراء، واليوم الأزهر، فإنهما يؤديان عنكم، وإن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء؛ وما من مسلم يصلي عليّ إلا حملها ملك حتى يؤديها إليّ ويسميه حتى إنه ليقول: إن فلانًا يقول كذا وكذا»[4].

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي (١٢٨٢)، وأحمد (١/ ٤٤١، ٤٥٢)، وابن أبي شيبة (٢/ ٢٥٣)، (٦/ ٣١٦).

(٢) حسن لغيره: أخرجه أبو داود (٢٠٤٢)، وأحمد (٢/ ٣٦٧)، وانظر تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد (ص٩٥، ٩٦) للألباني رحمه الله.

(٣) تقدم في الذي قبله.

(٤) ضعيف: ضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (١١٠٥، ١١٠٦، ٤٩٠٣).

الفصل الثامن

في الاختلاف في الصلاة على غير النبي ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام

قال القاضي وفقه الله: عامة أهل العلم متفقون على جواز الصلاة على غير النبي ﷺ.

وروي عن ابن عباس أن لا تجوز الصلاة على غير النبي ﷺ.

وروي عنه: لا تنبغي الصلاة على أحد إلا النبيين.

وقال سفيان: يكره أن يصلى إلا على نبي.

ووجدت بخط بعض شيوخي: مذهب مالك: أنه لا يجوز أن يصلى على أحد من الأنبياء سوى محمد ﷺ. وهذا غير معروف من مذهبه، وقد قال مالك في «المبسوط» ليحيى بن إسحاق: أكره الصلاة على غير الأنبياء، وما ينبغي لنا أن نتعدى ما أمرنا به.

وقال يحيى بن يحيى: لست آخُذ بقوله؛ ولا بأس بالصلاة على الأنبياء كلهم وعلى غيرهم؛ واحتج بحديث ابن عمر، وبما جاء في حديث تعليم النبي ﷺ الصلاة عليه؛ وفيه: «وعلى أزواجه، وعلى آله». وقد جاء معلقًا عن أبي عمران القابسي: روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - كراهة الصلاة على غير النبي ﷺ، قال: وبه نقول. ولم تكن تستعمل فيما مضى. وقد روى عبد الرزاق عن أبي هريرة - رضي الله عنه -؛ قال: قال رسول الله ﷺ «صلوا على أنبياء الله ورسله؛ فإن الله بعثهم كما بعثني»[1]. قالوا: والأسانيد عن ابن عباس لينة؛ والصلاة في «لسان العرب» بمعنى الترحم والدعاء؛ وذلك على الإطلاق حتى يمنع منه حديث صحيح أو إجماع.

وقد قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب ٤٣].

وقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقال: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

---

(١) حسنه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٣٧٨٢).

وقال النبي ﷺ: «اللهم صل علي آل أبي أوفى . وكان أذا أتاه قوم بصدقتهم، قال: اللهم صل على آل فلان»(١).

وفي حديث الصلاة: «اللهم صل على محمد، وعلى أزواجه وذريته»(٢).

وفي حديث آخر: «وعلى آل محمد» قيل: أتباع، وقيل: آل بيته، وقيل: أمته، وقيل: الأتباع والرهط والعشيرة، وقيل: آل الرجل ولده، وقيل: قومه، وقيل: أهله الذين حرمت عليهم الصدقة.

وفي رواية أنس: سئل النبي ﷺ من آل محمد؟ قال: «كل تقي»(٣).

ويجيء على مذهب الحسن أن المراد بآل محمد: محمد؛ فإنه كان يقول في صلاته على النبي: اللهم اجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد- يريد نفسه-، لأنه كان لا يخل بالفرض، ويأتي بالنفل، لأن الفرض الذي أمر الله تعالى به هو الصلة على محمد نفسه.

وهذا مثل قوله ﷺ: «لقد أوتي مزماراً من مزامير آل دواد»(٤)؛ يريد من مزامير داود.

وفي حديث أبي حميد الساعدي في الصلاة: اللهم صلّ على محمد وأزواجه وذريته.

وفي حديث ابن عمر: أنه كان يصلي على النبي ﷺ وعلى أبي بكر وعمر. ذكره مالك في «الموطأ» من رواية يحيى الأندلسي.

والصحيح من رواية غيره: ويدعو لأبي بكر وعمر.

وروى ابن وهب، عن أنس بن مالك: كنا ندعوا لأصحابنا بالغيب؛ فنقول: اللهم اجعل منك على فلان صلوات قوم أبرار الذين يقومون بالليل ويصومون بالنهار.

قال القاضي أبو الفضل: والذي ذهب إليه المحققون، وأميل إليه ما قاله مالك وسفيان رحمهما الله، وروي عن ابن عباس؛ واختاره غير واحد من الفقهاء والمتكلمين أنه لا يصلى على غير الأنبياء عند ذكرهم، بل هو شيء يختص به الأنبياء، توقيراً لهم وتعزيزاً كما يخص الله تعالى عند ذكره بالتنزيه والتقديس والتعظيم، ولا يشاركه فيه غيره، كذلك يجب تخصيص النبي ﷺ وسائر الأنبياء بالصلاة والتسليم، ولا يشارك فيه سواهم، كما

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٤٩٨، ٤١٦٦، ٦٣٣٢، ٦٣٥٩)، ومسلم (١٠٧٨).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٣٦٩)، ومسلم (٤٠٧).
(٣) ضعيف جداً: انظر ضعيف الجامع (١٢) للألباني رحمه الله.
(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣).

أمر الله به بقوله: ﴿ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

ويذكر من سواهم من الأئمة وغيرهم بالغفران والرضا؛ كما قال تعالى: ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾ [الحشر: ١٠].

وقال: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وأيضًا فهو أمر لم يكن معروفًا في الصدر الأول، كما قال أبو عمران؛ وإنما أحدثته الرافضة والمتشيعة في بعض الأئمة، فشاركوهم عند الذكر لهم بالصلاة، وساووهم بالنبي ﷺ في ذلك. وأيضًا فإن التشبه بأهل البدع منهي عنه؛ فتجب مخالفتهم فيما التزموه من ذلك. وذكر الصلاة على الآل والأزواج مع النبي ﷺ بحكم التبع والإضافة إليه لا على التخصيص. قالوا: وصلاة النبي ﷺ على من صلى عليه مجراها مجرى الدعاء والمواجهة ليس فيها معنى التعظيم والتوقير.

وقالوا: وقد قال تعالى: ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً ﴾ [النور: ٦٣]. فكذلك يجب أن يكون الدعاء له مخالفًا لدعاء الناس بعضهم لبعض.

وهذا اختيار الإمام أبي المظفر الإسفرائيني من شيوخنا وبه قال ابن عبد البر.

الفصل التاسع

في حكم زيارة قبره ﷺ وفضيلة من زاره وسلم عليه وكيف يسلم ويدعو

وزيارة قبره ﷺ سنة من سنن المسلمين مجمع عليها، وفضيلة مرغب فيه:

حدثنا القاضي أبو عليّ؛ قال: حدثنا أبو الفضل بن خيرون؛ قال: حدثنا الحسن بن جعفر؛ قال قال حدثنا أبو الحسن عليّ بن عمر الدارقطني، قال: حدثنا القاضي المحاملي، قال: حدثنا محمد بن عبد الرزاق؛ قال: حدثنا موسى بن هلال، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر - رضي الله عنهما -؛ أنه قال: قال النبي ﷺ: «من زار قبري وجبت له شفاعتي»[(١)].

وعن أنس بن مالك؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «من زارني في المدينة محتسبًا كان

(١) موضوع: ذكره الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٥٦٠٧).

في جواري وكنت له شفيعًا يوم القيامة».

وفي حديث آخر: «من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي»[1].

وكره مالك أن يقال: زرنا قبر النبي ﷺ.

وقد اختلف في معنى ذلك؛ فقيل: كراهة الاسم؛ لما ورد من قوله ﷺ: «لعن الله زوّارات القبور»[2].

وهذا يرده قوله: «نُهيتم عن زيارة القبور فزوروها»[3].

وقوله: «من زار قبري»؛ فقد أطلق اسم الزيارة.

وقيل: لأن ذلك لما قيل: إن الزائر أفضل من المزور.

وهذا أيضًا ليس بشيء؛ إذ ليس كل زائر بهذه الصفة، وليس هذا عمومًا؛ وقد ورد في حديث أهل الجنة زيارتهم لربهم، ولم يمنع هذا اللفظ في حقه تعالى.

وقال أبو عمران ـ رحمه الله ـ: إنما كره مالك أن يقال: «طواف الزيارة» و«زرنا قبر النبي ﷺ» لاستعمال الناس ذلك بينهم بعضهم لبعض، فكره تسوية النبي ﷺ مع الناس بهذا اللفظ؛ وأحب أن يُخص بأن يقال: سلمنا على النبي ﷺ.

وأيضًا فإن الزيارة مباحة بين الناس، وواجب شد الرحال إلى قبره ﷺ. يريد بالوجوب هنا وجوب ندب وترغيب وتأكيد، لا وجوب فرض.

والأولى عندي: أن منعه وكراهة مالك له لإضافته إلى قبر النبي ﷺ وأنه لو قال: «زرنا النبي» لم يكرهه؛ لقوله ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا بعدي؛ اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[4].

فحمى إضافة هذا اللفظ إلى القبر والتشبه بفعل أولئك قطعًا للذريعة وحسمًا للباب، والله أعلم.

قال إسحاق بن إبراهيم الفقيه: ومما لم يزل من شأن من حج المرور بالمدينة والقصد إلى الصلاة في مسجد رسول الله ﷺ، والتبرك برؤية روضته ومنبره وقبره، ومجلسه،

---

(١) ضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٥٦٠٨).

(٢) حسنه الألباني رحمه الله في صحيح ابن ماجه (١٢٧٩)، والإرواء (٣/ ٢٣٣)، والمشكاة (١٧٧٠).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٩٧٧).

(٤) صححه الألباني رحمه الله في تحذير الساجد (ص١٧، ٧٦، ١٠٦)، وغاية المرام (١٢٦).

وملامس يديه، ومواطئ قدميه، والعمود الذي كان يستند إليه، وينزل جبريل بالوحي فيه عليه، وبمن عمره وقصده من الصحابة وأئمة المسلمين، والاعتبار بذلك كله.

وقال ابن أبي فديك: سمعت بعض من أدركت يقول: بلغنا أنه من وقف عند قبر النبي ﷺ فتلا هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]. ثم قال: صلى الله عليك يا محمد. من يقولها سبعين مرة ناداه ملك: صلى الله عليك يا فلان؛ ولم تسقط له حاجة.

وعن يزيد بن أبي سعيد المهري: قدمت على عمر بن عبد العزيز، فلما ودعته قال لي: إليك حاجة؛ إذا أتيت المدينة سترى قبر النبي ﷺ فأقره مني السلام

قال غيره: وكان يبرد إليه البريد من الشام.

وقال بعضهم: رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي ﷺ فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة؛ فسلم على النبي ﷺ ثم انصرف.

وقال مالك - في رواية ابن وهب -: إذا سلم على النبي ﷺ ودعا، يقف ووجهه إلى القبر الشريف لا إلى القبلة، ويدنو ويسلم، ولا يمس القبر بيده.

وقال في «المبسوط»: لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ يدعو، ولكن يسلم ويمضي.

قال ابن أبي مليكة: من أحب أن يقوم وِجَاهَ النبي ﷺ فليجعل القنديل الذي في القبلة عند القبر على رأسه.

وقال نافع: كان ابن عمر يسلم على القبر، رأيته مائة مرة وأكثر يجيء إلى القبر فيقول: السلام على النبي ﷺ، السلام على أبي بكر، السلام على أبي، ثم ينصرف.

ورئي ابن عمر واضعاً يده على مقعد النبي ﷺ من المنبر ثم وضعها على وجهه.

وعن ابن قسيط والعتبي: كان أصحاب النبي ﷺ إذا خلا المسجد جسوا رُمَّانة المنبر التي تلي القبر بميامنهم، ثم استقبلوا القبلة يدعون.

وفي «الموطأ» - من رواية يحيى بن يحيى الليثي: أنه كان يقف على قبر النبي ﷺ فيصلي على النبي، وعلى أبي بكر وعمر.

وعند ابن القاسم والقعنبي: ويدعو لأبي بكر وعمر.

قال مالك - في رواية ابن وهب -: يقول المسلِّم: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

قال في «المبسوط»: ويسلم على أبي بكر وعمر.

قال القاضي أبو الوليد الباجي: وعندي: أنه يدعو للنبي ﷺ بلفظ الصلاة، ولأبي بكر وعمر، كما في حديث ابن عمر من الخلاف.

وقال ابن حبيب: ويقول إذا دخل مسجد الرسول: بسم الله وسلام على رسول الله عليه السلام، السلام علينا من ربنا، وصلى الله وملائكته على محمد. «**اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك وجنتك، واحفظني من الشيطان الرجيم**».

ثم اقصد إلى الروضة، وهي ما بين القبر والمنبر فاركع فيها ركعتين قبل وقوفك بالقبر تحمد الله فيهما وتسأله تمام ما خرجت إليه والعون عليه. وإن كانت ركعتاك في غير الروضة أجزأتاك؛ وفي الروضة أفضل.

وقد قال ﷺ «**ما بين بيتي و منبري روضة من رياض الجنة، ومنبري علي ترعة من ترع الجنة**»[1]. ثم تقف بالقبر متواضعاً متوقراً، فتصلي عليه وتثني بما يحضرك وتسلم على أبي بكر وعمر، وتدعو لهما. وأكثر من الصلاة في مسجد النبي ﷺ بالليل والنهار، ولا تدع أن تأتي مسجد قباء وقبور الشهداء.

وقال مالك - في كتاب محمد -: ويسلم على النبي ﷺ إذا دخل وخرج - يعني في المدينة وفيما بين ذلك.

وقال محمد: وإذا خرج جعل آخر عهده الوقوف بالقبر، وكذلك من خرج مسافراً.

وروى ابن وهب عن فاطمة بنت النبي ﷺ قال: «**إذا دخلت المسجد فصل على النبي ﷺ وقل: اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك**» وإذا خرجت فصل على النبي ﷺ وقل: «**اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك**»[2].

وفي رواية أخرى: فليسلم - مكان: فليصل فيه، ويقول إذا خرج: «**اللهم إني أسألك من فضلك**». وفي أخرى: «**اللهم احفظني من الشيطان الرجيم**».

وعن محمد بن سيرين: كان الناس يقولون إذا دخلوا المسجد: صلى الله وملائكته على محمد، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، بسم الله دخلنا، وبسم الله خرجنا، وعلى الله توكلنا. وكانوا يقولون إذا خرجوا مثل ذلك.

وعن فاطمة: كان النبي ﷺ إذا دخل المسجد قال: «**صلى الله على محمد**».

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٨٨٨)، ومسلم (١٣٩٠)، وليس فيهما لفظ: «قبري»، فهو شاذ، ولا يصح بحال.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٣١٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٧)، وابن أبي شيبة (١/ ٢٩٩).

ثم ذكر مثل حديث فاطمة قبل هذا. حمد الله وسمّى وصلى على النبي ﷺ - وذكر مثله. وفي رواية: «بسم الله والسلام على رسول الله». وعن غيرها: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد قال: «اللهم افتح لي أبواب رحمتك ويسر لي أبواب رزقك».

وعن أبي هريرة: «إذا دخل أحدكم المسجد فليصل على النبي ﷺ وليقل: اللهم افتح لي ...».

وقال مالك في «المبسوط»: وليس يلزم من دخل المسجد وخرج منه من أهل المدينة الوقوف بالقبر، وإنما ذلك للغرباء.

وقال فيه أيضًا: لا بأس لمن قدم من سفرٍ أو خرج إلى سفرٍ أن يقف على قبر النبي ﷺ فيصلي عليه ويدعو له ولأبي بكر وعمر.

فقيل له: إن ناسًا من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه، يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر، وربما وقفوا في الجمعة أو في الأيام المرة أو المرتين أو أكثر عند القبر فيسلمون ويدعون ساعة.

فقال: لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا، وتركه واسع، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك ويُكره إلا لمن جاء من سفر أو أراده.

قال ابن القاسم: ورأيت أهل المدينة إذا خرجوا منها أو دخلوا أتوا القبر فسلموا؛ قال: وذلك رأيٌ.

قال الباجي: ففرق بين أهل المدينة والغرباء، لأن الغرباء قصدوا لذلك، وأهل المدينة مقيمون بها لم يقصدوها من أجل القبر والتسليم.

وقال ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا عبد؛ اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». وقال: «لا تجعلوا قبرّي عيداً».

ومن كتاب أحمد بن سعيد الهندي - فيمن وقف بالقبر -: لا يلصق به، ولا يمسه ولا يقف عنده طويلاً.

وفي العُتبيَّة: يبدأ بالركوع قبل السلام في مسجد النبي ﷺ وأحب مواضع التنفل فيه مصلى النبي ﷺ حيث العمود المخلق.

وأما في الفريضة فالتقدم إلى الصفوف والتنفل فيه للغرباء أحب إليّ من التنفل في البيوت.

الفصل العاشر

آداب دخول
المسجد النبوي الشريف وفضل المدينة ومكة

فيما يلزم من دخل مسجد النبي ﷺ من الأدب سوى ما قدمناه، وفضله وفضل الصلاة فيه وفي مسجد مكة.

وذكر قبره ومنبره، وفضل سكنى المدينة ومكة، قال الله تعالى: ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ [التوبة: ١٠٨]

وروي أن النبي ﷺ سئل: أي مسجد هو؟ قال: **«مسجدي هذا»**[(١)].

وهو قول ابن المسيب، وزيد بن ثابت، وابن عمر، ومالك بن أنس، وغيرهم.

وعن ابن عباس أنه مسجد قباء.

حدثنا هشام بن أحمد الفقيه بقراءتي عليه؛ قال: حدثنا الحسين بن محمد الحافظ، حدثنا أبو عمر النمري، حدثنا أبو محمد بن عبد المؤمن، حدثنا أبو بكر بن داسة، حدثنا أبو داود، حدثنا مسدد، حدثنا سفيان، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: **«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»**[(٢)].

وقد تقدمت الآثار في الصلاة والسلام على النبي ﷺ عند دخول المسجد.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن النبي ﷺ كان إذا دخل المسجد قال: **«أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم»**[(٣)].

وقال مالك ـ رحمه الله ـ: سمع عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ صوتًا في المسجد، فدعا بصاحبه فقال: ممن أنت؟ قال: رجل من ثقيف، قال: لو كنت من هاتين القريتين لأدبتك؛ إن مسجدنا لا يرفع فيه الصوت.

قال محمد بن مسلمة: لا ينبغي لأحد أن يعتمد المسجد برفع الصوت، ولا بشيء من

---

(١) أخرجه النسائي (٦٩٧)، والكبرى (٦/ ٣٥٩)، وأحمد (٥/ ١١٦، ٣٣١).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١١٨٩، ١١٩٧)، ومسلم (١٣٩٧).
(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٦٦)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٤٧١٥).

الأذى، وأن ينزه عما يكره.

قال القاضي: حكى ذلك كله القاضي إسماعيل في «مبسوطه» في باب: فضل مسجد النبي ﷺ، والعلماء كلهم متفقون على أن حكم سائر المساجد هذا الحكم.

قال القاضي إسماعيل: وقال محمد بن مسلمة: ويُكره في مسجد الرسول ﷺ الجهر على المصلين فيما يخلط عليهم صلاتهم، وليس مما يخص به المساجد رفع الصوت، وقد كره رفع الصوت بالتلبية في مساجد الجماعات إلا المسجد الحرام ومسجد منى.

وقال أبو هريرة عنه ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا خيرٌ من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام».

قال القاضي: اختلف الناس في معنى هذا الاستثناء على اختلافهم في المفاضلة بين مكة والمدينة؛ فذهب مالك في رواية أشهب عنه، وقاله ابن نافع صاحبه، وجماعة أصحابه إلى أن معنى الحديث أن الصلاة في مسجد الرسول أفضل من الصلاة في سائر المساجد بألف صلاة إلا المسجد الحرام؛ فإن الصلاة في مسجد النبي ﷺ أفضل من الصلاة فيه بدون الألف.

واحتجوا بما روي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: صلاة في المسجد الحرام خير من مائة صلاة فيما سواه؛ فتأتي فضيلة مسجد الرسول ﷺ بتسعمائة وعلى غيره ألف.

وهذا مبني على تفضيل المدينة على مكة على ما قدمناه، وهو قول عمر بن الخطاب ومالك وأكثر المدنيين.

وذهب أهل مكة والكوفة إلى تفضيل مكة؛ وهو قول عطاء، وابن وهب، وابن حبيب من أصحاب مالك، وحكاه الباجي عن الشافعي، وحملوا الاستثناء في الحديث المتقدم على ظاهره، وأن الصلاة في المسجد الحرام أفضل، واحتجوا بحديث عبد الله بن الزبير عن النبي ﷺ بمثل حديث أبي هريرة؛ وفيه: **«وصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجدي هذا بمائة صلاة»**.

وروى قتادة مثله؛ فيأتي فضل الصلاة في المسجد الحرام على هذا على الصلاة في سائر المساجد بمائة ألف.

ولا خلاف أن موضع قبره أفضل بقاع الأرض.

قال القاضي أبو الوليد الباجي: الذي يقتضيه الحديث مخالفة حكم مسجد مكة لسائر المساجد، ولا يعلم منه حكمها المدينة.

وذهب الطحاوي إلى أن هذا التفضيل إنما هو في صلاة الفرض.

وذهب مطرف ـ من أصحابنا ـ إلى أن ذلك في النافلة أيضًا؛ قال: وجمعة خير من جمعة، ورمضان خير من رمضان.

وقد ذكر عبد الرزاق في تفضيل رمضان بالمدينة وغيرها حديثًا نحوه.

وقال ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة».

ومثله عن أبي هريرة وأبي سعيد، وزادا: «ومنبري على حوضي».

وفي حديث آخر: «منبري على ترعة من ترع الجنة».

قال الطبري: فيه مَعْنيان:

أحدهما: أن المراد بالبيت بيت سُكناه على الظاهر؛ مع أنه روي ما يبينه: «بين حجرتي ومنبري».

والثاني: أن البيت هنا القبر، وهو قول زيد بن أسلم في الحديث، كما روي: «بين قبري ومنبري»، قال الطبري: وإذا كان قبره في بيته اتفقت معاني الروايات، ولم يكن بينها خلاف، لأن قبره في حجرته، وهو بيته.

وقوله: «ومنبري على حوضي»: قيل: يحتمل أنه منبره بعينه الذي كان في الدنيا، هو أظهر.

والثاني: أن يكون له هناك منبر.

والثالث: أن قَصْدَ منبره والحضور عنده لملازمة الأعمال الصالحة يورد الحوض ويوجب الشرب منه، قاله الباجي.

وقوله: «روضة من رياض الجنة» يحتمل معنيين:

أحدهما: أنه موجب لذلك، وأن الدعاء والصلاة فيه يستحق ذلك من الثواب؛ كما قيل: «الجنة تحت ظلال السيوف»[1].

والثاني: أن تلك البقعة قد ينقلها الله فتكون في الجنة بعينها؛ قاله الداودي.

وروى ابن عمر وجماعة من الصحابة أن النبي ﷺ قال في المدينة: «لا يصبر على لأوائها وشدتها أحدٌ إلا كنت له شهيدًا أو شفيعًا يوم القيامة».

وقال فيمن تحمل عن المدينة: «والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون».

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٨١٩، ٢٩٦٦، ٣٢٠٤)، ومسلم (١٧٤٢، ١٩٠٢).

وقال: «إنما المدينة كالكير تنفي خبثها، وينصع طيبها».

وقال: « لا يخرج أحدٌ من المدينة رغبة عنها إلا أبدلها الله خيراً منه».

وروي عنه ﷺ: «من مات في أحد الحرمين حاجًا أو معتمراً بعثه الله يوم القيامة لا حساب عليه ولا عذاب»(١).

وفي طريق آخر: «بعث من الآمنين يوم القيامة»(٢).

وعن ابن عمر: «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها، فإني أشفع لمن يموت بها».

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧].

قال بعض المفسرين: آمنًا من النار، وقيل: كان يأمن من الطلب من أحدث حدثًا خارجًا عن الحرم ولجأ إليه في الجاهلية، وهذا مثل قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]. على قول بعضهم.

وحكي أن قومًا أتوا سعدون الخولاني بالمُنستِير فأعلموا أن كُتَامَةَ قتلوا رجلاً وأضرموا عليه النار طول الليل فلم تعمل فيه شيئًا، وبقي أبيض اللون، فقال: لعله حج ثلاث حجج؟ قالوا: نعم، قال حدثت: أن من حج حجة أدىٰ فرضه، ومن حج ثانية داين ربه، ومن حج ثلاث حجج حرم الله شعره وبشره على النار.

ولما نظر رسول الله ﷺ إلى الكعبة قال: «مرحبًا بك من بيت، ما أعظمك وأعظم حُرْمتك».

وفي الحديث عنه ﷺ: «ما من أحد يدعو الله تعالى عند الركن الأسود إلا استجاب الله له، وكذلك عند الميزاب».

وعنه ﷺ: «من صلى خلف المقام ركعتين غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وحشر يوم القيامة من الآمنين».

قال الفقيه القاضي أبو الفضل: قرأت على القاضي الحافظ أبي عليّ ـ رحمه الله ـ، حدثنا أبو العباس العذري، قال: حدثنا أبو أسامة محمد بن أحمد بن محمد الهروي، حدثنا الحسن ابن رشيق، سمعت أبا الحسن محمد بن الحسن بن راشد، سمعت أبا بكر

(١) ضعيف: ذكره ابن عدي في الكامل في الضعفاء (٤/ ١٣٦).
(٢) ضعيف: أخرجه الطيالسي (٦٥)، والبيهقي في الشعب (٤١٥٢)، وذكره العقيلي في الضعفاء (٤/ ٣٦١).

محمد بن إدريس، سمعت الحميدي؛ قال: سمعت سفيان بن عيينة، قال: سمعت عمرو بن دينار قال: سمعت ابن عباس يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما دعا أحد بشيء في هذا الملتزم إلا استجيب له**»[1].

قال ابن عباس: وأنا فما دعوت الله بشيءٍ في هذا الملتزم منذ سمعت هذا من رسول الله ﷺ إلا استجيب لي.

وقال عمرو بن دينار: وأنا فما دعوت الله تعالى بشيء في هذا الملتزم منذ سمعت هذا من ابن عباس إلا استجيب لي.

وقال سفيان: وأنا فما دعوت الله بشيء في هذا الملتزم منذ سمعت هذا من عمرو إلا استجيب لي.

قال الحميدي: وأنا فما دعوت الله بشيء في هذا الملتزم منذ سمعت هذا من سفيان إلا استجيب لي.

وقال محمد بن إدريس: وأنا فما دعوت الله بشيء في هذا الملتزم منذ سمعت هذا من الحميدي إلا استجيب لي.

وقال أبو الحسن محمد الحسن: وأنا فما دعوت الله بشيءٍ في هذا الملتزم منذ سمعت هذا من محمد بن إدريس إلا استجيب لي.

قال أبو أسامة: وما أذكر الحسن بن رشيق قال فيه شيئًا؛ وأنا فما دعوت الله بشيء في هذا المتلزم منذ سمعت هذا من الحسن بن رشيق إلا استجيب لي من أمر الدنيا، وأنا أرجو أن يستجاب لي من أمر الآخرة.

قال العذري: وأنا فما دعوت بشيء في هذا الملتزم منذ سمعت هذا من أبي أسامة إلا استجيب لي.

قال أبو علي: وأنا فقد دعوت الله فيه بأشياء كثيرة استجيب لي بعضها، وأنا أرجو من سعة فضله أن يستجيب لي بقيتها.

قال القاضي أبو الفضل: ذكرنا نبذًا من هذه النكت في هذا الفصل وإن لم تكن من الباب لتعلقها بالفصل الذي قبله حرصًا على تمام الفائدة؛ والله الموفق للصواب برحمته.

(١) موضوع: ذكره الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٥٠٦٤).

القسم الثالث

فيما يجب للنبي ﷺ وما يستحيل في حقه أو يجوز عليه، وما يمتنع أو يصح من الأحوال البشرية أن يضاف إليه

مقدمة القسم الثالث

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة: ٧٥].

وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠].

فمحمد ﷺ وسائر الأنبياء من البشر أرسلوا إلى البشر، ولولا ذلك لما أطاق الناس مقاومتهم والقبول عنهم ومخاطبتهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً ﴾ [الأنعام: ٩]؛ أي لما كان إلا في صورة البشر الذين يمكنكم مخالطتهم؛ إذ لا تطيقون مقاومة الملك ومخاطبته ورؤيته إذا كان على صورته.

وقال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء: ٩٥]؛ أي : لا يمكن في سنة الله إرسال الملك إلا لمن هو من جنسه، أو من خصه الله تعالى واصطفاه وقواه على مقاومته، كالأنبياء والرسل.

فالأنبياء والرسل عليهم السلام وسائط بين الله تعالى وبين خلقه يبلغونهم أوامره ونواهيه، ووعده ووعيده، ويعرفونهم بما لم يعلموه من أمره وخلقه، وجلاله وسلطانه وجبروته وملكوته، فظواهرهم وأجسادهم وبنيتهم متصفة بأوصاف البشر؛ طارئ عليها ما يطرأ على البشر من الأعراض والأسقام، والموت والفناء ونعوت الإنسانية، وأرواحهم وبواطنهم متصفة بأعلى من أوصاف البشر، متعلقة بالملأ الأعلى، متشبهة بصفات الملائكة، سليمة من التغير والآفات، لا يلحقها غالبًا عجز البشرية، ولا ضعف الإنسانية، إذ لو كانت بواطنهم خالصة للبشرية كظواهرهم لما أطاقوا الأخذ عن الملائكة ورؤيتهم ومخاطبتهم ومخالطتهم، كما لا يطيقه غيرهم من البشر.

ولو كانت أجسادهم وظواهرهم متسمة بنعوت الملائكة، وبخلاف صفات البشر، لما أطاق البشر ومن أرسلوا إليهم مخالطتهم، كما تقدم من قول الله تعالى، فجعلوا من جهة الأجسام والظواهر مع البشر، ومن جهة الأرواح والبواطن مع الملائكة، كما قال ﷺ: «لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً؛ ولكن أخوة الإسلام، لكن صاحبكم خليل الرحمن»(١). وكما قال: «تنام عيناي ولا ينام قلبي»(٢).

وقال: «إني لست كهيئتكم، إني أظل يطعمني ربي ويسقيني»(٣).

فبواطنهم منزهة عن الآفات، مطهرة عن النقائص والاعتلالات.

وهذه جملة لن يكتفي بمضمونها كل ذي همة، بل الأكثر يحتاج إلى بسط وتفصيل على ما نأتي به بعد هذا في البابين بعون الله، وهو حسبي ونعم الوكيل.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٦، ٣٦٥٤، ٣٦٥٧)، ومسلم (٢٣٨٢).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١١٤٧، ٢٠١٣، ٣٥٦٩)، ومسلم (٧٣٨).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (١٩٦٥، ٧٢٤٢)، ومسلم (١١٠٣).

الباب الأول

فيما يختص بالأمور الدينية والكلام في عصمة نبينا عليه الصلاة والسلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم

قال القاضي أبو الفضل - رضي الله عنه - : اعلم أن الطوارئ من التغيرات والآفات على آحاد البشر لا يخلو أن تطرأ على جسمه، أو على حواسه بغير قصد واختيار، كالأمراض والأسقام، أو تطرأ بقصد واختيار، وكله في الحقيقة عمل وفعل، ولكن جرى رسم المشايخ بتفصيله إلى ثلاثة أنواع: عقد بالقلب، وقول باللسان وعمل بالجوارح.

وجميع البشر تطرأ عليهم الآفات والتغيرات بالاختيار وبغير الاختيار في هذه الوجوه كلها.

والنبي ﷺ وإن كان من البشر، ويجوز على جبلته ما يجوز على جبلة البشر، فقد قامت البراهين القاطعة، وتمت كلمة الإجماع على خروجه عنهم، وتنزيهه عن كثير من الآفات التي تقع على الاختيار وعلى غير الاختيار، كما سنبينه - إن شاء الله - فيما نأتي من التفاصيل.

الفصل الأول

في حكم عقد قلب النبي ﷺ من وقت نبوته

اعلم ـ منحنا الله وإياك توفيقه ـ أن ما تعلق منه بطريق التوحيد، والعلم بالله وصفاته، والإيمان به، وبما أوحي إليه على غاية المعرفة، ووضوح العلم واليقين، والانتفاء عن الجهل بشيء من ذلك، أو الشك أو الريب فيه، والعصمة من كل ما يضاد المعرفة بذلك واليقين.

هذا ما وقع إجماع المسلمين عليه، ولا يصح بالبراهين الواضحة أن يكون في عقود الأنبياء سواه؛ ولا يعترض على هذا بقول إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ إذ لم يشك إبراهيم في إخبار الله تعالى له بإحياء الموتى، ولكن أراد طمأنينة القلب، وترك المنازعة لمشاهدة الإحياء، فحصل له العلم الأول بوقوعه، وأراد العلم الثاني بكيفيته ومشاهدته.

الوجه الثاني: أن إبراهيم عليه السلام إنما أراد اختبار منزلته عند ربه، وعلم إجابته دعوته بسؤال ذلك من ربه، ويكون قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ أي تصدق بمنزلتك مني، وخلتك، واصطفائك.

الوجه الثالث: أنه سأل زيادة يقين وقوة طمأنينة، وإن لم يكن في الأول شك، إذ العلوم الضرورية والنظرية قد تتفاضل في قوتها، وطريان الشكوك على الضروريات ممتنع، ومجوَّز في النظريات، فأراد الانتقال من النظر والخبر إلى المشاهدة والترقي من علم اليقين إلى عين اليقين، فليس الخبر كالمعاينة.

ولهذا قال سهل بن عبد الله: سأل كشف غطاء العيان ليزداد بنور اليقين تمكنًا في حاله.

الوجه الرابع: أنه لما احتج على المشركين بأن ربه يحيي ويميت طلب ذلك من ربه ليصح احتجاجه عيانًا.

الوجه الخامس: قول بعضهم: هو سؤال على طريق الأدب، والمراد: أقدرني على إحياء الموتى، وقوله: ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ عن هذه الأمنية.

الوجه السادس: أنه أرى من نفسه الشك، وما شك، لكن ليُجاوبَ فيزداد قربه.

وقول نبينا ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»[1] نفي لأن يكون إبراهيم شك وإبعاد للخواطر الضعيفة أن تظُنَّ هذا بإبراهيم، أي: نحن موقنون بالبعث، و إحياء الله الموتى؛ فلو شك إبراهيم لكنا أولى بالشك منه، إما على طريق الأدب، أو أن يريد أمته الذين يجوز عليهم الشك، أو على التواضع والإشفاق إن حملت قصة إبراهيم على اختبار حاله، أو زيادة يقينه.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الآيتين [يونس: ٩٤-٩٥].

فاحذر - ثبت الله قلبك - أن يخطر ببالك ما ذكره بعض المفسرين، عن ابن عباس أو غيره من إثبات شك للنبي ﷺ فيما أوحي إليه وأنه من البشر، فمثل هذا لا يجوز عليه جملة، بل قد قال ابن عباس وغيره: لم يشك النبي ﷺ ولم يسأل. ونحوه عن ابن جبير والحسن. وحكى قتادة أن النبي ﷺ قال: «ما أشك ولا أسأل»، وعامة المفسرين على هذا. واختلفوا في معنى الآية: فقيل: المراد: قل: يا محمد للشاك: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ ﴾ الآية[يونس: ٩٤].

قالوا: وفي السورة نفسها ما دلَّ على هذا التأويل قوله: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ١٠٤].

وقيل: المراد بالخطاب العرب وغير النبي ﷺ كما قال: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥]. الخطاب له، والمراد غيره.

ومثله ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ﴾ [هود: ١٠٩] ونظيره كثير.

قال بكر بن العلاء: ألا تراه يقول: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [يونس: ٩٥]. وهو ﷺ كان المكذَّب فيما يدعو إليه؛ فكيف يكون ممن كذب به؟! فهذا كله يدل على أن المراد بالخطاب غيره.

ومثل هذه الآية قوله: ﴿ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٩]. المأمور هاهنا غير

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٣٧٢، ٤٥٣٧)، ومسلم (١٥١).

النبي ﷺ ليسأل النبي، والنبي ﷺ هو الخبير المسئول لا المستخبر السائل.

وقال: إن هذا الشك الذي أُمِر به غير النبي ﷺ بسؤال الذين يقرؤون الكتاب إنما هو فيما قصه الله من أخبار الأمم، لا فيما دعا إليه من التوحيد والشريعة.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] المراد به المشركون، والخطاب مواجهة للنبي ﷺ. قاله العُتبي.

وقيل: معناه: سلنا عمن أرسلنا من قبلك، فحذف الخافض، وتم الكلام، ثم ابتدأ ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ...﴾ [الزخرف: ٤٥] إلى آخر الآية، على طريق الإنكار؛ أي: ما جعلنا؛ حكاه مكي.

وقيل: أمر النبي ﷺ أن يسأل الأنبياء ليلة الإسراء عن ذلك، فكان أشد يقينًا من أن يحتاج إلى السؤال.

فروي أنه قال: «لا أسأل؛ قد اكتفيت». قاله ابن زيد.

وقيل: سل أمم من أرسلنا؛ هل جاءهم بغير التوحيد؟ وهو معنى قول مجاهد، والسدي، والضحاك، وقتادة.

والمراد بهذا والذي قبله: إعلامه بما بعثت به الرسل، وأنه تعالى لم يأذن في عبادة غيره لأحد، ردًا على مشركي العرب وغيرهم، في قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤]؛ أي: في علمهم بأنك رسول الله، وإن لم يقروا بذلك؛ وليس المراد به شكه فيما ذكر في أول الآية.

وقد يكون أيضًا على مثل ما تقدم؛ أي قل يا محمد لمن امترى في ذلك: لا تكونن من الممترين، بدليل قوله أول الآية: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ [الأنعام: ١١٤] وأن النبي ﷺ يخاطب بذلك غيره.

وقيل: هو تقرير؛ كقوله تعالى: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]. وقيل: معناه ما كنت في شك فاسأل تزدد طمأنينة وعلمًا إلى علمك ويقينك.

وقيل: إن كنت تشك فيما شرفناك وفضلناك به فاسألهم عن صفتك في الكتب ونشر فضائلك.

وحكي عن أبي عبيدة أن المراد: إن كنت في شك من غيرك فيما أنزلناه.

فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ [يوسف: ١١٠] على قراءة التخفيف؟ قلنا: المعنى في ذلك ما قالته عائشة ـ رضي الله عنها ـ: معاذ الله أن تظن ذلك الرسل بربها، وإنما معنى ذلك أن الرسل لما استيأسوا ظنوا أن من وعدهم النصر من أتباعهم كذبوهم؛ وعلى هذا أكثر المفسرين.

وقيل: إن الضمير في ﴿ظَنُّوا﴾ عائد على الأتباع والأمم، لا على الأنبياء والرسل وهو قول ابن عباس، والنخعي، وابن جبير، وجماعة من العلماء.

وبهذا المعنى قرأ مجاهد «كَذَبُوا» بالفتح، فلا تشغل بالك من شاذ التفسير بسواه مما لا يليق بمنصب العلماء، فكيف بالأنبياء؟!

وكذلك ما ورد في حديث السيرة، ومبتدأ الوحي؛ من قوله ﷺ لخديجة: «**لقد خشيت على نفسي**» ليس معناه الشك فيما آتاه الله بعد رؤية الملك؛ ولكن لعله خشي أن لا تحتمل قوته مقاومة الملك وأعباء الوحي، فينخلع قلبه، أو تزهق نفسه.

وهذا على ما ورد في «الصحيح»: أنه قال بعد لقائه الملك؛ أو يكون ذلك قبل لقياه وإعلام الله تعالى له بالنبوة لأول ما عُرضت عليه من العجائب، وسلم عليه الحجر والشجر، وبدأته المنامات والتباشير؛ كما روي في بعض طرق هذا الحديث: «**إن ذلك كان أولاً في المنام، ثم أرى في اليقظة مثل[1] ذلك**»، تأنيسًا له عليه السلام؛ لئلا يفجأه الأمر مشاهدة ومشافهة؛ فلا تحتمله لأول حالة بنية البشرية.

وفي «الصحيح» عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «**أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة**» قالت: ثم حبب إليه الخلاء. وقالت: «إلى أن جاءه الحق وهو في غار حراء . .» الحديث.

وعن ابن عباس: «مكث النبي ﷺ بمكة خمس عشرة سنة يسمع الصوت، ويرى الضوء سبع سنين ولا يرى شيئًا، وثمان سنين يوحى إليه.

وقد روى ابن إسحاق عن بعضهم أن النبي ﷺ قال ـ وذكر جواره بغار حراء ـ، قال: «**فجاءني وأنا نائم فقال: اقرأ، فقلت: ما أقرأ؟**» وذكر نحو حديث عائشة في غطه له وإقرائه له ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ . . .﴾ السورة ثلاثًا [العلق: ١].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

قال: «فانصرف عني وهببت من نومي كأنما صورت في قلبي، ولم يكن أبغض إلي من شاعر أو مجنون».

ثم قلت: لا تحدث عني بهذا أبدًا، لأعمدن إلىٰ حالق هذا الجبل فلأطرحن نفسي منه، فلأقتلنها[١].

فبينا أنا عامد لذلك إذ سمعت مناديًا ينادي من السماء: يا محمد؛ أنت رسول الله وأنا جبريل، فرفعت رأسي فإذا جبريل علىٰ صورة رجل. . .» وذكر الحديث.

فقد بين في هذا أن قوله لما قال، وقصده لما قصد، إنما كان قبل لقاء جبريل عليهما السلام، وقبل إعلام الله تعالىٰ له بالنبوة، وإظهاره واصطفائه له بالرسالة.

ومثله حديث عمرو بن شرحبيل: أنه ﷺ قال لخديجة: «**إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، وقد خشيت ـ والله ـ أن يكون لأمر**»[٢].

ومن رواية حماد بن سلمة أن النبي ﷺ قال لخديجة: «**إني لأسمع صوتًا وأرى ضوءًا، وأخشى أن يكون بي جنون**»[٣].

وعلىٰ هذا يتأول لو صح قوله في بعض هذه الأحاديث: «إن الأبعد شاعر أو مجنون» وألفاظ يفهم منها معاني الشك في تصحيح ما رآه، وأنه كان كله في ابتداء أمره، وقبل لقاء الملك له، وإعلام الله أنه رسوله؛ فكيف وبعض هذه الألفاظ لا تصح طرقها؟!

وأما بعد إعلام الله تعالىٰ ولقائه الملك فلا يصح فيه ريب، ولا يجوز عليه شك فيما ألقي إليه.

وقد روىٰ ابن إسحاق عن شيوخه أن رسول الله ﷺ كان يُرقىٰ بمكة من العين قبل أن ينزل عليه، فلما نزل عليه القرآن أصابه نحو ما كان يصيبه، فقالت له خديجة: أوجّه إليك من يرقيك؟ قال: «أما الآن فلا».

وحديث خديجة واختبارها أمر جبريل بكشف رأسها ـ الحديث ـ إنما ذلك في حق خديجة لتتحقق صحة نبوة رسول الله ﷺ وأن الذي يأتيه ملك، ويزول الشك عنها، لأنها فعلت ذلك للنبي ﷺ وليختبر هو حاله بذلك.

---

(١) مرسل: أخرجه البخاري في صحيحه عن الزهري مرسلاً، ولم نقف عليه موصولاً.

(٢) مرسل: ذكره الحافظ في الإصابة (٦/ ٦٠٨) في ترجمة ورقة بن نوفل، وقال: «أخرجه البيهقي في الدلائل من هذا الوجه، وقال: هذا منقطع» قلت: يقصد مرسل، وكذا ذكره الطبري في «الرياض النضرة في مناقب العشرة» (١/ ٤٣١).

(٣) صحيح: أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ١٩٥)، والطبراني في الكبير (١٢/ ١٨٦).

بل قد ورد في حديث عبد الله بن محمد بن يحيىٰ بن عروة ،عن هشام، عن أبيه ،عن عائشة : أن ورقة أمر خديجة أن تخبر الأمر بذلك .

وفي حديث إسماعيل بن أبي حكيم أنها قالت لرسول ﷺ : « يا بن عم ؛ هل تستطيع أن تخبرني بصاحبك إذا جاءك قال: «نعم» ؛ فلما جاءه جبريل أخبرها ، فقالت له : اجلس إلىٰ شقي . . » وذكر الحديث إلىٰ آخره ، وفيه فقالت : « ما هذا بشيطان ، هذا الملك يا بن عم ؛ فاثبت وأبشر ، وآمنتْ به» .

فهذا يدل علىٰ أنها مستثبتة بما فعلته لنفسها ، ومستظهرة لإيمانها لا للنبي ﷺ ، وقول معمر في فترة الوحي : فحزن النبي ﷺ ـ فيما بلغنا ـ حزنًا غدا منه مرارًا كي يتردىٰ من شواهق الجبال لا يقدح في هذا الأصل ، لقول معمر عنه فيما بلغنا ، ولم يسنده ، ولا ذكر رواته ، ولا من حدث به ، ولا أن النبي ﷺ قاله ؛ ولا يعرف مثل هذا إلا من جهة النبي ﷺ مع أنه قد يحمل علىٰ أنه كان أول الأمر كما ذكرناه أو أنه فعل ذلك لما أخرجه من تكذيب من بلَّغه ، كما قال تعالىٰ : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف : ٦] .

ويصحح معنىٰ هذا التأويل حديث رواه شريك ، عن عبد اللهبن محمد بن عقيل ، عن جابر بن عبد الله : أن المشركين لما اجتمعوا بدار الندوة للتشاور في شأن النبي ﷺ واتفق رأيهم علىٰ أن يقولوا : إنه ساحر ؛ اشتد ذلك عليه ، وتزمل في ثيابه ، وتدثر فيها ؛ فأتاه جبريل فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .

أو خاف أن الفترة لأمر أو سبب منه ، فخشي أن تكون عقوبة من ربه ، ففعل ذلك بنفسه ولم يرد بعد شرع بالنهي عن ذلك فيعترض به .

ونحو هذا فرار يونس : عليه السلام خشية تكذيب قومه له ، لما وعدهم به من العذاب ؛ وقول الله تعالىٰ في يونس ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ [الانبياء : ٨٧] معناه : أن لن نضيِّق عليه .

قال مكي : طمع في رحمة الله وألا يضيق عليه مسلكه في خروجه .

وقيل : حسن ظنه بمولاه أنه لا يقضي عليه العقوبة .

وقيل : نقدر عليه ما أصابه .

وقد قرئ : نُقَدِّر عليه ـ بالتشديد .

وقيل : نؤاخذه بغضبه وذهابه .

وقال ابن زيد: معناه: أفظن أن لن نقدر عليه؟ !على الاستفهام. ولا يليق أن يظن بنبي أنه يجهل صفة من صفات ربه.

وكذلك قوله: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧] الصحيح مغاضبًا لقومه لكفرهم، وهو قول ابن عباس، والضحاك وغيرهما، لا لربه عز وجل، إذ مغاضبة الله معاداة له؛ ومعاداة الله كفر لا يليق بالمؤمنين، فكيف بالأنبياء!

وقيل: مستحييًا من قومه أن يَسِمُوه بالكذب أو يقتلوه، كما ورد في الخبر.

وقيل: مغاضبًا لبعض الملوك فيما أمر به من التوجه إلى أمر أمره الله به على لسان نبي آخر، فقال له يونس: غيري أقوى عليه مني؛ فعزم عليه فخرج لذلك مغاضبًا.

وقد روي عن ابن عباس: أن إرسال يونس ونبوته إنما كان بعد أن نبذه الحوت، واستدل من الآية بقوله: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٥-١٤٧].

ويستدل أيضًا بقوله: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨]، وذكر القصة.

ثم قال: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: ٥٠]. فتكون هذه القصة إذًا قبل نبوته.

فإن قيل: فما معنى قوله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي، فأستغفر الله في كل يوم مائة مرة»(١).

وفي طريق: «في اليوم أكثر من سبعين مرة».

فاحذر أن يقع ببالك أن يكون هذا الغين وسوسة أو رَيْبًا وقع في قلبه عليه السلام، بل أصل الغين في هذا: ما يتغشى القلب ويغطيه؛ قاله أبو عبيد؛ وأصله من غين السماء، وهو إطباق الغيم عليها.

وقال غيره: والغين شيء يُغَشِّي القلب ولا يغطيه كل التغطية؛ كالغيم الرقيق الذي يعرض في الهواء فلا يمنع ضوء الشمس.

وكذلك لا يفهم من الحديث أنه يغان على قلبه مائة مرة أو أكثر من سبعين مرة في اليوم؛ إذ ليس يقتضيه لفظه الذي ذكرناه؛ وهو أكثر الروايات؛ وإنما هذا عدد للاستغفار لا

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٠٢).

للغين؛ فيكون المراد بهذا الغين إشارة إلى غفلات قلبه وفترات نفسه، وسهوها عن مداومة الذكر ومشاهدة الحق بما كان ﷺ دفع إليه من مقاساة البشر، وسياسة الأمة، ومعاناة الأهل ومقاومة الولي والعدو ومصلحة النفس، وكلفه من أعباء أداء الرسالة وحمل الأمانة، وهو في كل هذا في طاعة ربه وعبادة خالقه، ولكن لما كان ﷺ أرفع الخلق عند الله مكانة، وأعلاهم درجة، وأتمهم به معرفة، وكانت حاله عند خلوص قلبه، وخلو همته، وتفرده بربه، وإقباله بكليته عليه، ومقامه هنالك أرفع حالَيْه رأى ﷺ حال فترته عنها، وشغله بسواها غضًا من عليِّ حاله، وخفضًا من رفيع مقامه؛ فاستغفر الله من ذلك.

وهذا أولى وجوه الحديث وأشهرها. وإلى معنى ما أشرنا به مال كثيرٌ من الناس، وحام حوله؛ فقارب ولم يرد. وقد قربنا غامض معناه، وكشفنا للمستفيد محياه، وهومبني على جواز الفترات والغفلات، والسهو في غير طريق البلاغ، كما سيأتي.

وذهبت طائفة من أرباب القلوب، ومشيخة المتصوفة، ممن قال بتنزيه النبي ﷺ عن هذا جملة، وأجله أن يجوز عليه في حاله سهو أو فترة - إلى أن معنى الحديث: ما يهم خاطره ويغم فكره من أمر أمته ﷺ، لاهتمامه بهم، وكثرة شفقته عليه، فيستغفر لهم.

قالوا: وقد يكون الغين هنا على قلبه السكينة التي تتغشاه، لقوله تعالى: ﴿ **فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ** ﴾ [التوبة: ٤٠] ويكون استغفاره ﷺ عندها إظهارًا للعبودية والافتقار.

وقال ابن عطاء: استغفاره وفعله هذا تعريف للأمة بحملهم على الاستغفار.

وقال غيره: ويستشعرون الحذر، ولا يركنون إلى الأمن.

وقد يحتمل أن تكون هذه الإغانة حالة خشية وإعظام تغشى عليه قلبه فيستغفر حينئذ شكرًا لله، وملازمة لعبوديته؛ كما قال في ملازمة العبادة: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا؟!**»[1].

وعلى هذه الوجوه الأخيرة يحمل ما روي في بعض طرق هذا الحديث عنه ﷺ إنه ليغان على قلبي في اليوم أكثر من سبعين مرة، فأستغفر الله.

فإن قلت: فما معنى قوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [الأنعام: ٩٥]، وقوله لنوح عليه السلام: ﴿ **فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [هود: ٤٦]؟

فاعلم أنه لا يلتفت في ذلك إلى قول من قال في آية نبينا ﷺ: لا تكونن ممن يَجهل أن

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٠٧).

الله لو شاء لجمعهم على الهدى ، وفي آية نوح : لا تكوننّ ممن يَجهل أن وعد الله حق؛ لقوله: ﴿ وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ﴾ [هود: ٤٥]؛ إذ فيه إثبات الجهل بصفة من صفات الله؛ وذلك لا يجوز على الأنبياء.

والمقصود وعظهم ألا يتشبهوا في أمورهم بسمات الجاهلين، كما قال ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ ﴾ [هود: ٤٦] وليس في آية منهما دليلٌ على كونهم على تلك الصفة التي نهاهم عن الكون عليها؛ فكيف؟ وآية نوح قبلها ﴿ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [هود: ٤٦] فحمل ما بعدها على ما قبلها أولى؛ لأن مثل هذا قد يحتاج إلى إذن.

وقد يجوز إباحة السؤال فيه ابتداء، فنهاه الله أن يسأله عما طوى عنه علمه، وأكنه من غيبه من السبب الموجب لهلاك ابنه.

ثم أكمل الله تعالى نعمته عليه بإعلامه ذلك بقوله: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود: ٤٦] حكى معناه مكي.

كذلك أمر نبينا في الآية الأخرى بالتزام الصبر على إعراض قومه؛ ولا يحرج عند ذلك؛ فيقارب حال الجاهل بشدة التحسر، حكاه أبو بكر بن فورك.

وقيل: معنى الخطاب لأمة محمد؛ أي فلا تكونوا من الجاهلين، حكاه أبو محمد مكي؛ وقال: مثله في القرآن كثير.

فبهذا الفصل اوجب القول بعصمة الأنبياء منه بعد النبوة قطعًا.

فإن قلت: فإذا قررت عصمتهم من هذا، وأنه لا يجوز عليهم شيء من ذلك فما معنى إذًا وعيد الله لنبينا ﷺ على ذلك إن فعله، وتحذيره منه؛ كقوله: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٧٤-٧٥].

وقوله: ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ [الحاقة: ٤٥].

وقوله: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وقوله: ﴿ فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [الشورى: ٢٤].

وقوله: ﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقوله: ﴿ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ [الأحزاب: ١].

فاعلم ـ وفقنا الله وإياك ـ أنه ﷺ لا يصح، ولا يجوز عليه ألا يبلغ وأن يخالف أمر ربه، ولا أن يشرك به، ولا يتقول على الله ما لا يجب، أو يفتري عليه، أو يضل أو يختم على قلبه، أو يطيع الكافرين، لكن الله يسر أمره بالمكاشفة والبيان في البلاغ للمخالفين، وأن إبلاغه إن لم يكن بهذه السبيل فكأنه ما بلغ.

وطيب نفسه وقوى عليه قلبه بقوله: ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧]، كما قال لموسى وهارون: ﴿ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا ﴾ [طه: ٤٦]، لتشتد بصائرهم في الإبلاغ وإظهار دين الله، ويذهب عنهم خوف العدو المضعف للنفس.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

وقوله: ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ [الإسراء: ٧٥]. فمعناه: أن هذا جزاء من فعل هذا وجزاؤك لو كنت ممن يفعله، وهو لا يفعله.

وكذلك قوله: : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦]. فالمراد غيره؛ كما قال: ﴿ إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٩].

وقوله: ﴿ فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [الشورى: ٢٤].

و ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر: ٦٥] وما أشبهه، فالمراد غيره، وأن هذه حال من أشرك، والنبي ﷺ لا يجوز عليه هذا.

وقوله: ﴿ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ﴾ [الأحزاب: ١]. فليس فيه أنه أطاعهم، والله ينهاه عما يشاء ويأمره بما يشاء؛ كما قال: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وما كان طردهم ﷺ ولا كان من الظالمين.

الفصل الثاني

في عصمة الأنبياء قبل النبوة
من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شيء من ذلك

وأما عصمتهم من هذا الفن قبل النبوة فللناس فيه خلاف، والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شيء من ذلك.

وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا، ونشأتهم على التوحيد والإيمان؛ بل على إشراق أنوار المعارف، ونفحات ألطاف السعادة، كما نبهنا عليه في الباب الثاني من القسم الأول من كتابنا هذا.

ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحداً نُبِّئَ واصطُفي ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك. ومستند هذا الباب النقل، وقد استدل بعضهم بأن القلوب تنفر عمن كانت هذه سبيله.

وأنا أقول: إن قريشًا قد رمت نبينا بكل ما افترته، وعيَّر كفار الأمم أنبياءهم بكل ما أمكنها واختلقته، مما نص الله تعالى عليه، أو نقلته إلينا الرواة، ولم نجد في شيء من ذلك تعييراً لواحد منهم برفضه آلهته، وتقريعه بذمه بترك ما كان قد جامعهم عليه.

ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين، وبتلونه في معبوده محتجين، ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبل أفظع وأقطع في الحجة من توبيخه بنهيهم عن تركهم آلهتهم، وما كان يعبد آباؤهم من قبل.

ففي إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلاً إليه، إذا لو كان لنقل، وما سكتوا عنه، كما لم يسكتوا عند تحويل القبلة وقالوا: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]. كما حكاه الله عنهم.

وقد استدل القاضي القشيري على تنزيههم عن هذا بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال : وطهّره الله في الميثاق ، وبعيد أن يأخذ منه الميثاق قبل خلقه ثم يأخذ ميثاق النبيين بالإيمان ونصره قبل مولده بدهور، ويجوز عليه الشرك أو غيره من الذنوب، هذا ما لا يجوزه إلا ملحد.

هذا معنى كلامه.

وكيف يكون ذلك وقد أتاه جبريل عليه السلام، وشق قلبه صغيراً، واستخرج منه علقة، وقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله وملأه حكمة وإيمانًا، كما تظاهرت به أخبار المبدأ.

ولا يشبه عليك بقول إبراهيم في الكوكب والقمر والشمس: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦-٧٧] ؛ فإنه قد قيل: كان هذا في سن الطفولية وابتداء النظر والاستدلال، وقبل لزوم التكليف.

وذهب معظم الحذاق من العلماء والمفسرين إلى أنه إنما قال ذلك مبكتًا لقومه، ومستدلاً عليهم؛

وقيل: معناه الاستفهام الوارد مورد الإنكار؛ والمراد: فهذا ربي؟

قال الزجاج: قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ أي: على قولكم؛ كما قال: ﴿أين شركائي﴾ [النحل: ٢٧] أي عندكم.

ويدل على أنه لم يعبد شيئًا من ذلك، ولا أشرك قط بالله طرفة عين: قول الله عز وجل عنه: ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٧٠].

ثم قال: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧].

وقال: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤] ؛ أي: من الشرك.

وقوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

فإن قلت فما معنى قوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧].

قيل: إنه لم يؤيدني الله بمعونته أكن مثلكم في ضلالتكم وعبادتكم، على معنى الإشفاق والحذر؛ وإلا فهو معصوم في الأزل من الضلال.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣]. ثم قال بعد عن الرسل: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ

عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ [الأعراف: ٨٩]؛ فلا تشكل عليك لفظة العود، وأنها تقتضي أنهم إنما يعودون إلىٰ ما كانوا فيه من ملتهم، فقد تأتي هذه اللفظة في كلام العرب لغير ما ليس له ابتداء بمعنىٰ الصيرورة؛ كما جاء في حديث الجهنميين: «عادوا حممًا» ولم يكونوا قبل كذلك.

ومثله قول الشاعر:

تلك المكارم لا قَعْبان من لبن شِيَبا بماء فعادا بعدُ أبوالا

وما كانا قبلُ كذلك فإن قلت: فما معنىٰ قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى: ٧]؛ فليس هو من الضلال الذي هو الكفر؛ قيل: ضالاً عن النبوة فهداك إليها؛ قاله الطبري.

وقيل: وجدك بين أهل الضلال، فعصمك من ذلك، وهداك للإيمان، وإلىٰ إرشادهم.

ونحوه عن السدي وغير واحد.

وقيل: ضالاً عن شريعتك؛ أي: لا تعرفها فهداك إليها.

والضلال هنا التحير، ولهذا كان ﷺ يخلو بغار حراء في طلب ما يتوجه به إلىٰ ربه ويتشرع به حتىٰ هداه الله إلىٰ الإسلام، حكىٰ معناه القشيري.

وقيل: لا تعرف الحق، فهداك إليه، وهذا مثل قوله تعالىٰ: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ [النساء: ١١٣]. قاله علي بن عيسىٰ.

قال ابن عباس: لم تكن له ضلالة معصية.

وقيل: هدىٰ؛ أي بين أمرك بالبراهين.

وقيل: وجدك ضالاً بين مكة والمدينة؛ فهداك إلىٰ المدينة.

وقيل: المعنىٰ وجدك فهدىٰ بك ضالاً.

وعن جعفر بن محمد: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ ﴾ عن محبتي لك في الأزل، أي لا تعرفها، فمننت عليك بمعرفتي.

وقرأ الحسن بن عليّ: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ ﴾؛ أي: اهتدىٰ بك.

وقال ابن عطاء: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ ﴾ أن محبًا لمعرفتي والضال المحب، كما قال: ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ [يوسف: ٩٥]؛ أي محبتك القديمة؛ ولم يريدوا هاهنا في

الدِّين، إذ لو قالوا ذلك في نبي الله لكفروا.

ومثله عند هذا قوله: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠]؛ أي محبة بينة.

وقال الجنيد: ووجدك متحيراً في بيان ما أُنزِل إليك فهداك لبيانه، لقوله ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]. وقيل: ووجدك لم يعرفك أحد بالنبوة حتى أظهرك، فهدى بك السعداء، ولا أعلم أحداً قال من المفسرين فيها: ضالاً عن الإيمان.

وكذلك في قصة موسى عليه السلام قوله: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]؛ أي من المخطئين الفاعلين شيئًا بغير قصد؛ قاله ابن عرفة.

وقال الأزهري: معناه من الناسين.

وقد قيل ذلك في قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]؛ أي ناسيًا؛ كما قال تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢].

فالجواب: أن السمرقندي قال: معناه: ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان.

وقال بكر القاضي نحوه؛ قال: ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام؛ قال: فكان ﷺ قبلُ مؤمنًا بتوحيده، ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدريها قبل؛ فزاد بالتكليف إيمانًا؛ وهو أحسن وجوهه.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] فاعلم أنه ليس بمعنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس: ٧]؛ بل قد حكى أبو عبد الله الهروي أن معناه لمن الغافلين عن قصة يوسف؛ إذ لم تعلمها إلا بوحينا.

وكذلك الحديث الذي يرويه عثمان بن أبي شيبة بسنده عن جابر ـ رضي الله عنه ـ: أن النبي ﷺ قد كان يشهد مع المشركين مشاهدهم، فسمع ملكين خلفه، أحدهما يقول لصاحبه: اذهب حتى تقوم خلفه، فقال الآخر: كيف أقوم خلفه وعهده باستلام الأصنام؛ فلم يشهدهم بعد.

فهذا حديث أنكره أحمد بن حنبل جداً، وقال: هو موضوع، أو شبيه بالموضوع.

وقال الدارقطني: يقال: إن عثمان وهم في إسناده.

والحديث بالجملة منكر غير متفق على إسناده، فلا يلتفت إليه.

والمعروف عن النبي ﷺ خلافه عند أهل العلم من قوله: «بُغِّضت إليّ الأصنام».

وقوله: في الحديث الآخر الذي روته أم أيمن حين كلمه عمه وآله في حضور بعض أعيادهم، وعزموا عليه فيه بعد كراهته لذلك؛ فخرج معهم، ورجع مرعوبًا؛ فقال: «كلما دنوت منها من صنم تمثل لي شخص أبيض طويل يصيح بي: وراءك، لا تمسه، فما شهد بعد لهم عيدًا».

وقوله - في قصة بحيرا حين استحلف النبي ﷺ باللات والعزى إذ لقيه بالشام في سفرته مع عمه أبي طالب وهو صبي ورأى فيه علامات النبوة، فاختبره بذلك، فقال له النبي ﷺ «لا تسألني بهما، فوالله ما أبغضت شيئًا قط بغضهما».

فقال له بحيرا: فبالله إلا ما اخبرتني عم اسألك عنه. فقال: «سَلْ عما بدا لك»[1].

وكذلك المعروف من سيرته ﷺ وتوفيق الله له أنه كان قبل نبوته يخالف المشركين في وقوفهم بمزدلفة في الحج؛ فكان يقف هو بعرفة، لأنه كان موقف إبراهيم عليه السلام.

الفصل الثالث

في حكم عقد النبي في التوحيد والشرع والمعارف والأمور الدينية

قال القاضي أبو الفضل - وفقه الله -: قد بان بما قدمناه عقود الأنبياء في التوحيد والإيمان والوحي وعصمتهم في ذلك على ما بيناه.

فأما ما عدا هذا الباب من عقود قلوبهم فجماعها أنها مملوءة علمًا ويقينًا على الجملة، وأنها قد احتوت من المعرفة والعلم بأمور الدين والدنيا ما لا شيء فوقه. ومن طالع الأخبار، واعتنى بالحديث، وتأمل ما قلناه وجده.

وقد قدمنا منه في حق نبينا ﷺ في الباب الرابع أول قسم من هذا الكتاب ما ينبه على ما وراءه إلا أن أحوالهم في هذه المعارف تختلف.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٣).

فأما ما تعلق منها بأمر الدنيا فلا يشترط في حق الأنبياء العصمة من عدم معرفة الأنبياء ببعضها أو اعتقادها على خلاف ما هي عليه، ولا وصم عليهم فيه إذ هممهم متعلقة بالآخرة وأنبائها، وأمر الشريعة وقوانينها. وأمور الدنيا تضادها، بخلاف غيرهم من أهل الدنيا الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون، كما سنبين هذا في الباب الثاني إن شاء الله، ولكنه لا يقال: إنهم لا يعلمونَ شَيئًا من أمر الدنيا؛ فإن ذلك يؤدي إلى الغفلة والبله، وهم المنزهون عنه، بل قد أُرسلوا إلى أهل الدنيا، وقلدوا سياستهم وهدايتهم والنظر في مصالح دينهم ودنياهم، وهذا لا يكون مع عدم العلم بأمور الدنيا بالكلية، وأحوال الأنبياء وسيرهم في هذا الباب معلومة ومعرفتهم بذلك كله مشهورة.

وأما إن كان هذا العقد مما يتعلق بالدِّين فلا يصح من النبي ﷺ إلا العلم به، ولا يجوز عليه جهله جملة، لأنه لا يخلو أن يكون حصل عنده ذلك عن وحي من الله، فهو ما لا يصح الشك منه فيه على ما قدمناه، فكيف الجهل، بل حصل له العلم اليقين، أو يكون فعل ذلك باجتهاده فيما لم ينزل عليه فيه شيء على القول بتجويز وقوع الاجتهاد منه في ذلك على قول المحققين، وعلى مقتضى حديث أم سلمة: «**إني إنما أقضي بينكم برأيي فيما لم ينزل عليَّ فيه شيء**» خرجه الثقات.

وكقصة أسرى بدر، والإذن للمتخلفين على رأي بعضهم فلا يكون أيضًا ما يعتقده مما يثمره اجتهاده إلا حقًا وصحيحًا.

هذ هو الحق الذي لا يلتفت إلى خلاف من خالف فيه ممن أجاز عليه الخطأ في الاجتهاد لا على القول بتصويب المجتهدين الذي هو الحق والصواب عندنا ولا على القول الآخر بأن الحق في طرف واحد لعصمة النبي ﷺ من الخطأ في الاجتهاد في الشرعيات، ولأن القول في تخطئة المجتهدين إنما هو بعد استقرار الشرع، ونظر النبي ﷺ واجتهاده إنما هو فيما لم ينزل عليه فيه شيء، ولم يشرع له قبل؛ هذا فيما عقد عليه ﷺ قلبه، فأما ما لم يعقد عليه قلبه من أمر النوازل الشرعية؛ فقد كان لا يعلم منها أولاً إلا ما علمه الله شيئًا فشيئًا حتى استقر علم جملتها عنده؛ إما بوحي من الله أو إذن له أن يشرع في ذلك ويحكم بما أراه الله.

وقد كان ينتظر الوحي في كثير منها؛ ولكنه لم يمت حتى استفرغ علم جميعها عنده ﷺ وتقررت معارفها لديه على التحقيق، ورفع الشك والريب، وانتفاء الجهل.

وبالجملة فلايصح منه الجهل بشيء من تفاصيل الشرع الذي أمر بالدعوة إليه؛ إذ لا تصح دعوته إلى ما لا يعلمه.

وأما ما تعلق بعقده من ملكوت السموات والأرض، وخلق الله تعالى وتعيين أسمائه الحسنى وآياته الكبرى، وأمور الآخرة، وأشراط الساعة، وأحوال السعداء والأشقياء، وعلم ما كان وما يكون مما لم يعلمه إلا بوحي - فعلى ما تقدم من أنه معصوم فيه، لا يأخذه فيما أعلم منه شك ولا ريب؛ بل هو فيه على غاية اليقين، لكنه لا يشترط له العلم بجميع تفاصيل ذلك، وإن كان عنده من علم ذلك ما ليس عند جميع البشر، لقوله: ﷺ «**إني لا أعلم إلا ما علمني ربي**»[1] ولقوله: «**ولا خطر على قلب بشر**»[2] ﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ**﴾ [السجدة: ١٧].

وقول موسى للخضر: ﴿**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**﴾ [الكهف: ٦٦] وقوله ﷺ: «**أسألك بأسمائك الحسنى، ما علمت منها وما لم أعلم**»[3].

وقوله: «**أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أ واستأثرت به في علم الغيب عندك**»[4].

وقد قال الله تعالى: ﴿**وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف: ٧٦] قال زيد بن أسلم وغيره: حتى ينتهي العلم إلى الله.

وهذا ما لا خفاء به؛ إذ معلوماته تعالى لا يحاط بها ولا منتهى لها.

هذا حكم عقد النبي ﷺ في التوحيد والشرع والمعارف والأمور الدينية.

---

(١) أخرجه الأصبهاني في العظمة (٩٦٧١٤).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٢٤٤، ٤٧٧٩، ٤٧٨٠، ٧٤٩٨)، ومسلم (٢٨٢٤، ٢٨٢٥).
(٣) ضعيف: أخرجه ابن ماجه (٣٨٥٩)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٤٥٣١): هذا إسناد فيه مقال.
(٤) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٣١٩، ٣٩١)، وابن حبان (٩٧٢)، والحاكم (١/ ٦٩٠).

الفصل الرابع

في إجماع الأمة عصمة النبي ﷺ من الشيطان

واعلم أن الأمة مجمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان وكفايته منه، لا في جسمه بأنواع الأذى، ولا على خاطره بالوساوس.

وقد أخبرنا القاضي الحافظ أبو عليّ ـ رحمه الله ـ قال: حدثنا أبو الفضل بن خيرون العدل، حدثنا أبو بكر البرقاني وغيره، حدثنا أبو الحسن الدارقطني، حدثنا إسماعيل الصفار، حدثنا عباس التَّرْقُفي، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن منصور، عن سالم بن أبي الجعد، عن مسرور، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما منكم من أحد إلا وكل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة»**.

قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: **«وإياي؛ ولكن الله تعالي أعانني عليه فأسلم»**[1].

زاد غيره ـ عن منصور: **«فلا يأمرني إلا بخير»**.

وعن عائشة بمعناه. وروى: «فَأَسْلَمُ» ـ بضم الميم؛ أي فأسلم أنا منه.

وصحح بعضهم هذه الرواية ورجحها.

وروي: فَأَسْلَمَ ـ يعني القرين ـ أنه انتقل من حال كفره إلى الإسلام؛ فصار لا يأمر إلا بخير، كالملك وهو ظاهر الحديث. ورواه بعضهم: «فاستسلم».

قال القاضي أبو الفضل ـ وفقه الله ـ: فإذا كان هذا حكم شيطانه وقرينه المسلط على بني آدم فكيف بمن بَعُدَ منه، ولم يلزم صحبته، ولا أُقْدِرِ على الدنو منه؟.

وقد جاءت الآثار بتصدي الشياطين له في غير موطن؛ رغبة في إطفاء نوره وإماتة نفسه، وإدخال شغل عليه، إذ يئسوا من إغوائه فانقلبوا خاسرين، كتعرضه له في صلاته فأخذه النبي ﷺ وأسره.

ففي الصحاح قال أبو هريرة عنه ﷺ: **«إن الشيطان عرض لي»**[2].

قال عبد الرزاق: في صورة هر، « فشد عليَّ يقطع الصلاة فأمكنني الله منه، فذعتُّه، ولقد هممت أن أوثقه إلى سارية حتى تصبحوا تنظرون إليه، فذكرت قول أخي سليمان

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم (٢٨١٤).

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٢١٠، ٣٢٨٤).

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ فردها الله خاسئًا».

وفي حديث أبي الدرداء عنه ﷺ «إن عدو الله إبليس جاءني بشهاب من نار ليجعله في وجهي»، والنبي ﷺ في الصلاة، وذكر تعوذه بالله منه، ولعنه له؛ ثم أردت آخذه، وذكر نحوه وقال: لأصبح موثقًا يتلاعب به ولدان أهل المدينة[1].

وكذلك في حديثه في الإسراء، وطلب عفريت له بشعلة نار، فعلمه جبريل ما يتعوذ به منه - وذكره في «الموطأ» ولما لم يقدر علي أذاه بمباشرته تسبب بالتوسط إلى عداه كقضيته مع قريش في الائتمار بقتل النبي ﷺ وتصوره في صورة الشيخ النجدي.

ومرة أخرى في غزوة يوم بدر في صورة سراقة بن مالك، وهو قوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ [الأنفال: ٤٨]. ومرة ينذر بشأنه عند بيعة العقبة.

وكل هذا فقد كفاه الله أمره، وعصمه ضره وشره.

وقد قال ﷺ: «إن عيسى عليه السلام كُفي من لمسه، فجاء ليطعن بيده في خاصرته حين ولد، فطعن في الحجاب»[2].

وقال ﷺ حين لُدَّ في مرضه - وقيل له: خشينا أن يكون بك ذات الجنب - فقال: «إنها من الشيطان، ولم يكن الله ليسطله عليّ»[3].

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]؟ فقد قال بعض المفسرين: إنها راجعة إلى قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ثم قال: ﴿وإما ينزغنك﴾؛ أي يستخفنك غضب يحملك على ترك الإعراض عنهم فاستعذ بالله تعالى.

وقيل: النزغ ها هنا الفساد، كما قال تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠].

وقيل: ينزغنك: يغرينك ويحركنك، والنزغ أدنى الوسوسة، فأمره الله تعالى أنه متى

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٥٤٢).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٢٨٦)، ومسلم (٢٣٦٦).

(٣) صحيح: أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٩٧٥٤)، وابن حبان (٦٥٨٧)، والحاكم (٤/ ٢٢٥)، من حديث أسماء بنت عميس، بدون قوله: «إنها من الشيطان»، بلفظ: «ما كان الله ليقذفني به» وإسناده صحيح. وأخرجه بهذا اللفظ ابن إسحاق في السيرة، والطبري في التاريخ (٢/ ٢٣٠)، عن عائشة، بإسناد صحيح. والحديث أصله في الصحيح.

تحرك عليه غضب على عدوه، أو رام الشيطان من إغرائه به وخواطر أدنى وساوسه، ما لم يجعل له سبيل إليه أن يستعيذ منه، فيُكفى أمره، ويكون سبب تمام عصمته، إذ لم يسلط عليه بأكثر من التعرض له، ولم يجعل له قدرة عليه. وقد قيل في هذه الآية غير هذا.

وكذلك لا يصح أن يتصور له الشيطان في صورة الملك، ويلبس عليه، لا في أول الرسالة ولا بعدها.

والاعتماد في ذلك دليل المعجزة، بل لا يشك النبي أن ما يأتيه من الله الملك ورسوله حقيقة إما بعلم ضروري يخلقه الله له، أو ببرهان يظهره لديه، لتتم كلمة ربك صدقًا وعدلاً، لا مبدل لكلماته.

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلكَ من رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج: ٥٢].

فاعلم أن للناس في معنى هذه الآية أقاويل منها السهل والوَعْث، والسمين والغث، وأولى ما يقال فيها ما عليه الجمهور من المفسرين: أن التمني ها هنا التلاوة، وإلقاء الشيطان فيها إشغاله بخواطر وأذكار من أمور الدنيا للتالي حتى يدخل عليه الوهم والنسيان فيما تلاه، أو يدخل غير ذلك على أفهام السامعين من التحريف وسوء التأويل ما يزيله الله وينسخه ويكشف لبسه، ويحكم آياته.

وسيأتي الكلام على هذه الآية بأشبع من هذا إن شاء الله.

وقد حكى السمرقندي إنكار قول من قال بتسليط الشيطان على ملك سليمان وغلبته عليه، وأن مثل هذا لا يصح.

وقد ذكرنا قصة سليمان مبينة بعد هذا، ومن قال: إن الجسد هو الولد الذي ولد له.

وقال أبو محمد مكي في قصة أيوب وقوله: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [ص: ٤١]: إنه لا يجوز لأحد أن يتأول أن الشيطان هو الذي أمرضه وألقى الضر في بدنه، ولا يكون ذلك إلا بفعل الله وأمره ليبتليهم ويثبتهم.

قال مكي: وقيل: إن الذي أصابه الشيطان ما وسوس به إلى أهله.

فإن قلت: فما معنى قوله تعالى - عن يوشع -: ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ ﴾ [الكهف: ٦٣]. وقوله عن يوسف: ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف: ٤٢]. وقول نبينا ﷺ حين

نام عن الصلاة يوم الوادي: «إن هذا واد به شيطان». وقول موسى عليه السلام في وكزته ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ [القصص: ١٥]؟

فاعلم أن هذا الكلام قد يرد في جميع هذا على مورد مستمر كلام العرب في وصفهم كل قبيح من شخص أو فعل بالشيطان أو فعله، كما قال تعالى: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾[الصافات: ٦٥]. وقال ﷺ: «فليقاتله فإنما هو شيطان».

وأيضًا فإن قول يوشع لا يلزمنا الجواب عنه؛ إذ لم يثبت له في ذلك الوقت نبوة موسى؛ قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ ﴾ [الكهف: ٦٠].

والمروي أنه إنما نبئ بعد موت موسى، وقيل: قبيل موته.

وقول موسى كان قبل نبوته بدليل القرآن.

وقصة يوسف قد ذكر أنها كانت قبل نبوته.

وقد قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ﴾ [يوسف: ٤٢] قولين:

أحدهما: إن الذي أنساه الشيطان ذكر ربه أحد صاحبي السجن، وربه الملك؛ أي أنساه أن يذكر للملك شأن يوسف عليه السلام.

وأيضًا فإن مثل هذا من فعل الشيطان ليس فيه تسلط على يوسف ويوشع بوساوس ونزغ، وإنما هو بشغل خواطرهما بأمور أخر، وتذكيرهما من أمورهما ما ينسيهما ما نسيا.

وأما قوله ﷺ: «إن هذا واد به شيطان» فليس فيه ذكر تسلطه عليه، ولا وسوسته له؛ بل إن كان بمقتضى ظاهره فقد بين أمر ذلك الشيطان بقوله: «إن الشيطان أتى بلالاً، فلم يزل يهدئه كما يهدأ الصبي حتى نام»[1].

فاعلم أن تسلط الشيطان في ذلك الوادي الذي عرس به إنما كان على بلال الموكل بكلاءة الفجر.

هذا إن جعلنا قوله: «إن هذا واد به شيطان»؛ تنبيهًا على سبب النوم عن الصلاة. وأما إن جعلناه تنبيهًا على سبب الرحيل عن الوادي، وعلة ترك الصلاة به، وهو دليل مساق حديث زيد بن أسلم فلا اعتراض به في هذا الباب؛ لبيانه وارتفاع إشكاله.

(١) منقطع: أخرجه مالك في الموطأ (٢٦).

الفصل الخامس

في عصمة النبي عليه السلام في أقواله وأفعاله

وأما أقواله ﷺ فقامت الدلائل الواضحة بصحة المعجزة على صدقه، وأجمعت الأمة فيما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منها بخلاف ما هو به، لا قصداً وعمداً ولا سهواً ولا غلطًا.

أما تعمد الخلف في ذلك فمنتف، بدليل المعجزة القائمة مقام قول الله فيما قال اتفاقًا وبإطباق أهل الملة إجماعًا.

وأما وقوعه على جهة الغلط في ذلك فبهذه السبيل عند الأستاذ أبي إسحاق الإسفرائيني ومن قال بقوله؛ ومن جهة الإجماع فقط وورود الشرع بانتفاء ذلك، وعصمة النبي ﷺ لا من مقتضى المعجزة نفسها عند القاضي أبي بكر الباقلاني ومن وافقه لاختلاف بينهم في مقتضى دليل المعجزة لا نطول بذكره، فنخرج عن غرض الكتاب؛ فلنعتمد على ما وقع عليه إجماع المسلمين أنه لا يجوز عليه خُلف في القول في إبلاغ الشريعة، والإعلام بما أخبر به عن ربه، وما أوحاه إليه من وحيه، لا على وجه العمد، ولا على غير عمد ولا في حالي الرضا والسخط والصحة والمرض.

وفي حديث عبد الله بن عمرو: قلت: يا رسول الله؛ أأكتب كل ما أسمع منك؟ قال: **«نعم»**. قلت: في الرضا والغضب؟ قال: **«نعم، فإني لا أقول في ذلك كله إلا حقًا»**(١).

ولنزد ما أشرنا إليه من دليل المعجزة عليه بيانًا فنقول:

إذا قامت المعجزة على صدقه، وأنه لا يقول إلا حقًا، ولا يبلغ عن الله إلا صدقًا، وأن المعجزة قائمة مقام قول الله له: صدقت فيما تذكره عني؛ وهو يقول: إني رسول الله إليكم لأبلغكم ما أرسلت به إليكم، وأبين لكم ما نزل عليكم، ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾ [النجم: ٣-٤]و ﴿**قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ**﴾ [النساء: ١٧٠]. ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ [الحشر: ٧]. فلا يصح أن يوجد منه في هذا الباب خبر بخلاف مخبره على أي وجه كان.

---

(١) صحيح :أخرجه الترمذي (١٩٩٠)، وأحمد (٢/ ٢٠٧) .

ولو جوزنا عليه الغلط والسهو لما تميز لنا من غيره، ولاختلط الحق بالباطل، فالمعجزة مشتملة على تصديقه جملة واحدة من غير خصوص، فتنزيه النبي عن ذلك كله واجب برهانًا وإجماعًا كما قاله أبو إسحاق.

الفصل السادس

وقد توجهت ههنا لبعض الطاعنين سؤالات؛ منها:

ما رُوي من أن النبي ﷺ لما قرأ ﴿وَالنَّجْمِ﴾، وقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٩-٢٠] قال: «تلك الغَرَانيق العلى، وإن شفاعتها لَتُرْتَجى» - ويروى: «تُرتضى». وفي رواية: «إن شفاعتها لتُرْتَجى، وإنا لمَعَ الغَرانيق العُلى». وفي أخرى: «والغرانقةُ العُلا، تلك للشفاعة تُرتجى». فلما ختم السورة سجد، وسجد معه المسلمون والكفار لما سمعوه أثنى على آلهتهم.

وما وقع في بعض الروايات أن الشيطان ألقاها على لسانه، وأن النبي ﷺ كان تمنى أن لو نزل عليه شيء يُقارب بينه وبين قومه.

وفي رواية أخرى: ألا ينزل عليه شيء ينفرهم عنه؛ وذكر هذه القصة، وأن جبريل عليه السلام جاء فعرض عليه السورة، فلما بلغ الكلمتين قال له: ما جئتُك بهاتين. فحزن لذلك النبي ﷺ فأنزل الله تعالى تسلية له: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢].

وقوله: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴿٧٣﴾ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٤].

فاعلَمْ - أكرمك الله - أن لنا في الكلام علي مُشكِل هذا الحديث مأخذين؛ أحدهما: في توهين أصْلِه، والثاني: على تسليمه.

أما المأخذ الأول: فيكفيك أن هذا حديث لم يُخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواهُ ثقة بسند سليم متصل؛ وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلقفّون من الصحف كل صحيح وسقيم.

وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي حيث قال: لقد بُلي الناس ببعض أهل الأهواء

والتفسير؛ وتعلق بذلك المُلحدون مع ضعف نقلته واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته؛ فقائل يقول: إنه في الصلاة؛ وآخر يقول: قالها في نادي قومه حين أنزلت عليه السورة؛ وآخر يقول: قالها وقد أصابته سِنةٌ؛ وآخر يقول: بل حدَّثَ نفسه فَسَهَا؛ وآخر يقول: إنَّ الشيطان قالها على لسانه، وأن النبي ﷺ لما عرضها على جبريل قال: ما هكذا أقْرَأْتُك؛ وآخر يقول: بل أعلمهم الشيطان أن النبي ﷺ قرأها؛ فلما بلغ النبي ﷺ بذلك قال: «والله ما هكذا نزَلَتْ»- إلى غير ذلك من اختلاف الرُّواة[1].

ومن حُكِيَتْ هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم، ولا رفعها إلى صاحبٍ، وأكثرُ الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية؛ والمرفوعُ فيه حديث شعبة: عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: فيما أحسبُ- الشك في الحديث- أن النبي ﷺ كان بمكة... وذكر القصة.

قال أبو بكر البزّار: هذا الحديث لا نعلمُه يُرْوَىٰ عن النبي ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا، ولم يُسنده عن شعبة إلا أميةُ بن خالد؛ وغيره يُرسله عن سعيد بن جُبير؛ وإنما يعرف عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس؛ فقد بيَّن لك أبو بكر- رحمه الله- أنه لا يُعرف من طريق يجوز ذكره سوىٰ هذا.

وفيه من الضعف ما نبه عليه مع وقوع الشك فيه، كما ذكرناه، والذي لا يُوثق به، ولا حقيقة معه.

وأما حديثُ الكلبي فمِمَّا لا تجوز الروايةُ عنه ولا ذكرهُ لقوة ضعفه وكذبه، كما أشار إليه البزار- رحمه الله.

والذي منه في «الصحيح»: «أن النبي ﷺ قرأ: ﴿والنجم﴾ وهو بمكة؛ فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس».

هذا توهينهُ من طريق النقل، فأما من جهة المعنىٰ: فقد قامت الحجةُ، وأجمعت الأمة علىٰ عصمته ﷺ ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة؛ إما من تمنِّيه أن يُنزل عليه مثلُ هذا من مدح آلهة غير الله، وهو كفر؛ أو أن يتصور عليه الشيطان ويُشبه عليه القرآن حتىٰ يجعل فيه ما ليس منه، ويعتقد النبي ﷺ أن من القرآن ما ليس منه حتىٰ يُنبِّهه جبريلُ عليه السلام، وذلك كلُّه مُمتنع في حقه ﷺ، أو يقول ذلك النبي ﷺ من قِبَلِ نفسه عَمداً، وذلك كُفراً؛ أو سهواً، وهو معصومٌ من هذا كله.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٤١٩).

وقد قررنا بالبراهين والإجماع عصمته ﷺ من جريان الكُفر على قلبه أو لسانه، لا عمداً ولا سهواً، أو أن يُشبه عليه ما يُلقيه الملك مما يُلقي الشيطانُ، أو يكون للشيطان عليه سبيل، أو أن يتقوَّل على الله ـ لا عمداً ولا سهواً ـ ما لم ينزل عليه؛ وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦].

وقال تعالى: ﴿ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾[الإسراء: ٧٥].

ووجهٌ ثانٍ: وهو استحالةُ هذه القصة نظراً وعرفاً؛ وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روي لكان بعيدَ الالتئام، لكونه متناقض الأقسام، ممتزج المدح بالذم، متخاذل التأليف والنظم. ولما كان النبي ﷺ ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك؛ وهذا لا يخفى على أدنى متأمل، فكيف بمن رجح حلمه، واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه.

ووجه ثالث: أنه علم من عادة المنافقين، ومعاندي المشركين، وضعفة القلوب، والجهلة من المسلمين نفورهم لأول وهلةٍ، وتخليط العدو على النبي ﷺ لأقل فتنة، وتعييرهم المسلمين، والشمات بهم الفَيْنة بعد الفَيْنة، وارتدادُ من في قلبه مرضٌ ممن أظهر الإسلام لأدنى شبهة، ولم يحك أحد في هذه القصة شيئًا سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل، ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصَّوْلةَ، ولأقامت بها اليهودُ عليهم الحجة، كما فعلوا مكابرة في قصة الإسراء حتى كانت في ذلك لبعض الضعفاء ردَّة، وكذلك ما رُوي في قصة القضية، ولا فتنَة أعظمُ من هذه البليّة لو وُجدتْ، ولا تشغيب للمُعادي حينئذ أشدُ من هذه الحادثة لو أمكنت؛ فما روي عن معاند فيها كلمة، ولا عن مسلم بسببها بنتُ شفَة؛ فدل على بُطلها واجتثاث أصلها.

ولا شك في إدخال بعض شياطين الإنس أو الجن هذا الحديث على بعض مغفلي المحدثين، ليُلبس به على ضعفاء المسلمين.

ووجه رابع: ذَكر الرواةُ لهذه القضية أن فيها نزلت: ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٧٣ ـ ٧٤]. وهاتان الآيتان تَرُدَّان الخبر الذي رووه؛ لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يَفتنونه حتى يَفتري، وأنه لولا أن ثَبته لكاد يركنُ إليهم.

فمضمون هذا ومفهومه: أن الله تعالى عصمه من أن يفتري، وثبّته حتى لم يركن إليهم قليلاً؛ فكيف كثيراً! وهم يروون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم، وأنه قال ﷺ: «افتريت على الله وقلت ما لم يقل»؛ وهذا ضدُّ مفهوم الآية، وهي تضعف الحديثَ لو صح، فكيف ولا صحة له؟!

وهذا مثلُ قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ [النساء: ١١٣].

وقد رُوي عن ابن عباس: كل ما في القرآن «كاد» فهو ما لا يكون؛ قال الله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣]. ؛ ولم يَذهب. و ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥].

قال القُشيري القاضي: ولقد طالبته قريش وثقيف إذ مر بآلهتهم أن يُقْبِلَ بوجهه إليها، ووعدوه الإيمانَ به إن فعل، فما فعل، ولا كان ليفعل.

قال ابن الأنباري: ما قارب الرسولُ ولا ركنَ.

وقد ذكرت في معنى هذه الآية تفاسير أخَر ما ذكرناه من نصِّ الله على عصمة رسوله يَرُدُّ سفسافها؛ فلم يبق في الآية إلا أن الله تعالى امتنَّ على رسوله بعصمته وتثبيته مما كاده به الكفار، وراموا من فتنته؛ ومُرَادُنا من ذلك تنزيهُه وعصمتُه ﷺ؛ وهو مفهوم الآية.

وأما المأخذ الثاني فهو مبني على تسليم الحديث لو صحَّ، وقد أعاذنا الله من صحته، ولكن على كل حال فقد أجاب على ذلك أئمة المسلمين بأجوبة؛ منها الغَثُّ والسمين؛ فمنها ما روى قتادةُ ومقاتل: أن النبي ﷺ أصابته سِنَةٌ عند قراءته هذه السورة فجرى هذا الكلام على لسانه بحكْم النوم.

وهذا لا يصح؛ إذ لا يجوز على النبي مثله في حالة من أحواله، ولا يخلقُه الله على لسانه، ولا يستولي الشيطان عليه في نوم ولا يقظة لعصمته في هذا الباب من جميع العمد والسهو.

وفي قول الكلبي: إن النبي ﷺ حدث نفسه؛ فقال ذلك الشيطانُ على لسانه.

وفي رواية ابن الشهاب، عن أبي بكر بن عبد الرحمن؛ قال: وسَها؛ فلما أخبرَ بذلك قال: **إنما ذلك من الشيطان**».

وكلُّ هذا لا يصح أن يقوله النبي ﷺ، لا سهواً ولا قصداً، ولا يتقوله الشيطانُ على لسانه.

وقيل: لعلَّ النبيﷺ قال في أثناء تلاوته على تقدير التقرير والتوبيخ للكفار؛ كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿هَذَا رَبِّي﴾[الأنعام: ٧٦] ـ على أحد التأويلات.

وكقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] بعد السكْتِ وبيان الفصل بين الكلامين، ثم رجع إلى تلاوته.

وهذا ممكن مع بيان الفصل وقرينةٍ تدل على المراد، وأنه ليس من المتلوّ، وهو أحد ما ذكره القاضي أبو بكر.

ولا يُعترضُ على هذا بما رُوي أنه كان في الصلاة؛ فقد كان الكلام قبلُ فيها غير ممنوع.

والذي يظهر ويترجح في تأويله عنده وعند غيره من المحققين على تسليمه أن النبيﷺ كان ـ كما أمره ربه ـ يرتل القرآن ترتيلاً، ويفصل الآي تفصيلاً في قراءته، كما رواه الثقاتُ عنه، فيمكن ترصُّد الشيطان لتلك السكتات ودسه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات محاكيًا نغمة النبيﷺ بحيث يسمعه من دنا إليه من الكفار، فظنوها من قول النبيﷺ وأشاعوها، ولم يقدحْ ذلك عند المسلمين بحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله وتحققهم من حال النبيﷺ في ذمّ الأوثان وعَيْبِها على ما عُرِفَ منه.

وقد حكى موسى بن عُقْبَةَ في «مغازيه» نحو هذا، وقال: إن المسلمين لم يسمعوها، وإنما ألقى الشيطان ذلك في أسماع المشركين وقلوبهم؛ ويكون ما رُوي من حُزنِ النبيﷺ لهذه الإشاعة والشبهة، وسبب هذه الفتنة.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢]. فمعنى ﴿تَمَنَّىٰ﴾: تلا؛ قال الله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨] أي تلاوة.

وقوله: ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾؛ أي يذهبه، ويزيل اللبس به، ويُحكم آياته.

وقيل: معنى الآية هو ما يقع للنبيﷺ من السهو إذا قرأ فينتبه لذلك ويرجع عنه.

وهذا نحو قول الكلبي في الآية: إنه حدث نفسه، وقال: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰ﴾؛أي: حدَّث نفسه.

وفي رواية أبي بكر بن عبد الرحمن نحوه.

وهذا السهو في القرآن إنما يصح فيما ليس طريقُه تغييرَ المعاني، وتبديل الألفاظ،

وزيادة ما ليس من القرآن؛ بل السهو عن إسقاط آية منه أو كلمة؛ ولكنه لا يُقرُّ على هذا السهو بل يُنبَّه عليه ويُذكَّر به للحين، على ما سنذكره في حكم ما يجوز عليه من السهو وما لا يجوز.

ومما يظهر في تأويله أيضًا أن مجاهدًا روى هذه القصة: «والغرانقة العُلى»؛ فإن سلمنا القصة قلنا: لا يبعُد أن هذا كان قرآنًا، والمراد بـ «الغرانقة العُلى»، و: «إن شفاعتهن لترتجى»: الملائكة على هذه الرواية.

وبهذا فسر الكلبي الغرانقة أنها الملائكة؛ وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون الأوثان والملائكة بنات الله، كما حكى الله عنهم وردَّ عليهم في هذه السورة بقوله: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢١]؛ فأنكر الله كل هذا من قولهم؛ ورجاءُ الشفاعة من الملائكة صحيح، فلما تأوَّله المشركون على أن المراد بهذا الذكر آلهتهم، ولبس عليهم الشيطان ذلك، وزينه في قلوبهم وألقاهُ إليهم، نسخ الله ما ألقى الشيطانُ، وأحكم آياته، ورفع تلاوة تلك اللفظَين اللتين وجد الشيطان بهما سبيلاً للإلباس، كما نُسخ كثير من القرآن ورُفعت تلاوته؛ وكان في إنزال الله تعالى لذلك حكمة، وفي نسخه حكمةٌ؛ ليضل به من يشاء ويهدي من يشاء؛ وما يُضل به إلا الفاسقين، و﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٣-٥٤].

وقيل: إن النبي ﷺ لما قرأ هذه السورة، وبلغ ذكر اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى خاف الكفار أن يأتي بشيء من ذمها فسبقوا إلى مدحها بتلك الكلمتين ليُخلطوا في تلاوة النبي ﷺ، ويُشنِّعوا عليه على عادتهم وقولهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

ونسب هذا الفعل إلى الشيطان لحَمْله لهم عليه، وأشاعوا ذلك وأذاعوه، وأن النبي ﷺ قاله؛ فحزنَ لذلك منْ كذبهم وافترائهم عليه، فسلاهُ الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢]، وبين للناس الحق من ذلك من الباطل، وحفظ القرآن، وأحكم آياته، ودفع ما لبَّس به العدوُّ، كما ضمنه تعالى من قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ومن ذلك ما روي من قصة يونس عليه السلام أنه وعد قومه بالعذاب عن ربه، فلما تابوا كشف عنهم العذاب، فقال: لا أرجع إليهم كذابًا أبدًا، فذهب مغاضبًا.

فاعلم - أكرمك الله - أن ليس في خبر من الأخبار الواردة في هذا الباب أن يونُسَ - عليه السلام - قال لهم: إن الله مهلككم، وإنما فيه أنه دعا عليهم بالهلاك؛ والدعاءُ ليس بخبر يُطلب صدقه من كذبه، لكنه قال لهم: إن العذاب مُصبحكم وقت كذا وكذا، فكان ذلك كما قال، ثم رفع الله تعالىٰ عنهم العذاب وتداركهم، ؛ قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

ورُوي في الأخبار أنهم رأوا دلائل العذاب ومخايله؛ قاله ابنُ مسعود.

وقال سعيد بن جُبير: غَشّاهم العذابُ كما يُغشي الثوبُ القبرَ.

فإن قلت: فما معنىٰ ما رُوي: من أن عبد الله بن أبي سرح كان يكتبُ لرسول الله ﷺ، ثم ارتدَّ مشركًا، وصار إلي قريش، فقال لهم: إني كنت أصْرف محمداً حيثُ أريد؛ كان يُملي عليَّ «عزيز حكم» فأقول أو «عليم حكيم»؟ فيقول: نعم؛ « كلٌّ صواب».

وفي حديث آخر: فيقول له النبي ﷺ: «اكتب كذا»، فيقول أكْتُب كذا؟ فيقول: «اكتب كيف شئت». ويقول: « اكتب عليماً حكيماً » فأقول: أكتبُ: «سميعًا بصيرًا»، فيقول له: «اكتب كيف شئت».

وفي «الصحيح »- عن أنس- رضي الله عنه- أن نصرانيًا كان يكتبُ للنبي ﷺ بعدما أسلم ثم ارتد، وكان يقول: ما يدْري محمد إلا ما كتبتُ له.

فاعلم - ثبّتنا الله وإياك علىٰ الحق، ولا جعل للشيطان وتلبيسه الحق بالباطل إلينا سبيلاً - أن مثل هذه الحكاية أولاً لا تُوقعُ في قلب مؤمنٍ ريبًا؛ إذ هي حكاية عمن ارتد وكفر بالله، ونحن لا نقبل خبر المسلم المُتّهم، فكيف بكافرٍ افترى هو ومثله علىٰ الله ورسله ما هو أعظم من هذا!.

والعجب لسليم العقل يشغل بمثل هذه الحكاية سِره، وقد صدرت من عدو كافر مُبغض للدين، مفْترٍ علىٰ الله ورسوله؛ ولم ترد عن أحد من المسلمين، ولا ذكر أحدٌ من الصحابة أنه شاهد ما قاله وافتراه علىٰ نبيِّ الله، وإنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله، وأولئك هم الكاذبون.

وما وقع من ذكرها في حديث أنس - رضي الله عنه - وظاهر حكايتها؛ فليس فيه ما يدل علىٰ أنه شاهدها، ولعله حكىٰ ما سمع.

وقد علل البزارُ حديثه ذلك، وقال: رواه ثابت عنه، ولم يتابع عليه؛ ورواه حميد عن

أنس، قال: وأظن حميداً إنما سمعه من ثابت.

قال القاضي أبو الفضل ـ وفقه الله ـ: ولهذا، والله أعلم، لم يخرِّج أهل «الصحيح» حديث ثابت ولا حُميد. والصحيح حديث عبد العزيز بن رُفيع عن أنس ـ رضي الله عنه ـ الذي خرجه أهل الصحة وذكرناه، وليس فيه عن أنس قول شيء من ذلك من قبل نفسه، إلا من حكايته عن المرتد النصراني، ولو كانت صحيحة لما كان فيها قدحٌ ولا توهيمٌ للنبي ﷺ فيما أوحي إليه، ولا جَواز للنسيان والغلط عليه والتحريف فيما بلغه، ولا طعن في نظم القرآن، وأنه من عند الله؛ إذ ليس فيه ـ لو صح ـ أكثر من أن الكاتب قال له: «عليم حكيم» و كتبه؛ فقال له النبي ﷺ: كذلك هو، فسبقه لسانه أو قلمه لكلمة أو كلمتين مما نُزل على الرسول قبل إظهار الرسول لها؛ إذ كان ما تقدم مما أملاه الرسولُ يدل عليها ويقتضي وقوعها بقوة قدرة الكاتب على الكلام ومعرفته به؛ وجودة حسه وفطنته، كما يتفق ذلك للعارف إذا سمع البيت أن يسبق إلى قافيته، أو مُبتدأ الكلام الحسن إلى ما يتم به؛ ولا يتفق ذلك في جملة الكلام، كما لا يتفق ذلك في آية ولا سورة.

وكذلك قوله ﷺ ـ إن صح ـ: «كل صواب»؛ فقد يكون هذا فيما كان فيه من مقاطع الآي وجهان وقراءتان أنزلتا جميعًا على النبي ﷺ، فأملى إحداها، وتوصل الكاتب بفطنته ومعرفته بمقتضى الكلام إلى الأخرى، فذكرها للنبي ﷺ كما قدمناه؛ فصوبها له النبي ﷺ؛ ثم أحكم الله من ذلك ما أحكم، ونسخ ما نسخ كما قد وجد ذلك في بعض مقاطع الآي مثل قوله تعالى: ﴿**إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [المائدة: ١١٨].

وهذه قراءة الجمهور، وقد قرأ جماعةٌ: «فإنك أنت الغفور الرحيم». وليست من المصحف.

وكذلك كلماتٌ جاءت على وجهين في غير المقاطع، قرأ بهما معًا الجمهورُ، وثبتتا في المصحف، مثل: ﴿وانظر إلى العظام كيف نُنشِرُها ـ ونُنشِزُها﴾. ويقضي الحق ـ ويَقُصُّ الحق

وكلُّ هذا لا يوجب ريبًا، ولا يسبب للنبي ﷺ غلطاً ولا وهمًا.

وقد قيل: إن هذا يحتمل أن يكون فيما يكتبه عن النبي ﷺ إلى الناس غير القرآن، فيصف القرآن ويسميّه في ذلك كيف يشاء.

الفصل السابع

فيما يتصل بأمور الدنيا وأحوال نفسه

هذا القولُ فيما طريقه البلاغ، وأما ما ليس سبيله سبيلُ البلاغ من الأخبار التي لا مُستَند إلىٰ الأحكام، ولا أخبار المعاد، ولا تضاف إلىٰ وحي، بل في أمور الدنيا وأحوال نفسه؛ فالذي يجب اعتقاده تنزيه النبي ﷺ أن يقع خبره في شيء من ذلك بخلاف مخبره، لا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً، وأنه معصوم من ذلك في حال رضاه وفي حال سخطه، وجده ومزحه، وصحته ومرضه.

ودليل ذلك اتفاق السلف وإجماعهم عليه، وذلك أنا نعلم من دين الصحابة وعادتهم مبادرتهم إلىٰ تصديق جميع أحواله، والثقة بجميع أخباره في أي باب كانت، وفي أي شيء وقعت، وأنه لم يكن لهم توقف ولا تردد في شيء منها، ولا استثباتٌ عن حاله عند ذلك؛ هل وقع فيها سهو أم لا؟

ولما احتج ابن أبي الحُقيق اليهودي علىٰ عمر حين أجلاهم من خيبر بإقرار رسول الله ﷺ واحتج عليه عمر ـ رضي الله عنه ـ بقوله ﷺ: **«كيف بك إذا أخرجت من خيبر؟»** فقال اليهودي: كانت هُزيلة من أبي القاسم، فقال عمر: كذبت يا عدو الله.

وأيضًا فإن أخباره وآثاره وسيره وشمائله مُعتنىٰ بها مُستقصىٰ تفاصيلها، ولم يرد في شيء منها استداركه ﷺ لغلط في قول قاله، أو اعترافُه بوهم في شيء أخبر به، ولو كان ذلك لنقل كما نقل من قصته عليه السلام في رجوعه ﷺ عما أشار به علىٰ الأنصار في تلقيح النخل وكان ذلك رأيًا لا خبراً، وغير ذلك من الأمور التي ليست من هذا الباب؛ كقوله ﷺ: **«والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا فعلت الذي حلفت عليه وكفرت عن يميني»**[1].

وقوله: **«إنكم تختصمون إليّ..»**[2] الحديث.

وقوله: **«اسق يا زُبير حتى يبلغ الماء الجدر»**[3]؛ كما سنبين كلَّ ما في هذا من مُشكل ما في هذا الباب والذي بعده إن شاء الله، مع أشباههم.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣١٣٣، ٤٣٨٥، ٤٦١٤، ٥٥١٨، ٦٦٢١)، ومسلم (١٦٥٠).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٦٨٠، ٦٩٦٧)، ومسلم (١٧١٣).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٢٣٦٠، ٢٣٦١، ٢٣٦٢، ٢٧٠٨، ٤٥٨٥)، ومسلم (٢٣٥٧).

وأيضًا فإن الكذب متىٰ عُرف من أحد في شيء من الأخبار بخلاف ما هو علىٰ أي وجه كان استُريب بخبره، واتُّهم في حديثه، ولم يقع قوله في النفوس موقعًا؛ ولهذا ترك المحدثون والعلماء الحديث عمن عرف بالوهم والغفلة وسوء الحفظ، وكثرة الغلط، مع ثقته.

وأيضًا فإن تعمد الكذب في أمور الدنيا معصية، والإكثار منه كبيرة بإجماع، مُسقط للمروءة.

وكل هذا مما يُنزه عنه منصب النبوة؛ والمرة الواحدة منه في ما يُسْتَبْشَعُ ويُسْتَشْنَع مما يخل بصاحبها، ويزري بقائلها لاحقةٌ بذلك.

وأما فيما لا يقع هذا الموقع فإنْ عددناها من الصغائر فهل تجري علىٰ حكمها في الخلاف فيها؟ مختلف فيه. والصواب تَنْزيهُ النبوةً عن قليله وكثيره، سَهْوه وعَمده؛ إذ عُمدةُ النبوة البلاغ والإعلام والتبيين، وتصديق ما جاء به النبي ﷺ.

وتجويز شيء من هذا قادحٌ في ذلك، ومُشككٌ فيه، مناقضٌ للمعجزة؛ فلنقْطع عن يقين بأنه لا يجوز علىٰ الأنبياء خُلف في القول في وجهٍ من الوجوه، لا بقصدٍ ولا بغير قصدٍ، ولا تتسامح مع من تسامح في تجويز ذلك عليهم حال السهو فيما ليس طريقُه البلاغ؛ نعم، وبأنه لا يجوز عليهم الكذب قبل النبوَّة، ولا الاتسامُ به في أمورهم وأحوال دُنياهم؛ لأن ذلك يُزري ويريبُ، وينفرّ القلوب عن تصديقهم بعد.

وانظر أحوال أهل عصر النبي ﷺ من قريش وغيرها من الأمم وسؤالهم عن حاله في صدق لسانه، وما عرفوا به من ذلك واعترفوا به مما عرف، واتفق النقل علىٰ عصمة نبينا ﷺ قبل وبعد؛ وقد ذكرنا من الآثار فيه في الباب الثاني أول الكتاب ما يبينً لك صحة ما أشرنا إليه.

الفصل الثامن

رد بعض الاعتراضات

فإن قلت: فما معنىٰ قوله ﷺ في حديث السهو الذي حدثنا به الفقيه أبو إسحاق إبراهيم ابن جعفر، حدثنا القاضي أبو الأصبغ بن سهل، حدثنا حاتم بن محمد، حدثنا أبو عبد الله ابن الفخار، حدثنا أبو عيسىٰ، حدثنا عبيد الله، حدثنا يحيىٰ، عن مالك، عن داود بن الحصين، عن أبي سفيان مولىٰ بن أبي أحمد أنه قال: سمعت أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ يقول: صلىٰ رسول الله ﷺ صلاة العصر، فسلم في ركعتين، فقام ذو اليدين، فقال: يا رسول الله، أَقُصِرَت الصلاة أم نسيت؟ فقال النبي: «**كلّ ذلك لم يكن**»(١).

وفي الرواية الأخرىٰ: «**ما قُصِرَتْ وما نسيت...**»(٢) والحديث بقصته؛ فأخبره بنفي الحالتين، وأنها لم تكن، وقد كانَ أحدُ ذلك كما قال ذو اليدين: قد كان بعض ذلك يا رسول الله...

فاعلم ـ وفقنا الله وإياك ـ أن للعلماء في ذلك أجوبة، بعضها بصدد الإنصاف؛ ومنها ما هو بنيّة التعسُّف والاعتساف؛ وها أنا أقول:

أما علىٰ القول بتجويز الوهم والغلط مما ليس طريقه من القول البلاغَ، وهو الذي زيفناهُ من القولين فلا اعتراض بهذا الحديث وشبهه.

وأما علىٰ مذهب من يمنع السهو والنسيان في أفعاله جملة، ويرىٰ أنه في مثل هذا عامد لصورة النسيان لِيُسَنَّ، فهو صادقٌ في خبره؛ لأن لم يَنْسَ ولا قُصِرَتْ، ولكنه علىٰ هذا القول تعمد هذا الفعل في هذه الصورة لِيَسُنَّه لمن اعتراه مِثله؛ وهو قول مرغوبٌ عنه ونذكره في موضعه.

وأما علىٰ إحالة السَّهو عليه في الأقوال وتجويز السهو عليه فيما ليس طريقُه القول ـ كما سنذكره ـ ففيه أجوبة، منها:

أن النبي ﷺ أخبر عن اعتقاده وضميره؛ أمّا إنكارُ القَصْر فحقٌّ وصدقٌ باطنًا وظاهرًا. وأما النسيانُ فأخبر ﷺ عن اعتقاده، وأنه لم ينس في ظنه؛ فكأنه قصد الخبر بهذا عن ظنه، وإن لم ينطق به؛ وهذا صدق أيضًا.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٧١٤، ١٢٢٨، ٦٦٧١، ٧٢٥٠)، ومسلم (٥٧٣).
(٢) صحيح: رواه البخاري (٤٥٣٤)، ومسلم (٥٧٣).

ووجـه ثان: أنَّ قـوله: «ولـم أنـس» ـ راجع إلى السلام؛ أي إني سلمتُ قصداً، وسهوت عن العدد، أي لم أسه في نفس السلام؛ وهذا محتمل؛ وفيه بُعدٌ.

ووجـه ثالث: ـ وهو أبعدها ـ ما ذهب إليه بعضهم، وإن احتمله اللفظ من قوله؛ كل ذلك لم يكن: أي لم يجتمع القصرُ والنسيان؛ بل كان أحدهما ومفهوم اللفظ خلافه مع الرواية الأخرى الصحيحة، وهو قوله: «ما قصرت الصلاة وما نسيت»

هذا ما رأيت فيه لأئمتنا، وكل من هذه الوجوه محتمل اللفظ على بعد بعضها وتعسف الآخر منها.

قـال القاضي أبو الفضل ـ رحمه الله ـ: والذي أقول ـ ويظهرُ لي أنه أقرب من هذه الوجوه كلها ـ أن قولهﷺ : «لم أنس» إنكار للفظ الذي نفاه عن نفسه، وأنكره على غيره بقوله: «بئس ما لأحدكم أن يقول: نسيت آية كذا وكذا، ولكنه نُسِّيَ»[1].

وبقوله في بعض روايات الحديث الآخر: «لستُ أنسى، ولكن أُنَسَّى»[2].

فلما قال له السائلُ: أقُصرت الصلاة أم نسيت؟ أنكر قصرها كما كان، ونسيانه هو من قبل نفسه، وإنه إن كان جرى شيء من ذلك فقد نُسِّيَ حتى سأل غيره؛ فتحقق أنه نُسِّي، وأجري عليه لك ليُسنَّ؛ فقوله على هذا: «لم أنسَ ولم تُقصر؛ وكل ذلك لم يكن» صدق وحق؛ لم تُقصرولم ينس حقيقة، ولكنه نُسِّي.

ووجه آخر استثرته من كلام بعض المشايخ؛ وذلك أنه قال: إن النبيﷺ كان يسهو ولا ينسى؛ ولذلك نفى عن نفسه النسيان، قال: لأن النسيان غفلةٌ وآفة؛ والسهو إنما هو شغل بال؛ قال: فكان النبيﷺ يسهو في صلاته ولا يغفل عنها؛ وكان يشغله عن حركات الصلاة ما في الصلاة، شغلاً بها لا غفلة عنها.

فهذا إن تحقق على هذا المعنى لم يكن في قوله: «ما قصرت ولا نسيت» خلف في قول.

وعندي أن قوله: «ما قصرت الصلاة وما نسيت» بمعنى الترك الذي هو أحد وجهي النسيان؛ أراد ـ والله أعلم ـ أني لم أُسلم من ركعتين تاركًا لإكمال الصلاة، ولكني نسيتُ، ولم يكن ذلك من تلقاء نفسي.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٠٣٢)، ومسلم (٧٩٠).
(٢) ضعيف: ذكره مالك في الموطأ (٢٢٥) بلاغًا.

والدليل على ذلك قوله في الحديث الصحيح: «إني لأنسى أو أُنسَّى لأسُنَّ»(١).

وأما قصة كلمات إبراهيم المذكورة في الحديث: «إنها كذباتُه الثلاث المنصوصة»(٢)، في القرآن منها اثنتان: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، وقوله: ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٢ - ٦٣]، وقوله للملك عن زوجته: إنها أختي فاعلم أكرمك الله أن هذه كلها خارجة عن الكذب، لا في القصد ولا في غيره؛ وهي داخلة في باب المعاريض التي فيها مندوحة عن الكذب.

أما قوله: : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ فقال الحسن وغيره: معناه سأسْقَم، إن كل مخلوق معرض لذلك؛ فاعتذر لقومه من الخروج معهم إلى عيدهم بهذا.

وقيل: بل سقيم بما قُدر عليَّ من الموت.

وقيل: سقيم القلب بما أُشاهده من كفركم وعنادكم.

وقيل: بل كانت الحمى تأخذه عند طلوع نجم معلوم؛ فلما رآه اعتذر بعادته.

وكل هذا ليس فيه كذب، بل هو خبر صحيح صدق.

وقيل: بل عرَّض بسقم حجته عليهم، وضعف ما أراد بيانه لهم من جهة النجوم التي كانوا يشتغلون بها، وأنه أثناء نظره في ذلك، وقبل استقامة حجته عليهم في حال سقم وحال مرض، مع أنه لم يشك هو ولا ضعف إيمانه، ولكنه ضعف في استدلاله عليهم وسقم نظره، كما يُقال: حجة سقيمة، ونظر معلول، حتى ألهمه الله باستدلاله وصحة حجته عليهم بالكواكب والشمس والقمر ما نصه الله تعالى؛ وقد قدمنا بيانه.

وأما قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]فإنه علق خبره بشرط نطقه، كأنه قال: إن كان ينطق فهو فعله على طريق التبكيت لقومه. وهذا صدق أيضًا، ولا خلف فيه.

وأما قوله: «أختي»: فقد بين في الحديث، وقال: فإنك أختي في الإسلام؛ وهو صدق، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

فإن قلت: فهذا النبي ﷺقد سماها كذبات، وقال: لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات. وقال: في حديث الشفاعة؛ ويذكر كذباته فمعناه: أنه لم يتكلم بكلام صورته صورة الكذب وإن كان حقًا في الباطن إلا في هذه الكلمات.

---

(١) تقدم في الذي قبله.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (٢٣٧١).

ولما كان مفهوم ظاهرها خلاف باطنها أشفق إبراهيم عليه الصلاة والسلام من مؤاخذته بها.

وأما الحديث: «كان النبي ﷺ إذا أراد غزوة ورَّىٰ بغيرها»[١] فليس فيه خُلفٌ في القول؛ إنما هو ستر مقصده، لئلا يأخذ عدوه حذره؛ وكتم وجه ذهابه بذكر السؤال عن موضع آخر والبحث عن أخباره والتعريض بذكره، لا أنه يقول: تجهزوا إلىٰ غزوة كذا، أو وجهتنا إلىٰ موضع كذا خلاف مقصده؛ فهذا لم يكن؛ والأول ليس فيه خبر يدخله الخلف.

فإن قلت: فما معنىٰ قول موسىٰ - عليه السلام - وقد سُئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم؛ فعتب الله عليه ذلك، إذ لم يرد العلم إليه - الحديث؛ وفيه: «قال: بل عبدٌ لنا بمجمع البحرين أعلم منك»[٢].

فاعلم أنه قد وقع في هذا الحديث من بعض طرقه الصحيحة، عن ابن عباس: هل تعلم أحدًا أعلم منك؟

فإذا كان جوابه علىٰ علمه فهو خبر حق وصدق لا خلف فيه ولا شبهة.

وعلىٰ الطريق الآخر فمحملُه علىٰ ظنه ومُعْتَقَده، كما لو صرح به؛ لأن حاله في النبوة والاصطفاء يقتضي ذلك؛ فيكون إخبارُه بذلك أيضًا عن اعتقاده وحسبانه صدقًا لا خلف به.

وقد يريد بقوله: «أنا أعلم» بما تقتضيه وظائف النبوة من علوم التوحيد، وأمور الشريعة، وسياسة الأمة، ويكون الخضر أعلم منه بأمور أُخَر مما لا يعلمُه أحدٌ إلا بإعلام الله من علوم غيبه؛ كالقصص المذكورة في خبرهما، فكان موسىٰ عليه السلام أعلم علىٰ الجملة بما تقدم. وهذا أعلم علىٰ الخصوص بما أعلم.

ويدّل عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وعتبُ الله ذلك عليه فيما قاله العلماء إنكار هذا القول عليه، لأنه لم يرد العلم إليه، كما قالت الملائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢] أو لأنه لم يرض قوله شرعًا وذلك - والله أعلم - لئلا يَقْتدي به فيه من لم يبلغ كماله في تزكية نفسه وعلو درجته من أمته؛ فيهلك لما تضمنه من مدح الإنسان نفسه، ويورثه ذلك من الكبر والعجب والتعاطي

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٦٩).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠).

والدعوىٰ، وإن نُزه عن هذه الرذائل الأنبياء فغيرهم بمدرجة سبيلها ودرك ليلها إلا من عصمه الله؛ فالتحفظ منها أولىٰ لنفسه، وليقتدي به؛ ولذا قال ﷺ تحفظًا من مثل هذا مما قد علم به: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[1].

وهذ الحديث إحدىٰ حجج القائلين بنبوة الخضر، لقوله فيه: أنا أعلم من موسىٰ؛ ولا يكون الولي أعلم من النبي.

وأما الأنبياء فيتفاضلون في المعارف.

وبقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢]، فدل أنه بوحي. ومن قال: إنه ليس بنبي قال: يحتمل أن يكون فعله بأمر نبي آخر.

وهذا يضعف، لأنه ما علمنا أنه كان في زمن موسىٰ نبي غيره إلا أخاه هارون؛ وما نقل أحد من أهل الأخبار في ذلك شيئًا يُعول عليه.

وإذا جعلنا «أعلم منك» ليس علىٰ العموم؛ وإنما هو علىٰ الخصوص. وفي قضايا مُعينة ـ لم يحتج إلىٰ إثبات نبوة الخضر، ولهذا قال بعض الشيوخ: كان موسىٰ أعلم من الخضر فيما أخذ عن الله، والخضر أعلم فيما رفع إليه من موسىٰ.

وقال آخر: إنما أُلجئ موسىٰ إلىٰ الخضر للتأديب لا للتعليم.

الفصل التاسع

عصمة الأنبياء من الفواحش والكبائر

وأما ما يتعلق بالجوارح من الأعمال، ولا يخرجُ من جُملتها القول باللسان فيما عدا الخبر الذي وقع فيه الكلام والاعتقاد بالقلب فيما عدا التوحيد، وما قدمناه من معارفه المختصة به فأجمع المسلمون علىٰ عصمة الأنبياء من الفواحش والكبائر الموبقات. ومستند الجمهور في ذلك الإجماعُ الذي ذكرناه.

وهو مذهبُ القاضي أبي بكر؛ ومنعها غيره بدليل العقل مع الإجماع، وهو قول الكافة. واختاره الأستاذ أبو إسحاق.

وكذلك لا خلاف أنهم معصومون من كتمان الرسالة والتقصير في التبليغ؛ لأن كل ذلك يقتضي العصمة منه المعجزة، مع الإجماع علىٰ ذلك من الكافة.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٧٨).

والجمهور قائل بأنهم معصومون من ذلك من قبل الله، معتصمون باختيارهم وكسبهم، إلا حُسينًا النجار، فإنه قال: لا قدرة لهم على المعاصي أصلاً.

وأما الصغائر فجوزها جماعة من السلف وغيرهم على الأنبياء؛ وهو مذهب أبي جعفر الطبري وغيره من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين. وسنورد بعد هذا ما احتجوا به.

وذهبت طائفة أخرىٰ إلىٰ الوقف، وقالوا: العقل لا يحيل وقوعها منهم؛ ولم يأت في الشرع قاطع بأحد الوجهين.

وذهبت طائفة أخرىٰ من المحققين من الفقهاء والمتكلمين إلىٰ عصمتهم من الصغائر كعصمتهم من الكبائر؛ قالوا: لاختلاف الناس في الصغائر وتعيينها من الكبائر وإشكال ذلك، وقول ابن عباس وغيره: إن كل ما عُصي الله به فهو كبيرة، وإنه إنما سُمي منها الصغير بالإضافة إلىٰ ما هو أكبر منه؛ ومخالفة الباري في أي أمر كان يجب كونه كبيرة.

قال القاضي أبو محمد عبد الوهاب: لا يمكن أن يُقال: إن في معاصي الله صغيرة إلا علىٰ معنىٰ أنها تُغتفر باجتناب الكبائر، ولا يكون لها حكم مع ذلك، بخلاف الكبائر إذا لم يُتبْ منها لا يُحبطها شيء. والمشيئة في العفو عنها إلىٰ الله تعالىٰ؛ وهو قول القاضي أبي بكر وجماعة أئمة الأشعرية وكثير من أئمة الفقهاء.

قال القاضي ـ رحمه الله ـ: وقال بعض أئمتنا: ولا يجبُ علىٰ القولين أن يختلف أنهم معصومون عن تكرار الصغائر وكثرتها؛ إذ يُلحقها ذلك بالكبائر؛ ولا في صغيرة أدت إلىٰ إزالة الحشمة، وأسقطت المروءة، وأوجبت الإزراء والخساسة؛ فهذا أيضًا مما يُعْصمُ عنه الأنبياء إجماعًا؛ لأن مثل هذا يحط منصبه المتسم به، ويزري بصاحبه، وينفر القلوب عنه؛ والأنبياء منزهون عن ذلك. بل يُلحق بهذا ما كان من قبل المُباح؛ فأدىٰ إلىٰ مثله؛ لخروجه بما أدَّىٰ إليه عن اسم المباح إلىٰ الحظر.

وقد ذهب بعضهم إلىٰ عصمتهم من مُواقعة المكروه قصداً.

وقد استدل بعض الأئمة علىٰ عصمتهم من الصغائر بالمصير إلىٰ امتثال أفعالهم، واتباع آثارهم وسيرهم مطلقًا.

وجمهور الفقهاء علىٰ ذلك من أصحاب مالك والشافعي وأبي حنيفة من غير التزام قرينة، بل مطلقًا عند بعضهم، وإن اختلفوا في حكم ذلك.

وحكىٰ ابنُ خُويز منداذ وأبو الفرج عن مالك التزام ذلك وجوبًا، وهو قول الأبهري وابن القصار وأكثر أصحابنا.

وقول أكثر أهل العراق وابن سُرَيج، والإصْطخري، وابن خيران من الشافعية. وأكثر الشافعية على أن ذلك ندب.

وذهبت طائفة إلى الإباحة.

وقيد بعضهم الاتباع فيما كان من الأمور الدينية وعلم به مقصد القربة.

ومن قال بالإباحة في أفعاله لم يُقيد.

قال: فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم في أفعالهم؛ إذ ليس كل فعل من أفعاله يتميز مقصده من القربة أو الإباحة أو الحظر أو المعصية. ولا يصح أن يُؤمر بامتثال أمر لعله معصية، لا سيما على من يرى من الأصوليين تقديم الفعل على القول إذا تعارضا.

ونزيد هذا حجة بأن نقول: من جوز الصغائر ومن نفاها عن نبينا ﷺ مُجمعون على أنه لا يَقر على منكر من قول أو فعل، وأنه متى رأى شيئًا فسكت عنه ﷺ دل على جوازه، فكيف يكون هذا حاله في حق غيره، ثم يجوز وقوعه منه في نفسه.

وعلى هذا المأخذ تجب عصمته من مواقعة المكروه، كما قيل. وإذ الحظرُ أو الندب على الاقتداء بفعله ينافي الزجر والنهي عن فعل المكروه.

وأيضًا فقد عُلم من دين الصحابة قطعًا الاقتداء بأفعال النبي ﷺ كيف توجهت، وفي كل فن كالاقتداء بأقواله؛ فقد نبذوا خواتيمهم حين نبذ خاتمه، وخلعوا نعالهم حين خلع، واحتجاجهم برؤية ابن عمر إياه جالسًا لقضاء حاجته مستقبلاً بيت المقدس.

واحتج غير واحد منهم في غير شيء مما بابُه العبادة أو العادة بقوله: رأيت رسول الله ﷺ يفعله؛ وقال: «**هلا خبرتيها أني أقبل وأنا صائم**»[1] وقالت عائشة محتجة: كنت أفعله أنا ورسولُ الله ﷺ.

وغضب رسول الله ﷺ على الذي أخبر بمثل هذا عنه؛ فقال: «**يحل الله لرسوله ما يشاء؛ إني لأخشاكم لله وأعلمكم بحدوده**».

والآثار في هذا أعظم من أن نحيط بها، لكنه يعلم من مجموعها على القطع اتباعهم أفعاله واقتداؤهم بها. ولو جوزوا عليه المخالفة في شيء منها لما اتسق هذا، ولنقل عنهم وظهر بحثهم عن ذلك، ولما أنكر ﷺ على الآخر قوله واعتذاره بما ذكرناه.

وأما المُباحات فجائز وقوعها منهم؛ إذ ليس فيها قدحٌ، بل هي مأذون فيها، وأيديهم

(١) صحيح: أخرجه مالك في الموطأ (٦٢٩، ٦٣٠)، وأصله في الصحيحين.

كأيدي غيرهم مسلطة عليها، إلا أنهم مما خُصوا به من رفيع المنزلة، وشُرحت له صدورهم من أنوار المعرفة، واصطفوا به من تعلق بالِهم بالله والدار الآخرة، لا يأخذون من المباحات إلا الضرورات مما يتقوون به على سُلوك طريقهم، وصلاح دينهم، وضرورة دُنياهم، وما أخذَ على هذه السبيل التحق طاعة وصار قُرْبَة، كما بينا منه أول الكتاب طرفًا في خصال نبينا ﷺ؛ فبان لك عظيم فضل الله على نبينا وعلى سائر أنبيائه عليهم السلام بأن جعل أفعالهم قُربات وطاعات بعيدة عن وجه المخالفة ورسم المعصية.

الفصل العاشر

في عصمتهم قبل النبوة

وقد اختلف في عصمتهم في المعاصي قبل النبوة؛ فمنعها قومٌ، وجوزها آخرون، والصحيح إن شاء الله تنزيههم من كل عيب، وعصمتهم من كل ما يوجب الريب؛ فكيف والمسألة تصورها كالممتَنع؛ فإن المعاصي والنواهي إنما تكون بعد تقرر الشرع.

وقد اختلف الناسُ في حال نبينا ﷺ قبل أن يوحى إليه؛ هل كان متبعًا لشرع قبله أم لا؟ فقال جماعة: لم يكن متبعًا لشيء؛ وهذا قول الجمهور؛ فالمعاصي على هذا القول غير موجودة ولا معتبرة في حقه حينئذ؛ إذ الأحكامُ الشرعية إنما تتعلق بالأوامر والنواهي وتقرر الشريعة.

ثم اختلفت حُجج القائلين بهذه المقالة عليها؛ فذهب سيف السنة ومقتدى فرق الأمة القاضي أبو بكر إلى أن طريق العلم بذلك النقل وموارد الخبر من طريق السمع؛ وحجته أنه لو كان ذلك لنقل، ولما أمكن كتمه وستره في العادة؛ إذ كان من مُهم أمره؛ وأولى ما اهتُبل به من سيرته، ولفَخَر به أهل تلك الشريعة، ولاحتجوا به عليه؛ ولم يُؤثر من ذلك جملة.

وذهبت طائفة إلى امتناع ذلك عقلاً؛ قالوا لأنه يبعد أن يكون متبوعًا من عُرف تابعًا؛ وبنوا هذا علي التحسين والتقبيح؛ وهي طريقة غير سديدة؛ واستنادُ ذلك إلى النقل كما تقدم للقاضي أبو بكر أولى وأظهر.

وقالت فرقة أخرى بالوقف في أمره ﷺ، وترك قطع الحكم عليه بشيء في ذلك؛ إذ لم يُحل أحد الوجهين منها العقل، ولا استبان في أحدهما طريقُ النقل؛ وهومذهب أبي

المعالي.

وقالت فرقة ثالثة: إنه كان عاملاً بشرعٍ من قبله؛ ثم اختلفوا: هل يتعين ذلك الشرع أم لا؟ فوقف بعضهم عن تعيينه، وأحجم وجَسر بعضهم على التعيين وصمّم.

ثم اختلفَتْ هذه المعينة فيمن كان يتّبعُ؛ فقيل: نوحٌ، وقيل: إبراهيم، وقيل: موسى، وقيل: عيسى صلوات الله عليهم. فهذه جملة المذاهب في هذه المسألة.

والأظهر فيها ما ذهب إليه القاضي أبو بكر، وأبعدها مذاهب المعينين؛ إذ لو كان شيء من ذلك لنُقل كما قدمنا، ولم يخف جملة؛ ولا حجة لهم في أن عيسى آخر الأنبياء، فلزمت شريعته من جاء بعدها؛ إذ لم يثبت عموم دعوة عيسى؛ بل الصحيح أنه لم يكن لنبي دعوة عامة إلا لنبينا ﷺ؛ ولا حجة أيضًا للآخر في قوله: ﴿ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النحل: ١٢٣]، ولا للآخرين في قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا ﴾ [الشورى: ١٣] فتُحمل هذه الآية على اتباعهم في التوحيد؛ كقوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقد سمّى الله تعالى فيهم من لم يبعث، ولم تكن له شريعة تخصه؛ كيوسف بن يعقوب على قول من يقول: إنه ليس برسول.

وقد سمى الله تعالى جماعة منهم في هذه الآية شرائعهم مختلفة لا يمكن الجمع بينها؛ فدل أن المراد ما اجتمعوا عليه من التوحيد وعبادة الله تعالى.

وبعد هذا فهل يلزم من قال بمنع الاتباع هذا القولُ في سائر الأنبياء غير نبينا ﷺ، أو يخالفون بينهم؟

أما من منع الاتباع عقلاً فيطّرد أصله في كل رسول بلا مرية.

وأما من مال إلى النقل فأينما تصورُ له وتقرر اتبعه.

ومن قال بالوقف فعلى أصله. ومن قال بوجوب الاتباع لمن قبله فيلتزمه بمساق حجته في كل نبي.

الفصل الحادي عشر

السهو والنسيان في الأفعال

هذا حكمُ ما تكون المخالفة فيه من الأعمال عن قصد؛ وهو ما يسمىٰ معصية، ويدخلُ تحت التكليف. و أما ما يكون بغير قصد وتعمد؛ كالسهو والنسيان في الوظائف الشرعية مما تقرر الشرع بعدم تعلق الخطاب به، وترك المؤاخذة عليه؛ فأحول الأنبياء في ترك المؤاخذة به، وكونه ليس بمعصية لهم مع أممهم سواء.

ثم ذلك علىٰ نوعين:

ما طريقه البلاغ، وتقريرُ الشرع، وتعلق الأحكام، وتعليم الأمة بالفعل، وأخذهم باتباعه فيه.

وما هو خارج عن هذا مما يختص بنفسه.

أما الأول: حكمه عند جماعة من العلماء حكم السهو في القول في هذا الباب.

وقد ذكرنا الاتفاق علىٰ امتناع ذلك في حق النبي ﷺ، وعصمته من جوازه عليه قصداً أو سهواً؛ فكذلك قالوا: الأفعال في هذا الباب لا يجوز طروّ المخالفة فيها لا عمداً ولا سهواً؛ لأنها بمعنىٰ القول من جهة التبليغ والأداء، وطروّ هذه العوارض عليها يوجب التشكيك، ويسبب المطاعن.

واعتذروا عن أحاديث السهو بتوجيهات نذكرها بعد هذا. وإلىٰ هذا مال أبو إسحاق.

وذهب الأكثر من الفقهاء والمتكلمين إلىٰ أن المخالفة في الأفعال البلاغية والأحكام الشرعية سهواً وعن غير قصد منه جائزة عليه، كما تقرر من أحاديث السهو في الصلاة؛ وفرقوا بين ذلك وبين الأقوال البلاغية لقيام المعجزة علىٰ الصدق في القول، ومخالفة ذلك يناقضُها.

وأما السهو في الأفعال فغير مناقض لها، ولا قادح في النبوة، بل غلطات الفعل وغفلات القلب من سمات البشر، كما قال ﷺ: **«إنما أنا بشرٌ، أنسَى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني»**[1]، نعم، بل حالة النسيان والسهو هنا في حقه ﷺ سبب إفادة علم وتقرير شَرع، كما قال ﷺ: **«إني لأنسى أو أُنسَّى لأسُنّ»**.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٠١)، ومسلم (٥٧٢).

بل قد رُوي: «لست أنسى، ولكن أُنسَّى».

وهذه الحالة زيادة في التبليغ، وتمام عليه في النعمة بعيدة عن سمات النقص واغراض الطعن؛ فإن القائلين بتجويز ذلك يشترطون أن الرسل لا تُقرُّ على السهو والغلط؛ بل ينبَّهون عليه، ويعرفون حكمه بالفور على قول بعضهم، وهو الصحيح. وقبل انقراضهم على قول الآخرين.

وأما ما ليس طريقه البلاغ، ولا بيان الأحكام من أفعاله ﷺ، وما يختصُّ به من أمور دينه وأذكار قلبه مما لم يفعله ليتبع فيه فالأكثر من طبقات علماء الأمة على جواز السهو والغلط عليه فيها، ولحوق الفَترات والغَفَلات بقلبه؛ وذلك بما كلفه من مقاساة الخلق، وسياسات الأمة، ومعاناة الأهل، وملاحظة الأعداء؛ ولكن ليس على سبيل التكرار ولا الاتصال؛ بل على سبيل الندور، كما قال ﷺ: «إنه ليُغان على قلبي، فأستغفر الله».

وليس في هذا شيء يَحُط من رُتبته ويُناقض معجزته.

وذهبت طائفة إلى منع السهو والنسيان والغفلات والفترات في حقه ﷺ جملة.

وهو مذهب جماعة المتصوفة وأصحاب علم القلوب والمقامات، ولهم في هذه الأحايث مذاهب نذكرها بعد هذا إن شاء الله.

الفصل الثاني عشر

في الكلام على الأحاديث المذكور فيها السهو منه ﷺ

وقد قدمنا في الفصول قبل هذا ما يجوز فيه عليه السهو ﷺ وما يمتنع، وأحلناهُ في الأخبار جملة، وفي الأقوال الدينية قطعًا، وأجزنا وقوعه في الأفعال الدينية على الوجه الذي رتبناه، وأشرنا إلى ما ورد في ذلك؛ ونحن نبسط القول فيه نقول: والصحيح من الأحاديث الوارد في سهوه ﷺ في الصلاة ثلاثة أحاديث:

أولها: حديث ذي اليدين في السلام من اثنتين(١).

الثاني: حديث ابن بُحَيْنَةَ في القيام من اثنتين(٢).

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٢٢٧)، ومسلم (٥٧٣).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١٢٢٤، ١٢٢٥)، ومسلم (٥٧٠).

الثالث: حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أن النبي ﷺ صلىٰ الظهر خمساً[1].

وهذه الأحاديث مبنية علىٰ السهو في الفعل الذي قررناه، وحكمه الله فيه لِيُستَنَّ؛ إذ البلاغ بالفعل أجلىٰ منه بالقول، وأرفع للاحتمال؛ وشرطه أنه لا يُقرّ علىٰ السهو؛ بل يشعر به ليرتفع الالتباس، وتظهر فائدة الحكمة فيه كما قدمناه؛ فإن النسيانَ والسهو في الفعل في حقه ﷺ غير مضاد للمعجزة، ولا قادح في التصديق؛ وقد قال ﷺ: «إنما أنا بشرٌ أنْسى كما تَنْسونَ؛ فإذا نسيتُ فذكِّروني»[2].

وقال ﷺ: «رحم الله فلانًا، لقد أذكرني كذا وكذا آية كنت أُسْقطهن»[3] ـ ويروىٰ: أنسيتهنّ». وقال ﷺ: «إني لأنْسَى، أو أنَسَّى، لأَسُنّ»[4].

قيل: هذا اللفظ شك من الراوي. وقد روي «إني لا أَنْسى، ولكن أُنَسَّي لأسُنَّ».

وذهب ابن نافع وعيسىٰ بن دينار أنه ليس بشك؛ فإن معناه: التقسيم؛ أي أنْسَىٰ أنا، أو يُنْسيني الله.

قال القاضي أبو الوليد الباجي: يحتمل ما قالاه أن يُريد أني أنسىٰ في اليقظة وأُنسَّىٰ في النوم، أو أنسىٰ علىٰ سبيل عادة البشر من الذهول عن الشيء والسهو؛ وأُنَسَّىٰ مع إقبالي عليه وتفرغي له؛ فأضاف أحد النِّسْيَانَيْن إلىٰ نفسه؛ إذ كان له بعض السبب فيه، ونفىٰ الآخر عن نفسه؛ إذ هو فيه كالمضطرّ.

وذهبت طائفة من أصحاب المعاني والكلام علىٰ الحديث إلىٰ أن النبي ﷺ كان يسهو في الصلاة ولا يَنسىٰ؛ لأن النسيانَ ذُهولٌ وغفلةٌ وآفة؛ قال: والنبي ﷺ منَزَّهٌ عنها؛ والسهو شُغل؛ فكان النبي ﷺ يسهو في صلاته، ويشغله عن حركات الصلاة ما في الصلاة، شُغلاً بها لا غفلة عنها.

واحتج بقوله في الرواية الأخرىٰ: «إني لا أنْسَى».

وذهبت طائفة إلىٰ منع هذا كله عنه، وقالوا: إن سهوه عليه السلام كان عمداً وقصداً ليِسُنَّ.

وهذا قولٌ مرغوبٌ عنه، متُناقضُ المقاصد، لا يُحْلَىٰ منه بطائل؛ لأنه كيف يكون

(١) صحيح: تقدم تخريجه.
(٢) صحيح: تقدم تخريجه.
(٣) صحيح: تقدم تخريجه.
(٤) صحيح: تقدم تخريجه.

متعمداً ساهيًا في حال. ولا حجة لهم في قولهم: إنه أمر بتعمد صورة النسيان ليسنّ، لقوله: «إني لأنسى أو أُنسى». وقد أثبت أحد الوصفين ونفى مناقضة التعمد والقصد، وقال: «إنما أنا بشرٌ مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني»[1].

وقد مال إلى هذا عظيم من المحققين، من أئمتنا، وهو أبو المظفر الإسفرائيني، ولم يرتضه غيره منهم، ولا أرتضيه، ولا حجة لهاتين الطائفتين في قوله: «إني لا أنسَى، ولكن أُنسَّى»، إذ ليس فيه نفي حُكم النسيان بالجملة، وإنما فيه نفي لفظه، وكراهة لقبه، كقوله: «بئسَما لأحدكم أن يقول: نسيت آية كذا[2]، ولكنه نُسِّي»، أو نَفيُ الغفلة وقلة الاهتمام بأمر الصلاة عن قلبه، لكن شغل بها عنها، ونسي بعضها ببعضها، كما ترك الصلاة يوم الخندق حتى خرج وقتها، وشغل بالتحرر من العدو عنها؛ فشغل بطاعة عن طاعة.

وقيل: إن الذي تُرك يوم الخندق أربع صلوات: الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، وبه احتج من ذهب إلى جواز تأخير الصلاة في الخوف، إذا لم يتمكن من أدائها إلى وقت الأمن، وهو مذهب الشاميين.

والصحيح أن حكم صلاة الخوف كان بعد هذا، فهو ناسخ له.

فإن قلت: فما تقول في نومه ﷺ عن الصلاة يوم الوادي، وقد قال: «إن عينيّ تنامان ولا ينام قلبي»[3]؟

فاعلم أنَّ للعلماء في ذلك أجوبة، منها: أن المراد بأن هذا حكمُ قلبه عند نومه وعينيه في غالب الأوقات، وقد يندُرُ منه غيرُ ذلك، كما يندرُ من غيره خلاف عادته. ويُصحح هذا التأويل قوله ﷺ في الحديث نفسه: «إن الله قبض أرواحنا»[4].

وقول بلال فيه: ما ألقيت عليّ نومةٌ مثلها قط، ولكن مثل هذا إنما يكون منه لأمر يريده الله من إثبات حكم، وتأسيس سنَّة، وإظهار شرع، وكما قال في الحديث الآخر: «لو شاء الله لأيقظنا، ولكن أراد أن يكون لمن بعدكم».

الثاني: أن قلبه لا يستغرقه النوم حتى يكون منه الحدث فيه، لما رُوِي أنه كان محروساً، وأنه كان ينام حتى ينفخ وحتى يسمع غَطيطُه، ثم يُصلي ولا يتوضأ.

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.
(٢) صحيح: تقدم تخريجه.
(٣) صحيح: تقدم تخريجه.
(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٧٤٧١).

وحديث ابن عباس المذكور فيه وضوءه عند قيامه من النوم، فيه نومه مع أهله؛ فلا يمكن الاحتجاجُ به على وضوئه بمجرد النوم، إذ لعل ذلك لملامسته الأهل أو لحدث آخر، فكيف وفي آخر الحديث نفسه: «ثم نام حتى سمعتُ غطيطه»[1] ثم أقيمت الصلاة فصلى ولم يتوضأ.

وقيل: لا ينام قلبه من أجل أنه يوحى إليه في النوم، وليس في قصة الوادي إلا نوم عينيه عن رؤية الشمس. وليس هذا من فعل القلب، وقد قال ﷺ: «إن الله قبض أرواحنا ولو شاء لردها إلينا في حين غير هذا».

فإن قيل: فلولا عادته من استغراق النوم لما قال لبلال: «اكْلأْ لنا الصُّبح».

فقيل في الجواب: إنه كان من شأنه ﷺ التغليسُ بالصبح؛ ومراعاة أول الفجر لا تصح ممن نامت عينه؛ إذ هو ظاهر يدرك بالجوارح الظاهرة؛ فوكَّل بلالاً بمراعاة أوله ليعلمه بذلك، كما لو شغل بشغل غير النوم عن مُراعاته.

فإن قيل: فما معنى نهيه ﷺ عن القول: نسيت، وقد قال ﷺ: «إني أنْسى كما تنسونَ، فإن نسيتُ فذكروني. وقال «لقد أذكرني كذا وكذا آية كنتُ أُنْسيتُها».

فاعلم - أكرمك الله - أنه لا تعارض في هذه الألفاظ؛ أما نهيه عن أن يُقال نسيتُ آية كذا فمحمول على ما نُسخ نقله من القرآن، أي أن الغفلة في هذا لم تكن منه، ولكن الله تعالى اضطره إليها ليمحو ما يشاء ويثبت، وما كان من سهو أو غفلة من قلبه تذكرها صلح أن يقال فيه: أنسى.

وقيل قيل: إن هذا منه ﷺ على طريق الاستحباب أن يُضيف الفعل إلى خالقه، والآخر على طريق الجواز لاكتساب العبد فيه، وإسقاطه ﷺ لما أسقط من هذه الآيات جائز عليه بعد بلاغ ما أمر ببلاغه، وتوصيله إلى عباده، ثم يستذكرها من أمته، أو من قِبل نفسه، إلا ما قضى الله نسخه ومحوه من القلوب وترك استذكاره.

وقد يجوز أن ينسى النبي ﷺ ما هذا سبيله كرَّة؛ ويجوز أن ينسَّيه منه قبل البلاغ ما لا يغير نظمًا، ولا يخلط حكمًا، مما لا يدخل خللاً في الخبر، ثم يُذّره إياه، ويستحيل دوام نسيانه له؛ لحفظ الله كتابه، وتكليفه بلاغه.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١١٧، ٦٩٧)، ومسلم (٢٤١٠).

الفصل الثالث عشر

في الرد على من أجاز عليهم الصغائر، والكلام على ما احتجوا به في ذلك

اعلم أن المجوزين للصغائر على الأنبياء من الفقهاء والمحدثين ومن شايعهم على ذلك من المتكلمين احتجوا على ذلك بظواهر كثيرة من القرآن والحديث إن التزموا ظواهرها أفضت بهم إلى تجويز الكبائر وخرق الإجماع، وهو ما لا يقول به مسلم، فكيف وكل ما احتجوا به مما اختلف المفسرون في معناه، وتقابلت الاحتمالات في مقتضاه، وجاءت أقاويل فيها للسلف بخلاف ما التزموه من ذلك، فإذا لم يكن مذهبهم إجماعًا وكان الخلاف فيما احتجوا به قديمًا، وقامت الدلالة على خطإ قولهم، وصحة غيره، وجب تركه والمصيرُ إلى ما صح.

وها نحن نأخذُ في النظر فيها إن شاء الله:

فمن ذلك: قوله تعالى لنبينا محمد ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

وقوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ٢-٣].

وقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

وقوله: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

وقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١، ٢].

وما قص من قصص غيره من الأنبياء كقوله: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١].

وقوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠].

وقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقوله عن يونس: ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وما ذكر من قصة داود؛ وقوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا

وأناب ﴿٢٤﴾ فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ [ص: ٢٤-٢٥].

وقوله: ﴿ولقد همت به وهم بها﴾ [يوسف: ٢٤] وما قص من قصته مع إخوته.

وقوله عن موسى: ﴿فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين﴾ [القصص: ١٥]

وقول النبي ﷺ في دعائه: «اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت». ونحوه من أدعيته ﷺ.

وذكر الأنبياء في الموقف ذنوبهم في حديث الشفاعة.

وقوله: «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله».

وفي حديث أبي هريرة: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».

وقوله تعالى عن نوح: ﴿وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾ [هود: ٤٧]، وقد كان قال الله له: ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ [هود: ٣٧].

وقال عن إبراهيم: ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ [الشعراء: ٨٢].

وقوله عن موسى: ﴿تبت إليك﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقوله: ﴿ولقد فتنا سليمان﴾ [ص: ٣٤]. . . إلى ما أشبه هذه الظواهر.

قال القاضي - رحمه الله -: فأما احتجاجهم بقوله: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [الفتح: ٢]. فهذا قد اختلف فيه المفسرون؛ فقيل: المرادُ ما كان قبل النبوة وبعدها.

وقيل: المراد ما وقع لك من ذنب وما لم يقع. أعلمه أنه مغفور له.

وقيل: المتقدم ما كان قبل النبوة، والمتأخر عصمتك بعدهاحكاه أحمد بن نصر.

وقيل: المراد بذلك أمته ﷺ.

وقيل: المرادُ ما كان عن سهو وغفلة وتأويل، حكاه الطبري، واختاره القشيري.

وقيل: ما تقدم لأبيك آدم، وما تأخر من ذنوب أمتك؛ حكاه السمرقندي والسلمي عن ابن عطاء.

وبمثله والذي قبله يُتأول قوله: ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾ [محمد: ١٩]؛ قال مكيّ: مخاطبة النبي ﷺ ههنا مخاطبة لأمته.

وقيل: إن النبي ﷺ لما أمر أن يقول: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩] سُرَّ بذلك الكفار؛ فأنزل الله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. وبمآل المؤمنين في الآية الأخرى بعدها؛ قاله ابن عباس.

فمقصدُ الآية: إنك مغفور لك غير مُؤاخذ بذنب أن لو كان. قال بعضهم: المغفرة ها هنا تَبرئة من العيوب.

وأما قوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ٢-٣]؛ فقيل: ما سلف من ذنبك قبل النبوة؛ وهو قول ابن زيد والحسن، ومعنى قول قتادة.

وقيل: معناه أنه حُفظ قبل نبوته منها وعصم؛ ولولا ذلك لأثقلت ظهره؛ حكى معناه السمرقندي.

وقيل: المراد بذلك ما أثقل ظهره من أعباء الرسالة حتى بلَّغها؛ حكاه الماوردي، والسلمي.

وقيل: حططنا عنك ثقل أيام الجاهلية؛ حكاه مكي.

وقيل: ثِقل شَغْل سرك وحيرتك وطلب شريعتك حتى شرعنا ذلك لك، وحكى معناه القشيري.

وقيل: معناه: خففنا عنك ما حُملت بحفظنا لما استُحفظت، وحُفظ عليك.

ومعنى ﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي كاد ينقُضه؛ فيكون المعنى على من جعل ذلك لما قبل النبوة اهتمام النبي ﷺ بأمور فعلها قبل نبوته، وحرمت عليه بعد النبوة، فعدّها أوزاراً وثقلت عليه، وأشفق منها.

أو يكون الوضع عصمة الله له وكفايته من ذنوب لو كانت لأنقضت ظهره.

أو يكون من ثقل الرسالة؛ أو ما ثقل عليه وشغل قلبه من أمور الجاهلية، وإعلام الله تعالى له بحفظ ما استحفظه من وحيه.

وأما قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]. فأمر لم يتقدم للنبي ﷺ فيه من الله تعالى نهي فيُعد معصية، ولا عَدَّه الله تعالى عليه معصية؛ بل لم يعده أهل العلم مُعاتبة. وغلطوا من ذهب إلى ذلك؛ قال نِفْطَوَيْه: وقد حاشاه الله تعالى من ذلك؛ بل كان مخيراً في أمرين؛ قالوا: وقد كان له أن يفعل ما شاء فيما لم ينزل عليه فيه وحي، فكيف وقد قال الله تعالى: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢]، فلما أذن لهم أعلمه الله بما لم يطلع عليه من سِرهم أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا وأنه لا حرج عليه فيما فعل، وليس

﴿عفا﴾» هنا بمعنى غفر؛ بل كما قال النبي ﷺ «عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق»[(١)] ـ ولم تجب عليهم قط ـ أي : لم يُلزمكم ذلك.

ونحوه للقُشيريّ؛ قال: وإنما يقولُ : «العفو لا يكون إلا عن ذنب» من لم يعرف كلام العرب؛ قال: ومعنى ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾ أي : لم يُلزمك ذنبًا.

قال الداودي: رُوي أنها كانت تكرمة.

وقال مكي : هو استفتاح كلام؛ مثل: أصلحك الله وأعزك.

وحكى السمرقندي أن معناه عافاك الله.

وأما قوله في أسارى بدر: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٨]. فليس فيه إلزام ذنب للنبي ﷺ؛ بل فيه بيان ما خص به وفضل من بين سائر الأنبياء؛ فكأنه قال: ما كان هذا لنبي غيرك؛ كما قال ﷺ: «أُحلت لي الغنائم، ولم تحل لنبي قبلي»[(٢)].

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧].

قيل : المعنى الخطاب لمن أراد ذلك منهم وتجرّد غرضه لغرض الدنيا وحده والاستكثار منها ، وليس المراد بهذا النبي ﷺ ولا عِلية اصحابه ، بل قد روي عن الضحاك: أنها نزلت حين انهزم المشركون يوم بدر واشتغل الناس بالسلب وجمع الغنائم عن القتال ، حتى خشي عُمر أن يعطف عليهمَ العَدّو.

ثم قال تعالى : ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨] فاختلف المفسرون في معنى الآية؛ فقيل : معناها: لولا أنه سبق مني أن لا أعذب أحداً إلا بعد النهي لعذبتكم.

فهذا ينفي أن يكون أمر الأسرى معصية.

وقيل: المعنى لولا إيمانكم بالقرآن، وهو الكتاب السابق فاستوجبتم به الصفح لعُوقبتم على الغنائم.

(١) صحيح :أخرجه الترمذي (٦٢٠)، وابن ماجه (١٧٩٠)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٤٣٧٥).
(٢) صحيح :أخرجه البخاري (٣١٢٢) مختصراً.

ويزاد هذا القول تفسيراً وبيانًا بأن يقال: لولا ما كنتم مؤمنين بالقرآن، وكنتم ممن أحلت لهم الغنائم لعُوقبتم، كما عوقب من تعدىٰ.

وقيل: لولا أنه سبق في اللوح المحفوظ أنها حلال لكم لعوقبتم.

فهذا كله ينفي الذنب والمعصية؛ لأن من فعل ما أحل له لم يَعص؛ قال الله تعالىٰ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩].

وقيل: بل كان ﷺ قد خُيرَ في ذلك؛ وقد رُوي عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ، قال: جاء جبريلُ عليه السلام إلىٰ النبي ﷺ يوم بدر، فقال خيرْ أصحابك في الأسارىٰ، إن شاءُوا القتل، وإن شاءوا الفداء، علىٰ أن يُقتل منهم في العام المقبل مثلهم فقالوا: الفداء ويقتل منا.

وهذا دليل علىٰ صحة ما قلناه، وأنهم لم يفعلوا إلا ما أذن لهم فيه؛ لكن بعضهُم مالَ إلىٰ أضعف الوجهين مما كان الأصلح غيره من الإثخان والقتل؛ فعوتبوا علىٰ ذلك، وبين لهم ضعف اختيارهم وتصويب اختيار غيرهم؛ وكلهم غير عصاة ولا مذنبين؛ وإلىٰ هذا أشار الطبري.

وقوله ﷺ في هذه القضية: لو نزل من السماء عذاب ما نجا منه إلا عمر ـ إشارة إلىٰ هذا من تصويب رأيه ورأي من أخذ بمأخذه، في إعزاز الدين، وإظهار كلمته، وإبادة عدوه، وأن هذه القضية لو استوجبت عذابًا نجا منه عمر ومثله: وعين عمر لأنه أول من أشار بقتلهم؛ ولكن الله لم يقدر عليهم في ذلك عذابًا لحله لهم في ما سبق.

وقال الداودي: والخبر بهذا لا يثبت، ولو ثبت لما جاز أن يظن أن النبي ﷺ حكم بما نص فيه ولا دليل من نص، ولا جُعل الأمر فيه إليه؛ وقد نزهه الله تعالىٰ من ذلك.

وقال القاضي بكر بن العلاء، أخبر الله تعالىٰ نبيه في هذه الآية أن تأويله وافق ما كتبه له من إحلال الغنائم والفداء؛ وقد كان قبل هذا فادوا في سرية عبد الله بن جحش التي قتل فيها ابن الحضرمي بالحكم بن كيسان وصاحبه؛ فما عتب الله ذلك عليهم؛ وذلك قبل بدر بأزيد من عام.

فهذا كله يدل علىٰ أن فعل النبي ﷺ في شأن الأسرىٰ كان علىٰ تأويل وبَصيرة، وعلىٰ ما تقدم قبل مثله؛ لم ينكره الله تعالىٰ عليهم لكن الله تعالىٰ أراد ـ لعظم أمر بدر وكثرة أسراها، والله أعلم ـ إظهارَ نعمته، وتأكيد منته بتعريفهم ما كتبه في اللوح المحفوظ من حل ذلك لهم، لا علىٰ وجه عتاب وإنكار وتذنيب. هذا معنىٰ كلامه.

وأما قوله: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴾ [عبس: ١-٢]. فليس فيه إثبات ذنب له ﷺ؛ بل إعلام الله أن ذلك المُتصدي له ممن لا يتزكى، وأن الصواب والأولى ـ أو كُشف لك حال الرجلين ـ الإقبال على الأعمى.

وفعل النبي ﷺ لما فَعل، وتصديه لذاك الكافر، كان طاعة لله وتبليغًا عنه، واستئلافًا له، كما شرعه الله له، لا معصية، ولا مخالفة له.

وما قصَّه الله عليه من ذلك إعلام بحال الرجلين وتوهين أمر الكافر عنده، والإشارة إلى الإعراض عنه، بقوله: ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾ [عبس: ٧].

وقيل: أراد بـ «عبس»، و «وتولى» الكافر الذي كان مع النبي، قاله أبو تمام.

وأما قصة آدم عليه السلامُ، وقوله تعالى: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا ﴾ [طه: ١٢١] بعد قوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٣٥] وقوله: ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾ [الأعراف: ٢٢] وتصريحه تعالى عليه بالمعصية بقوله تعالى: ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ [طه: ١٢١] أي جهل:

وقيل أخطأ؛ فإن الله تعالى قد أخبر بعذره بقوله: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٥]؛ قال ابن زيد: نسي عداوة إبليس له، وما عهد الله إليه من ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾. وقيل: نسي ذلك بما أظهر لهما.

وقال ابن عباس: إنما سُمي الإنسان إنسانًا لأنه عهد إليه فنسي.

وقيل: لم يقصد المخالفة استحلالاً لها، ولكنهما اغترا بحلف إبليس لهما: ﴿ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٢١]؛ وتوهما أن أحدًا لا يحلف بالله حانثًا.

وقد روى عذر آدم بمثل هذا في بعض الآثار.

وقال ابن جُبَير: حلف بالله لهما حتى غرّهما؛ والمؤمن يخدع.

وقد قيل: نَسيَ، ولم ينو المخالفة؛ فلذلك قال: ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٥]؛ أي قصداً للمخالفة.

وأكثر المفسرين على أن العزم هنا الجزم والصبرُ.

وقيل: كان عند أكله سكران؛ وهذا فيه ضعف؛ لأن الله تعالى وصف خمر الجنة أنها لا تُسكر؛ فإذا كان ناسيًا لم تكن معصية؛ وكذلك إن كان مُلبسًا عليه غالطًا؛ إذ الإتفاق على خروج الناسي والساهي عن حكم التكليف.

وقال الشيخ أبو بكر بن فُورك وغيره: إنه يمكن أن يكون ذلك قبل النبوة؛ ودليلُ ذلك

قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١ - ١٢٢] فذكر أن الاجتباء والهداية كانا بعد العصيان.

وقيل: بل أكلها متأولاً، وهو لا يعلم أنها الشجرة التي نُهِيَ عنها؛ لأنه تأول نهي الله عن شجرة مخصوصة لا على الجنس؛ ولهذا قيل: إنما كانت التوبة من ترك التحفظ، لا من المخالفة.

وقيل: تأول أن الله لم ينهه عنها نهي تحريم.

فإن قيل: فعلى كل حال فقد قال الله تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾؛ وقال: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾. وقوله في حديث الشفاعة: ويذكر ذنبه، وقال: إني نُهيت عن أكل الشجرة فعصيت، فسيأتي الجوابُ عنه وعن أشباهه مُجملاً آخر الفصل إن شاء الله.

وأما قصة يونس فقد مضى الكلام على بعضها آنفًا؛ وليس في قصة يونس نص على ذنب؛ وإنما فيها: أبق ذهب معاضبًا وقد تكلمنا عليه.

وقيل: إنما نقمَ الله عليه خروجه عن قومه فاراً من نزول العذاب.

وقيل: بل لما وعدهم العذاب ثم عفا الله عنهم قال: والله لا ألقاهم بوجه كذاب أبداً.

وقيل: بل كانوا يقتُلون من كذب فخاف ذلك.

وقيل: ضعف عن حمل أعباء الرسالة. وقد تقدم الكلام أنه لم يكذبهم.

وهذا كله ليس فيه نص على معصية إلا على قول مرغوب عنه.

وقوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾[الصافات: ١٤٠] قال المفسرون تباعد.

وأما قوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٧]؛ فالظلم وضع الشيء في غير موضعه؛ فهذا اعترافٌ منه عند بعضهم بذنبه؛ فإمّا أن يكونَ لخروجه عن قومه بغير إذن ربه، أو لضعفه عما حمله، أو لدعائه بالعذاب على قومه. وقد دعا نوح بهلاك قومه فلم يؤاخذ.

وقال الواسطي في معناه: نزّه ربه عن الظلم، وأضاف الظلم إلى نفسه اعترافًا واستحقاقًا. ومثل هذا قول آدم وحواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾[الأعراف: ٢٣] إذ كانا السبب في وضعهما غير الموضع الذي أنزلا فيه، وإخراجهما من الجنة، وإنزالهما إلى الأرض.

وأما قصة داود عليه السلام فلا يجب أن يُلتفت إلى ما سطره فيه الأخباريون من أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا؛ ونقله بعض المفسرين. ولم ينص الله على شيء من ذلك،

ولا ورد في حديث صحيح. والذي نص الله عليه قوله:

﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢٤-٢٥].

وقوله: فيه: ﴿أَوَّابٌ﴾.

فمعنى فتناهُ: اختبرناه، وأواب قال قتادة: مُطِيع.

وهذا التفسير أوْلى.

وقال ابن عباس، وابن مسعود: ما زاد داودُ على أنْ قال للرجل: أنزل لي عن امرأتك وأكفلنيها؛ فعاتبه الله على ذلك، ونبَّهه عليه، وأنكر عليه شغله بالدنيا، وهذا الذي ينبغي أن يعوّل عليه من أمره.

وقيل: خطبها على خطبته.

وقيل: بل أحبهَ بقلبه أن يُستشهد.

وحكى السمرقندي أن ذنبه الذي استغفر منه قوله لأحد الخصمين: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ [ص: ٢٤] فظلَّمه بقول خصمه.

وقيل: بل لما خشيَ على نفسه، وظن من الفتنة بما بُسط به من الملك والدنيا. وإلى نفي ما أُضيف في الأخبار إلى داود من ذلك- ذهب أحمد بن نصر، وأبو تمام، وغيرهما من المحققين.

وقال الداودي: ليس في قصة داود وأوريا خبر يثبت ولا يظن بنبي محبة قتل مسلم.

وقيل: إن الخصمين اللذين اختصما إليه رجلان في نعاج غنم، على ظاهر الآية. وأما قصة يوسف وأخوته فليس على يوسف فيها تعقب، وأما إخوته فلم تثبت نبوتهم فيلزم الكلام على أفعالهم. وذكر الأسباط وعدهم في القرآن عند ذكر الأنبياء ليس صريحًا في كونهم من أهل الأنبياء.

قال المفسرون: يريد من نبيء من أبناء الأسباط.

وقد قيل إنهم كانوا حين فعلوا بيوسف ما فعلوه صغار الأسنان؛ ولهذا لم يميزوا يوسف حين اجتمعوا به؛ ولهذا قالوا: أرسله معنا غداً نرتع ونلعب، وإن ثبتت لهم نبوة بعد هذا، والله أعلم.

وأما قول الله تعالى فيه: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤] فعلى طريق كثير من الفقهاء والمحدثين أن هم النفس لا يؤاخذ به؛ وليس سيئة؛ لقوله ﷺ

عن ربه: «إذا همَّ عبدي بسيئةٍ فلم يعملها كتبت له حسنة»، فلا معصية في همِّه إذاً.

وأما على مذهب المحققين من الفقهاء والمتكلمين فإن الهمَّ إذا وُطنت عليه النفس سيئة، وأما ما لم تُوطن عليه النفسُ من همومها وخواطرها فهو المعفو عنه.

وهذا هو الحق؛ فيكون - إن شاء الله - هم يوسف من هذا؛ ويكون قوله: ﴿ مَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٣].

أي ما أُبرئها من هذا الهم؛ أو يكون ذلك منه على طريق التواضع والاعتراف بمخالفة النفس لما زكى قَبل وبرئ، كيف وقد حكى أبو حاتم عن أبي عُبيدة - أن يوسف لم يهم، وأن الكلام به تقديم وتأخير؛ أي: ولقد همت به؛ ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها؛ وقد قال تعالى - عن المرأة: ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ [يوسف: ٣٢] وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ [يوسف: ٢٤]. وقال تعالى: ﴿ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ [يوسف: ٢٣].

قيل في «ربي»: الله تعالى. وقيل: الملك.

وقيل: همَّ بها؛ أي بزجرها ووعظها.

وقيل همَّ بها، أي غَمَّها امتناعه عنها.

وقيل: همّ بها: نظر إليها.

وقيل: هم بضربها ودفعها.

وقيل: هذا كله قبل نبوته.

وقد ذكر بعضهم: ما زال النساء يملن إلى يوسف ميل شهوة حتى نبأه الله، فألقى عليه هيبة النبوة؛ فشغلت هيبتُه كل من رآه عن حُسنه.

وأما خبر موسى ﷺ من قَتيله الذي وكزه فقد نصَّ الله تعالى أنه من عدوه، قال: كان من القبط الذين على دين فرعون.

ودليل السورة في هذا كله أنه قبل نبوة موسى.

وقال قتادة: وكزه بالعصا، ولم يتعمد قتله، فعلى هذا لا معصية في ذلك.

وقوله: ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ [القصص: ١٥]. وقوله: ﴿ ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ [القصص: ١٦] قال ابن جريج: قال ذلك من أجل أنه لا ينبغي لنبي أن يَقتل حتى يؤمر.

وقال النقاش: لم يَقتله عن عمدٍ مُريداً للقتل، وإنما وكزه وكزةً يريدُ بها دفع ظلمه، قال: وقد قيل: إن هذا كان قبل النبوة؛ وهو مُقتضى التلاوة.

وقوله تعالى-في قصته: ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ [طه: ٤٠] أي ابتليناك ابتلاءً بعد ابتلاءٍ. قيل في هذه القصة وما جرى له مع فرعون. وقيل: إلقاؤه في التابوت واليّم، وغير ذلك.

وقيل: معناهُ أخلصناك إخلاصًا؛ قاله ابن جُبير ومجاهد؛ من قولهم: فتنتُ الفضة في النار إذا خلصتها. وأصل الفتنة معنى الاختبارُ، وإظهارُ ما بَطَنَ، إلا أنه استُعمل في عرف الشرع في اختبار أدى إلى ما يكره.

وذلك ما روي في الخبر الصحيح؛ من أن ملك الموت جاءه فلطم عينه ففقأها[١] الحديث.

ليسَ فيه ما يُحكم به على موسى بالتعدي وفعل ما لا يجب له، إذا هو ظاهر الأمر، بيّن الوجه، جائز الفعل، لأن موسى دافع عن نفسه من أتاهُ لإتلافها، وقد تصور له في صورة آدمي، ولا يمكنُ أنه علم حينئذ أنه ملك الموت، فدافعه عنه نفسه مدافعة أدت إلى ذهاب عين تلك الصورة التي تصور له فيها الملك امتحانًا من الله له، فلما جاءه بعدُ، وأعلمه الله تعالى أنه رسولهُ إليه استسلم.

وللمتقدمين والمتأخرين على هذا الحديث أجوبة هذا أسَدها عندي، وهو تأويل شيخنا الإمام أبي عبد الله المازَري.

وقد تأوله قديمًا ابنُ عائشة وغيره على صكهِ ولطمه بالحجة، وفقءِ عين حجته، وهو كلام مستعمل في هذا الباب في اللغة معروف.

وأما قصة سليمان وما حكى فيها أهل التفاسير من ذنبه وقوله: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ [ص: ٣٤]؛ فمعناه ابتلينا، وابتلاؤه: ما حكي عن النبي ﷺ أنه قال: **«لأطُوفنَّ الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين كلهن يأتين بفارس يجاهدُ في سبيل الله. فقال له صاحبه: قل إن شاء الله، فلم يقل. فلم تحمل منهم إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل»**.

قال النبي ﷺ: **«والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله»**[٢].

قال أصحاب المعاني: والشقُّ هو الجسدُ الذي أُلقيَ على كرسيه حين عرض عليه، وهو

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٣٣٩)، ومسلم (٢٣٧٢).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٢٤، ٥٢٤٢، ٦٦٣٩، ٦٧٢٠، ٧٤٦٩)، ومسلم (١٦٥٤).

عقوبته ومحنته.

وقيل: بل مات فألقي على كرسيه ميتًا.

وقيل: ذنبه حرصه على ذلك وتمنيه.

وقيل: لأنه لم يستثن لما استغرقه من الحرص، وغلب عليه من التمني.

وقيل: عقوبته أن سُلب مُلكه، وذنبه أن أحب بقلبه أن يكون الحق لأختانه على خصمهم.

وقيل: أوخذ بذنب قارفه بعض نسائه. ولا يصح ما نقله الأخباريون من تشبه الشيطان به، وتسلطه على ملكه، وتصرفه في أمته بالجور في حكمه؛ لأن الشياطين لا يُسلطون على مثل هذا؛ وقد عصم الأنبياء من مثله.

وإن سُئل: لِمَ لَمْ يقل سليمان في القصة المذكورة: إن شاء الله ـ فعَنْهُ أجوبةٌ:

أحدها: ما روي في الحديث الصحيح أنه نسي أن يقولها، وذلك لينفذ مراد الله تعالى.

والثاني: أنه لم يسمع صاحبه وشغل عنه.

وقوله: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾[ص: ٣٥]. لم يفعل هذا سليمان غَيْرَةً على الدنيا ولا نفاسة بها؛ ولكن مَقصده في ذلك ـ على ما ذكره المفسرون ـ ألا يسلط عليه أحد كما سلط عليه الشيطان الذي سلبه إياه مُدةَ امتحانه على قول من قال ذلك.

وقيل: بل أراد أن يكون له من الله فضيلة وخاصة يختصّ بها كاختصاص غيره من أنبياء الله ورسله بخواصّ منه.

وقيل: ليكون لذلك دليلاً وحجةً على نبوته؛ كإلانَةِ الحديد لأبيه، وإحياء الموتى لعيسى، واختصاص محمد ﷺ بالشفاعة، ونحو هذا.

وأما قصة نوح عليه السلام فظاهرة العُذرِ، وأنه أخذ فيها بالتأويل وظاهر اللفظ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ﴾[هود: ٤٠]؛ فطلب مُقتضى هذا اللفظ، وأراد علم ما طوي عليه من ذلك؛ لا أنه شك في وعد الله تعالى؛ فبين الله عليه أنه ليس من أهله الذين وعده بنجاتهم لكفره وعمله الذي هو غير صالح؛ وقد أعلمه أنه مغرق الذين ظلموا، ونهاه عن مخاطبته فيهم؛ فؤخِذَ بهذا التأويل، وعُتِبَ عليه، وأشفق هو من إقدامه على ربه لسؤاله ما لم يؤذن له في السؤال فيه؛ وكان نوحٌ فيما حكاهُ النقاش ـ لا يعلم بكفر ابْنه.

وقيل في الآية غَيْرُ هذا؛ وكلُّ هذا لا يقضي على نوح بمعصية سوى ما ذكرنا من تأويله

وإقدامه بالسؤال فيما لم يُؤذن له فيه، ولا نُهي عنه.

وما رُوي في الصحيح من أن نبيًا قرصته نَملةٌ فحرقَ قرية النملِ، فأوحىٰ اللهُ إليه؛ أن قرصَتكَ نملةٌ أحرقتَ أمةً من الأمم تسبحُ... فليس في هذا الحديث أن هذا الذي أتىٰ معصية؛ بل فعل ما رآه مصحلة وصوابًا بقتلِ من يُؤذي جنسَه، ويمنع المنفعةَ مما أباح الله(١).

ألا ترىٰ أن هذا النبي كان نازلاً تحت الشجرة، فلما آذتهُ النملة تحول برجله عنها مخافة تكرار الأذىٰ عليه وليس فيما أوحىٰ الله إليه ما يوجب معصية، بل ندبه إلىٰ احتمال الصبر وترك التشفي؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦]؛ إذ ظاهر فعله إنما كان لأجل أنها آذته هو في خاصته؛ فكان انتقامًا لنفسه، وقطع مضرةٍ يتوقعها من بقية النمل هناك؛ ولم يأت في كل هذا أمر نهىٰ عنه، فيُعصىٰ به، ولا نص فيما أوحىٰ الله إليه بذلك، ولا بالتوبة والاستغفار منه. والله أعلم.

فإن قيل: فما معنىٰ قوله عليه السلام: «ما منْ أحدٍ إلا ألم بذنْبٍ أو كاد إلا يحيى ابن زكريا»، أو كما قال النبي ﷺ.

فالجواب عنه ـ كما تقدم من ذنوب الأنبياء التي وقعت عن غير قصدٍ عن سهوٍ وغفلة.

الفصل الرابع عشر

حالة الأنبياء في خوفهم واستغفارهم

فإن قلت: فإذا نفيت عنهم ـ صلوات الله علهم ـ الذنوب والمعاصي بما ذكرته من اختلاف المفسرين وتأويل المحققين ـ فما معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ [طه: ١٢١] وما تكرر في القرآن والحديث الصحيح من اعتراف الأنبياء بذنوبهم وتوبتهم واستغفارهم وبكائهم علىٰ ما سلف منهم، وإشفاقهم. وهل يشفق ويتاب ويستغفر من لا شيء؟

فاعلم ـ وفقنا الله وإياك ـ أن درجة الأنبياء في الرفعة والعلو والمعرفة بالله، وسنته في عباده، وعظم سلطانه، وقوة بطشه، مما يحملهم علىٰ الخوف منه جل جلاله، والإشفاق من المؤاخذة بما لا يؤاخذ به غيرهم، وأنهم ـ في تصرفهم بأمور لم يُنهوا عنها، ولا أمروا

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٠١٩).

بها؛ ثم أوخذوا عليها، وعوتُبوا بسببها، أو حذروا من المؤاخذة بها، وأتوها على وجه التأويل أو السهو، أو تزيد من أمور الدنيا المباحة - خائفون وجلون، وهي ذنوبٌ بالإضافة إلى عَلِيِّ منصبهم، ومعاصٍ بالنسبة إلى كمال طاعتهم، لا أنها من كذنوب غيرهم ومعاصيهم؛ فإن الذنب مأخوذ من الشيء الدنيّ الرّذْل، ومنه ذَنَب كل شيء؟ أي آخره. وأذنابُ الناسِ رُذّالهم، فكأن هذه أدنى أفعالهم، وأسوأ ما يجري من أحوالهم لتطيهرهم وتنزيههم، وعمارة بواطنهم وظواهرهم بالعمل الصالح، والكلم الطيب، والذكر الظاهر والخفيِّ والخشية لله، وإعظامه في السر والعلانية، وغيرهم يتلوثُ من الكبائر والقبائح والفواحش ما تكون بالإضافة إليه هذه في حقه كالحسنات، كما قيل: حسناتُ الأبرار سيئاتُ المُقربينِ، أي يرونها بالإضافة إلى عليّ أحوالهم كالسيئات.

وكذلك العصيان الترك والمخالفة؛ فعلى مقتضى اللفظة كيفما كانت من سهو أو تأويل فهي مخالفة وترك.

وقوله تعالى: ﴿غَوَىٰ﴾ أي جهل أن تلك الشجرة هي التي نُهي عنها؛ والغيُّ: الجهل.

وقيل: أخطأ ما طلب من الخلود؛ إذ أكلها وخابت أُمنيته.

وهذا يوسف عليه السلام قد أوخذ بقوله لأحد صاحبي السجن: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

قيل: أُنسي يوسف ذكر الله.

وقيل: أنسيَ صاحبه أن يذكره لسيده الملك؛ قال النبي ﷺ: لولا كلمة يوسف ما لبث في السجن ما لبث.

قال ابن دينار: لما قال ذلك يوسفُ قيل له: اتخذتَ من دوني وكيلاً؛ لأطيلن حبسك. فقال؛ يا رب، أنسى قلبي كثرة البلوىٰ.

وقال بعضهم؛ يؤاخذُ الأنبياء بمثاقيل الذر، لمكانتهم عنده، ويجاوزُ عن سائر الخلق لقلة مُبالاته بهم في أضعاف ما أتوا به من سُوءِ الأدب.

وقد قال المحتج للفرقة الأولى على سياق ما قلناه: إذا كان الأنبياء يؤاخذون بهذا مما لا يؤاخذ به غيرهم من السهو والنسيان، وما ذكرته، وحالهم أرفع فحالهم إذًا في هذا أسوأ حالاً من غيرهم.

فاعلم - أكرمك الله - أنا لا نثبتُ لك المؤاخذة في هذا على حد مؤاخذة غيرهم؛ بل

نقول: إنهم يؤاخذون بذلك في الدنيا، ليكون ذلك زيادة في درجاتهم؛ ويُبْتلون بذلك، ليكون استشعارهم له سببًا لمَنَاة رُتَبِهم، كما قال؛ ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ [طه: ١٢٢]، وقال لداود: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص: ٢٥].

وقال ـ بعد قول موسىٰ: ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾: ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [الأعراف: ١٤٤] وقال ـ بعد ذكر فتنة سليمان وإنابته: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص: ٣٦-٤٠].

وقال بعض المتكلمين: زلاّتُ الأنبياء في الظاهر زلات، وفي الحقيقة كرامات وزُلف؛ وأشار إلىٰ نحو مما قدمناه.

وأيضًا فلِيُنبه غيرهم من البشر منهم، أو ممن ليس في درجتهم بمؤاخذتهم بذلك، فيستشعروا الحذر؛ ويعتقدوا المحاسبة ليلتزموا الشكر علىٰ النعم، ويُعِدوا الصبر علىٰ المِحَنِ بملاحظة ما وقع بأهل هذا النصاب الرفيع المعصوم؛ فكيف بمن سواهم؛ ولهذا قال صالح المُرِّي: ذكر داود بَسطة للتوابين.

فقال ابن عطاء: لم يكن ما نص الله تعالىٰ عليه من قضية صاحب الحوت نقصًا له، ولكن استزادة من نبينا ﷺ.

وأيضًا فيقال لهم: فإنكم ومَنْ وافقكم تقولون بغفران الصغائر باجتناب الكبائر.

ولا خِلاف في عصمةِ الأنبياء من الكبائر، فما جوزْتهم من وقوع الصغائر عليهم هي مغفورة علىٰ هذا، فما معنىٰ المؤاخذة بها إذًا عندكم وخوف الأنبياء وتوبتهم منها، وهي مغفورة لو كانت؟

فما أجابوا به فهو جوابنا عن المؤاخذة بأفعال السهو والتأويل.

وقد قيل: إن كثرة استغفار النبي ﷺ وتوبته وغيره من الأنبياء علىٰ وجه ملازمة الخضوع والعبودية، والاعتراف بالتقصير، شكرًا لله علىٰ نعمه؛ كما قال ﷺ وقد أمِنَ من المؤاخذة مما تقدَّم وتأخَّر: «أفلا أكونُ عبدًا شكورًا»[1]! وقال: «إني أخشاكم لله

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٠٤٤، ٤٦٢١، ٥٢٢١، ٦٤٨٥، ٦٤٨٦)، ومسلم (٢٣٥٩).

وأعلمكم بما أتقى».

قال الحارثُ بن أسد: خوفُ الملائكة والأنبياء خوفُ إعظام وعبُّد لله؛ لأنهم آمنون.

وقيل: فعلوا ذلك ليُقْتَدَىٰ بهم، وتستنَّ بهم أممُهم، كما قال ﷺ: **«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»**.

وأيضًا فإن في التوبة والاستغفار معنىً آخرَ لطيفًا أشار إليه بعضُ العلماء، وهو استدعاءُ محبةِ الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾[البقرة: ٢٢٢]

فإحداث الرسل والأنبياء الاستغفار والتوبة والإنابة والأوبة في كل حين ـ استدعاء لمحبة الله! والاستغفار فيه معنىٰ التوبة، وقد قال الله لنبيه ـ بعد أن غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر: ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**﴾[النصر: ٣].

الفصل الخامس عشر

فائدة ما مر من الفصول التي بحثت مسألة العصمة

قد استبان لك أيها الناظر بما قررناه، ما هو الحق من عصمته ﷺ عن الجهل بالله وصفاته، وكونه علىٰ حالةٍ تنافي العلم بشيء من ذلك كله جملة بعد النبوة ـ عقلاً وإجماعًا، وقبلها سمعًا وشرعًا، وعصمته عن الكذبِ وخُلف القول منذ نبأهُ الله وأرسله قصدًا أو غير قصدٍ، واستحالة ذلك عليه شرعًا وإجماعًا ونقلاً، ولا بشيء مما قرره من أمور الشرع، وأداه عن ربه من الوحي قطعًا عقلاً، وعن الصغائر تحقيقًا، وعن استدامة السهو والغفلة، واستمرار الغلط والنسيان عليه في ما شرعهُ للأمة، وعصمته في كل حالاته؛ من رضا وغضب، وجد ومزح؛ فيجب عليك أن تتلقاهُ باليمن، وتشدّ عليه يد الضَّنين، وتقدر هذه الفصول حق قدرها، وتعلم عظيم فائدتها وخطرها؛ فإن من يجهل ما يجبُ للنبي ﷺ أو يجوز له، أو يستحيل عليه، ولا يعرف، صور أحكامه، لا يأمن أن يعتقد في بعضها خلاف ـ ما هي عليه ـ، ولا ينزهه عما لا يجب أن يُضاف إليه، فيهلك من حيث لا يدري، ويسقط في هوة الدرك الأسفل من النار؛ إذ ظنُّ الباطل به؛ واعتقادهُ ما لا يجوزُ عليه يَحلُّ بصاحبه دار البَوَار.

ولهذا ما احتاط عليه السلام علىٰ الرجلين اللذين رأياهُ ليلاً، وهو معتكِفٌ في المسجد مع صفية، فقال لهما: **«إنها صفية»**. ثم قال لهما: **«إن الشيطان يجري من ابن آدم**

مجرى الدم؛ وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئًا فتهلكا».

هذه ـ أكرمك الله ـ إحدىٰ فوائد ما تكلمنا عليه في هذه الفصول؛ ولعل جاهلاً لا يعلمُ بجهله إذا سمع شيئًا منها يَرَىٰ أنَّ الكلام فيها جُملة من فضول العلم، وأن السكوت أولىٰ. وقد استبان لك أنه متعين للفائدة التي ذكرناها.

وفائدة ثانية يُضطر إليها في أصول الفقه، وتبْنىٰ عليها مسائل لا تنعدُّ من الفقه، يُتخلَّص بها من تشغيب مُختلفي الفقهاء في عدةٍ منها؛ وهي الحكم في أقوال النبي ﷺ وأفعاله؛ وهو باب عظيم، وأصل كبير من أصول الفقه؛ ولابد من بنائه علىٰ صدق النبي ﷺ في إخباره وبلاغه؛ وأنه لا يجوز عليه السهو فيه، وعصمته من المخالفة في أفعاله عمداً؛ وبحسب اختلافهم في وقوع الصغائر وقعَ خلاف في امتثال الفعل، بُسط بيانه في كُتب ذلك العلم؛ فلا نطوِّل به.

وفائدة ثالثة يحتاج إليها الحاكم والمفْتي فيمن أضاف إلىٰ النبي ﷺ شيئًا من هذه الأمور، ووصفه بها؛ فمن لم يعرف ما يجوز وما يمتنع عليه، وما وقع الإجماع فيه والخلاف، كيف يصمم في الفُتيا في ذلك؛ ومن أين يدري؟ هل ما قاله فيه نقص أو مدح؛ فإما أن يجترئَ علىٰ سفك دم مسلم حرام، أو يُسقط حقًا أو يُضيِّع حرمة للنبي ﷺ.

ولسبيل هذا ما قد اختلف أربابُ الأصول وأئمة العلماء والمحققين في عصمة الملائكة.

الفصل السادس عشر

في القول في عصمة الملائكة

أجمع المسلمون علىٰ أن الملائكة مؤمنون فُضَلاء؛ واتفق أئمة المسلمين أن حكم المرسلين منهم حُكم النبيين سواء في العصمة مما ذكرنا عصمتهم منه، وأنهم في حقوق الأنبياء والتبليغ إليهم كالأنبياء مع الأمم.

واختلفوا في غير المرسلين منهم؛ فذهبت طائفة إلىٰ عصمة جميعهم عن المعاصي؛ واحتجوا بقوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وبقوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٤ ـ ١٦٦] وبقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ ـ ٢٠] وبقوله: ﴿إِنَّ

الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] وبقوله: ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس: ١٦] و ﴿ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٩] ونحوه من السمعيات.

وذهبت طائفة إلى أن هذا خصوص للمرسلين منهم والمقربين. واحتجوا بأشياء ذكرها أهل الأخبار والتفاسير، نحن نذكرها إن شاء الله بعد؛ ونُبين الوجه فيها إن شاء الله.

والصواب عِصمةُ جميعهم، وتنزيهُ نِصابهم الرفيع عن جميع ما يحط من رُتبتهم ومنزلتهم عن جليل مقدارهم. ورأيت بعض شيوخنا أشار أن لا حاجة بالفقيه إلى الكلام في عصمتهم؛ وأنا أقول: إن للكلام في ذلك ما للكلام في عصمةِ الأنبياء من الفوائد التي ذكرناها، سوى فائدة الكلام في الأقوال والأفعال، فهي ساقطة ههنا. فمما احتج به من لم يوجب عصمة جميعهم قصة هاروت وماروت، وما ذكر فيها أهل الأخبار ونقلهُ المفسرون؛ وما رُوي عن عليّ وابن عباس في خبرهما وابتلائهما.

فاعلم - أكرمك الله - أن هذه الأخبار لم يُرْوَ منها شيء لا سقيمٌ ولا صحيح عن رسول الله ﷺ، وليس هو شيئًا يُؤخذُ بقياس. والذي منه في القرآن اختلف المفسرون في معناه؛ وأنكر ما قال بعضهم فيه كثير من السلف كما سنذكره. وهذه الأخبار من كتب اليهود وافترائهم، كما نصَّه الله أول الآيات من افترائهم بذلك على سليمان وتكفيرهم إياه.

وقد انطوت القصة على شنع عظيمة. وها نحن نخبرُ في ذلك ما يكشفُ غطاء هذه الإشكالات إن شاء الله. فاختلف أولاً في هاروت وماروت؛ هل هما ملكان أو إنسيان؟ وهل هما المرادُ بالملكين أم لا؟ وهل القراءة مَلَكين أو مَلِكَيْن؟ وهل ما في قوله: ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾، ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ [البقرة: ١٠٢] نافية أو موجبةٌ!.

فأكثر المفسرين أن الله تعالى امتحن الناس بالملكين لتعليم السحر وتبينه، وأن علمه كفتنة؛ فمن تعلمه كفر، ومن تركه آمن؛ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ [البقرة: ١٠٢] وتعليمهما الناس له تعليم إنذار؛ أي يقولان لمن جاء يطلب تعلمه: لا تفعلوا كذا: فإنه يفرق بين المرء وزوجه؛ ولا تتحيلوا بكذا؛ فإنه سحر فلا تكفروا.

فعلى هذا فعل الملكين طاعة، وتصرفهما فيما أُمرا به ليس بمعصية؛ وهي لغيرهما فتنة.

وروى ابن وهب عن خالد بن أبي عمران - أنه ذُكِر عنده هاروت وماروت، وأنهما يعلمان السحر، فقال: نحن نُنزههما عن هذا.

فقرأ بعضهم: ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ [البقرة: ١٠٢] قال خالد: لم ينزَّل عليهما.

فهذا خالدٌ على جلالته وعلمه نزههما عن تعليم السحر الذي ذكره غيره أنهما مأذون لهما في تعليمه بشريطة أن يبينا أنه كفر، وأنه امتحانٌ من الله وابتلاءٌ؛ فكيف لا يُنزههما عن كبائر المعاصي والكفر المذكور في تلك الأخبار.

وقولُ خالد: لم ينزل: يريد أن «ما» نافية؛ وهو قولُ ابن عباس؛ قال: مكيّ: وتقدير الكلام: وما كفر سليمان ـ يريدُ بالسحر الذي افتعلته الشياطين، فاتبعتهم في ذلك اليهود، وما أنزل على الملكين؛ قال مكيّ: هما جبريلُ وميكائيل: ادَّعَى عليهما المجيءَ به، كما ادَّعَوا على سليمان، فأكذبهم الله في ذلك. ولكن الشياطين كفرُوا يعلمون الناسَ السحرَ ببابلَ هاروتَ وماروتَ قيل: هما رجلانِ تعلماهُ.

قال الحسن: هاروت وماروتُ عِلجانِ من أهلِ بابل؛ وما أنزل على الملكِين ـ بكسر اللام، وتكون «ما» إيجابًا على هذا.

وكذلك قراءة عبد الرحمن بن أبزَىٰ ـ بكسر اللام؛ ولكنه قال: الملكان هنا داود وسليمان، وتكون «ما» نفيًا على ما تقدّم.

وقيل: كانا ملكين من بني إسرائيل، فمسخهما الله، حكاه السمرقندي.

والقراءة بكسر اللامِ شاذةٌ؛ فحملُ الآية على تقدير أبي محمد مكيّ حسنٌ ينزهُ الملائكة ويُذهبُ الرجسَ عنهم، ويطهرهم تطهيراً.

وقد وصفهم الله بأنهم مطهرون، ﴿**كِرَامٍ بَرَرَةٍ**﴾[عبس: ١٦] و ﴿**لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ**﴾[التحريم: ٦].

ومما يذكرونه قصة إبليس، وأنه كان من الملائكة ورئيسًا فيهم، ومن خزّان الجنة . . . إلى آخر ما حكوهُ، وأنه استثناهُ من الملائكة بقوله: ﴿**فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ**﴾ [البقرة: ٣٤].

وهذا أيضًا لم يتفق عليه؛ بل الأكثرُ ينفون ذلك، وأنه أبو الجنّ، كما أنّ آدم أبو الإنس؛ وهو قولُ الحسن، وقتادة، وابن زيد.

وقال شهر بن حوشب: كان من الجن الذين طردتهم الملائكة في الأرض حين أفسدوا؛ والاستثناء من غير الجنس شائعٌ في كلام العرب سائغ؛ وقد قال الله تعالى: ﴿**مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ**﴾ [النساء: ١٥٧].

ومما رَووه ما الأخبار أن خلقًا من الملائكة عصوا الله فحرقوا، وأمروا أن يسجدوا لآدم ـ فأبوا، فحرقوا، ثم آخرون كذلك، حتى سجد له من ذكر الله إلا إبليس، في أخبار لا أصل لها تردُّها صِحاحُ الأخبار، ، فلا يُشتغل بها. والله أعلم.

الباب الثاني

الفصل الأول

فيما يخصهم في الأمور الدنيوية
ويطرأ عليهم في العوارض البشرية

حالة الأنبياء بالنسبة للعوارض

قد قدمنا أنهﷺ وسائر الأنبياء والرسل من البشر، وأن جسمه وظاهره خالصٌ للبشر، يجوز عليه من الآفات والتغييرات، والآلام والأسقام، وتجرع كأس الحمام ما يجوز على البشر؛ وهذا كلُّه ليس بنقيصة فيه؛ لأن الشيء إنما يسمى ناقصاً بالإضافة إلى ما هو أتم منه وأكمل من نوعه؛ وقد كتب الله تعالى على أهل هذه الدار: ﴿**فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون**﴾[الأعراف: ٢٥]؛ وخلق جميع البشر بمدرجة الغير؛ فقد مرضﷺ، واشتكى، وأصابه الحرُّ والقرُّ، وأدركه الجوعُ والعطش، ولحقه الغضَب والضَّجر، وناله الإعياءُ والتعب، ومسه الضعف والكبر، وسقط فجُحِشَ شقُّه، وشجه الكفارُ، وكسروا رباعتيه، وسقي السمِّ وسُحر، وتداوي، واحتجم، وتنشر وتعوذ، ثم قَضى نحبه فتُوفيﷺ، ولحق بالرقيق الأعلى، وتخلص من دار الامتحان والبلوى؛ وهذه سمات البشر التي لا محيص عنها؛ وأصاب غيره من الأنبياء ما هو أعظم منه؛ فقتلوا قتلاً.

ورموا في النار، ووُشِرُوا بالمياشير. ومنهم من وقاه الله ذلك في بعض الأوقات. ومنهم من عصمه كما عصم بعد نبينا من الناس؛ فلئن لم يكف نبينا ربه يد ابن قميئةَ يوم أحد، ولا حجبه عن عيون عداهُ عند دعوته أهلَ الطائف؛ فلقد أخذ على عيون قريش عند خروجه إلى ثور، وأمسك عنه سيف غورث وحجر أبي جهل، وفرس سراقة؛ ولئن لم يقه من سحر ابن الأعصم فلقد وقاه ما هو أعظم، من سمٍّ اليهودية.

وهكذا سائر أنبيائه مُبتلى ومعافى؛ وذلك من تمام حكمته، ليُظهر شرفهم في هذه المقامات ويبين أمرهم، ويتم كلمته فيهم، وليحقق بامتحانهم بشريتهم، ويرتفع الالتباس عن أهل الضعف فيهم لئلا يضلوا بما يظهر من العجائب على أيديهم ضلال النصارى بعيسى ابن مريم، وليكون في محنهم تسلية لأممهم، ووفور لأجورهم عند ربهم تماماً على الذي أحسنَ إليهم.

قال بعض المحققين: وهذه الطوارئ والتغييرات المذكورةُ إنما تختصٌ بأجسامهم لأخذها عنهم، وتلقيها الوحي منهمَ.

قال: وقد قال ﷺ: «إن عينيّ تنامان ولا ينامُ قَلبي»(١).

وقال: «إني لستُ كهيئتكم؛ إني أبيتُ يُطعمني ربي ويَسقيني»(٢).

وقال: «لستُ أنسَى، ولكن أُنَسَّى، ليُسْتَنَّ بي»(٣).

فأخبر أنَّ سِرَّه وباطنه ورُوحه بخلاف جسمه وظاهره، وأن الآفات التي تحلُّ ظاهرَه من ضعفٍ وجوع، وسهر ونوم، لا يحلِ منها شيءٌ باطنَه، بخلاف غيره من البشر في حكم الباطن؛ لأن غيره إذا نام استغرق النومُ جسمه وقلبه؛ وهو ﷺ في نومه حاضر القلب كما هو في يقظته حتى قد جاء في بعض الآثار أنه كان محروساً من الحدث في نومه لكون قلبه يقظان كما ذكرناه.

وكذلك غيره إذا جاع ضعف لذلك جسمُه، وخارت قُوته، فبطلت بالكليّة جملتُه، وهو ﷺ قد أخبر أنه لا يعتريه ذلك، وأنه بخلافهم؛ لقوله: «لستُ كهيئتكم: إني أبيتُ يطعمني ربي ويسقيني»(٤).

وكذلك أقولُ: إنه في هذه الأحوال كلها؛ من وصب ومرض، وسحر وغضب، لم يجز على باطنه ما يخل به، ولا فاض منه على لسانه وجوارحه ما لا يليق به، كما يعتري غيره من البشر مما نأخذُ بعدُ في بيانه.

الفصل الثاني

حالتهم بالنسبة للسحر

فإن قلْتَ: فقد جاءت الأخبار الصحيحة أنه ﷺ سُحر كما حدثنا الشيخُ أبو محمدٍ العتابي بقراءتي عليه؛ قال: حدثنا حاتم بن محمد، حدثنا أبو الحسن عليٌّ بن خلف، حدثنا محمد بن أحمد، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا البخاري، حدثنا عبيد بن إسماعيل، قال: حدثنا أبو أسامة، عن هشام بن عُروةُ، عن أبيه، عن عائشة ـ رضي الله

(١) صحيح: تقدم تخريجه.
(٢) صحيح: تقدم تخريجه.
(٣) صحيح: تقدم تخريجه.
(٤) صحيح: تقدم تخريجه.

عنها ـ، قالت: سُحِرَ رسول الله ﷺ حتى إنه ليُخيل إليه أنه فعل الشيء وما فعله[١].

وفي رواية أخرى: حتى كان يخيل إليه أنه كان يأتي النساءَ ولا يأتيهن[٢].

وإذا كان هذا من التباس الأمر على المسحور فكيف حال النبي ﷺ في ذلك؟ وكيف جاز عليه ـ وهو معصوم.

فاعلم ـ وفقنا الله وإياك ـ أنَّ هذا الحديث صحيح متفقٌ عليه؛ وقد طعنت فيه المُلحدةَ، وتدرعتْ به لسُخف عقولها وتلبيسها على أمثالها إلى التشكيك في الشرع؛ وقد نزّه الله الشرع والنبي عما يدخل في أمره لَبْسًا وإنما السحرُ مرضٌ من الأمراضِ، وعارضٌ من العلل، يجوزُ عليه كأنواع الأمراضِ مما لا يُنكر ولا يقدحُ في نبوته.

وأما ما ورد أنه كان يخيل إليه أنه فعل الشيءَ ولا يفعله فليس في هذا ما يدخلُ عليه داخلة في شيء من تبليغة أو شريعته، أو يقدح في صدقه؛ لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا؛ وإنما هذا فيما يجوز طروءه عليه في أمر دنُياه التي لم يبعث بسببها، ولا فُضل من أجلها؛ وهو فيها عُرضةٌ للآفات كسائر البشر؛ فغيرُ بعيد أنْ يُخيل إليه من أمورها ما لا حقيقة له، ثم ينّجلي عنه، كما كان،

وأيضًا فقد فسَّر هذا الفصل الحديث الآخرُ من قوله: حتى يُخيل إليه أنه يأتي أهله ولا يأتيهن.

وقد قال سفيان ـ وهذا أشدّ ما يكون من السحر، ولم يأت في خبر منها أنه نُقل عنه في ذلك قول بخلاف ما كان أخبر أنه فعله ولم يفعله؛ وإنما كانت خواطر وتخيلات.

وقد قيل: إن المراد بالحديث أنه كان يتخيل الشيء أنه فعله، وما فعله، لكنه تخييل لا يعتقد صحته، فتكون اعتقاداته كلها على السداد، وأقواله على الصحة.

هذا وما وقفتُ عليه لأئمتنا من الأجوبة عن هذا الحديث مع ما أوضحناه من معنى كلامهم، وزدناه بيانًا من تلويحاتهم. وكل وجه منها مُقنعٌ؛ لكنه قد ظهر لي في الحديث تأويل أجلّى وأبعدُ من مطاعن ذوي الأضاليل يستفادُ من نفس الحديث؛ وهو أن عبد الرزاق قد روى هذا الحديث عن ابن المسيب، وعروة بن الزبير، وقال فيه عنهما: سَحَرَ يهودُ بني زريق رسول الله ﷺ، فجعلوه في بئر حتى كاد رسول الله ﷺ أن يُنكرَ بَصَره؛ ثم دله على ما صنعوا فاستخرجه من البئر.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٧٦٦)، ومسلم (٢١٨٩).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٧٦٥).

ورُوي نحوه، عن الواقدي، وعن عبد الرحمن بن كعب، وعمر بن الحكم.

وذكرعن عطاء الخُراساني، وعن يحيىٰ بن يعمر: حُبس رسول الله ﷺ عن عائشة سنة، فبينا هو نائم أتاه ملكان، فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجلية... الحديث.

قال عبد الرزاق: حُبس رسول الله ﷺ عن عائشة خاصة سنة حتىٰ أنكر بصره.

وروىٰ محمد بن سعد، عن ابن عباس: مرض رسول الله ﷺ، فحبس عن النساء والطعام والشراب فهبط عليه ملكان.. وذكر القصة.

فقد استبان لك من مضمون هذه الروايات أن السحر إنما تسلط علىٰ ظاهره وجوارحه، لا علىٰ قلبه واعتقاده وعقله، وأنه إنما أثر في بصره، وحبسه عن وطء نسائه وطعامه، وأضعف جسمه وأمرضه؛ ويكون معنىٰ قوله؛ يخيلُ إليه أنه يأتي أهله ولا يأتيهن؛ أي يظهر له من نشاطه ومتقدم عادته القدرة علىٰ النساء؛ فإذا دنامنهن أصابته أُخْذَةُ السحْرِ، فلم يقدر علىٰ إتيانهنّ، كما يعتري من أُخذَ واعتُرِض.

ولعله لمثل هذا أشار سفيان بقوله: وهذا أشد ما يكون من السحر. ويكون قولُ عائشة في الرواية الأخرىٰ: إنه ليُخيل إليه أنه فعل الشيء وما فعله، من باب ما اختل من بصره، كما ذكر في الحديث؛ فيظن أنه رأىٰ شخصًا من بعض أزواجه، أو شاهد فعلاً من غيره، ولم يكن علىٰ ما يُخيلُ إليه لما أصابه في بصره وضعف نظره، لا لشيء طرأ عليه في ميَزِه.

وإذا كان هذا لم يكنْ فيما ذكر من إصابة السّحْرِ له وتأثيره فيه ما يُدخل لبسًا ولا يجد به الملحد المعترض أنسًا.

الفصل الثالث

أحواله في أمور الدنيا

هذه حالهُ في جسمه، فأما أحواله في أمور الدنيا فنحن نسبُرها علىٰ أسلوبنا المتقدم بالعقدِ والقولِ والفعل.

وأما العقد منها فقد يعتقدُ في أمور الدنيا الشيء علىٰ وجْهٍ ويظهر خلافُه، أو يكون منه علىٰ شك أو ظن بخلاف أمور الشرع.

كما حدثنا أبو بحر سُفيان بن العاصي وغيرُ واحد سماعًا وقراءة؛ قالوا: حدثنا أبو العباس أحمد بن عمر، قال: حدثنا أبو العباس الرازي، حدثنا أبو أحمد بن عمرويه،

حدثنا ابن سفيان، حدثنا مسلم، حدثنا عبد الله بن الرُّومي، وعباس العنبري، وأحمد المعقري؛ قالوا: حدثنا النضر بن محمد، قال: حدثني عكرمة، حثنا أبو النجاشي قال: حدثنا رافع بن خديج؛ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يأبُرون النخل، فقال: «ما تصنعونَ؟» قالوا: كنّا نَصنْعَه. قال: «لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً»؛ فتركوه، فَنَقَصتْ؛ فذكروا ذلك له؛ فقال: «إنما أنها بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكمُ بشيءِ من رَأيي فإنما أنا بشر»[1] وفي رواية أنس: «أنتم أعلمُ بأمْرِ دُنياكم»[2].

وفي حديث آخر: «إنما ظننتُ ظنًا، فلا تؤاخذوني بالظن»[3].

وفي حديث ابن عباس في قصة الخَرْص؛ قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا بشر فما حدثتكم عن الله فهو حق، وما قلت فيه من قبل نفسي فإنما أنا بشر أخطىء وأصيب»[4].

وهذا على ما قررْنَاهُ فيما قاله من قبل نفسه في أمور الدنيا وظَنّه من أحوالها، لا ما قاله من قبل نفسه واجتهاده في شرع شرعه؛ وسُنةٍ سنّها.

وكما حكى ابن إسحاق أنه ﷺ لما نزل بأدنى مياه بدر قال له الحُباب بن المنذر: أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: لا، بل هو الرأي والحربُ والميكدة. قال: فإنه ليس بمنزل، انهض حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نُعور ما وراءه من القلب؛ فنشرب ولا يشربون. فقال: أشرتَ بالرأي، وفعل ما قاله.

وقد قال له الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وأراد مصالحة بعض عدوه على ثلث ثمر المدينة، فاستشار الأنصار، فلما أخبروه برأيهم رجع عنه.

فمثل هذا وأشباهه من أمور الدنيا التي لا مدخل فيها لعلم ديانة ولا اعتقادها ولا تعليمها، يجوزُ عليه فيه ما ذكرناه؛ إذ ليس في هذا كله نقيصة ولا محطة؛ وإنما هي أمورٌ اعتيادية يعرفها من جربها، وجعلها همَّهُ، وشغل نفسه بها، والنبي ﷺ مشحون القلب بمعرفة الربوبية ملآنُ الجوانح بعلوم الشريعة، مقيَّد البال بمصالح الأمة الدينية والدنيوية،

(١) صحيح: اخرجه مسلم (٢٣٦٢).
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٦٣).
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٦١).
(٤) صحيح: تقدم تخريجه.

ولكن هذا إنما يكون في بعض الأمور، ويجوز في النادر فيما سبيله التدقيق في حراسة الدنيا واستثمارها، لا في الكثير المؤذن بالبله والغفلة. وقد تواتر بالنقل عنه ﷺ من المعرفة بأمور الدنيا ودقائق مصالحها، وسياسة فرق أهلها ما هو معجز في البشر مما قد نبهنا عليه في باب «معجزاته» من هذا الكتاب.

الفصل الرابع

أحكام البشر الجارية على يديه

وأما ما يعتقد في أمور أحكام البشر الجارية على يديه وقضاياهم، ومعرفة المحق من المبطل، وعلم المصلح من المفسد، فبهذه السبيل؛ لقوله ﷺ: «**إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ، ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو مما أسمع؛ فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذ منه شيئًا، فإنما أقطع له قطعة من النار**»(١).

حدثنا الفقيه أبو الوليد ـ رحمه الله ـ؛ حدثنا الحُسين بن محمد الحافظ، حدثنا أبو عمر، حدثنا أبو محمد، حدثنا أبو بكر، حدثنا أبو داود، حدثنا محمد بن كَثير، أخبرنا سفيان، عن هشام بن عُروة، عن أبيه، عن زينب بنت أم سلمة، قالت: قال رسول الله ﷺ... الحديث. وفي رواية الزهري، عن عروة «**فلعلّ بعضكم أن يكون أبلغ من بعض؛ فأحسب أنه صادق فأقضي له**»(٢).

وتجري أحكامه ﷺ على الظاهر وموجب غلبات الظن شهادة الشاهد، ويمين الحالف، ومراعاة الأشبه، ومعرفة العفاص والوِكاء، مع مقُتضى حكمة الله في ذلك؛ فإنه تعالى لو شاء لأطلعه على سرائر عباده، ومُخبآت ضمائر أمته؛ فتولى الحكم بينهم بمجرد يقينه وعلمه دون حاجة إلى اعتراف أو بينة أو يمين أو شبهة؛ ولكن لما أمر الله أمته باتباعه والاقتداء به في أفعاله وأحواله وقضاياه وسيره، وكان هذا لو كان مما يختص بعلمه ويوثرهُ الله به، لم يكن للأمة سبيلٌ إلى الاقتداء به في شيء من ذلك، ولا قامت حجة بقضيّةٍ من قضاياه لأحد في شريعته، لأنا لا نعلم ما أطلع عليه هو في تلك القضية لحكمه هو إذًا في ذلك بالمكنون من إعلام الله له بما أطلعه عليه من سرائرهم؛ وهذا ما لا تعلمه الأمة؛

---

(١) صحيح: تقدم تخريجه.
(٢) صحيح: أخرجه مسلم (١٧١٣).

فأجرىٰ الله تعالىٰ أحكامه علىٰ ظواهرهم التي يستوي في ذلك هو وغيره من البشر؛ ليتم اقتداءُ أمته به في تعيين قضاياه، وتنزيل أحكامه، ويأتون ما أتوا من ذلك علىٰ علم ويقين من سنته، إن البيانُ بالفعل أوقع منه بالقول، وأدفع لاحتمال اللفظ وتأويل المتأول، وكان حكمه علىٰ الظاهر أجلىٰ في البيان، وأوضح في وجوه الأحكام، وأكثر فائدة لموجبات التشاجر والخصام، وليقتدي بذلك كله حُكام أمته، ويستوثق بما يُؤثر عنه، وينضبط قانون شريعته، وطيّ ذلك عنه من علم الغيب الذي استأثر به عالم الغيب فلا يظهر علىٰ غيبه أحداً إلا من ارتضىٰ من رسول، فيعلمه منه بما يشاء، ويستأثر بما شاء، ولا يقدح هذا في نبوته، ولا يفصم عروةً من عصمته.

الفصل الخامس

أخباره الدنيوية

وأما أقواله الدنيوية من إخباره عن أحواله وأحول غيره ما يفعله أو فعله ـ فقد قدمنا أن الخلفَ فيه ممتنعٌ عليه في كل حالٍ، وعلىٰ أي وجهٍ، من عمدٍ أو سهو، أو صحةٍ أو مرض، أو رضا أو غضب، وأنه معصوم منه ﷺ. هذا فيما طريقه الخبر المحض مما يدخله الصدق والكذب؛ فأما المعاريض الموهم ظاهرها خلاف باطنها فجائز ورودها منه في الأمور الدنيوية لا سيما لقصد المصلحة، كتوريته عن وجه مغازيه لئلا يأخذ العدو حذره.

وكما روي من ممازحته ودعابته لبسط أمته وتطييب قلوب المؤمنين من صحابته، وتأكيداً في تحبُّبهم ومسرة نفوسهم؛ كقوله: «**لأحملنَّك علىٰ ابن النَّاقة**»[1] وقوله للمرأة التي سألته عن زوجها: «**أهو الذي بعينه بياضٌ**»[2]. وهذا كله صدق؛ لأن كل جمل ابن ناقة، وكل إنسان بعينه بياض وقد قال ﷺ: «**إني لأمزح ولا أقول إلا حقًّا**»[3].

وهذا كله فيما بابه الخبر؛ فأما ما بابه غير الخبر مما صورته صورة الأمر والنهي في الأمور الدنيوية فلا يصح منه أيضًا، ولا يجوزُ عليه أن يأمر أحداً بشيء أو ينهىٰ أحداً عن شيء وهو يبطن خلافه.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (١٩٩١).
(٢) صحيح: أخرجه الترمذي في الشمائل (٢٣٠).
(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (١٩٩٠)، وأحمد (٢/ ٣٤٠)، وله شواهد، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢٤٩٤).

وقد قال ﷺ «ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين»[١]، فكيف أن تكون له خيانة قلب. فإن قلت: فما معنى إذًا قوله تعالى في قصة زيد: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

فاعلم ـ أكرمك الله، ولا تَسْتَرِبْ في تنزيه النبي ﷺ عن هذا الظاهر وأن يأمر زيداً بإمساكها وهو يحبُّ تطليقه إياها، كما ذكر عن جماعة من المفسرين. وأصح ما في هذا ما حكاه أهل التفسير عن عليّ بن حُسين ـ أن الله تعالى كان أعلم نبيهُ أن زينب ستكون من أزواجه، فلما شكاها إليه زيدٌ قال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. وأخفى في نفسه ما أعلمه الله به من أنه سيتزوجها مما الله مُبديه ومُظهره بتمام التزويج وتطليق زيد لها. وروى نحوه عمرو بن فائد، عن الزهري؛ قال: نزل جبريل على النبي ﷺ يعلمه أن الله يزوجه زينب بنت جحش؛ فذلك الذي أخفى في نفسه.

ويصحح هذا قول المفسرين في قوله تعالى بعد هذا: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ [الأحزاب: ٣٧] أي لابدّ لك أن تتزوجها. ويوضح هذا أن الله لم يبْد من أمره معها غير زواجه لها؛ فدلَّ أنه الذي أخفاه ﷺ مما كان أعلمه به تعالى.

وقوله تعالى في القصة: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

فدل أنه لم يكن عليه حرج في الأمر.

قال الطبري: ما كان الله ليؤثم نبيه فيما أحل مثال فعله لمن قبله من الرسل؛ قال الله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ [الأحزاب: ٣٨]؛ أي من النبيين فيما أحل لهم؛ ولو كان على ما روي في حديث قتادة من وقوعها من قلب النبي ﷺ عندما أعجبته، لما نهى عنه من زهرة الحياة الدنيا، ولكان هذا نفس الحس المذموم الذي لا يرضاه ولا يتسم به الأتقياء، فكيف سيد الأنبياء؟.

قال القشيري: وهذا إقدام عظيم من قائله، وقاله معرفة بحق النبي ﷺ وبفضله. وكيف يقال: رآها فأعجبته وهي بنت عمته، ولم يزل يراها منذ ولدت، ولا كان النساء يحتجبن منه ﷺ، وهو زوجها لزيد، وإنما جعل الله طلاق زيد لها، وتزويج النبي ﷺ

---

(١) صحيح لغيره: أخرجه أبو داود (٢٦٨٣، ٤٣٥٩)، والحاكم (٣/ ٤٧)، وصححه الألباني رحمه الله في الصحيحة (١٧٢٣).

إياها؛ لإزالة حرمة التَّبَنِّي، وإبطال سنته؛ كما قال: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وقال: ﴿لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. ونَحوُه لابن فورك.

وقال أبو الليث السمرقندي: فإن قيل: فما الفائدة في أمر النبي ﷺ لزيد بإمساكها؟ فهو أن الله أعلم نبيه أنها زوجته، فنهاه النبي ﷺ عن طلاقها، إذ لم تكن بينهما ألفة؛ وأخفى في نفسه ما أعلمه الله به، فلما طلقها زيد خشي قول الناس: يتزوج امرأة ابنه؛ فأمره الله بزواجها ليباح مثل ذلك لأمته، كما قال تعالى: ﴿لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وقد قيل: كان أمره لزيد بإمساكها قمعًا للشهوة، وردًا للنفس عن هواها. وهذا إذا جوزنا عليه أنه رآها فجأة واستحسنها. ومثل هذا لا نُكْرَةَ فيه، لما طبع عليه ابن آدم من استحسانه للحَسَن، ونظرةُ الفجاءة معفو عنها؛ ثم قمع نفسه عنها، وأمر زيدًا بإمساكها، وإنما تنكر تلك الزيادات التي في القصة. والتعويل والأولى ما ذكرناه عن عليّ بن حُسين، وحكاه السمرقندي؛ وهو قول ابن عطاء، وصحّحه واستحسنه القاضي القُشيري؛ وعليه عول أبو بكر بن فورك، وقال: إنه معنى ذلك عند المحققين من أهل التفسير؛ قال: والنبي ﷺ منزه عن استعمال النفاق في ذلك، وإظهار خلاف ما في نفسه؛ وقد نزهه الله عن ذلك بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٨]؛ قال: ومن ظن ذلك بالنبي ﷺ فقد أخطأ.

قال: ليس معنى الخشية هنا الخوف؛ وإنما معناه الاستحياء؛ أي يستحيي منهم أن يقولوا: تزوج زوجة ابنه. وأن خشيته ﷺ من الناس كانت من إرجاف المنافقين واليهود وتشغيبهم على المسلمين بقولهم: تزوج زوجة ابنه بعد نهيه عن نكاح حلائل الأبناء، كما كان؛ فعتبه الله على هذا، ونزهه عن الالتفات إليهم فيما أحله له، كما عتبه على مُراعاة رضا أزواجه في سورة التحريم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم: ١]. وكذلك قوله له ههنا: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وقد روي عن الحسن وعائشة: لو كتم رسول الله ﷺ شيئًا كتم هذه الآية، لما فيه من عَتْبِه وإبداء ما أخفاه[١].

(١) صحيح: أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (١٤٣٠)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٤١).

الفصل السادس

حديث الوصية

فإن قلت: قد تقررت عصمته ﷺ في أقواله في جميع أحواله، وأنه لا يصح منه فيها خلف ولا اضطراب في عمد ولا سهو، ولا صحة ولا مرض، ولا جد ولا هزل، ولا رضا ولا غضب. ولكن ما معنى الحديث في وصيته ﷺ الذي حدثنا به القاضي الشهيد أبو عليّ -رحمه الله-؛ قال: حدثنا القاضي أبو الوليد، حدثنا أبو ذرّ، حدثنا أبو محمد وأبو الهيثم، وأبو إسحاق؛ قالوا: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عليّ بن عبد الله، حدثنا عبد الرزاق بن همام، أنبأنا مَعْمَر، عن الزهري، عن عُبَيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس؛ قال: لما حُضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجالٌ فقال النبي ﷺ: «هلُمُّوا أكتبْ كتابًا لن تضلُّوا بعده».

فقال بعضهم: إنَّ رسول الله ﷺ قد غلبهُ الوَجعُ... [1] الحديث.

وفي رواية: «ائتوني أكتب لكم كتابًا لن تضلُّوا بعدي أبدًا»؛ فتنازعوا، فقالوا: ما لَهُ أهْجر! استفهموه؛ فقال: «دعوني، فإنَّ الذي أنا فيه خيرٌ».

في بعض طرقه: أن النبي ﷺ يهْجر.

وفي رواية: هَجَر. ويُروىٰ: أَهُجر. ويروىٰ: أهُجْرًا.

وفيه؛ فقال عُمر: إن النبي ﷺ قد اشتدَّ به الوجع، وعندنا كتابُ الله حَسبُنا.

وكثُر اللَّغط؛ فقال: «قوموا عني».

في رواية: «واختلف أهلُ البيت واختصموا؛ فمنهم من يقول: قربُوا يكتبْ لكن رسول الله ﷺ كتابًا».

ومنهم من يقول ما قال عُمَر.

قال أئمتُنا في هذا الحديث: النبي ﷺ غير معصوم من الأمراض، وما يكون من عوارضها من شدة وجع وغَشْيٍ ونحوه مما يطرأ علىٰ جسمه، معصوم أن يكون منه من القول أثناء ذلك ما يطعن في معجزته، ويؤدي إلىٰ فساد في شريعته من هذيان واختلال كلام.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٤٣١، ٤٤٣٢، ٥٦٦٩)، ومسلم (١٦٣٧).

وعلىٰ هذا لا يصح ظاهر رواية من روىٰ في الحديث: هجر؛ إذ معناه هَذَىٰ، يقال: هَجَر هجْراً، إذا هذىٰ. وأهْجَرَ هُجْراً؛ إذا أفحش؛ وأهجر تعدية هجَر؛ وإنما الأصحُّ والأولىٰ أهْجَر، علىٰ طريق الإنكار علىٰ من قال: لا نكْتُبُ.

وهكذا روايتنا فيه في صحيح البخاري من رواية جميع الرواة في حديث الزهري المتقدم، وفي حديث محمد بن سلام، عن عُيينة، وكذا ضبطه الأصيليّ بخطه في كتابه، وغيره من هذه الطرق، وكذا روّيناه عن مسلم في حديث سُفيان، وعن غيره.

وقد تُحمل عليه رواية من رواه هَجَر علىٰ حذف ألف الاستفهام؛ والتقدير؛ أهجَر، أو أن يحمل قول القائل هَجَر أو أُهْجر دهشة من قائل ذلك وحيرة لعظيم ما شاهد من حال الرسول ﷺ، وشدة وجعه، وهو المقام الذي اختلف فيه عليه؛ والأمر الذي هم بالكتاب فيه، حتىٰ لم يضبط هذا القائل لفظه، وأجرىٰ الهُجْرَ مجرىٰ شدة الوجع، لا أنه اعتقد أنه يجوز عليه الهجر، كما حملهم الإشفاقُ علىٰ حراسته؛ والله تعالى يقول: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧]. ونحو هذا.

وأما علىٰ رواية: أهُجْراً - وهي رواية أبي إسحاق المُسْتَملي في الصحيح في حديث ابن جُبير، عن ابن عباس، من رواية قُتيبة - فقد يكون هذا راجعاً إلىٰ المختلفين عنده ﷺ، ومخاطبة لهم من بعضهم؛ أي جئتم باختلافكم علىٰ رسول الله ﷺ وبين يديه هُجْراً ومنْكراً من القول.

والهُجْرُ - بضم الهاء: الفُحش في المنطق.

وقد اختلف العلماء في معنىٰ هذا الحديث، وكيف اختلفوا بعد أمره لهم - عليه السلام - أن يأتوه بالكتاب، قال بعضهم؛ أوامر النبي ﷺ يُفهم إيجابها من ندبها من إباحتها بقرائن، فلعله قد ظهر من قرائن قوله ﷺ ما فهموا أنه لم تكنْ منه عزمةٌ، بل أمر رده إلىٰ اختيارهم، وبعضهم لم يفهم ذلك، فقال: استفهموه، فلما اختلفوا كف عنه، إذ لم يكن عزمة، ولما رأوه من صواب رأي عُمَر، ثم هؤلاء قالوا: ويكون امتناع عمر إما إشفاقاً علىٰ النبي ﷺ من تكليفه في تلك الحال إملاء الكتاب، أو أن تدخلُ عليه مشقة من ذلك، كما قال: إن النبي ﷺ اشتدّ به الوجع[1].

وقيل: خَشِيَ عمر أن يكتب أموراً يعجزون عنها فيحصلون في الحرج بالمخالفة، ورأىٰ أن الأرفق بالأمة في تلك الأمور سعة الاجتهاد، وحكم النظر، وطلب الصواب؛ فيكون

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٤٠).

المصيبُ والمخطئ مأجوراً.

وقد علم عمر تقرر الشرع، وتأسيس الملة، وأن الله تعالى قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] وقوله ﷺ: «أوصيكم بكتاب الله وعترَتي».

وقولُ عمر: حسبنا كتاب الله رد على من نازعه، لا على أمر النبي ﷺ.

وقد قيل: إن عمر خشى تطرق المنافقين ومن في قلبه مرض لما كُتب في ذلك الكتاب في الخلوة، وأن يتقولوا في ذلك الأقاويل، كادعاء الرافضة الوصية وغير ذلك.

وقيل: إنه كان من النبي ﷺ لهم على طريق المشورة والاختيار. هل يتفقون على ذلك أم يختلفون؟ فلما اختلفوا تركه.

وقالت طائفة أخرى: أنَّ معنى الحديث أن النبي ﷺ كان مجُيبًا في هذا الكتاب لِمَا طُلبَ منه؛ لا أنه ابتدأ بالأمر به؛ بل اقتضاهُ منه بَعضُ أصحابه؛ فأجاب رغبتهم، وكره ذلك غيرهم للعلل التي ذكرناها.

واستدل في مثل هذه القصة بقول العباس لعليّ - رضي الله عنه: انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ؛ فإن كان الأمر فينا علمناهُ؛ وكراهِة عليٍّ - رضي الله عنه - هذا، وقوله: والله لا أفعل... الحديث[1].

واستدل بقوله: دعوني؛ فإن الذي أنا فيه خير؛ أي الذي أنا فيه خيرٌ من إرسال الأمر وترككم وكتاب الله. وأن تَدعوني مما طلبتم.

وذكر أن الذي طُلب كتابهِ أمر الخلافة بعده، وتعيين ذلك.

الفصل السابع

دراسة أحاديث أخرى

فإن قيل: فما وجه حديثه أيضًا الذي حدثناه الفقيه أبو محمد الخُشني بقراءتي عليه، حدثنا أبو علي الطبري، حدثنا عبد الغافر الفارسي، حدثنا أبو أحمد الجلودي؛ قال: حدثنا إبراهيم بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا قُتيبة، حدثنا ليث، عن سعيد ابن أبي سعيد، عن سالم مَوْلى النصريين؛ قال: سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إنما محمد بشرٌ، يغضب كما يغضب البشر وإني قد اتخذتُ

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٢٦٦).

عندك عهداً لن تخلفنيه، فأيما مؤمن آذيته أو سببته أو جلدته فاجعلها كفارة له، وقربة تقربه إليك يوم القيامة»[١].

في رواية: **«فأيما أحد دعوت عليه دَعوة»**[٢].

وفي رواية: **«ليس لها بأهل»**.

وفي رواية: **«فأيّما رُجلٌ من المسلمين سَببته أو لعنته أو جلدته فاجعلها له زكاة وصلاة ورحمة»**[٣].

وكيف يصح أن يلعن النبي ﷺ من لا يستحق اللعن، ويسب من لا يستحق السب ويجلد من لا يستحق الجلد، أن يفعل مثل ذلك عند الغضب، وهو معصوم عن هذا كله؟

فاعلم ـ شرح الله صدرك ـ أن قوله ﷺ أولا: ليس لها بأهل، أي عندك يا رب، في باطن أمره؛ فإن حُكمه ﷺ على الظاهر، كما قال. وللحكمة التي ذكرناها؛ فحكم ﷺ بجلده، أو أدبه بسبه أو لعنه بما اقتضاه عنده حال ظاهره؛ ثم دعا ﷺ لشفقته على أمته، ورأفته ورحمته للمؤمنين، التي وصفه الله بها، وحذره أن يتقبل الله فيمن دعا عليه دعوته أن يجعل دعاءه ولعنه له رحمة؛ فهو معنى قوله: ليس لها بأهل، لا أنه ﷺ يحمله الغضبُ ويستفزه الضجر لأن يفعل مثل هذا بمن لا يستحقه من مُسلم[٤].

وهذا معنى صحيح، ولا يفهم من قوله: أغضبُ كما يغضب البشر ـ أن الغضب حمله على ما لا يجب فعله؛ بل يجوز أن يكون المراد بهذا أن الغضب لله حملهُ على مُعاقبته بلعنه أو سبه؛ وأنه مما كان يحتمل ويجوز عفوه عنه، أو كان مما خير بين المعاقبة فيه والعفو عنه.

وقد يُحمل على أنه خرج مخرج الإشفاق وتعليم أمته الخوف والحذر من تعدى حدود الله تعالى.

وقد يُحمل ما ورد من دعائه هنا، ومن دعواته على غير واحد في غير موطن، على غير العقد والقصد بل بما جرت به عادة العرب؛ وليس المراد بها الإجابة؛ كقوله: تربت يمينُك. ولا أشبع الله بطنك[٥]. وَعقرى حلقي[٦] وغيرها من دعواته.

(١) صحيح: تقدم تخريجه. (٢) صحيح: تقدم تخريجه.
(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٠١).
(٤) صحيح: أخرجه البخاري (١٣٠، ٤٧٩٦، ٦١٥٦)، ومسلم (٣١٠، ١٤٤٥).
(٥) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٠٤).
(٦) صحيح: أخرجه البخاري (١٥٦١)، ومسلم (١٢١١).

وقد ورد في صفته في غير حديث ـ أنه ﷺ لم يكنْ فحَّاشًا. وقال أنس لم يكن سبابًا، ولا فاحشًا، ولا لعانًا؛ وكان يقول لأحدنا عند المعْتَبَة: ماله! تَرِبَ جَبِينُه(١).

فيكون حملُ الحديث على هذا المعنى؛ ثم أشفَق من مُوافقة أمثالها إجابة، فعاهد ربه، كما قال في الحديث، أن يجعل ذلك للمقول زكاةً ورحمةً وقُربةً.

وقد يكون ذلك إشفاقًا على المدعو عليه، وتأنيسًا له، لئلا يلحقه من استشعار الخوف والحذر من لعن النبي ﷺ، وتقبل دعائه، ما يحملُه على اليَأس والقُنوط.

وقد يكون ذلك سؤالاً منه لربه لمن جَلَدهَ، أو سبَّه على حق بوجه صحيح أن يجعل ذلك له كفارة لما أصابه، وتَمحية لما اجترم، وأن تكون عقوبته له في الدنيا سبب العفو والغفران، كما جاء في الحديث الآخر: «ومنْ أصابَ من ذلك شيئًا فعُوقب به في الدنيا فهو له كفارة»(٢).

فإن قلت: فما معنى حديث الزبير وقول النبي ﷺ حين تَخَاصُمه مع الأنصاري في شراج الحَرَّةِ: «اسق يا زُبير حتى يبلغ الكعبين». فقال الأنصاري: أن كان ابن عمتك يا رسول الله! فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: «اسق يا زبير؛ ثم احبس حتى يبلغ الجدر»(٣) . . . الحديث

فالجواب أن النبي ﷺ منزه أن يقع بنفس مسلم منه في هذه القصة أمر يُريب؛ ولكنه ﷺ ندب الزبير أولاً إلى الاقتصار على بعض حقه على طريق التوسط والصلح، فلما لم يرض بذلك الآخر، ولجَّ وقال ما لا يجب استوفى النبي ﷺ للزبير حقه.

ولهذا ترجم البخاري على هذا الحديث: باب. إذا أشار الإمام بالصلح فأبى حكم عليه بالحكم.

وذكر في آخر الحديث: فاستَوْعى رسول الله ﷺ حينئذ للزبير حقه وقد جعل المسلمون هذا الحديث أصلاً في قضيته.

وفيه الاقتداء به ﷺ في كل ما فعله في حال غضبه ورضاه، وأنه ـ وإن نَهَى أن يقضي القاضي وهو غضبان؛ فإنه في حكمه في حال الغضب والرضا سواء، لكونه فيهما معصومًا. وغضب النبي ﷺ في هذا إنما كان لله تعالى لا لنفسه، كما جاء في الحديث.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠٣١، ٣٠٤٦).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٨٩٢).
(٣) صحيح: تقدم تخريجه.

وكذلك الحديث في إقادته عكاشة من نفسه لم يكن لتعد حمله الغضب عليه؛ بل وقع في الحديث نفسه أن عكاشة قال له: وضَرَبْتَني بالقضيب، فلا أدري أعمداً، أم أردت ضرب الناقة؟ فقال النبي ﷺ: «أُعيذُك بالله يا عكاشة أن يتعمدك رسول الله»[1].

وكذلك في حديثه الآخر مع الأعرابي حين طلب عليه السلام الاقتصاص منه، فقال الأعرابي: قد عفوت عنك. وكان النبي ﷺ قد ضربه بالسوط لتعلقه بزمام ناقتة مرة بعد أخرى، والنبي ﷺ ينهاه ويقول له: «تُدْرِكَ حاجتك» وهو يأبى، فضربه بعد ثلاث مرات.

وهذا منه ﷺ لمنْ لم يقف عند نهيه صوابٌ وموضع أدب، لكنه عليه الصلاة والسلام أشفق إذ كان حق نفسه من الأمر حتى عفا عنه.

وأما حديث سواد بن عمرو: أتيت النبي ﷺ وأنا متخلقٌ، فقال عليه الصلاة والسلام: «وَرْسْ! ورس! وغشيني بقضيب في يده في بطني فأوجعني». قلت: القصاص يا رسول الله. فكشف لي عن بطنه.

وإنما ضربه ﷺ لمنكر رآه به؛ ولعله لم يرد بضربه بالقضيب إلا تنبيهه، فلما كان منه إيجاع لم يقصده طلب التحلل منه على ما قد قدمناه.

الفصل الثامن

أفعاله الدنيوية

وأما أفعاله ﷺ الدنيوية فحكمه فيها من توقي المعاصي والمكروهات ما قد قدمناه، ومن جواز السهو والغلط في بعضها ما ذكرناه.

وكله غير قادح في النبوة، بلى، إن هذا فيها على الندور؛ إذ عامةُ أفعاله على إذ عامَّة أفعاله على السداد والصواب، بل أكثرها أو كلها جارية مجرى العبادات والقرب على ما بينا إذ كان ﷺ لا يأخذ منها لنفسه إلا ضرورته، وما يقيم رمق جسمه، وفيه مصلحة ذاته التي بها يَعبدُ ربه، ويقيم شريعته، ويسوسُ أمته، وما كان فيما بينه وبين الناس من ذلك فبينَ معروف يصنعه، أو بر يوسعه، أو كلام حسن يقوله أو يسمعه، أو تألف شارد، أو

---

(١) موضوع: أخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ٦٠)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٧٤)، وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٧-٣١) وقال: «فيه عبد المنعم بن إدريس وهو كذاب وضاع». قلت: وهو حديث طويل جداً.

قهر معاند، أو مُداراة حاسد؛ وكل هذا لا حق بصالح أعماله، منتظم في زاكي وظائف عباداته؛ وقد كان يُخالف في أفعاله الدنيوية بحسب اختلاف الأحوال، ويُعدّ للأمور أشباهها، فيركبُ ـ في تصرفه لما قرب ـ الحمارَ، وفي أسفاره الراحِلة، ويركب البغلة في معارك الحرب دليلاً على الثبات، ويركب الخيل ويُعدها ليوم الفزع وإجابة الصارخ.

وكذلك في لباسه وسائر أحواله بحسب اعتبار مصالحه ومصالح أمته. وكذلك يفعل الفعل من أمور الدنيا مساعدة لأمته وسياسة وكراهية لخلافها، وإن كان قد يرى غيره خيراً منه، كما يترك الفعل لهذا؛ وقد يرى فعله خيراً منه، وقد يفعل هذا في الأمور الدينية مما له الخيرة في أحد وجهيه، كخروجه من المدينة لأحد، وكان مذهبُه التحصن بها، وتركه قتل المنافقين، وهو على يقين من أمرهم مؤالفة لغيرهم، ورعاية للمؤمنين من قرابتهم، وكراهة لأن يقول الناسُ: **«إن محمداً يقتل أصحابه»**؛ كما جاء في الحديث[1]؛ وتركه بناء الكعبة على قواعد إبراهيم مراعاة لقلوب قريش وتعظيمهم لتغييرها، وحذراً من نفار قلوبهم لذلك، وتحريك متقدم عداوتهم للدين وأهله؛ فقال لعائشة في الحديث الصحيح: **«لولا حدثان قومك بالكفر لأتممت البيت على قواعد إبراهيم»**[2].

ويفعل الفعل ثم يتركه؛ لكون غيره خيراً منه؛ كانتقاله من أدنى مياه بدر إلى أقربها للعدو من قريش؛ وقوله: **«لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سُقتُ الهدْي»**[3].

ويبسط وجهه للكافر والعدو رجاء استئلافه.

ويصبر للجاهل، ويقول: **«إن من شرار الناس من اتقاهُ الناس لشرّه»**[4]؛ ويبذل له الرغائب ليحبب إليه شريعته ودين ربه.

ويتولى في منزله ما يتولى الخادم من مَهنته، ويتسمّتُ في مَلَئه، حتى لا يبدو شيءٌ من أطرافه، وحتى كأن على رؤوس جلسائه الطير؛ ويتحدث مع جلسائه بحدث أولهم، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويضحك مما يضحكون منه؛ قد وسعَ الناس بشرُهُ وعدلُه، لا يستفزه الغضب، ولا يُقصر عن الحق، ولا يبطن على جلسائه؛ يقول: **«ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين»**.

فإن قلت: فما معنى قوله لعائشة ـ رضي الله عنها ـ في الداخل عليه: **«بئس ابنُ**

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤٩٠٥، ٤٩٠٧)، ومسلم (٢٥٨٤).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (١٥٨٣، ٣٣٦٨)، ومسلم (١٣٣٣).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (١٧٨٥)، ومسلم (١٢١٦).
(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠٥٤)، ومسلم (٢٥٩١).

العشيرةِ فلما دخل ألانَ له القولَ وضحكَ معه، فلما سألته عن ذلك قال: إنَّ من شرِّ الناسِ من اتقاهُ الناسُ لشرِّه»(١).

وكيف جاز أن يُظهر له خلاف ما يبطن، ويقول في ظهره ما قال؟

فالجواب أن فعله ﷺ كان استئلافًا لمثله، وتطييبًا لنفسه، ليتمكن إيمانه، ويدخل في الإسلام بسببه أتباعُه، ويراه مثله فينجذب بذلك إلى الإسلام.

ومثلُ هذا على هذا الوجه قد خرج من حد مُداراة الدنيا إلى السياسة الدِّينية.

وقد كان النبي يستألفهم بأموال الله العريضة فكيف بالكلمة الليِّنةَ؟

قال صفوان: لقد أعطاني وهو أبغضُ الخلق إليّ، فما زال يُعطيني حتى صار أحب الخلق إليّ.

وقال فيه: بئس ابنُ العشيرة ـ هو غير غِيبةٍ؛ بل هو تعريفُ ما علمه منه لمنْ لم يعلم، ليحذر حاله، ويحترز منه، ولا يوثق بجانبه كل الثقة، ولا سيما وكان مطاعًا متبوعًا.

ومثل هذا إذا كان لضرورة ودفع مَضرةٍ لم يكن بغيبة، بل كان جائزًا، بل واجبًا في بعض الأحيان كعادة المحدِّثين في تجريح الرواة والمزكِّين في الشهود.

فإن قيل: فما معنى المُعْضِلِ الوارد في حديث بَريرة من قوله ﷺ لعائشة؛ وقد أخبرته أن مواليَ بريرةَ أبوْا بيعها إلا أن يكون لهم الولاء؛ فقال لها ﷺ: **«اشتريها واشترطي لهم الولاء»**. ففعلت، ثم قام خطيبًا فقال: **«ما بال أقوام يشترطون شروطًا ليست في كتاب الله؛ كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل»**(٢) والنبي ﷺ قد أمرها بالشرط لهم، وعليه باعوها، ولولاه ـ والله أعلم ـ لما باعوها من عائشة، كما لم يبيعوها قبل حتى شرطوا ذلك عليها؛ ثم أبطله ﷺ وهو قد حرمَ الغش والخديعة.

فاعلم ـ أكرمك الله ـ أن النبي ﷺ مُنزهٌ عما يقع في بال الجاهل من هذا، ولتَنْزيهِ النبي ﷺ عن ذلك ما قد أنكر قومٌ هذه الزيادة: قوله: اشتر لهم الولاء؛ إذ ليست في أكثر طرق الحديث؛ ومع ثباتها فلا اعتراض بها؛ إذ يقع «لهم» بمعنى «عليهم» قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ [الرعد: ٢٥] وقال: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]

فعلى هذا اشترطي عليهم الولاء لك، ويكون قيام النبي ﷺ ووعظه لما سلف من شرط

(١) صحيح: تقدم تخريجه في الذي قبله.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٥٦، ٢٧٣٥)، ومسلم (١٥٠٤).

الولاء لأنفسهم قبل ذلك.

ووجه ثانٍ: أن قوله ﷺ، اشترطي لهم الولاء، ليس على معنى الأمر، لكن على معنى التسوية والإعلام بأن شرطه لهم لا ينفعهم بعد بيان النبي ﷺ قبل أن الولاء لمن أعتق؛ فكأنه قال: اشترطي أو لا تشترطي، فإنه شرط غير نافع.

وإلى هذا ذهب الداودي وغيره؛ وتوبيخ النبي ﷺ لهم؛ وتقريعهم على ذلك يدل على علمهم به قبل هذا.

والوجه الثالث: أن معنى قوله: اشترطي لهم الولاء؛ أي أظهري لهم حكمه، وبيني سنته بأن الولاء إنما هو لن أعتق. ثم بعد هذا قام هو ﷺ مبينًا ذلك وموبخًا على مخالفة ما تقدم منه فيه.

فإن قيل: فما معنى فعل يوسف عليه السلام بأخيه؛ إذْ جعل السقايةَ في رحله وأخذه باسم سرقتها، وما جرى على إخوته في ذلك؛ وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾[يوسف: ٧٠] ولم يسرقوا.

فاعلم - أكرمك الله - أن الآية تدل على أن فعلَ يوسف كان عن أمر الله؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٧٦]

فإذا كان كذلك فلا اعتراض به، كان فيه ما فيه.

وأيضًا فإن يوسف كان أعلم أخاهُ، بأني أنا أخوك فلا تبتئس؛ فكان ما جرى عليه بعد هذا من وفقه ورغبته، وعلى يقين من عُقبى الخير له به، وإزاحة السوءِ والمضرّةِ عنه بذلك.

وأما قوله: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾[يوسف: ٧٠]؛ فليس من قول يوسف. فليزم عليه جواب لحل شُبهه.

ولعل قائله إنْ حُسِّنَ له التأويل كائناً من كان ظن على صورة الحال ذلك.

وقد قيل: قال ذلك لفعلهم قبلُ يوسف وبيعهم له. وقيل غير هذا. ولا يلزم أن نقولَ الأنبياء ما لم يأت أنهم قالوه، حتى يُطلب الخلاص منه، ولا يلزم الاعتذار عن زلات غيرهم.

الفصل التاسع

حكمة المرض والابتلاء لهم

فإن قيل: فما الحكمةُ في إجراء الأمراض وشدَّتِها عليه وعلى غيره من الأنبياء على جميعهم السلام؟ وما الوجهُ في ما ابتلاهم الله به من البلاء، وامتحانهم بما امتحنوا به؛ كأيوب، ويعقوب ودانيال، ويحيى، وزكريا، وعيسى، وإبراهيم، ويوسف، وغيرهم. صلوات الله عليهم، وهم خيرتُه من خلقِه وأحباؤه وأصفياؤه.

فاعلم - وفقنا الله وإياك - أنَّ أفعال الله تعالى كلها عدلٌ، ، كلماته جميعها صدق، لا مبدل لكلماته، يبتلي عباده كما قال تعالى لهم: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [هود: ٧] ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: ١٤٠] ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

فامتحانه إياهم بضروب المحن زيادةٌ في مكانتهم، ورفعة في درجاتهم، وأسباب لاستخراج حالات الصبر والرضا، والشكر والتسليم، والتوكل، والتفويض، والدعاء والتضرع منهم وتأكيدٌ لبصائرهم في رحمة الممتحنين، والشفقة على المُبتلين، وتذكرة لغيرهم، وموعظة لسواهم ليتأسوا في البلاء بهم؛ فيتسلوا في المحن بما جرى عليهم، ويقتدوا بهم في الصبر، ومَحوٌ لِهناتٍ فرطتْ منهم، أو غفلاتٍ سلفتْ لهم، لِيَلْقَوا الله طيبين مهذبين؛ وليكون أجرهم أكمل، وثوابهم أوفر وأجزل.

حدثنا القاضي أبو علي الحافظ، حدثنا أبو الحسن الصيرفي وأبو الفضل بن خيرون؛ قالا: حدثنا أبو يعلى البغداديّ، حدثنا أبو عليّ السنْجي، حدثنا محمد بن محبوب، حدثنا أبو عيسى الترمذي، حدثنا قُتبة، حدثنا حماد بن زيد، عن عاصم بن بَهْدَلَة، عن مصعب بن سعد، عن أبيه، قال قلتُ: يا رسول الله، أي الناسِ أشدّ بلاءً؟ فقال: **«الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلَى الرّجُل على حسب دينه، ما يبرحُ البلاءُ بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»**[1].

وكما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وأحمد (١/ ١٧٢، ١٨٠، ١٨٥).

سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

[آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٨].

وعن أبي هريرة: «ما يزال البلا بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة»(١).

وعن أنس، عنه ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشرَّ أمسك عنه بذنبه حتى يُوافى به يوم القيامة»(٢).

وفي حديث آخر: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه ليسمع تضرعه»(٣).

وحكى السمرقندي أن كل من كان أكرم على الله تعالى كان بلاؤه أشد كي يتبين فضله، ويستوجب الثواب؛ كما روي عن لقمان أنه قال: يا بنيَّ؛ الذهب والفضة يختبران بالنار، والمؤمن يختبر بالبلاء.

وقد حُكي أن ابتلاء يعقوب بيوسف كان سببه التفاته في صلواته إليه ويوسف نائمٌ محبةٌ له.

وقيل: بل اجتمع يومًا هو وابنه يوسف على أكل حمل مشْوِيّ، وهما يضحكان، وكان لهم جارٌ يتيم، فشمّ ريحهَ واشتهاه وبكى، وبكت له جدةٌ له عجوز لبكائه، وبينهما جدار، ولا علم عند يعقوب وابنه؛ فعوقب يعقوب بالبكاء أسفًا على يوسف إلى أن سالت حدَقتاه، وابيضت عيناه من الحزْن. لما علم بذلك كان بقية حياته يأمر مناديًا على سطحه: ألا من كان مُفطراً فليتغذَّ عند آل يعقوب.

وعُوقب يوسف بالمحنة التي نصَّ الله عليها.

ورُوي عن الليث أن سبب بلاء أيوب أنه دخل مع أهل قريته على ملكهم، فكلّموه في ظلمه، وأغلظوا له إلا أيوب، فإنه رفق به مخافة على زرعه، فعاقبه الله ببلائه.

(١) حسن: أخرجه الترمذي (٢٣٩٩)، وأحمد (٢/ ٢٨٧، ٤٥٠) وغيرهم.
(٢) صحيح لشواهده: أخرجه أحمد (٤/ ٨٧)، والحاكم (١/ ٥٠٠)، بسند ضعيف بسبب عنعنة الحسن البصري وهو مدلس، وله شواهد، وانظر مجمع الزوائد (١٠/ ١٩١، ١٩٢).
(٣) ضعيف: أخرجه هناد في الزهد (٤٠٥)، وابن حبان في المجروحين (٣/ ١٢٢)، وضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٢٩٥). وروي موقوفًا على كردوس بن عمرو.

ومحنة سليمان لما ذكرناه من نيته في كون الحق في جنبه أصهاره؛ أو للعمل بالمعصية في دراه، ولا علم عنده. وهذه فائدة شدة المرض والوجع بالنبي ﷺ؛ قالت عائشة: ما رأيت الوجع على أحد أشد منه على رسول الله ﷺ(١).

وعن عبد الله: رأيت النبي ﷺ في مرضه، يوعك وعكًا شديدًا، فقلت: إنك لتوعك وعكًا شديدًا قال: «**أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم. قلت: ذلك أن لك الأجر مرتين؛ قال: أجل، ذلك كذلك**»(٢).

وفي حديث أبي سعيد أن رجلاً وضع يده على النبي ﷺ فقال: والله ما أطيقُ أضعُ يدي عليك من شدة حُماك. فقال النبي ﷺ: «**إنا معشر الأنبياء يُضاعف لنا البلاء، إن كان النبي ليُبتلى بالقمْل حتى يَقتلَه، وإن كان النبيُّ لـيُبْتلَى بالفقر، وإن كانوا ليَفرحُون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء**»(٣).

وعن أنس، عنه ﷺ: «**إن عِظَم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم؛ فمن رضي فلهُ الرّضا، ومَن سخط فله السَّخَط**»(٤).

وقد قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿**مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**﴾ [النساء: ١٢٣]؛ إن المُسلم يُجزَىٰ بمصائب الدنيا، فتكون له كفارة. وروىٰ هذا عن عائشة، وأبيّ، ومجاهد.

وقال أبو هريرة، عنه ﷺ: «**من يُرد الله به خيرًا يُصبْ منه**»(٥).

قال في رواية عائشة: «**ما من مصيبة تصيب المسلم إلا يُكفرُ الله بها عنه حتى الشوكة يُشاكها**»(٦).

وقال في رواية أبي سعيد: «**ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب، وال هم ولا حَزَن، ولا أذى ولا غمّ، حتى الشوكة يُشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه**»(٧).

وفي حديث ابن مسعود: «**ما من مُسلم يُصيبه أذى إلا حاتَّ الله عنه خطاياه كما**

---

(١) صحيح :أخرجه البخاري (٥٦٤٦)، ومسلم (٢٥٧٠).
(٢) صحيح :أخرجه البخاري (٥٦٤٨، ٥٦٦٠)، ومسلم (٢٥٧١).
(٣) ضعيف :أخرجه أحمد (٣/ ٩٤)، وعبد بن حميد (٩٦٠)، وفي سنده مبهم.
(٤) حسن :أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١)، وحسنه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٢١١٠).
(٥) صحيح :أخرجه البخاري (٣٧٦، ٥٦٤٥، ٥٨٥٩).
(٦) صحيح :أخرجه البخاري (٥٦٤٠)، ومسلم (٢٥٧٢).
(٧) صحيح :أخرجه البخاري (٥٦٤٠، ٥٦٤٢)، ومسلم (٢٥٧٢).

تحات ورق الشجر».(١)

وحكمة أخرىٰ أودعها الله في الأمراض لأجسامهم، وتعاقب الأوجاع عليها وشدتها عند مماتهم، لتضعف قُوىٰ نفوسهم، فيسهل خروجها عند قبضهم، وتخف عليهم مؤنة النزْع، وشدةُ السكراتِ بتقدُّم المرض، وضعف الجسم والنفس لذلك.

وهذا خلاف موت الفجاءة وأخذه، كما يُشاهد من اختلاف أحوال الموتىٰ في الشدة واللين، والصعوبة والسهولة. وقد قالﷺ: «**مَثلف المؤمن مثَلُ خامةِ الزَّرع تُفيِّئُها الريحُ هكذا وهكذا**»(٢).

وفي رواية أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «**من حيث أتَتْها الريحُ تكفؤُها؛ فإذا سكنت اعتدلتْ؛ وكذلك المؤمن يُكْفَأ بالبلاء. ومَثَل الكافر كمثل الأرزةِ صماء معتدلةً حتى يَقْصِمَهُ الله**»(٣).

معناه أن المؤمن مُرَزَّأ، مُصابٌ بالبلاء والأمراض، راضٍ بتصريفه بين أقدار الله تعالىٰ: مُنطاعٌ لذلك، ليِّن الجانب برضاه وقلةِ سخطه، كطاعة خامةِ الزرْع وانقيادها للرياح، وتمايلها لهبوبها ترنحها من حيث ما أتتها؛ فإذا أراحَ الله عن المؤمن رياحَ البلايا، واعتدلَ صحيحًا كما اعتدلت خامة الزرع عند سكون رياح الجو رجع إلىٰ شُكر ربه ومعرفةِ نعمتهِ عليه برفْع بلائه، ومنتظرً رحمته وثوابه عليه.

فإذا كان بهذه السبيل لم يصعب عليه مرض الموت، ولا نزوله، ولا اشتدّت عليه سكراتُه ونزعه، لعادته بما تقدّم من الآلام ومعرفة مالهُ فيها من الأجر، وتوْطينه نفسه علىٰ المصائب ورقتها وضَعفِها بتوالي المرض أو شدّته؛ والكافر بخلاف هذا: مُعافىٰ في غالب حاله، ممتعٍ بصحة جسمه، كالأرزة الصماءِ حتىٰ إذا أراد الله هلاكه قصمه لحينه علىٰ غرة، وأخذه بَغْتَةً من غير لطف ولا رق؛ فكان موته أشد عليه حسرة، ومقاساةُ نَزْعِه مع قوة نفسه وصحة جسمه أشدّ ألمًا وعذابًا، ولعذابُ الآخرة أشدّ، كانجعاف الأرزة. وكما قال تعالىٰ: ﴿**فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**﴾[الأعراف: ٩٥].

وكذلك عادة الله تعالىٰ في أعدائه كما قال تعالىٰ: ﴿**فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِه فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْه حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِه الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا**﴾[العنكبوت: ٤٠]؛ ففجأ جميعهم الموت علىٰ حال عتوٍّ وغَفْلةٍ، وصبّحهم به علىٰ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٦٤٧، ٥٦٦١).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٧٤٦٦).

(٣) صحيح: انظر ما قبله.

غير استعداد بغتة، ولهذا ما كره السلف موتَ الفجاءة. ومنه في حديث إبراهيم: كانوا يكرهون أخذة كأخذَةِ الأسَفِ: أي الغَضَب؛ يريدُ موتَ الفجاءة.

وحكمـــة ثالث: أن الأمراضَ نذير الممات، وبقدرِ شدّتها شدةُ الخوف من نزول الموت؛ فيستعد من أصابته، وعلم تعاهدها له، للقاء ربه، ويعرضُ عن دار الدنيا الكثيرة الأنكاد، ويكون قلبه معلقًا بالمعاد، فيتنصل من كل ما يخشى تباعته من قبل الله، وقبل العباد، ويؤدي الحقوق إلى أهلها، وينظر فيما يحتاج إليه من وصيّة فيمن يُخلّفه أو أمرٍ يَعهده.

وهذا نبينا ﷺ المغفور له ما تقدم وما تأخر، قد طلب التنصل في مرضه ممن كان له عليه مال أو حق في بدن، وأقاد من نفسه وماله، وأمكن من القصاص منه، على ما ورد في حديث الفضل، وحديث الوفاء، وأوصى بالثقلين بعده: كتاب الله، وعترته، وبالأنصار عيبته؛ ودعا إلى كَتْب كتاب لئلا تضلَّ أمته بعده؛ إما في النصّ على الخلافة، أو الله أعلم بمراده. ثم رأى الإمساكَ عنه أفضل وخيراً. وهكذا سيرة عباد الله المؤمنين وأوليائه المتقين.

وهذا كله يُحرمه غالبًا الكفار، لإملاء الله لهم؛ ليزدادوا إثمًا، وليستدرجهم من حيث لا يعلمون؛ قال الله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٤٩-٥٠].

ولذلك قال ﷺ في رجل مات فجأة: «سبحان الله! كأنه على غَضَبٍ، المحرومُ مَنْ حُرِمَ وصيته».

وقال: «موتُ الفُجاءة راحةٌ للمؤمن، وأخذَة أسَف للكافر الفاجر»(١)؛ وذلك لأن الموت يأتي المؤمن، وهو غالبًا مستعد له منتظر لحلوله؛ فهان أمره عليه كيفما جاء، وأفضى إلى راحته من نصب الدنيا وأذاها؛ كما قال ﷺ «مستريح ومستراح منه»(٢). وتأتي الكافر والفاجر منيتُه على غير استعداد ولا أُهْبَة ولا مقدمات مُنْذرة مُزعجة؛ بل تأتيهم بغتةً فتبهتهم، فلا يستطيعون ردَّها ولا هم يُنظرونَ؛ فكان الموتُ أشدَّ شيءٍ عليه.

وفراق الدُّنيا أفظعُ أمرٍ صدمه، وأكره شيء له؛ وإلى هذا المعنى أشار ﷺ بقوله: «من أحبَّ لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»(٣).

(١) صححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٦٣١).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥١٢، ٦٥١٣)، ومسلم (٩٥٠).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، ومسلم (٢٦٨٥).

القسم الرابع

في تصرف وجوه الأحكام

فيمن تنقصَّه أو سبّه عليه الصلا والسلام

المقدمة

قال القاضي أبو الفضل - رضي الله عنه -: قد تقدم من الكتاب والسُّنة وإجماع الأمة ما يجبُ من الحقوق للنبي ﷺ، وما يتعينُ منْ بر وتوقير، وتعظيم وإكرام؛ وبحَسَبِ هذا حرَّمَ الله تعالى أذاهُ في كتابه، وأجمعت الأمة على قتل مُتنقصه من المسلمين وسَابِّه؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧]

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١] وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]

وقال تعالى في تحريم التعريض به: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤].

وذلك أن اليهود كانوا يقولون: رَاعِنا يا محمد؛ أي أرْعِنا سمعك، واسمعْ منا، ويعرضُونَ بالكلمة، يريدون الرُّعونة؛ فنهى الله المؤمنين عن التشبُّه بهم، وقطع الذريعة بنهْي المؤمنين عنها، لئلا يتوصَّل بها الكافرُ والمنافقُ إلى سبِّه والاستهزاء به.

وقيل: بل لِمَا فيها من مُشاركة اللفظ، لأنها عند اليهود بمعنى اسمع لا سمعتَ. وقيل: بل لما فيها من قلة الأدب، وعدم توقير النبي ﷺ وتعظيمه؛ لأنها في لغة الأنصار بمعنى ارْعَنَا نرعكَ؛ فنُهوا عن ذلكَ؛ إذا مُضمنُه أنه لا يرعونه إلا برعَاتيه لهم، وهو ﷺ واجبُ الرعاية بكل حال؛ وهذا هو ﷺ قد نهى عن التَّكنّي بكنيَته، فقال: «تَسمَّوا باسمي، ولاَ تكنَّوا بكُنْيَتي»(١)؛ صيَانةً لنفسه، وحمايةً عن أذاه؛ إذْ كان ﷺ استجاب لرجلٍ نادى: يا أبا القاسم؛ فقال: لم أَعْنِكَ، إنما دعوتُ هذا، فنهى حينئذٍ عن التكّني بكُنيته لئلا يتأذى بإجابة دعوة غيره لمن لم يدعُه، ويَجد بذلك المنافقون والمستهزئون ذريعة إلى أذاه والإزراء به، فينادونه، فإذا التفتَ قالوا: إنما أردنا هذا - لسواهُ - تَعنيتًا له، واستخفافًا بحقه على عادة المجّان والمستهزئين، فحمَى ﷺ حِمَى أذاهُ بكل وجهٍ؛ فحمل محققُو العلماء نَهيةُ عن هذا على مدة حياته، وأجازُوه بعد وفاته لارتفاع العلة.

وللناس في هذا الحديث مذاهبُ ليس هذا موضعها؛ وما ذكرناه هو مذهبُ الجمهور،

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢١٢٠، ٣٥٣٧، ٣٥٣٩، ٦١٩٧)، ومسلم (٢١٣٤).

والصوابُ إن شاء الله. وإن ذلك على طريق تعظيمه وتوقيره، وعلى سبيل النَدْب والاستحباب، لا على التحريم؛ ولذلك لم ينهَ عن اسمه؛ لأنه قد كان الله منع منْ ندائه به بقوله: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]؛ وإنما كان المسلمون يدعونه برسول الله، وبنبيِّ الله، وقد يَدْعُوه - بكُنْيته أبا القاسم - بعضهم في بعض الأحوال.

وقد روَىٰ أنس - رضي الله عنه -، ما يدلُّ علىٰ كراهة التسمي باسمه، وتنزيهه عن ذلك؛ إذا لم يوقَّر، فقال: «تسمُّون أولادكم محمداً ثم تلعنونهم»[1].

ورُوي أن عمر - رضي الله عنه - كتب إلىٰ أهل الكوفة: لا يُسمىٰ أحدٌ باسم النبي ﷺ، حكاه أبو جعفر الطبري.

وحكىٰ محمد بن سعد أنه نظر إلىٰ رجل اسمه محمد، ورجلٌ يسبُّه ويقول له فعل الله بك يا محمد وصنع. فقال عمر لابن أخيه محمد بن زيد بن الخطاب: لا أرىٰ محمداً ﷺ يسبُّ بك؛ والله لا تُدْعىٰ محمداً ما دمتُ حيًا؛ وسماهُ عبد الرحمن؛ وأراد أن يمنعَ أنْ يُسمىٰ أحدٌ بأسماء الأنبياء إكرامًا لهم بذلك، وغير أسماء جماعة تسمُّوا بأسماء الأنبياء، ثم أمسك.

والصواب جواز هذا كله بعده ﷺ، بدليل إطباقِ الصحابة علىٰ ذلك.

وقد سمَّىٰ جماعة منهم ابنه محمد وكناه بأبي القاسم.

وروي أن النبي ﷺ أذن بذلك لعلي رضي الله عنه.

وقد أخبر ﷺ أن ذلك اسمُ المهدي وكُنيته.

وقد سمىٰ به النبي ﷺ محمد بن طلحة، ومحمد بن عمرو بن حزم، ومحمد ابن ثابت بن قيس، وغير واحد؛ وقال: ما ضر أحدكم أن يكون في بيته محمدٌ ومحمدان وثلاثة.

وقد فصلتُ الكلام في هذا القسم علىٰ بابين كما قدمناه.

---

(١) ضعيف: ضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٢٤٣٦).

الباب الأول

الفصل الأول

في بيان ما هو ـ في حقه ﷺ ـ سَبٌّ أو نَقْص، من تعريض أو نصّ

الحكم الشرعي فيمن سب النبي ﷺ أو تنقصه

اعلم ـ وفقنا الله وإياك ـ أن جميع من سب النبي ﷺ أو عابه، أو ألحقَ به نقصًا في نفسه أو نسبه أو دينه، أو خصلةٍ من خِصاله، أو عرضَ به، أو شبَّهَهُ بشيءٍ على طريق السب له، أو الإزراء عليه، أو التصغير لشأنه، أو الغضٍّ منه، والعيبِ له؛ فهو سابٌّ له؛ والحكم فيه حكم الساب، يقتل كما نُبَيِّنُه؛ ولا نستثني فصلا من فصول هذا الباب على هذا المقصد، ولا نمتري فيه تصريحًا كان أو تلويحًا.

وكذلك منْ لعنه أو دَعا عليه، أو تمنّى مضرةً له، أو نسبَ إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم، أو عبث في جهته العزيزة بسخف من الكلام وهُجر، ومنكر من القول وزور، أو عيَّره بشيءٍ مما جرى من البلاء والمحنة عليه، أو غَمَصَهُ ببعض العوارضِ البشرية الجائزة والمعهودة لَديْه.

وهذا كله إجماعٌ من العلماء وأئمة الفتوى من لدن الصحابة رضوان الله عليهم إلى هَلمّ جرًا.

وقال أبو بكر بن المنذر: أجمع عوام أهل العلم على أن من سب النبي ﷺ يُقتل؛ وممن قال ذلك مالك بن أنس، والليث، وأحمد، وإسحاق؛ وهو مذهب الشافعي.

قال القاضي أبو الفضل؛ وهو مُقتضى قول أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ، ولا تقبل توبته عند هؤلاء المذكورين.

وبمثله قال أبو حنيفة، وأصحابه؛ والثوري وأهل الكوفة، والأوزاعي في المسلم، لكنهم قالوا: هِيَ رِدَةٌ.

روى مثله الوليد بن مُسلم عن مالك.

وحكى الطبري مثله عن أبي حنيفة وأصحابه فمن تنقصه ﷺ، أو برئ منه أو كذبه

وقال سحْنون فيمن سبَّه: ذلك رِدةٌ كالزنْدَقة.

وعلىٰ هذا وقع الخلاف في استتابته وتكفيره؛ وهل قتله حَدٌ أو كفرٌ، كما سنُبينه في الباب الثاني إن شاء الله تعالىٰ، ولانعلمُ خلافًا في استباحة دمه بين علماء الأمصار وسلف الأمة؛ وقد ذكر غيرُ واحدٍ الإجماع علىٰ قتله وتكفيره، وأشار بعض الظاهرية ـ وهو أبو محمد عليّ بن أحمد الفارسي إلىٰ الخلاف في تكفير المستخفّ به.

والمعروف ما قدمناه؛ قال محمد بن سَحْنُون: أجمع العلماء أن شاتم النبيﷺ المُتنقص له كافر. والوعيدُ جار عليه بعذاب الله؛ وحُكمه عند الأمة القتل، ومن شك في كفره وعذابه كَفَر.

واحتج إبراهيم بن حسين بن خالد الفقيه في مثل هذا بقتل خالد بن الوليد مالك بن نُويرة لقوله ـ عن النبيﷺ : صاحبكم.

وقال أبو سليمان الخطابي: لا أعلم أحدًا من المسلمين اختلف في وجوب قتله إذا كان مسلمًا.

وقال ابنُ القاسم ـ عن مالك في كتاب ابن سحنون، والمبسوط والعُتبيّة؛ وحكاهُ مُطرفٌ عن مالك في كتاب ابن حبيب: من سب النبيﷺ من المسلمين قُتل، ولم يستتب.

قال ابن القاسم في العُتْبيه: من سبه أو شتمه أو عابه أو تنقصه فإنه يقتل، وحكمه عند الأمة القتل كالزنديق.

وقد فرض الله تعالىٰ توقيره وَبِرَّه وفي المبسوط ـ عن عثمان بن كِنَانة: من شتم النبيﷺ من المسلمين قتل أو صلب حيًا ولم يُستتب والإمام مُخيرٌ في صلبه حيًا أو قتله.

ومن رواية أبي المصعب، وابن أبي أويس: سمعنا مالكًا يقولُ: من سب رسول الله ﷺ، أو شتمه، أو عابه، أو تنقصه ـ قتل مسلمًا كان أو كافرًا، ولا يستتاب.

وفي كتاب محمد: أخبرنا أصحابُ مالك أنه قال: من سب النبيﷺ أو غيره من النبيين من مسلم أو كافر قُتل ولم يُستتب.

وقال أصبغ: يُقتلُ علىٰ كل حالٍ أسر ذلك أو أظهرهُ؛ ولا يُستتاب؛ لأن توبته لا تعرف.

وقال عبد الله بن الحكم: من سب النبيﷺ من مسلم أو كافر قتل ولم يُستتبْ.

وحكىٰ الطبري مثله عن أشبه، عن مالك.

ورویٰ ابن وهب، عن مالك: منْ قال: إن رداء النبيﷺ ـ ويروىٰ زرّ النبي ﷺ

وسخٌ؛ أراد عيبه ـ قتل.

وقال بعض علمائنا: أجمع العلماء على أن من دعا على نبي من الأنبياء بالويل، أو بشيء من المكروه ـ أنه يقتل بلا استتابة.

وأفتى أبو الحسن القابسيّ فيمن قال في النبي ﷺ: الحمالُ يتيمُ أبي طالب بالقتل.

وأفتى أبو محمد بن أبي زَيْد بقتل رجُلٍ سمعَ قومًا يتذاكرون صفة النبي ﷺ إذ مرَّ بهم رجلٌ قبيحُ الوَجْه واللحيةَ؛ فقال لهم: تريدون تعرفون صفته؛ هي في صفة هذا المار في خلقه ولحيته. قال: ولا تقبل توبتَه.

وقد كذب ـ لعنَه الله؛ وليس يخرجُ من قلبٍ سليمِ الإيمان.

وقال أحمد بن أبي سليمان صاحب سَحنون: مَنْ قال: إن النبي ﷺ كان أسود يُقتَل.

وقال في رَجُلٍ قيل له: لا، وحقِّ رسولِ الله. فقال: فعل الله برسول الله كذا وكذا ـ وذكر كلامًا قبيحًا ـ، فقيل له: ما تقولُ يا عَدُوّ الله؟ فقال أشدَّ من كلامه الأول؛ ثم قال: إنما أردت برسولِ الله العَقْرب. فقال ابنُ أبي سليمان للذي سأله: اشهد عليه وأنا شريكُك يريدُ في قتله وثواب ذلك.

قال حبيب بن الربيع؛ لأن ادعاءه التأويل في لفظٍ صُرَاح لا يقبل؛ لأنه امتهانٌ، وهو غير معزز لرسول الله ﷺ، ولا موقر له؛ فوجب إباحة دمه.

وأفتى أبو عبد الله بن عتاب في عشارٍ؛ قال لرجل: أد واشْكُ إلى النبي ﷺ؛ وقال: إن سألتُ أو جعلت فقد جَهِل وسأل النبيُّ ﷺ ـ بالقتل.

وأفتى فقهاء الأندلس بقتل ابن حاتم المُتَفَقِّه الطُلَيْطِليّ وصلْبه بما شهد عليه به من استخفافه بحق النبي ﷺ وتسميته إياه أثناءَ مناظرته باليتيم، وختن حَيْدَرَة، وزعْمه أن زُهده لم يكن قصدًا؛ ولو قدر على الطيبات أكلها، إلى أشباه لهذا.

وأفتى فقهاءُ القيرَوان وأصحابُ سَحنون بقتل إبراهيم الفزاري، وكان شاعرًا متُفننًا في كثير من العلوم، وكان ممن يحضرُ مجلس القاضي أبي العباس بن طالب للمناظرة، فرفعت عليه أمورٌ منكرةٌ من هذا الباب في الاستهزاء بالله وأنبيائه ونبينا ﷺ، فأحضرَ له القاضي يحيى بن عُمر وغيره من الفقهاء، وأمر بقتله وصلبه، فطُعن السكين، وصلبَ منُكسًا؛ ثم أنزل وأحرق بالنار.

وحكى بعض المؤرخين أنه لما رفعت خشبتُه، وزالت عنها الأيدي استدارت، وحولته عن القبلة، فكان آية للجميع، وكبر الناسُ، وجاء كلبٌ فولغَ في دمه، فقال يحيى بن

عمر: صدق رسول الله ﷺ، وذكر حديثًا عنه ﷺ أنه قال: لا يَلَغُ الكلبُ في دم مسلم.

وقال القاضي أبو عبد الله بن المرابط: من قال: إنّ النبي ﷺ هُزم يُستتابُ، فإن تاب وإلا قتل؛ لأنه تنقُّص؛ إذ لا يجوز ذلك عليه في خاصته، إذ هو على بصيرة من أمره ويقين من عصمته.

وقال حبيب بن ربي القرَوي: مذهبُ مالك وأصحابه أن من قال فيه ـ ﷺ: ما فيه نقص ـ قتل دون استتابه.

وقال ابن عتّاب: الكتابُ والسنة موجبان أن من قصد النبي ﷺ بأذى أو نقص، معرضًا أو مصرحًا، وإن قل ـ فقتله واجب؛ فهذا البابُ كلُّه مما عده العلماء سبًا أو تنقصًا يجب قتل قائله، لم يختلف في ذلك متقدمهم ولا متأخرهم، وإن اختلفوا في حكم قتله على ما أشرنا إليه ونبينه بعد.

وكذلك أقول حكم من غمصَهُ أو عيَّره برعاية الغنم أو السهو أو النسيان أو السّحْر، أو ما أصابه من جرحٍ أو هزيمة لبعض جيوشه، أو أذى من عدوه، أو شدةٍ من زمنه، أو بالميل إلى نسائه؛ فَحُكْمُ هذا كله لمن قصدَ به نقصه القتلُ.

وقد مضى من مذاهب العلماء في ذلك، ويأتي ما يدل عليه.

الفصل الثاني

في الحجة في إيجاب قتل منْ سبَّ أو عَابه ﷺ

فمن القرآن لعنهُ تعالى لمؤذيه في الدنيا والآخرة، وقرانه تعالى أذاهُ بأذاه، ولا خلاف في قتل من سب الله، وأن اللعنَ إنما يستوجبه من هو كافر، وحكم الكافر القتل؛ فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧]

وقال ـ في قاتل المؤمن مثل ذلك؛ فمن لعنه في الدنيا القتل؛ قال الله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠ ـ ٦١].

وقال ـ في المحاربين، وذكر عقوبتهم: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

ويَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ [المائدة: ٣٣].

وقد يقع القتل بمعنى اللعن؛ قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ [الذاريات: ١٠] و﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]؛ أي لعنهم الله؛ ولأنه فرق بين أذاهما وأذى المؤمنين؛ وفي أذى المؤمنين ما دون القتل؛ من الضرب والنكال: فكان حُكمُ مؤذي الله ونبيه أشدَّ من ذلك؛ وهو القتل. وقال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]

فسلب اسم الإيمان عمن وجد في صدره حرجًا من قضائه، ولم يسلمْ له؛ ومن تنقصه فقد ناقض هذا.

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]

ولا يُحبط العمل إلا الكفر؛ والكافر يُقتل.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ [المجادلة: ٨] ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝٦٥ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]

قال أهل التفسير: كفرتم بقولكم في رسول الله ﷺ

وأما الإجماع فقد ذكرناه.

وأما الآثارُ: فحدثنا الشيخ أبو عبد الله أحمد بن غلبون، عن الشيخ أبي ذر الهروي إجازة، قال: حدثنا أبو الحسن الدارقطني، وأبو عمر بن حَيُّوَة، حدثنا محمد بن نوح، حدثنا عبد العزيز بن محمد بن الحسن بن زبالةَ، حدثنا عبد الله بن موسى بن جعفر، عن

عليّ بن موسىٰ، عن أبيه، عن جدّه، عن محمد بن عليٍّ بن الحُسين، عن أبيه، عن الحُسين بن عليّ، عن أبيه - أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «من سبَّ نبيًا فاقْتُلوه، ومن سبَّ أصحابي فاضربوه»[١].

وفي الحديث الصحيح: أمر النبي ﷺ بقَتْل كعب بن الأشرف. وقوله: «مَن لكعْب بن الأشرف! فإنه يُؤذي الله ورسوله»[٢]. ووجه إليه مَنْ قتله غِيلةً دونَ دعوةً، بخلاف غيره من المشركين؛ وعلَّلَ قتله بأذاه له؛ فدلَّ أن قَتْلَه إياه لغير الإشراك؛ بل للأذىٰ.

وكذلك قتل أبا رافع؛ قال البراء: وكان يؤذي رسول الله ﷺ ويُعين عليه[٣].

وكذلك أمره يوم الفتح بقتل ابن خطل وجاريتيه اللتين كانتا تُغنيان بسبه ﷺ.

وفي حديث آخر أن رجلاً كان يسبه ﷺ فقال: «منْ يَكفيني عَدوي؟» فقال خالد: أنا. فبعثه ﷺ فقتله[٤].

وكذلك لم يقلْ جماعة ممن كان يؤذيه من الكفار ويسبه، كالنضر بن الحارْث، وعقبة بن أبي مُعيط.

وعَهد بقتل جماعة منهم قبل الفتح وبعده، فقتلوا إلا من بادر بإسلامه قبل القدرة عليه.

وقد روىٰ البزار، عن ابن عباس - أن عقبة بن أبي مُعيط نادىٰ: يا معشر قريش، مالي أقتل من بينكم صبرًا! فقال له النبي ﷺ: «بكفرك وافترائك»[٥] علىٰ رسول الله ﷺ.

وذكر عبد الرزاق أن النبي ﷺ سبه رجل فقال: من يكفيني عدوي؟ فقال الزبير: أنا؛ فبارزه فقتله الزبير[٦].

وروىٰ أيضًا أن امرأة كانت تسبَّه ﷺ، فقال: منْ يكفيني عدوتي؟ فخرج إليها خالد بن الوليد فقتلها[٧].

---

(١) موضوع: ذكره الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (٥٦١٦).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٥١٠، ٣٠٣١، ٣٠٣٢، ٤٠٣٧)، ومسلم (١٨٠١).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٤٠٣٨، ٤٠٣٩، ٤٠٤٥).
(٤) ضعيف: أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٩٤٧٧، ٩٧٠٤)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٤٥)، وفيه مبهم.
(٥) ضعيف: ذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ٨٩) وقال: «أخرجه البزار وفيه يحيىٰ بن سلمة بن كهيل، وهو ضعيف ووثقه ابن حبان» اهـ.
(٦) صحيح: تقدم تخريجه.
(٧) صحيح: تقدم تخريجه.

وروىٰ أن رجلاً كذب علىٰ النبي ﷺ فبعث عليًا والزبير إليه يقتلاه.

وروىٰ ابن قانع أن رجلاً جاء إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله سمعت أبي يقول فيك قولاً قبيحًا فقتلتهُ! فلم يَشُقْ ذلك علىٰ النبي.

وبلغ المهاجر بن أبي أمية أميرَ اليمن لأبي بكر -رضي الله عنه- أن امرأة هناك في الردةِ غنتْ بسب النبي ﷺ، فقطع يدها، ونزع ثنيتها، فبلغ أبا بكر -رضي الله عنه- ذلك؛ فقال له: لولا ما فعلت لأمرتك بقتلها، لأن حدّ الأنبياء يشبهُ الحدود.

وعن ابن عباس: هجت امرأة من حطمة النبي ﷺ فقال: منْ لي بها؟ فقال رجلٌ من قومها: أنا يا رسول الله. فنهض فقتلها، فأخبر النبي ﷺ فقال: لا ينتطِح فيها عَنزانِ.

وعن ابن عباس أن أعمىٰ كانت له أم ولد تسبُّ ﷺ فيزجرها فلا تنزجر، فلما كانت ذات ليلة جعلت تقع في النبي ﷺ وتشتمه، فقتلها، فأخبر النبي ﷺ فقال: لا «ينتطِح فيها عَنزان»[1].

عن ابن عباس أن أعمىٰ كانت له أم ولد تسبُّ ﷺ فيزجرها فلا تنزجر، فلما كانت ذات ليلة جعلت تقع في النبي ﷺ وتشتمه، فقتلها، وأعلم النبي ﷺ بذلك، فأهدر دمها.

وفي حديث أبي برزة الأسلمي: كنت يومًا جالسًا عند أبي بكر الصديق، فغضب علىٰ رجل من المسلمين -وحكىٰ القاضي إسماعيل وغَيْرُ واحدٍ من الأئمة في هذا الحديث أنه سبَّ أبا بكر.

رواه النسائي: أتيتُ أبا بكر، وقد أغلظ لرجل فردَّ عليه؛ قال: فقلت: يا خليفةَ رسول الله، دعني أضربْ عنقه. فقال: اجلِسْ، فليس ذلك لأحد إلا لرسول الله ﷺ.

قال القاضي أبو محمد بن نَصْر: ولم يخالف عليه أحد؛ فاستدلَّ الأئمةُ بهذا الحديث علىٰ قتل من أغضب النبي ﷺ بكل ما أغضبه أو آذاهُ أو سبه

ومن ذلك كتاب عمر بن عبد العزيز إلىٰ عامله بالكوفة، وقد استشاره في قتل رجل سبَّ عمر -رضي الله عنه-؛ فكتب إليه عمرُ: إنه لا يَحِلُّ قتلُ امرئ مسلم بسَبِّ أحدٍ من الناس إلا رجلاً سبَّ رسولَ الله ﷺ؛ فمن سبَّهُ فقد حلَّ دَمُهُ.

وسأل الرشيد مالكًا في رَجُلٍ شتَم النبيَّ ﷺ؛ وذكر له أن فقهاء العراق أفتوهْ بجلدهِ؛

---

(١) موضوع: أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٨٥٦، ٨٥٧، ٨٥٨)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٣/ ٩٩)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ١٨١)، وقال: «قال ابن عدي: هذا مما يتهم محمد بن الحجاج بوضعه».

فغضبَ مالك، وقال: يا أمير المؤمنين؛ ما بقاءُ الأمةِ بعد شتم نَبيها! منْ شتم الأنبياء قتل، ومن شتم أصحاب النبيﷺ جُلِد.

قال القاضي أبو الفضل ـ رحمه الله تعالى ـ: كذا وقع في هذه الحكاية، رواها غَيْرُ واحدٍ من أصحاب مناقب مالك ومؤلفي أخباره وغيرهم؛ ولا أدري منْ هؤلاء الفقهاء بالعراق الذين أفتوا الرشيد بما ذكر! وقد ذكرنا مذهب العراقيين بقتله، ولعلهم ممن لم يشهرْ بعلْم، أو من لا يوثق بفتواهُ، أو يميلُ به هواهُ، أو يكون ما قاله يُحْمَل على غير السبِّ؛ فيكون الخلاف: هل هو سبٌّ أو غير سبّ؟ أو يكون رجع وتاب من سبه، فلم يَقُلْه لمالك على أصله؛ وإلا فالإجماع على قتل من سبه كما قدمناهُ.

ويدل على قتله من جهة النظر والاعتبار أنَّ منْ سبهُ أو تنقصَه ﷺ فقد ظهرت علامة مرض قلبه، وبرهان سرِّ طويته وكفره؛ ولهذا ما حكم له كثيرٌ من العلماء بالردة، وهي رواية الشاميين عن مالك والأوزاعي، وقول الثوري، وأبو حنيفة، والكوفيين.

والقول الآخر أنه دليل على الكفر، فيقتل حداً، وإن لم يحكم له بالكفر إلا أن يكون متمادياً على قوله، غير منكر له، ولا مُقْلِع عنه؛ فهذا كافر؛ وقولُه: إما صريحُ كُفْر كالتكذيب ونحوه، أو من كلماتِ الاستهزاء والذمّ؛ فاعترافُه بها وتركُ توبته عنها دليلُ استحلاله لذلك، وهو كفرٌ أيضًا؛ فهذا كافر بلا خلاف؛ قال الله تعالى في مثله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤].

قال أهل التفسير: هي قولهم: إن كان ما يقول محمد حقًا لنحن شرٌّ من الحمير.

وقيل: قولُ بعضهم: ما مثلنا ومثل محمد إلا قول القائل: سمنْ كلبَك يأكلك؛ ولئنْ رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

وقد قيل: إن قائل مثل هذا إن كان مُستتراً به إن حُكمهُ حُكمُ الزنديق يُقتل، ولأنه قد غير دينه، وقد قال ﷺ: «من غير دينه فاضربوا عنقه»[1] ولأن لحكمِ النبي ﷺ في الحرمةِ مزية على أمته؛ وساب الحر من أمته يُحدُّ، فكانت العقوبة لمن سبه ﷺ القتل، لعظيم قدره، وشفوف منزلته على غيره.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٠١٧).

الفصل الثالث

أسباب عفو النبي ﷺ عن بعض من آذاه

فإن قلتَ: فلمَ لم يقتل النبي ﷺ اليهودي الذي قال له: السَّام عليكم؛ وهذا دعاء عليه؛ ولا قتل الآخر الذي قال له: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله وقد تأذىٰ النبي ﷺ من ذلك؛ وقال: «**قد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر**»(١)؛ولا قتل المنافقين الذين كانوا يؤذُونه في أكثر الأحيان.

فاعلم - وفقنا الله وإياك - أن النبي ﷺ كان أول الإسلام يستألف عليه الناس، ويميلُ قلوبهم، ويحببُ إليهم الإيمان، ويزينه في قلوبهم، ويداريهم، ويقول لأصحابه: **إنما بُعثتم مبشرين ولم تُبعثوا منفرين**»(٢).

ويقول: «**يسروا ولا تعسروا، وسكِّنوا ولا تنفروا**»(٣).

ويقول: «**لا يتحدثُ الناسُ أن محمداً يقتل أصحابه**»(٤).

وكان ﷺ يُداري الكفار والمنافقين، ويَجْملُ صحبتهم، ويُغضي عنهم، ويحتملُ منْ أذاهم، ويَصبرُ علَىٰ جفائهم ما لا يجوزُ لنا اليوم الصبرُ لهم عليه؛ وكان يُرفقُهم بالعطاء والإحسان؛ وبذلك أمره الله تعالىٰ؛ فقال تعالىٰ: ﴿**وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [المائدة: ١٣].

وقال تعالىٰ: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ [فصلت: ٣٤].

وذلك لحاجة الناس للتآلف أول الإسلام، وجمع الكلمة عليه؛ فلما استقرَّ وأظهرهُ الله علىٰ الدين كله قتل من قدرَ عليه، واشتهر أمره، كفعله بابن خطل، ومن عهد بقتله يوم الفتح، ومن أمكنه قتله غيلةً من يهودَ وغيرهم؛ أو غلبة ممن لم ينظمه قبل سلك صحبته، والانخراط في جملة مظهري الإيمان له ممن كان يؤذيه، كابن الأشرف، وأبي رافع، والنضر، وعقبة.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦١٠٠)، ومسلم (١٠٦٢).
(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٢٢٠).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٦٩، ٦١٢٥)، ومسلم (١٧٤٣).
(٤) صحيح: وقد تقدم تخريجه.

وكذلك نَذر دَم جماعة سواهم؛ ككعب بن زهير، وابن الزبعري وغيرهما. ما ممن آذاه حتىٰ ألقوا بأيديهم ولقوه مسلمين. وبواطن المنافقين مستترة، وحكمه ﷺ علىٰ الظاهر، وأكثر تلك الكلمات إنما كان يقولها القائل منهم خُفيةً ومع أمثاله، ويحلفون عليها إذا مُميت، وينكرونها، ويحلفون بالله ما قالوا، ولقد قالوا كلمة الكفر؛ وكان مع هذا يطمع في فَيْئتهم، ورجوعهم إلىٰ الإسلام، وتوبتهم؛ فيصبرُ ﷺ علىٰ هَنَاتهم وجفوتهم، كما صبر أولو العزم من الرسل حتىٰ فاء كثير منهم باطنًا، كما فاء ظاهرًا، وأخلص سرًا كما أظهر جهرًا، ونفع الله بَعْدُ بكثير منهم؛ وقام منهم للدين وزُراءُ وأعوانٌ وحفَمَاة وأنصار كما جاءت به الأخبار. وبهذا أجاب بَعْضُ أئمتنا رحمه الله عن هذا السؤال.

وقال: لعله لم يثبت عنده ﷺ من أقوالهم ما رُفع؛ وإنما نقله الواحدُ ومَنْ لم يَصِلْ رُتبَةَ الشهادة في هذا الباب؛ من صَبيٍّ أوْ عبدٍ أو امرأةٍ؛ والدماءُ لا تُستَبَاحُ إلاّ بَعَدْ لَيْنٍ.

وعلىٰ هذا يُحْمَلُ امرُ اليَهُود في السلام، وأنهم لووْا ألسنتهم، ولم يبينوه، ألا ترىٰ كيف نبهتْ عليه عائشةُ؛ ولو كان صرحَ بذلك لم تنفردْ بعلمه؛ وهذا نبه النبي ﷺ أصحابه علىٰ فعلهم وقلة صدقهم في سلامهم، وخيانتهم في ذلك ليًّا بألسنتهم وطعنًا في الدين؛ فقال: «إذا سلمَّ أُحدهم فإنما يَقولُ: السامُ علكيم، فقولوا، عليكم».

وكذلك قال بعضُ أصحابنا البَغداديين: إنَّ النبي ﷺ لم يَقْتُل المنافقين بعلمهِ فيهم؛ ولم يَأتِ أنه قامت بينةٌ علىٰ نِفاقِهم؛ فلذلك تركهم. وأيضًا فإنَّ الأمر كان سرًا وباطنًا، وظاهرهم الإسلام والإيمان، وإن كان من أهل الذمة بالعهد، والجوار، والناسَ قريبٌ عهدهم بالإسلام، ولم يتميز بعد الخبيث من الطيب. وقد شاع عن المذكورين في العَرَب كونَ من يُتهم بالنفاق من جملة المؤمنين وصحابة سيد المرسلين، وأنصار الدِّين بحكم ظاهرهم؛ فلو قتلهم النبي ﷺ لنفاقهم وما يبدرُ منهم، وعلمه بما أسروا في أنفسهم لوجد المنفرُ ما يقول، ولارتاب الشارد، وأرجف المعاندُ، وارتاع من صحبة النبي ﷺ والدخول في الإسلام غير واحد، ولزعم الزاعمُ، وظن العدو الظالمُ أن القتل إنما كان للعداوة وطلب أخذ التِّرةِ. وقد رأيتُ معنىٰ ما حررّته منسوبًا إلىٰ مالك بن أنس - رحمه الله - ولهذا قال ﷺ: «لا يتحدثُ الناس أن محمدًا يقتلُ أصحابه»[1].

وقال: «أولئك الذين نهاني الله عن قتلهم»[2].

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٠٢٤، ٦٤٠١)، ومسلم (٢١٦٤).
(٢) ضعيف: أخرجه مالك في الموطأ (٤١٣)، والشافعي في المسند (١/ ٣٢٠)، والسنن المأثورة (٦٤٢) وأحمد (٥/ ٤٣٢) مرسلاً.

وهذا بخلاف إجراء الأحكام الظاهرة عليهم من حدوده الزنًا والقتل، وشبهه، لظهورها واستواء الناس في علمها.

وقد قال محمد بن الموّاز: لو أظهر المنافقون نفاقهم لقتلهم النبي ﷺ؛ وقاله القاضي أبو الحسن بن القصّار.

وقال قتادةُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦٢].

قال: معناه إذا أظهروا النفاقَ.

وحكىٰ محمد بن مسلمة في المبسوط، عن زيد بن أسلم - أن قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، نسخها ما كان قبلها.

وقال بعض مشايخنا: لعلَّ القائلَ: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله[1]، وقوله: اعدل - لم يفهم النبي ﷺ منه الطعن عليه والتهمة له؛ وإنما رآها من وجه الغلط في الرأي، وأمور الدنيا، والاجتهاد في مصالح أهلها؛ فلم ير ذلك سبًّا، ورأىٰ أنه من الأذىٰ الذي له العفو عنه والصبرُ عليه؛ فلذلك لم يعاقبه.

وكذلك يقال في اليهود إذا قالوا: السامُ عليكم - ليس فيه صريحُ سَبٍّ ولا دعاء إلا بما لابُدَّ منهُ من الموتِ الذي لابدّ من لحاقه جميع البشر.

وقيل: بل المراد تسأمون دينكم. والسأم والسآمة: المَلال.

وهذا دعاءُ علىٰ سآمة الدِّين ليس بصريح سب، ولهذا ترجم البخاري علىٰ هذا الحديث: باب - إذا عرض الذمي أو غيره بسب النبي ﷺ.

قال بعضُ علمائنا: وليس هذا بتعريض بالسبِّ؛ وإنما هو تعريضٌ بالأذىٰ.

قال القاضي أبو الفضل: قدْ قدمْنا أنَّ الأذىٰ والسبَّ في حقه ﷺ سواءٌ.

وقال القاضي أبو محمد بن نَصرْ مُجيبًا عن هذا الحديث ببعض ما تقدم؛ ثم قال: ولم يذكرْ في الحديث: هل كان هذا اليهودي من أهل العهد والذمةِ أو الحرب، ولا يُتركُ موجبُ الأدلة للأمر المُحتَمل.

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦١٠٠).

والأولىٰ في ذلك كله والأظهر من هذه الوجوه. مقصدُ الاستئلاف والمداراة علىٰ الدين لعلهم يؤمنون. ولذلك ترجم البخاري علىٰ حديث القسمة والخوارج: باب ـ من ترك قتال الخوارج للتألُّف. ولئلا ينفرَ الناسَ عنه، ولما ذكرنا معناهُ عن مالك، وقررناهُ قَبلُ.

وقد صبر لهمﷺ علىٰ سِحرِه وسَّمه، وهو أعظمُ من سبه إلىٰ أن نصَرهُ الله عليهم، وأذن له في قتل من حيَّنه منهم وإنزالهم من صياصيهم، وقذف في قلوبهم الرعب، كتب علىٰ من شاء منهم الجلاء، وأخرجهم من ديارهم، وخرب بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين وكاشفهم بالسبب؛ فقال: يا إخوة القردة والخنازير، وحكم فيهم سيوف المسلمين، وأجلاهم من جُوارهم وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلىٰ.

فإن قلت: فقد جاء في الحديث الصحيح، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنهﷺ ما انتقَمَ لنفسه في شيءٍ يؤتَىٰ إليه قطُّ، إلا أن تُنْتَهك حُرْمةُ الله، فينتقم لله[1].

فاعلم أن هذا لا يقتضي أنه لم ينتقمُ ممن سبه أو آذاه أو كذبه، فإنَّ هذه من حرمات الله التي انتقم لها؛ وإنما يكونُ ما لا ينتقمُ له فيما تعلق بسوء أدب أو معاملة من القول أو الفعل بالنفس والمال مما لم يقصد فاعلُه به أذاهُ، لكن مما جُبِلتْ عليه الأعرابُ من الجفاء، والجهل، أو جُبل عليه البشر من الغفلة، كجبذِ الأعرابي بإزاره حتىٰ أثرَ في عُنُقة، وكرفع صوت الآخر عنده، وكجحدِ الأعرابي شراءه منه فرسه التي شهد فيها خزيمة؛ ولما كان من تظاهر زوجيه عليه، وأشباه، هذا مما يحسنُ الصفحُ عنه.

وقد قال بعض علمائنا: إن أذىٰ النبي ﷺ حرام لا يجوز بفعل مباح ولا غيره، وأما غيره فيجوز بفعل مباح ما لا يجوز للإنسان فعله، وإن تأذىٰ به غيره. واحتج بعموم قوله تعالىٰ: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ** ﴾ الأحزاب: ٥٧، وبقوله ﷺ في حديث فاطمة: **«إنها بضعة مني، يؤذيني ما يؤذيها، ألا وإني لا أحرم ما أحل الله»**[2]. ولكن لا تجتمع ابنةُ رسول الله وابنة عدو الله عند رجل أبدًا. أو يكون هذا مما آذاه به كافر وجاء بعد ذلك إسلامه؛ كعفوه عن اليهودي الذي سحره؛ وعن الأعرابي الذي أراد قتله، وعن اليهودية التي سمتهُ، وقد قيل: قتلها.

ومثل هذا مما يبلغه من أذىٰ أهل الكتاب والمنافقين؛ فصفح عنهم رجاء استئلافهم واستئلاف غيرهم كما قررناه قبلُ، وبالله التوفيق.

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦٧٨٦).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٧١٤).

الفصل الرابع

حكم من فعل ذلك دون قصد أو اعتقاد

تقدم الكلام في قتل القاصد لسبه والإزار به، وغمصه بأي وجهٍ كان من ممكنٍ أو محال؛ فهذا وجهٌ بيّن لا إشكال فيه.

الوجْه الثاني: لاحقٌ به في البيان والجَلاء، وهو أن يكون القائلُ لما قال في جهَته ﷺ غيرَ قاصد للسبِ والإزراء، ولا معتقدٍ له، ولكنه تكلّم في جهته ﷺ بكلمة الكفرِ؛ منْ لعنه أو سبه أو تكذيبه أو إضافة ما لايجوزُ عليه، أو نَفيِ ما يجبُ له مما هو في حقه ﷺ نقيصة؛ مثل أن يَنْسبَ إليه إتيان كبيرةٍ، أو مداهنة في تبليغ الرسالة، أو في حكم بين الناس، أو يغُضُّ من مرتَبته، أو شرف نسبِه، أو وفورِ علمه أو زهده، أو يكذِّب بما اشتهر من أمور أخبر بها ﷺ وتواتر الخبرُ به عنه عن قصدٍ لرد خبره، أو يأتي بسفهٍ من القول، وقبيح من الكلام، ونوع من السب في جهته، وإن ظهر بدليل حاله أنه لم يتعمد ذمَّه، ولم يقصد سبَّه، إما لجهالة حملته على ما قاله، أو لضجَر أو سُكر اضطرّه إليه، أو قلة وضبط للسانه وعجرفة وتهور في كلامه، فحكم هذا الوجه حكم الوجه الأول القتل دون تلعثُم؛ إذ لاَ يعذرُ أحد في الكفر بالجهالة، ولا بدعوى زلل اللسان، ولا بشيء مما ذكرناه، إذ كان عقلُه في فطرته سليمًا، إلا منْ أكره وقلبه مطمئن بالإيمان.

وبهذا أفتى الأندلسيّون على ابن حاتم في نفيه الزهدَ عن رسول الله ﷺ قدمناه.

وقال محمد بن سَحنون ـ في المأسور يسب النبي ﷺ في أيدي العدو: يُقتل إلا أن يعلم تنصره أو إكراهه.

وعن أبي محمد بن أبي زيد: لا يُعذر بدَعوى زلل اللسان في مثل هذا.

وأفتى أبو الحسن القابسيّ ـ فيمن شَتم النبي ﷺ في سكره: يُقتل؛ لأنه يظن به أنه يعتقد هذا ويفعله في صحوهِ.

وأيضًا فإنه حدٌّ لا يسقطه السكر؛ كالقذفِ، والقتلِ، وسائر الحدود، لأنه أدخله على نفسه؛ لأن من شرب الخمر على علم من زوال عقله بها، وإتيان بها ينكر منه، فهو كالعامد لما يكون بسببه.

وعلى هذا ألزمناه الطلاق والعتاق، والقصاص والحدود.

ولا يعترض على هذا بحديث حمزة وقوله للنبي ﷺ: وهل أنتم إلا عبيد لأبي! قال: فعرف النبي ﷺ أنه ثَمِلٌ فانصرف؛ لأن الخمر كانت حينئذٍ غير محرمة، فلم يكن في جناياتها إثم، وكان حكم ما يحدث عنها معفواً عنه كما يحدث من النوم وشرب الدواء المأمون.

الفصل الخامس

حقيقة قائل ذلك هل هو كافر أو مرتد

الوجه الثالث: أن يقصد إلى تكذيبه فيما قاله وأتى به، أو ينفي نبوته أو رسالته، أو وجوده ﷺ أو يكفر به؛ انتقل بقوله ذلك إلى دين آخر غير ملته أم لا؛ فهذا كافر بإجماع، يجبُ قتلُه ثم ينظرُ فإن كان مُصرحًا بذلك كان حكمه أشبه بحكم المرتدّ، وقويَ الخلاف في استتابته.

وعلى القول الآخر لا يُسقط القتل عنه توبته لحق النبي ﷺ، إن كان ذكره بنقيصة في ما قاله من كذب أو غيره؛ وإن كان مُستسِرًا بذلك فحكمه حكمُ الزنديق لا تُسقط قتله التوبةُ عندنا كما سنبينه.

قال أبو حنيفة وأصحابه: من برئ من محمد، أو كذَبَ به، فهو مرتدٌّ حلالُ الدَّمِ إلا أن يرجع.

وقال ابنُ القاسم - في المسلم إذا قال: إن محمداً ليس بنبيّ، أو لم يُرسَل، أو لم ينزل عليه قرآن، وإنما هو شيء تقوَّله: يُقتل.

قال: ومن كفر برسول الله ﷺ وأنكره من المسلمين، فهو بمنزلة المرتدّ، وكذلك من أعلن بتكذيبه أنه كالمرتد يُستتابُ.

وكذلك قال فيمن تنبأ، وزعم أنه يوحى إليه، وقاله سَحنُون.

قال ابن القاسم: دعا إلى ذلك سراً وجهراً.

قال أصبغ: وهو كالمرتدّ؛ لأنه قد كفر بكتابِ الله مع الفرية على الله.

وقال أشهب - في يهودي تنبأ أو زعم أنه أُرسل إلى الناس، أو قال: بعد نبيّكم نبيٌّ - أنه يُستتاب إن كان مُعلنا بذلك؛ فإن تاب وإلا قتل، وذلك لأنه مكذبٌ للنبي ﷺ في قوله: لا نبيّ بعدي، ومُفْتَرٍ على الله في دعواهُ عليه الرسالة والنبوة.

وقال محمد بن سحنون: من شكَّ في حرفٍ مما جاء به النبي ﷺ عن الله فهو كافرٌ جاحدٌ.

وقال: منْ كذبَ النبي ﷺ كان حُكمُه عند الأمة القتلَ.

وقال أحمد بن أبي سليمان صاحب سَحنون: من قال إن النبي ﷺ أسود ـ قُتل؛ لم يكن النبي ﷺ بأسود.

وقال نحوه أبو عثمان الحداد، قال: لو قال: إنه مات قبل أن يلتحي، أو إنه كان بتاهرتَ ولم يكن بتهامة قتل؛ لأن هذا نفي.

قال حبيب بن ربيع: تبديل صفته ومواضعة كفر، والمظهر له كافر وفيه الاستتابة والمسرُّ له زنديق، يقتل دون استتابةٍ.

الفصل السادس

الحكم فيما لو كان الكلام يحتمل السب وغيره

الوجه الرابع: أن يأتي من الكلام بمُجْمل، ويلفظ من القول بمشكل يمكن حمله على النبي ﷺ أو غيره، أو يتردد في المراد به من سلامته من المكروه أو شره؛ فهاهنا مُتردد النظر وحيرة العبر، ومظنة اختلاف المجتهدين، ووقفة استبراء المقلدين، ليهلك من هلكَ عن بينة، ويحيىٰ من حيَّ عن بينة؛ فمنهم من غلب حرمة النبي ﷺ، وحَمَىٰ حِمىٰ عرضه، فجسر على القتل؛ ومنهم من عظم حرمة الدم، ودرأ الحد بالشبهة لاحتمال القول.

وقد اختلف أئمتنا في رجل أغضبه غريمُه؛ فقال له: صلِّ على النبي محمد؛ فقال له الطالبُ: لا صلى الله على من صلى عليه؛ فقيل لسحنون: هل هو كمن شتم النبي ﷺ، أو شتم الملائكة الذي يصلون عليه؛ قال: لا، إذا كان على ما وصفت من الغضب، لأنه لم يكن مضمرا الشتم.

وقال أبو إسحاق البرقي، وأصبغ بن الفرج: لا يقتل؛ لأنه إنما شتم الناس؛ وهذا نحو قول سحنون: لأنه لم يعذره بالغضب في شتم النبي ﷺ، ولكنه لما احتمل الكلام عنده، ولم تكن معه قرينة على شتم النبي ﷺ، أو شتم الملائكة صلوات الله عليهم؛ ولا مقدمة يحملُ عليها كلامه؛ بل القرينة تدل على أن مراده الناس غير هؤلاء، لأجل قول الآخر له: صلِّ على النبي، فحمل قوله وسبه لمن يُصلي عليه الآن لأجل أمر الآخر له بهذا عند غضبه.

هذا معنىٰ قول سحنُون؛ وهو مطابقٌ لعلة صاحبيه.

وذهب الحارث بن مسكين القاضي وغيرُه في مثل هذا إلىٰ القتل.

وتوقف أبو الحسن القابسيُّ في قتل رجل قال: كل صاحب فُندُقٍ قرنان، ولو كان نبيا مرسلا؛ فأمر بشده بالقيود والتضييق عليه حتىٰ تستفهم البينة عن جملة ألفاظه، وما يدل علىٰ مقصده، هل أراد أصحاب الفنادق الآن؛ فمعلومٌ أنه ليس فيهم نبي مرسل؛ فيكون أمره أخف.

قال: ولتكن ظاهر لفظه العموم لكل صاحب فندقٍ من المتقدمين والمتأخرين وقد كان فيمن تقدم من الأنبياء والرسل من اكتسب المال.

قال: ودم المسلم لا يقدم عليه إلا بأمر بين. وما ترد إليه التأويلات لابد من إمعان النظر فيه. هذا معنىٰ كلامه.

وحكي عن أبي محمد بن أبي زيد - رحمه الله - فيمن قال: لعن الله العرب، ولعن الله بني إسرائيل، ولعن الله بني آدم، وذكر أنه لم يرد الأنبياء، وإنما أردت الظالمين منهم - أن عليه الأدب بقدر اجتهاد السلطان.

وكذلك أفتىٰ - فيمن قال لعن الله من حرّم المُسكر، وقال: لم أعلم من حرّمه.

وفيمن لعَن حديث: «لا يبعْ حاضرٌ لباد»[1]. ولعن من جاء به - أنه إن كان يُعذرُ بالجهل وعدم معرفة السنن فعليه الأدب الوَجيع؛ وذلك أنَّ هذا لم يَقصد بظاهر حاله سب الله ولا سبَّ رسوله؛ وإنما لعن من حرمهُ من الناس علىٰ نحو فتوىٰ سحنون وأصحابه في المسألة المتقدمة.

ومثلُ هذا ما يجرىٰ في كلام سُفهاء الناس في قول بعضهم لبعض: يا بن ألف خنزير، وابن مائة كلب، وشبهه من هُجْر القول.

ولا شك أنه يدخل في مثل هذا العدد من آبائه وأجداده جماعة من الأنبياء، ولعل بعض هذا العدد منقطع إلىٰ آدم عليه السلام، فينبغي الزجر عنه، وتبينُ ما جهله قائله منه وشدهُ الأدب فيه.

ولو علم أنه قصد سبّ من في آبائه من الأنبياء علىٰ علم لقُتل.

وقد يضيقُ القولُ في نحو هذا لو قال لرجُل هاشمي: لعن اللهُ بني هاشم - وقال: أردتُ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (١٢٤٠)، ومسلم (١٥١٥).

الظالمين منهم؛ أو قال لرجل من ذرية النبي ﷺ قولاً قبيحًا في آبائه أو من نسله أو ولده على علم منه أنه من ذرية النبي ﷺ، ولم تكن قرينة في المسألتين تقتضي تخصيص بعض آبائه، وإخراج النبي ﷺ ممن سبهُ منهم.

وقد رأت لأبي موسى عيسى بن مناس - فيمن قال لرجل: لعنك الله إلى آدم عليه السلام - أنه إن ثبت عليه ذلك قتل.

وقد كان اختلف شيوخنا فيمن قال لشاهد شهد عليه بشيء ثم قال له: تتهمني؟ قال له الآخر: الأنبياء يُتهمون، فكيف أنت؟ فكان شيخنا أبو إسحاق بن جعفر يرى قتله، لبشاعة ظاهر اللفظ.

وكان القاضي أبو محمد بن منصور يتوقف عن القتل لاحتمال اللفظ عنده أن يكون خبراً عمن اتهمهم من الكفار.

وأفتى فيها قاضي قرطبة أبو عبد الله بن الحاج بنحو هذا.

وشدد القاضي. أبو محمد تَصفيدهُ، وأطال سجنَه، ثم استحلفهُ بعد على تكذيبِ ما شُهِدَ به عليه؛ إذ دخل في شهادة بعضِ من شهد عليه وهنٌ، ثم أطلقه.

وشاهدتُ شيخنا القاضي أبا عبد الله محمد بن عيسى أيام قضائه أتى برجلٍ هاتَرَ رجلاً، ثم قصَد إلى كلب فضربهُ برجلِه وقال له: قمْ يا محمدُ، فأنكر الرجلُ أن يكونَ قال ذلك، وشهد عليه لفيفٌ من الناس؛ فأمر به إلى السجن، وتقصى عن حالِه، وهل يصحبُ من يُستراب بدينه؟ فلما لم يجدْ ما يُقوّي الريبةَ باعتقاده ضربه بالسوط وأطلقه.

الفصل السابع

حكم من وصف نفسه بصفة من صفات الأنبياء رفعًا لشأنه أو استصغاراً لشأنهم صلوات الله عليهم

الوجه الخامس: ألا يقصد نقصًا، ولا يذكر عيبًا ولا سبًا، لكنه ينزع بذكرِ بعضِ أوصافه، أو يستشهدُ ببعض أحواله الجائزة عليه في الدنيا على طريق ضربِ المثل، والحُجة لنفسه أو لغيره، أو على التشبّه به، أو عند هضيمة نالته، أو غضاضة لحقتهُ، ليس على طريق التأسي وطريق التحقيق؛ بل على مقصد الترفيع لنفسه أو لغيره، أو على سبيل التمثيل وعدم التوقير لنبيه ، أو على قصد الهزل والتنذير بقوله، كقول القائل: إن قيل

في السوء فقد قيل في النبي، وإن كُذبتُ فقد كُذب الأنبياءُ، أو إن أذْنبتُ فقد أذنبوا، أو أنا أسلمُ من ألسنةِ الناس ولم يسلمْ منهم أنبياءُ الله ورسله، أو قد صبرت كما صبر أولُو العزم، أو كصبر أيوب، أو قد صبر نبيٌّ الله عن عداهُ، وحلمَ على أكثر مما صبرت؛ وكقول المتنبي:

أنــا في أمــةٍ تــداركـهــا الله غــريبٌ كـصــالح في ثمــودِ

ونحوه من أشعار المتعجرفين في القول، المتساهلين في الكلام؛ كقول المَعرّي:

كنتَ موسى وافتْه بنتُ شُعيْب غير أن ليس فيكما من فقير

على أن آخرَ البيت شديد، وداخل في باب الإزراء والتحقير بالنبي ﷺ، وتفضيل حال غيره عليه.

وكذلك قوله:

لولا انقطاعُ الوَحي بعد مُحمدٍ قلنا محمد من أبيه بديلُ

هو مثله في الفَضْلِ إلا أنّه لم يَأته بِرسالة جبريلُ

فصدر البيت الثاني من هذا الفصل شديدٌ، لتشبيهه غير النبي في فضله بالنبي، والعجز محتملٌ لوجهين: أحدهما أنَّ هذه الفضيلةَ. نقَّصت الممدوح، والآخر استغناؤه عنها. وهذا أشدُّ.

ونحوٌ منه قولُ الآخر:

وإذا ما رُفعت راياتُه صفقَتْ بين جناحَيْ جبرينْ

وقول الآخر من أهل العصر:

فرَّ من الخُلد واستجار بنا فصبَّر الله قلبَ رضوانِ

وكقول حسان المِصّيصي من شعراء الأندلس في محمد بن عباد المعروف المُعْتمد ووزيره أبي بكر بن زيدون:

كأن أبا بكر أبو بَكرِ الرضا وحسانُ حسّآن وأنتَ محمدُ

إلى أمثال هذا.

وإنما أكثرنا شاهدها مع استثقالنا حكايتها لتعريف أمثلتها ولتساهل كثير من الناس في ولُوج هذا الباب الضنّك، واستخفافهم فادحَ هذا العبء، وقلة علمهم بعظيم ما فيه من الوزرِ، وكلامِهم منه بما ليس لهم به علمٌ، ويَحْسبونُه هينًا وهو عند الله عظيم؛ لا سيما

الشعراء وأشدهم فيه تصريحًا، وللسانه تسريحًا ابنُ هانئ الأندلسي، وابن سليمان المَعرّي؛ بل قد خرج كثير من كلامهما إلى حدِّ الاستخفاف والنقص وصريح الكُفر

وقد أجبنا عنه، وغرضنا الآن الكلامُ في هذا الفصل الذي سُقنا أمثلته؛ فإن هذه كلها لم تتضمن سبًا، ولا أضافت إلى الملائكة والأنبياء نقصًا. ولست أعني عجزَيْ بيتي المعرى، ولا قصد قائلها إزراءً وغضًا، فما وقّر النبوة، ولا عظم الرسالة، ولا عزّرَ حرمة الاصطفاء، ولا عزز حُظْوةَ الكرامة حتى شبه من شبهَ في كرامة نالها، أو معرّة قصد الانتفاء منها، أو ضرب مثل لتطييب مجلسه، أو إغلاء في وصف لتحسين كلامه بمن عظم الله خطره، وشرف قدره، وألزم توقيره وبره، ونهى عن جهر القول له، ورفع الصوت عنده.

فحق هذا إن دُرئ عنه القتل الأدب والسجنُ وقوة تعزيره بحسب شنعة مقاله، ومقتضى قبح ما نطق به، ومألوف عادته لمثل، أو ندُوره، وقرينة كلامه، أو ندمه على ما سبق منه؛ ولم يزل المتقدمون ينكرون مثل هذا ممن جاء به؛ وقد أنكره الرشيد على أبي نواس قوله:

فإن يكُ باقِي سحر فرعونَ فيكمُ فإنّ عَصَا موسى بكفّ خَصِيبِ

وقال له: يا بنَ اللخناءِ، أنت المستهزئ بعصا موسى! وأمر بإخراجه عن عسكره من ليلته.

وذكر القطبيُّ أنّ ما أخذَ عليه أيضًا، وكُفر فيه، أو قاربَ- قوله في محمد الأمين وتشبيهه إياهُ بالنبي ﷺ، حيث قال:

تنازعَ الأحمدانِ الشبهَ فاشتَبَها خَلقًا وخُلقًا كما تُدّ الشِّرا كان

وقد أنكروا عليه أيضًا قوله:

كيف لا يُدنيكَ من أمَل منْ رسول الله من نَفَره

لأن حق الرسول وموجب تعظيمه وإنافة منزلته أن يُضاف إليه، ولا يُضاف.

فالحكم في أمثال هذا ما بسطناه في طريق الفتيا على هذا المنهج جاءت فتيا إمام مذهبنا مالك بن أنس- رحمه الله- وأصحابه.

في النوادر من رواية ابن أبي مريم عنه في رجل عَيّرَ رجلاً بالفقر؛ فقال: تُعَيرني بالفقر وقد رعى النبي ﷺ الغنم؟ فقال مالك: قد عرض بذكر النبي ﷺ في غير موْضعه؛ أرى أن يؤدب؛ قال: ولا ينبغي لأهل الذنوبِ إذا عُوتبوا أن يقولوا: قد أخطأت الأنبياءُ قبلنا.

وقال عمر بن عبد العزيز لرجل: انظرْ لنا كاتبًا يكون أبوه عربيًا. فقال كاتب له: قد كان أبو النبي كافرًا، فقال: جعلت هذا مثلاً؟ فعزله؛ وقال؛ لا تكتب لي أبدًا.

وقد كره سحنُون أن يصلي على النبي ﷺ عند التعجب إلا على طريق الثواب والاحتساب؛ توقيرًا له وتعظيمًا؛ كما أمرنا اللهُ.

وسُئل القابسيُّ عن رجل قال لرجل قبيح كأنه وجهُ نكير، ولرجل عبوس كأنه وجهُ مالك الغضبان؛ فقال: أي شيء أراد بهذا، ونكير أحد فتَّاني القبر، وهما ملكان، فما الذي أراد! أرَوعٌ دخل عليه حين رآه من وجهه، أم عاف النظر إليه لدمامة خلقه؛ فإن كان هذا فهو شديد، لأنه جرَىٰ التحقير والتهوين؛ فهو أشدُّ عقوبة، وليس فيه تصريحٌ بالسب للملك؛ وإنما السب واقعٌ على المخاطب.

وفي الأدب بالسوط والسجن نكال للسفهاء؛ قال: وأما ذاكرُ مالك خازن النار فقد جفا. الذي ذكره عندما أنكر حاله من عبوس الآخر إلا أن يكون المعبس له يد فيرهبُ بعبسته، فيشبهه القائل على طريق الذم لهذا في فعله، ولزومه في ظلمه صفة مالك الملك المطيع لربه في فعله، فيقول كأنه لله يغضب غضب مالك، فيكون أخف؛ وما كان ينبغي له التعرض لمثل هذا؛ ولو كان أثنى على العبوس بعبسته، واحتجّ بصفة مالك كان أشد، ويعاقب المعاقبة الشديدة؛ وليس في هذا ذم للملك، ولو قصد ذمه لقتل.

وقال أبو الحسن أيضًا في شاب معروف بالخير قال لرجل شيئًا، فقال الرجل: اسكتْ؛ فإنك أميٌّ. فقال الشاب: أليس كان النبي ﷺ أميًا! فشنع عليه مقاله، وكفره الناس؛ وأشفق الشاب مما قاله، وأظهر الندم عليه؛ فقال أبو الحسن: أما إطلاق الكفرِ عليه فخطأ، لكنه مُخطِئ في استشهاده بصفة النبي ﷺ؛ وكون النبي أميًا آيةٌ له؛ وكون هذا أميٌّ نقيصة فيه وجهالة.

ومن جهالته احتجاجه بصفة النبي ﷺ، لكنه إذا استغفر وتاب، واعترف ولجأ إلى الله فيُترك؛ لأن قوله لا ينتهي إلى حد القتل، وما طريقة الأدب فطَوْع فاعله بالندم عليه يوجب الكف عنه.

ونزلت أيضًا مسألة استفتى فيها بعض قضاة الأندلس شيخنا القاضي أبا محمد بن منصور ـ رحمه الله ـ في رجل تنقصه آخر بشيء؛ فقال له: إنما تُريد نقصي بقولك، وأنا بشرٌ، وجميع البشر يلحقهم النقص حتى النبي ﷺ، فأفتاه بإطالة سجنه، وإيجاع أدبه؛ إذ لم يقصد السب، وكان بعض فقهاء الأندلس أفتى بقتله.

الفصل الثامن

حكم الناقل والحاكي لهذا الكلام عن غيره

الوجه السادس: أن يقول القائل ذلك حاكيًا عن غيره، وآثرًا عن سواه؛ فهذا يُنظر في صورة حكايته وقرينة مقالته؛ ويختلف الحكم باختلاف ذلك على أربعة وجوه: الوجوب، والندب، والكراهة، والتحريم، فإن كان أخبر به على وجه الشهادة والتعريف بقائله، والإنكار والإعلام بقوله، والتنفير منه، والتجريح له - فهذاما ينبغي امتثاله - ويحمد فاعله، وكذلك إن حكاه في كتاب أو في مجلس على طريق الردّ له والنقض على قائله، وللفتيا بما يلزمه.

وهذا منه ما يجب، ومنه ما يستحب بحسب حالات الحاكي ولذلك والمحكي عنه؛ فإن كان القائل لذلك ممن تصدَّى لأن يؤخذ عنه العلم أو رواية الحديث، أو يُقطع بحكمه أو شهادته، أو فتياه في الحقوق - وجب على سامعه الإشادة بما سمع منه والتنفيرُ للناس عنه، والشهادة عليه بما قاله، ووجب على من بلغه ذلك من أئمة المسلمين إنكاره، وبيان كفره، وفساد قوله؛ لقطع ضرره عن المسلمين، وقيامًا بحق سيد المرسلين؛ وكذلك إن كان ممن يعظ العامة، أو يؤدب الصبيان فإن من هذه سريرته لا يؤمن على إلقاء ذلك في قلوبهم فيتأكد في هؤلاء الإيجابُ لحق النبي ﷺ ولحق شريعته.

وإن لم يكن القائلُ بهذه السبيل فالقيام بحق النبي ﷺ واجب، وحماية عرضه مُتعين، ونصرته عن الأذى حيًا وميتًا مستحق على كل مؤمن؛ لكنه إذا قام بهذا من ظهر به الحق، وفصلت به القضية، وبان به الأمر سقط عن الباقي الفرض، وبقي الاستحبابُ في تكثيرُ الشهادة عليه، وعضْدِ التحذير منه.

وقد أجمع السلف على بيان حال المتهم في الحديث، فكيف بمثل هذا؟ وقد سُئِل أبو محمد بن أبي زَيْد عن الشاهد يسمعُ مثلَ هذا في حق الله تعالى: أيسعُه ألا يؤديَ شهادته؟ قال: إنْ رجَا نفاذ الحكم بشهادته فليشهدْ.

وكذلك إنْ علم أنَّ الحاكم لا يرى القتلَ بما شَهدَ به، ويرى الاستتابة والأدب فليشهد ويلزمه ذلك.

وأما الإباحةُ لحكاية قوله لغير هذين المقصدين، فلا أرى لها مدخلاً في هذا الباب، فليس التفكه بعرض رسول الله ﷺ، والتمضمض بسوءِ ذكره لأحد، لا ذكرًا ولا آثرًا لغير

غرض شرعي مُباح.

وأما للأغراض المتقدمة فمتردد بين الإيجاب والاستحباب.

وقد حكىٰ الله تعالىٰ مقالات المفترين عليه وعلىٰ رسله في كتابه علىٰ وجه الإنكار لقولهم، والتحذير من كفرهم، والوعيد عليه، والرد عليهم بما تلاه الله علينا في محكم كتابه.

وكذلك وقع من أمثاله في أحاديث النبي ﷺ الصحيحة علىٰ الوجوه المتقدمة، وأجمع السلف والخلف من أئمة الهدىٰ علىٰ حكايات مقالات الكفرة والملحدين في كتبهم ومجالسهم ليبينوها للناس، وينقضوا شُبهها عليهم، وإن كان ورد لأحمد بن حنبل إنكار لبعض هذا علىٰ الحارث بن أسد؛ فقد صنع أحمد مثلَه في رده علىٰ الجَهْمية والقائلين بالمخلوق.

هذه الوجوه السائغة الحكاية عنها؛ فأما ذكرها علىٰ غير هذا من حكاية سبه والإزراء بمنصبه علىٰ وجه الحكايات والأسمار والطرف وأحاديث الناس ومقالاتهم في الغث والسمين، ومضاحك المجان، ونوادر السخفاء، والخوض في قيل وقال، وما لا يَعْني - فكل هذا ممنوع، وبعضه أشد في المنع والعقوبة من بعض، فما كان من قائله الحاكي له علىٰ غير قصد أو معرفة بمقدار ما حكاه، أو لم تكن عادته، أو لم يكن الكلام من البشاعة حيث هو، ولم يظهر علىٰ حاكيه استحسانه واستصوابه - زجر عن ذلك، ونهي عن العودة إليه؛ وإن قُوِّم ببعض الأدب فهو مستوجب له، وإن كان لفظه من البشاعة حيث هو كان الأدب أشد.

وقد حكي أن رجلاً سأل مالكًا عمن يقول: القرآن مخلوق. فقال مالك: كافر فاقتلوه. فقال: إنما حكيتهُ عن غيري. فقال مالك: إنما سمعناه منك.

وهذا من مالك علىٰ طريق الزجر والتغليظ، بدليل أنه لم ينفذ قتله.

وإن اتهم هذا الحاكي في ما حكاه أنه اختلقهُ، ونسبه إلىٰ غيره، أو كانت تلك عادة له، أو ظهر استحسانه لذلك، أو كان مولعًا بمثله، والاستخفاف له، أو التحفظ لمثله، وطلبه، ورواية أشعار هجوه ﷺ وسبه؛ فحكم هذا حكم الساب نفسه، يؤاخذُ بقوله، ولا تنفعه نسبته إلىٰ غيره، فيبادرُ بقتله ويعجل إلىٰ الهاوية أمّه.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام - فيمن حفظ شطر بيت مما هجيٰ به النبي ﷺ فهو كفر.

وقد ذكر بعض من ألَّف في الإجماع - إجماع المسلمين علىٰ تحريم رواية ما هُجي به النبي

ﷺ وكتابته وقراءته، وتركه متى وجد دون محو؛ ورحم الله أسلافنا المتقين المتحرزين لدينهم؛ فقد أسقطوا من أحاديث المغازي والسير ما كان هذا سبيله، وتركوا روايته إلا أشياء ذكروها يسيرة وغير مُستبشعة، على نحو الوجوه الأول، ليُرُو نقمة الله من قائلها، وأخذه المفترِي عليه بذنبه.

وهذا أبو عبيد القاسم بن سلام ـ رحمه الله ـ قد تحرىٰ فيما اضطر إلىٰ الاستشهاد به من أهاجي أشعار العرب في كتبه، فكني عن اسم المهجو بوزن اسمه؛ استبراءً لدينه، وتحفظًا من المشاركة في ذم أحد بروايته أو نشره؛ فكيف بما يتطرق إلىٰ عرض سيد البشر ﷺ.

الفصل التاسع

ذكر الحالات التي تجوز عليه ﷺ على طريق التعليم

الوجه السابع: أن يذكر ما يجوز علىٰ النبي ﷺ، أو يختلف في جوازه عليه، وما يطرأ من الأمور البشرية به، وتمكن إضافتها إليه، أو يذكر ما امتُحن به، وصبر في ذات الله علىٰ شدته من مقاساة أعدائه، وأذاهم له؛ ومعرفة؛ ابتداء حاله وسيرته، وما لقيه من بؤس زمنه، ومرّ عليه من معاناة عيشه؛ كل ذلك علىٰ طريق الرواية، ومذاكرةِ العلم، ومعرفة ما صحت منه العصمة للأنبياء، وما يجوز عليهم ـ فهذا فن خارج عن هذه الفنون الستة؛ إذ ليس فيه غَمْض ولانقص، ولا إزراء ولا استخفاف، لا في ظاهر اللفظ ولا في مقصد اللافِظ؛ لكن يجب أن يكون الكلام فيه مع أهل العلم وفُهماء طلبةِ الدين ممن يفهمُ مقاصدهُ، ويحققون فوائده؛ ويجنبُ ذلك من عساهُ لا يفقَه، أو يُخْشَىٰ به فتنتُه؛ فقد كره بعضُ السلف تعليم النساء سورة يوسف، لما انطوت عليه من تلك القصص لضعف معرفتهن، ونقص عقولهن وإدراكهن؛ فقد قال ﷺ مُخبراً عن نفسه باستيجاره لرعاية الغنم في ابتداء حاله؛ وقال: «**ما من نبي إلا وقد رعى الغنم**».

وأخبرنا الله تعالىٰ ذلك عن موسىٰ عليه السلام؛ وهذا لا غضاضة فيه جملة واحدة لمن ذكره علىٰ وجهه، بخلاف من قصد به الغضاضة والتحقير؛ بل كانت عادة جميع العرب.

نعم، في ذلك للأنبياء حكمة بالغة، وتدريج لله تعالىٰ لهم إلىٰ كرامته، وتدريب برعايتها لسياسة أممهم من خليقته بما سبق لهم من الكرامة في الأزل، ومتقدم العلم.

وكذلك قد ذكر الله يُتْمَه وعَيْلَتَهُ علىٰ طريق المنَّة عليه، والتعريف بكرامته له؛ فذكر الذاكر لها علىٰ وجه تعريف حاله، والخبر عن مبتدئه، والتعجب من منح الله قبله،

وعظيم منته عنده ليس فيه غَضاضةٌ؛ بل فيه دلالة علىٰ نبوّته وصحة دعوته؛ إذ أظهره الله تعالىٰ بعد هذا علىٰ صناديد العرب ومن ناوأه من أشرافهم شيئًا فشيئًا، ونمّىٰ أمره حتىٰ قهرهم، وتمكن من ملك مقاليدهم، واستباحة ممالك كثير من الأمم غيرهم؛ بإظهار الله تعالىٰ له، وتأييده بنصره وبالمؤمنين، وألف بين قلوبهم، وإمداده بالملائكة المسوّمين؛ ولو كان بانَ ملك أو ذا أشياع متقدمين لحسب كثير من الجهال أن ذلك موجب ظهوره، ومقتضىٰ علوه؛ ولهذا قال هرقل ـ حين سأل أبا سفيان عنه: هل في آبائه من ملك؟ فقال: لا ـ ثم قال: ولو كان في آبائه ملك لقُلنا: رجلٌ يطلبُ ملك أبيه، وإذ اليُتْمُ من صفته وإحدىٰ علاماته في الكتب المتقدمة وأخبار الأمم السالفة.

وكذا وقع ذكره في كتاب أرميا، وبهذا وصفه ابن ذي يزن لعبد المطلب، وبحيرا لأبي طالب.

وكذلك إذا وصف بأنه أمي كما وصفه الله به ـ فهي مِدْحةٌ له وفضيلة ثابتة فيه، وقاعدة معجزته؛ إذ معجزته العظمىٰ من القرآن العظيم إنما هي متعلقة بطريق المعارف والعلوم، مع ما مُنح ﷺ، وفضل به من ذلك، كما قدمناه في القسم الأول.

ووجود مثل ذلك من رجل لم يقرأ ولم يكتبْ ولم يُدارسْ ولا لُقنَ مقتضىٰ العجب، ومُنتهىٰ العبر، ومعجزة البشر.

وليس في ذلك نقيصة؛ إذ المطلوبُ من الكتابة والقراءة المعرفة؛ وإنما هي آلة لها، وواسطة موصلة إليها غير مرادة في نفسها؛ فإذا حصلت الثمرة والمطلوب استغني عن الواسطة والسبب.

والأميَّة في غيره نقيصة؛ لأنها سبب الجهالة، وعنوان الغباوة؛ فسبحان من بان أمره من أمر غيره، وجعل شرفه فيما فيه محطة سواه، وجعل حياته فيما فيه هلاك من عداه؛ هذا شقُّ قلبه، وإخراج حشوته، كان تمام حياته، وغاية قوة نفسه، وثبات روعه؛ وهو فيمن سواه منتهىٰ هلاكه وحتم موته وفنائه، وهلم جرا إلىٰ سائر ما رُوي من أخباره وسيره، وتقلله من الدنيا ومن الملبس والمطعم والمركب، وتواضعه ومهنته نفسه في أموره، وخدمة بيته زهداً ورغبة عن الدنيا، وتسوية بين حقيرها وخطيرها؛ لسرعة فناء أمورها، وتقلب أحوالها؛ كل هذا من فضائله ومآثره وشرفه كما ذكرناه؛ فمن أورد شيئًا منها مورده

وقصد بها مقصده كان حسنًا، ومن أورد ذلك على غير وجهه، وعلم منه بذلك سوء قصده لحق بالفصول التي قدمناها.

وكذلك ما ورد من أخباره وأخبار سائر الأنبياء عليهم السلام في الأحاديث مما في ظاهره إشكالٌ يقتضي أمورًا لا تليق بهم بحالٍ، ويحتاج إلى تأويل وتردُّد احتمال؛ فلا يجب أن يُتحدث منها إلا بالصحيح، ولا يروى منها إلا المعلوم الثابت.

ورحم الله مالكًا؛ فلقد كره التحدث بمثل ذلك من الأحاديث الموهمة للتشبيه والمشكلة المعنى؛ وقال: ما يدعوا الناس إلى التحدث بمثل هذا؟ فقيل له: إن ابن عجلان يحدث بها؛ فقال: لم يكن من الفقهاء، وليت الناس وافقوه على ترك الحديث بها، وساعده على طيها؛ فأكثرها ليس تحته عمل.

وقد حُكيَ عن جماعة من السلف، بل عنهم على الجملة - أنهم كانوا يكرهون الكلام في ما ليس تحته عمل، والنبي ﷺ أوردها على قوم عرب يفهمون كلام العرب على وجهه، وتصرفاتهم في حقيقته ومجازه، واستعارته، وبليغه وإيجازه، فلم تكن في حقهم مشكلة، ثم جاء من غلبت عليه العجمة، داخلته الأمية؛ فلا يكاد يفهم من مقاصد العرب إلا نصها وصريحها، ولا يتحقق بإشاراتها إلى غرض الإيجاز، ووحيها وتبليغها، وتلويحها، فتفرقوا من تأويلها وحملها على ظاهرها شذر مذر؛ فمنهم من آمن به، و منهم من كفر.

فأما ما لا يصح من هذه الأحاديث فواجب ألا يذكر منها شيء في حق الله ولا في حق أنبيائه، ولا يتحدث بها، ولا يتكلف الكلام على معانيها. والصواب طرحها، وترك الشغل يها إلا أن تُذكر على وجه التعريف بأنها ضعيفة المقاد واهية الإسناد.

وقد أنكر الأشياخُ عَلَى أبي بكر بن فورك تكلفة في مشكلة الكلام على أحاديث ضعيفة موضوعة لا أصل لها، أو منقولة عن أهل الكتاب الذين يلبسون الحق بالباطل كان يكفيه طرحها، ويغنيه عن الكلام التنبيه على ضعفها؛ إذ المقصود بالكلام على مُشكل ما فيها إزالة اللبس، واجتثاثها من أصلها، وطرحُها أكشفُ لِلبسِ وأشفَى للنفس.

الفصل العاشر

الأدب اللازم عند ذكر أخباره ﷺ

ومما يجبُ على المتكلم فيما يجوزُ على النبي ﷺ وما لا يجوز؛ والذاكر من حالاته ما قدّمناه في الفصل قبلَ هذا على طريق المذاكرة والتعليم - أن يلتزم في كلامه - عند ذكره ﷺ، وذكر تلك الأحوال - الواجب من توقيره وتعظيمه، ويراقب حال لسانه، ولا يُهمله، وتظهر عليه علامات الأدب عند ذكره؛ فإذا ذكر ما قاساه من الشدائد ظهر عليه الإشفاق والارتماض، والغيظ على عدوه، ومودّة الفداء للنبي ﷺ لو قدر عليه، والنصرةُ لو أمكنته.

وإذا أخذ في أبواب العصمة، وتكلم على مجاري أعماله وأقواله ﷺ تحرى أحسن اللفظ وأدب العبارة ما أمكنه، واجتنب بشيع ذلك، وهجر من العبارة ما يقبح؛ كلفظة الجهل والكذب والمعصية؛ فإذا تكلم في الأقوال قال: هل يجوز عليه الخلف في القول والإخبار بخلاف ما وقع سهواً أو غلطاً، ونحوه من العبارة، ويتجنب لفظة الكذب جملة واحدة.

وإذا تكلم على العلم قال: هل يجوزُ ألا يعلم إلا ما علم؟ وهل يمكن ألا يكون عنده علم من بعض الأشياء حتى يوحى إليه؛ ولا يقول بجهل؛ لقبح اللفظ وبشاعته.

وإذا تكلم في الأفعال قال: هل يجوز منه المخالفة في بعض الأوامر والنواهي ومواقعة بعض الصغائر؟ فهو أولى وآدب من قوله: هل يجوز أن يَعصي أو يُذنب أو يفعل كذا و كذا، ومن أنواع المعاصي؟ فهذا من حق توقيره ﷺ، وما يجب له من تعزيز وإعظام.

وقد رأيت بعض العلماء لم يتحفظ من هذا، فقُبِّح منه، ولم أستصوب عبارته فيه ووجدت بعض الجائرين قوله لأجل ترك تحفظه في العبارة ما لم يقله؛ وشنع عليه بما يأباه ويكفر قائله.

وإذا كان مثل هذا بين الناس مستعملاً في آدابهم وحسن معاشرتهم وخطابهم؛ فاستعماله في حقه ﷺ أوجب، والتزامه آكد.

فجودة العبارة تُقبِّح الشيء أو تحسنه، وتحريرها وتهذيبها تُعظم الأمر أو تهونه؛ ولهذا قال ﷺ: «إن من البيان لسحراً»[١].

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥١٤٦، ٥٧٦٧).

فأما ما أورده على جهة النفي عنه والتنزيه فلا حرج في تسريح العبارة وتصريحها فيه كقوله: لا يجوز عليه الكذب جملة، ولا إتيان الكبائر بوجه، ولا الجور في الحكم على حال؛ ولكن مع هذا يجب ظهور توقيره وتعظيمه عند ذكره مجرداً؛ فكيف عند ذكر مثل هذا.

وقد كان السلف تظهر عليهم حالات شديدة عند مجرد ذكره، كما قدمناه في القسم الثاني.

وقد كان بعضهم يلتزم مثل ذلك عند تلاوة آي من القرآن، حكى الله تعالى فيها مقال عِداه؛ ومن كفر بآياته، وافترى عليه الكذب؛ فكان يخفض بها صوته إعظامًا لربه، وإجلالاً له، وإشفاقًا من التشبه بمن كفر به.

الباب الثاني

الفصل الأول

في حكم سابه وشانئه ومتنقّصه ومؤذيه وعقوبته وذكر استتابته ووراثته

الأقوال والآراء في حكم من سب النبي ﷺ أو تنقصه

قد قدمنا ما هو سب وأذىً في حقه ﷺ، وذكرنا إجماع العلماء على قتل فاعل ذلك وقائله، أو تخيير الإمام في قتله أو صلبه على ما ذكرناه، وقررنا الحجج عليه.

وبعد فاعلم أن مشهور مذهب مالك وأصحابه، وقول السلف وجمهور العلماء قتله حدًا لا كفراً إن أظهر التوبة منه؛ ولهذا لا تقبل عندهم توبته، ولا تنفعه استقالته ولا فيئته كما قدمناه قبل، وحكمه حكم الزنديق، ومُسِرّ الكفر في هذا القول؛ وسواء كانت توبته على هذا بعد القدرة عليه والشهادة على قوله، أو جاء تائبًا من قبل نفسه؛ لأنه حد وجب لا تسقطه التوبة كسائر الحدود.

قال الشيخ أبو الحسن القابسيّ ـ رحمه الله ـ: إذا أقرَّ بالسبّ، وتاب منه، وأظهر التوبة ـ قتل بالسب؛ لأنه هو حدُّه.

وقال أبو محمد بن أبي زَيْد في مثله، وأما ما بينه وبين الله فتوبته تنفعه.

وقال ابن سحنون: من شتم النبي ﷺ من الموحدين، ثم تاب عن ذلك لم تزل توبته عنه القتل.

وكذلك لقد اختلف في الزنديق إذا جاء تائبًا؛ فحكى القاضي أبو الحسن بن القصار في ذلك قولين:

قال: من شيوخنا من قال: أَقْتُله بإقراره؛ لأنه كان يقدرُ على ستر نفسه، فلما اعترف خِفْنَا أنه خَشِيَ الظهور عليه فبادرَ لذلك.

ومنهم من قال: أقبل توبته؛ لأني أستدلُّ على صحتها بمجيئه؛ فكأننا وقفنا على باطنه، بخلاف من أَسَرته البيّنة.

قال القاضي أبو الفضل: وهذا قول أصبغ، ومسألة ساب النبي ﷺ أقوى، لا يتصورُ فيها الخلاف على الأصل المتقدم؛ لأنه حق متعلق للنبي ﷺ ولأمته بسَببه لا تسقطُه التوبةُ كسائر حقوق الآدميين. والزنديق إذا تاب بعد القدرة عليه فعند مالك، والليث،

وإسحاق، وأحمد، لا تقبل توبته.

وعند الشافعي تقبل.

واختلف فيه عن أبي حنيفة وأبي يوسف.

وحكىٰ ابن المنذر، عن عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: يُستتابُ.

قال محمد بن سُحنون: ولم يزل القتل عن المسلم بالتوبة من سبه ﷺ؛ لأنه لم ينتقل من دين إلىٰ غيره، وإنما فعل شيئًا حده عندنا القتل لا عفو فيه لأحدٍ، كالزنديق؛ لأنه لم ينتقل من ظاهر إلىٰ ظاهر.

وقال القاضي أبو محمد بن نصر مُحْتجًا لسقوط اعتبار توبته: والفرق بينه وبين من سب الله تعالىٰ علىٰ مشهور القول باستتابته ـ أن النبي ﷺ بشر، والبشر جنس تلحقه المعرة إلا من أكرمه الله بنبوّته، والبارئ تعالىٰ مُنزهٌ عن جميع المعايب قطعًا، وليس من جنس تلحق المعرّةُ بجنسه، لا حق فيه لغيره من الآدميين؛ فقبلت توبته. ومن سب النبي ﷺ تعلق فيه حق لآدمي، فكان كالمرتد يقتل حين ارتداده أو يقذف؛ فإن توبته لا تسقط عنه حد القتل والقذف.

وأيضًا فإن توبة المرتد إذا قبلت لا تسقط ذنوبه من زنا وسرقة وغيرها، ولم يُقتل ساب النبي لكفره، لكن لمعنىٰ يرجع إلىٰ تعظيم حرمته وزوال المعرة به، وذلك تسقطه التوبة.

قال القاضي أبو الفضل: يريدُ ـ والله أعلم: لأن سبَّهُ لم يكن بكلمة تقتضي الكفر، ولكن بمعنىٰ الإزراء والاستخفاف؛ أو لأنَّ بتوبته وإظهار إنابته ارتفع عنه اسم الكفرِ ظاهرًا، و الله أعلم بسريرته، وبقىَ حُكمُ السبِّ عليه.

وقال أبو عمران القابسيّ: من سب النبي ﷺ، ثم ارتدّ عن الإسلام قُتِل ولم يُستَتَبْ؛ لأن السبَّ من حقوق الآدميين التي لا تسقط عن المرتد. وكلام شيوخنا هؤلاء مبنىٰ علىٰ القول بقتله؛ حدًا لا كفرًا؛ وهو يحتاج إلىٰ تفصيل.

وأما علىٰ رواية الوليد بن مسلم عن مالك ومن وافقه علىٰ ذلك ممن ذكرناه وقال به من أهل العلم ـ فقد صرَّحوا أنه ردَّةٌ؛ قالوا: ويُستتابُ منها؛ فإن تاب نُكل، وإن أبىٰ قُتلَ، فحكم له بحكم المرتد مطلقًا في هذا الوجه.

والوجه الأول أشهر وأظهر لما قدمناهُ، ونحن نبسطُ الكلام فيه؛ فنقول: من لم يره ردة فهو يوجب القتل فيه حدًا؛ وإنما نقول ذلك مع فصلين: إما مع إنكاره ما شهد به عليه؛

وإظهاره الإقلاعَ والتوبة عنه؛ فنقتلُه حداًّ لثباتِ كلمة الكفر عليه في حق النبي ﷺ، وتحقيره ما عظم الله من حقه؛ وأجرينا حكمه في ميراثه.

وغير ذلك حكم الزنديق إذا ظهر عليه وأنكر أو تاب.

فإن قيل: فكيف تثبتون عليه الكفر، ويُشهدُ عليه بكلمة الكفر ولا تحكمون عليه بحكمه من الاستتابة وتوابعها!

قلنا: نحن وإن أثبتنا له حكم الكافر فلا نقطع عليه بذلك؛ لإقراره بالتوحيد والنبوّة، وإنكاره ما شهد به عليه، أو زعمه أن ذلك كان منه وهلاً ومعصية، وأنه مُقلعٌ عن ذلك نادم عليه، ولا يمتنع إثبات بعض أحكام الكفر على بعض الأشخاص وإن لم تثبت له خصائصه؛ كقتل تارك الصلاة. وأما من علم أنه سبه معتقداً استحلاله فلا شك في كفره بذلك. وكذلك إن كان سبه في نفسه كفر، كتكذيبه أو تكفيره ونحوه، فهذا مما لا إشكال فيه، ويقتل وإن تاب منه؛ لأننا لا نقبل توبته، ونقتله بعد التوبة حداً؛ لقوله، ومتقدّم كُفْره؛ وأمره بعد إلى الله المطلع على صحة إقلاعه، العالم بسره.

وكذلك من لم يظهر التوبة، واعترف بما شهد به عليه، وصمم عليه - فهذا كافر بقوله وباستحلاله هتك حرمة الله وحرمة نبيه ﷺ يُقتل كافراً بلا خلاف.

فعلى هذه التفصيلات خذ كلام العلماء ونزل مختلف عباراتهم في الاحتجاج عليها، وأجر اختلافهم في الموارثة وغيرها على ترتيبها تتضحُ لك مقاصدهم إن شاء الله تعالى.

الفصل الثاني

حكم المرتد إذا تاب

إذا قلنا بالاستتابة حيث تصح فالاختلاف فيها على الاختلاف في توبة المرتد؛ إذ لا فرق.

وقد اختلف السلف في وجوبها وصورتها ومدتها؛ فذهب جمهور أهل العلم إلى أن المرتد يُستتابُ.

وحكى ابن القصار أنه إجماع من الصحابة على تصويب قول عمر في الاستتابة، ولم ينكره واحد منهم؛ وهو قول عثمان، وعليّ، وابن مسعود؛ وبه قال عطاء بن أبي رَباح، والنخعي، والثوري، ومالك، وأصحابه، والأوزاعي، والشافعي، وأحمد، وإسحاق،

وأصحاب الرأي.

وذهب طاوسُ، محمد بن الحسن، وعبيد بن عمير، والحسن في إحدىٰ الروايتين عنه ـ أنه لا يُستتاب؛ وقاله عبد العزيز بن أبي سلمة، وذكره عن معاذ؛ وأنكره سُحنُون عن مُعاذ؛ وحكاه الطحاوي عن أبي يوسف؛ وهو قول أهل الظاهر؛ قالوا: وتنفعه توبته عند الله؛ ولكن لا ندرأ القتل عنه؛ لقولهﷺ ، «من بدَّل دينَه فاقْتُلوه»(١).

وحُكي أيضًا عن عطاء: إن كان ممنْ ولدَ في الإسلام لم يُستتب، ويُستتاب الإسلامي.

وجمهور العلماء علىٰ أن المرتد والمرتدة في ذلك سواء.

وروي عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: لا تُقتل المرتدة، وتُسترق؛ وقاله عطاء، وقتادة.

وروي عن ابن عباس: لا تُقتل النساء في الردة؛ وبه قال أبو حنيفة.

قال مالك: والحرُّ والعبدُ والذكر والأنثىٰ في ذلك سواء.

وأما مُدتها فمذهب الجمهور، وروي عن عمر، أنه يُستتاب ثلاثة أيام يُحبس فيها؛ وقد اختلف فيه عن عمر؛ وهو أحد قولي الشافعي، وقول أحمد، وإسحاق، واستحسنه مالك؛ وقال: لا يأتي الاستظهار إلا بخير، وليس عليه جماعة الناس.

قال الشيخ أبو محمد بن أبي زَيْد: يريد في الاستِيْناء ثلاثًا.

وقال مالك أيضًا: آخذ به في المرتد قول عمر: يُحبس ثلاثة أيام، ويعرض عليه كل يوم؛ فإن تاب وإلا قتل.

وقال أبو الحسن بن القصار في تأخيره ثلاثًا روايتان عن مالك: هل ذلك واجب أو مستحب؟ واستحسن الاستتابة والاستيناء ثلاثًا أصحاب الرأي.

وروي عن أبي بكر الصديق أنه استتاب امرأة فلم تتب فقتلها؛ وقاله الشافعي مرة، فقال: إن لم يتب قتل مكانه. واستحسنه المزني.

وقال الزهري: يدعىٰ إلىٰ الإسلام ثلاث مرات، فإن أبىٰ قتل.

وروي عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ: يستتاب شهرين.

وقال النخعي: يُستتاب أبدًا، وبه أخذ الثوري ما رجيت توبته. وحكىٰ ابن القصّار عن أبي حنيفة ـ أنه يستتاب ثلاث مرات في ثلاثة أيام أو ثلاث جمع كل يوم أو جمعة مرة.

وفي كتاب محمد، عن القاسم: يُدعىٰ المرتد إلىٰ الإسلام ثلاث مرات؛ فإن أبىٰ

(١) صحيح: تقدم تخريجه.

ضربت عنقه. واختُلف على هذا هل يُهددُ أو يُشدد عليه أيام الاستتابة ليتوب أم لا؟ فقال مالك: ما علمت في الاستتابة تجويعًا ولا تعطيشًا، ويؤتَى منه الطعام بما لا يضره.

وقال أصبغ: يخوفُ أيام الاستتابة بالقتل، ويعرضُ عليه الإسلامُ.

وفي كتاب أبي الحسن الطابثي: يوعظ في تلك الأيام، ويذكر بالجنة، ويخوف بالنار.

قال أصبغ: وأي المواضع حُبس فيها من السجون مع الناس أو وحده إذا استوثق منه سواءٌ، ويوقف ماله إذ خيف أن يُتلفَه على المسلمين، ويُطعم منه، ويُسقَى. وكذلك يُستتابُ كلما رجع وارتدّ أبدًا، وقد استتاب رسول الله ﷺ نَبهان الذي ارتد أربع مراتٍ أو خمسًا.

وقال ابنُ وَهب، عن مالك: يُستتاب أبدًا كلما رَجع؛ وهوقول الشافعي، وأحمد، وقاله ابن القاسم.

وقال إسحاق: يُقتل في الرابعة.

وقال أصحاب الرأي: إن لم يتبْ في الرابعة قتل دون استتابةٍ، وإن تاب ضُرب ضربًا وجيعًا، ولم يخرج من السجن حتى يظهر عليه خشوع التوبة.

قال ابن المنذر: ولا نعلم أحدًا أوجب على المرتد في المرة الأولى أدبًا إذا رجع. وهو على مذهب مالك والشافعي والكوفي.

الفصل الثالث

حكم المرتد إذا اشتبه ارتداده

هذا حكم من ثبت عليه ذلك بما يجب ثبوته من إقرار أو عدول لم يُدفع فيهم؛ فأما من لم تتم الشهادة عليه بما شهد عليه الواحد أو اللفيف من الناس؛ أو ثبت قوله لكن احتمل ولم يكن صريحًا. وكذلك إن تاب على القول بقبول توبته فهذا يدرأ عنه القتل، ويتسلط عليه اجتهاد الإمام بقدر شهرة حاله، وقوة الشهادة عليه، وضعفها، وكثرة السماع عنه، وصورة حاله، من التهمة في الدين والنبزِ بالسفه والمجون؛ فمن قوي أمره أذاقه من شديد النكال من التضييق في السجن، والشد في القيود إلى الغاية التي هي منتهى طاقته بما لا يمنعه القيام لضرورته، ولا يقعده عن صلاته، وهو حكم كل من وجب عليه القتل، لكن وقف عن قتله لمعنى أوجبه، وتربص به لإشكال وعائق ارتضاه أمره؛ وحالات الشدة في نكاله تختلف بحسب اختلاف حاله.

وقد روى الوليد عن مالك والأوزاعي أنها رِدة؛ فإذا تاب نُكل.

ولمالك في العتبية وكتاب محمد، من رواية أشهب: إذا تاب المرتد فلا عقوبة عليه. وقاله سحنون. وأفتى أبو عبد الله بن عتاب فيمن سب النبي ﷺ، فشهد عليه شاهدان عدل أحدهما ـ بالأدب الموجع والتنكيل والسجن الطويل حتى تظهر توبته.

وقال القابسي في مثل هذا: ومن كان أقصى أمره القتل فعاق عائق أشْكَل في القتل لم ينبغ أن يطلق من السجن؛ ويُستطال سجنه، ولو كان فيه من المدة ما عسى أن يقيم، ويحمل عليه من القيد ما يطيق. وقال في مثله ممن أشكل أمره: يشد في القيود شداً، ويضيق عليه في السجن حتى يُنظر فيما يجب عليه.

وقال في مسألة أخرى مثلها: ولا تهراق الدماء إلا بالأمر الواضح، وفي الأدب بالسوط والسجن نكالٌ للسفهاء، ويعاقب عقوبة شديدة؛ فأما إن لم يشهد عليه سوى شاهدين، وأثبت من عداوتهما أو حرجتهما ما أسقطهما عنه، ولم يسمع ذلك من غيرها فأمره أخف لسقوط الحكم عنه، وكأنه لم يشهد عليه، إلا أن يكون مما لا يليق به ذلك، ويكون الشاهدان من أهل التبريز فأسقطهما بعداوة؛ فهو وإن لم ينفذ الحكم عليه بشهادتهما فلا يدفع الظن صدقهما؛ وللحاكم هنا في تنكيله موضع اجتهاد. والله ولي الإرشاد.

الفصل الرابع

حكم الذمي في ذلك

هذا حكم المسلم، فأما الذمي إذا صرح بسبه أو عرض، أو استخف بقدره، أو وصفه بغير الوجه الذي كفر به ـ فلا خلاف عندنا في قتله إن لم يُسلم؛ لأنا لم نعط الذمة أو العهد على هذا؛ وهو قول عامة الفقهاء، إلا أبا حنيفة والثوري وأتباعهما من أهل الكوفة، فإنهم قالوا: لا يقتل، ما هو عليه من الشرك أعظم، ولكن يؤدب ويُعزر.

واستدل بعض شيوخنا على قتله بقوله تعالى: ﴿إِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢].

ويستدل عليه أيضاً بقتل النبي ﷺ لابن الأشرف وأشباهه؛ ولأنا لم نعاهدهم، ولم نُعطهم الذمة على هذا؛ ولا يجوز لنا أن نفعل ذلك معهم؛ فإذا أتوا ما لم يعطوا عليه العهد ولا الذمة فقد نقضوا ذمتهم، وصاروا كفاراً يقتلون لكفرهم.

وأيضًا فإن ذمتهم لا تسقط حدود الإسلام عنهم؛ من القطع في سرقة أموالهم، والقتل لمن قتلوه منهم، وإن كان ذلك حلالاً عندهم فكذلك سبهم للنبي ﷺ يقتلون به.

وأيضًا فإن ذمتهم لا تسقط حدود الإسلام عنهم؛ من القطع في سرقة أموالهم، والقتل لمن قتلوه منهم، وإن كان ذلك حلالاً عندهم فكذلك سبهم للنبي ﷺ يقتلون به.

ووردت لأصحابنا ظواهر تقتضي الخلاف إذا ذكره الذمي بالوجه الذي كفر به، ستقف عليها من كلام ابن القاسم وابن سحنون بعدُ.

وحكى أبو المصعب الخلاف فيها عن أصحابه المدنيين.

واختلفوا إذا سبه ثم أسلم؛ فقيل: يُسقط إسلامه قتله؛ لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله، بخلاف المسلم إذا سبه ثم تاب؛ لأنا نعلم باطنه الكافر في بغضه له، وتنقصه بقلبه؛ لكنا منعناه من إظهاره، فلم يزدنا ما أظهره إلا مخالفة للأمر، ونقضًا للعهد؛ فإذا رجع عن دينه الأول إلى الإسلام سقط ما قبله؛ قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

والمسلم بخلافه؛ إذ كان ظننا بباطنه حكم ظاهره، وخلاف ما بدا منه الآن؛ فلم نقبل بعد رجوعه، ولا استنمنا إلى باطنه؛ إذ قد بدت سرائره، وما ثبت عليه من الأحكام باقية عليه لا يسقطها شيء.

وقيل: لا يسقط إسلام الذمِّي الساب قتله؛ لأنه حق للنبي ﷺ وجب عليه؛ لانتهاكه حُرمته، وقصده إلحاق النقيصة والمعرة به؛ فلم يكن رجوعه إلى الإسلام بالذي يسقطه، كما وجب عليه من حقوق المسلمين من قبل إسلامه من قتل وقذف؛ وإذا كنا لا نقبل توبة المسلم فإنا لا نقبل توبة الكافر أولى.

وقال مالك في كتاب ابن حبيب، والمبسوط، وابن القاسم، وابن الماجشون، وابن عبد الحكم، وأصبغ - فيمن شتم نبينا من أهل الذمة أو أحدًا من الأنبياء عليهم السلام قتل إلا أن يُسلم؛ وقاله ابن القاسم في العتبية، وعند محمد، وابن سحنون.

وقال سحنون وأصبغ: لا يقال له أسلم، ولا لا تسلم تسلم؛ ولكن إن أسلم فذلك له توبة.

وفي كتاب محمد: أخبرنا أصحاب مالك أنه قال: من سب رسول الله ﷺ أو غيره من الأنبياء من مسلم أو كافر قتل ولم يُستتب.

وروى لنا عن مالك: إلا أن يُسلم الكافر.

وقد روىٰ ابن وهب، عن ابن عمر ـ أن راهبًا تناول النبي ﷺ فقال ابن عمر: فهلا قتلتموه!.

وروىٰ عيسىٰ عن ابن القاسم في ذِمِّيٍّ قال: إن محمد لم يرسل إلينا، إنما أرسل إليكم، وإنما نبينا موسىٰ أو عيسىٰ، ونحو هذا: لا شيء عليهم؛ لأن الله تعالىٰ أقرهم علىٰ مثله.

وأما إن سبَّه فقال: ليس بنبي، أو لم يرسل، أو لم ينزل عليه قرآن؛ وإنما هو شيءٌ تقوله أو نحوُ هذا فيُقتل.

وقال ابن القاسم: وإذا قال النصراني: ديننا خير من دينكم، وإنما دينكم دين الحمير، ونحو هذا من القبيح، أو سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله، فقال كذلك يعطيكم الله؛ ففي هذا الأدب الموجع والسجن الطويل.

وقال: وأما إن شتم النبي ﷺ شتمًا يُعرف فإنه يقتل إلا أن يسلم؛ قاله مالك غير مرة ولم يقل يُستتاب.

قال ابن القاسم: ومَحْمَلُ قوله عندي إن أسلم طائعًا.

وقال ابن سحنون في سؤالات سليمان بن سالم في اليهودي يقول للمؤذن، إذا تشهَّد: كذبت ـ يعاقب العقوبة الموجعة مع السجن الطويل.

وفي النوادر من رواية سحنون عنه: من شتم الأنبياء من اليهود والنصارىٰ بغير الوجه الذي به كفروا ضربت عنقه إلا أن يسلم.

قال محمد بن سحنون: فإن قيل: لم قتلته في سب النبي ﷺ ومن دينه سبه وتكذيبه؟ قيل: لأنا لم نعطهم العهد علىٰ ذلك، ولا علىٰ قتلنا، وأخذ أموالنا، فإذا قتل واحداً منا قتلناه، وإن كان من دينه استحلاله؛ فكذلك إظهاره لسب نبينا ﷺ.

قال سحنون: كما لو بذل لنا أهل الحرب الجزية علىٰ إقرارهم علىٰ سبه لم يجز لنا ذلك في قول قائل.

كذلك ينتقض عهد من سب منهم، ويحل لنا دمه؛ فكما لم يُحصن الإسلام من سبه من القتل كذلك لا تحصنه الذمة.

قال القاضي أبو الفضل: ما ذكره ابن سحنون عن نفسه وعن أبيه مخالف لقول ابن القاسم فيما خفف عقوبتهم فيه مما به كفروا؛ فتأمله.

ويدل علىٰ أنه خلاف ما روي عن المدنيين في ذلك؛ فحكىٰ أبو المصعب الزهري؛ قال: أتيتُ بنصراني قال: والذي اصطفىٰ عيسىٰ علىٰ محمد؛ فاختلف عليّ فيه، فضربته حتىٰ

قتلته، أو عاش يومًا وليلة، وأمرت من جر برجله، وطرح على مزبلة، فأكلته الكلاب.

وسئل أبو المصعب عن نصراني قال: عيسى خلق محمداً. فقال: يُقتل.

وقال ابن القاسم: سألنا مالكًا ـ عن نصراني بمصر شهد عليه أنه قال: مسكين محمد، يخبركم أنه في الجنة؛ ما له لم ينْفَعْ نفسه! إذ كانت الكلاب تأكل ساقيه، لو قتلوه استراح منه الناس.

قال مالك: أرى أن تُضرب عنقه.

قال: ولقد كدت ألا أتكلم فيها بشيء؛ ثم رأيت أنه لا يسعني الصمتُ.

قال ابن كنانة في المبسوطة: من شتم النبي ﷺ من اليهود والنصارى فأرى للإمام أن يحرقه بالنار، وإن شاء قتله ثم حرق جثته، وإن شاء أحرقه بالنار حيًا إذا تهافتوا في سبه.

ولقد كُتب إلى ملك من مِصرَ ـ وذكر مسألة ابن القاسم المتقدمة؛ قال: فأمرني مالك، فكتبت بأن يقتل، وأن يضرب عنقه؛ فكتبت، ثم قلت: يا أبا عبد الله؛ وأكتب: ثم يحرق بالنار؟ فقال: إنه لحقيق بذلك، وما أولاه به.

فكتبته بيدي بين يديه، فما أنكره ولا عابه، ونفذت الصحيفة بذلك فقتل وحرق.

وأفتى عبيد الله بن يحيى وابن لبابة في جماعة سلف أصحابنا الأندلسيين بقتل نصرانية استهلت بنفي الربوبية وبُنُوَّة عيسى لله، وبتكذيب محمد في النبوة. وبقبول إسلامها ودرأ القتل عنها به.

وبه قال غير واحد من المتأخرين منهم القابسي، وابن الكاتب.

وقال أبو القاسم بن الجلاب في كتابه؛ من سَبَّ الله ورسوله من مسلم أو كافر قتل ولا يُستتاب.

وحكى القاضي أبو محمد في الذمي يسب ـ روايتين في درء القتل عنه بإسلامه.

وقال ابن سحنون: وحد القذف وشبهه من حقوق العباد لا يسقطه عن الذمي إسلامه؛ وإنما يسقط عنه بإسلامه حدود الله.

فأما حد القذف فحق للعباد؛ كان ذلك لنبي أو غيره؛ فأوجب على الذمي إذ قذف النبي ﷺ ثم أسلم حد القذف.

ولكن انظر ماذا يجب عليه؟ هل حد القذف في حق النبي ﷺ، وهو القتل لزيادة حرمة النبي ﷺ على غيره، أم هل يسقط القتل بإسلامه، ويُحدُّ ثمانين، فتأمله.

الفصل الخامس

في ميراث من قُتل بسب النبي ﷺ وغسله والصلاة عليه

اختلف العلماء في ميراث من قتل بسب النبي ﷺ؛ فذهب سحنون إلى أنه لجماعة المسلمين من قبل أن شتم النبي ﷺ كفرٌ يشبه كفر الزندقة.

وقال أصبغ: ميراثه لورثته من المسلمين إن كان مُستسراً بذلك، وإن كان مظهراً له مستهلاً به فيمراثه للمسلمين، ويقتل على كل حال ولا يستتاب.

وقال أبو الحسن القابسي: إن قتل وهو منكر للشهادة عليه فالحكم في ميراثه على ما أظهر من إقراره ـ يعني لورثته؛ والقتل حد ثبت عليه ليس من الميراث في شيء.

وكذلك لو أقر بالسب وأظهر التوبة لقتل؛ إذ هو حدٌّ. وحكم في ميراثه، وسائر أحكامه حكم الإسلام.

ولو أقر بالسب وتمادى عليه، وأبى التوبة منه، فقتل على ذلك كان كافراً، وميراثه للمسلمين؛ ولا يغسل ولا يصلى عليه، ولا يكفن وتستر عورته ويوارى كما يفعل بالكفار.

وقول الشيخ أبي الحسن في المجاهر المتمادي بيِّنٌ لا يمكن الخلاف فيه؛ لأنه كافر مرتد غير تائب ولا مقلع.

وهو مثل قول أصبغ؛ وكذلك في كتاب ابن سحنون في الزنديق يتمادى على قوله.

ومثله لابن القاسم العُتْبِيّة لجماعة من أصحاب مالك في كتاب ابن حبيب فيمن أعلن كفره مثله.

قال ابن القاسم: وحكمه حكم المرتد لا يرثه ورثته من المسلمين ولا من أهل الدين الذي ارتدَّ إليه، ولا تجوز وصاياه ولا عتقه؛ وقاله أصبغ، قتل على ذلك أو مات عليه.

وقال أبو محمد بن أبي زيد: وإنما يختلف في ميراث الزنديق الذي يُستهل بالتوبة، فلا تقبل منه؛ فأما المنادي فلا خلاف أنه لا يورث.

وقال أبو محمد فيمن سب الله تعالى ثم مات ولم تُعدل عليه بينة، أو لم تقبل: إنه يصلى عليه.

وروىٰ أصبغ عن ابن القاسم كتاب ابن حبيب فيمن كذب رسول الله ﷺ، وأعلن دينا مما يفارق به الإسلام ـ أن ميراثه للمسلمين.

وقال بقول مالك: إن ميراث المرتد للمسلمين، ولا ترثه ورثته ـ ربيعة، والشافعي، وأبو ثور، وابن أبي ليلىٰ، واختلف فيه عن أحمد.

وقال عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، وابن مسعود، وابن المسيَّب، والحسن، والشعبي، وعمر بن عبد العزيز، والحكم، والأوزاعي، والليث، وإسحاق، وأبو حنيفة ـ ترثه ورثته من المسلمين.

وقيل ذلك فيما كسبه قبل ارتداده، وما يكسبه في الارتداد فللمسلمين.

قال القاضي أبو الفضل: وتفصيل أبي الحسن في باقي جوابه حسن بين، وهو علىٰ رأىٰ أصبغ، وخلاف قول سحنون؛ واختلافهما علىٰ قولي مالك في ميراث الزنديق؛ فمرة ورثه ورثته من المسلمين قامت عليه بذلك بينة فأنكرها، أو اعترف بذلك وأظهر التوبة.

وقال أصبغ، ومحمد بن مسلمة، وغير واحد من أصحابه، لأنه مظهر للإسلام بإنكاره أو توبته؛ وحكمُ المنافقين الذين كانوا علىٰ عهد رسول الله ﷺ.

وروىٰ ابنُ نافع عنه في العتبية، وكتاب محمد ـ إن ميراثه لجماعة المسلمين؛ لأن ماله تبع لدمه.

وقال به أيضًا جماعة من أصحابه؛ وقاله أشهب، والمغيرة، وعبد الملك، ومحمد، وسحنون.

وقال به أيضًا جماعة من أصحابه؛ وقاله أشهب، والمغيرة، وعبد الملك، ومحمد، وسحنون.

وذهب ابن القاسم في العتبيّة إلىٰ أنه اعترف بما شُهِد عليه به وتاب فقتل فلا يورث. وإن لم يُقرّ حتىٰ قتل أو مات وُرِّث.

قال: وكذلك كل من أسَرَّ كفرًا فإنهم يتوارثون بوارثة الإسلام.

وسئل أبو القاسم بن الكاتب عن النصراني يسبُّ النبي ﷺ. فيقتل؛ هل يرثه أهل دينه أم المسلمون؟

فأجاب بأنه للمسلمين ليس علىٰ جهة الميراث؛ لأنه لا توارث بين أهل ملتين، ولكن لأنه من فيئهم، لنقضه العهد، هذا معنىٰ قوله واختصاره.

الباب الثالث

الفصل الأول

في حكم من سب الله تعالى وملائكته وكتبه وأنبياءه وآل النبي ﷺ وأزواجه وصحبه

حكم سابِّ الله تعالى وحكم استتابته

لا خلاف أن سابَّ الله تعالى من المسلمين كافر حلال الدم. واختلف في استتابته؛ فقال ابن القاسم في المبسوط، وفي كتاب ابن سحنون، ومحمد، ورواه ابن القاسم عن مالك في كتاب إسحاق بن يحيى: من سب الله تعالى من المسلمين قتل ولم يستتب إلا أن يكون افتراء على الله بارتداده إلى دين دان به وأظهره فيستتابُ، وأن لم يظهره لم يستتب.

وقال في المبسوطة: مطرفٌ وعبد الملك مثله.

وقال المخزومي، ومحمد بن مسلمة، وابن أبي حازم: لا يقتل المسلم بالسب حتى يستتاب.

وكذلك اليهودي والنصراني، فإن تابوا قبل منهم، وإن لم يتوبوا قتلوا، ولابد من الاستتابة، وذلك كله كالردة، وهو الذي حكاه القاضي بن نصر عن المذهب.

وأفتى أبو محمد بن أبي زيد فيما حكى عنه رجل لعن رجلا ولعن الله؛ فقال: إنما أردت أن ألعن الشيطان فزلَّ لساني؛ فقال: يُقتل بظاهر كفره، ولا يقبل عذره.

وأما فيما بينَه وبين الله تعالى فمعذور.

واختلف فقهاءُ قرطبة في مسألة هارون بن حبيب أخي عبد الملك الفقيه، وكان ضيقَ الصدْر، كثير التبرُّم، وكان قد شُهد عليه بشهادات، منها أنه قال عند استقلاله منْ مرض: لقيت في مرضي هذا ما لو قتلت أبا بكر وعمر لم أستوجب هذا كله.

فأفتى إبراهيم بن حُسين بن خالد بقتله، وإن مُضمَّن قوله تجوير الله تعالى وتظلم منه؛ والتعريض فيه كالتصريح.

وأفتى أخوه عبد الملك بن حبيب، وإبراهيم بن حسين بن عاصم، وسعيد بن سليمان القاضي بطرح القتل عنه؛ إلا أن القاضي رأى عليه التثقيل في الحبس، والشدة في الأدب،

لاحتمال كلامه، وصرفه إلى التشكي؛ فوجه من قال في ساب الله بالاستتابة - إنه كفر وردة محضة لم يتعلق بها حق لغير الله، فأشبه قصد الكفر بغير سب الله، وإظهارَ الانتقال إلى دين آخر من الأديان المخالفة للإسلام.

ووجه ترك استتابته أنه لما ظهر منه ذلك بعد إظهار الإسلام قبل اتهمناه وظننا أن لسانه لم ينطبق به إلا وهو معتقد له؛ إذ لا يستأهل في هذا أحد؛ فحكم له بحكم الزنديق، ولم تقبل توبته، وإذا انتقل من دين إلى آخر، وأظهر السب بمعنى الارتداد فهذا قد أعلم أنه خلع ربقة الإسلام من عنقه، بخلاف الأول المتمسك به، وحُكم هذا حكم المرتد: يُستتاب على مشهور مذاهب أكثر أهل العلم؛ وهو مذهب مالك وأصحابه على ما بيناه قبل، وذكرناه الخلاف في فصُوله.

الفصل الثاني

حكم إضافة ما لا يليق به تعالى عن طريق الاجتهاد والخطأ

وأما من أضاف إلى الله تعالى ما لا يليق به ليس على طريق السب ولا الردة وقصد الكفر؛ ولكن على طريق التأويل والاجتهاد والخطأ المفضي إلى الهوى والبدعة؛ من تشبيه أو نعت بجارٍ أو نفي صفة كمال؛ فهذا مما اختلف السلف والخلف في تكفير قائله ومعتقده.

واختلف قولُ مالكَ وأصحابه في ذلك، ولم يختلفوا في قتالهم إذا تحيزوا فئة، وأنهم يُستتابون؛ فإن تابوا وإلا قتلوا. وإنما اختلفوا في المنفرد منهم، وأكثر قول مالك وأصحابه ترك القول بتكفيرهم، وترك قتلهم، والمبالغة في عقوبتهم؛ وإطالة سجنهم، حتى يظهر إقلاعهم، وتستبين توبتهم، كما فعل عمر - رضي الله عنه - بِصبيغ.

وهذا قول محمد بن المواز في الخوارج وعبد الملك بن الماجشون، وقول سحنون في جميع أهل الأهواء، وبه فسر قول مالك في الموطأ، وما رواه عن عمر بن عبد العزيز وجده وعمه، من قولهم في القدرية يُستتابون؛ فإن تابوا وإلا قتلوا.

وقال عيسى، عن ابن القاسم - في أهل الأهواء من الإباضية والقدرية وشبههم ممن خالف الجماعة من أهل البدع والتحريف، لتأويل كتاب الله: يُستتابون أظهروا ذلك أو أسروه. فإن تابوا وإلا قتلوا، وميراثهم لورثتهم.

وقال مثله أيضًا ابن القاسم في كتاب محمد في أهل القدر وغيرهم، قال: واستتابتهم

أن يقال لهم: اتركوا ما أنتم عليه.

ومثلُه له في المبسوط في الإباضية والقدرية وسائر أهل البدع؛ قال: وهم مسلمون؛ وإنما قُتلوا لرأيهم السوء، وبهذا عمل عمر بن عبد العزيز.

قال ابن القاسم: من قال: إن الله لم يكلم موسىٰ تكليمًا استتيب، فإن تاب وإلا قتل وابن حبيب وغيره من أصحابنا يرىٰ تكفيرهم أمثالهم من الخوارج والقدرية والمرجئة.

وقد روىٰ أيضًا عن سحنون مثله فيمن قال: ليس لله كلام، إنه كافر واختلفت الروايات عن مالك، فأطلق في رواية الشاميين: أبي مسهر ومروان بن محمد الطاطري الكفر عليهم، وقد شوور في زواج القدري، فقال: لا تزوجه؛ قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

ورُوىٰ عنه أيضًا؛ أهل الأهواء كلهم كفار.

وقال: من وصف شيئًا من ذات الله تعالىٰ؛ وأشار إلىٰ شيء من جسده يدٍ، أو سمع، أو بصر، قطع ذلك منه؛ لأنه شبه الله بنفسه.

وقال فيمن قال: القرآن مخلوق - كافر فاقتلوه.

وقال أيضًا - في رواية ابن نافع - يجلد، ويوجع ضربًا، ويحبس حتىٰ يتوب.

وقال روايةبشر بن بكر التنيسي عنه: يقتل ولا تقبل توبته.

قال القاضي أبو عبد الله البرنكاني، والقاضي أبو عبد الله التستري من أئمة العراقيين: جوابه مُختلف، يقتل المستبصر الداعية.

وعلىٰ هذا الخلاف اختلف قوله في إعادة الصلاة خلفهم.

وحكىٰ ابن المنذر، عن الشافعي: لا يستتاب القدري.

وأكثر أقوال السلف تكفيرهم؛ وممن قال به الليث، وابن عيينة وابن لهيعة؛ وروىٰ عنهم ذلك فيمن قال بخلق القرآن؛ وقاله ابن المبارك، والأودي، ووكيع، وحفص بن غياث، وأبو إسحاق الفزاري، وهشيم، وعلي بن عاصم في آخرين، وهو من قول أكثر المحدثين والفقهاء والمتكلمين فيهم وفي الخوارج والقدرية وأهل الأهواء المضلة وأصحاب البدع المتأولين؛ وهو قول أحمد بن حنبل؛ وكذلك قالوا في الواقعة والشاكة في هذا الأصول.

وممن روي عنه معنىٰ القول الآخر بترك تكفيرهم علي بن أبي طالب، وابن عمر، والحسن البصري؛ وهو رأي جماعة من ا لفقهاء والنظار والمتكلمين؛ واحتجوا بتوريث

الصحابة والتابعين ورثة أهل حَرُوراء، ومن عرف بالقدر ممن مات منهم، ودفنهم في مقابر المسلمين، وجرىٰ أحكام الإسلام عليهم.

قال إسماعيل القاضي: وإنما قال مالك في القدرية وسائر أهل البدع: يُستتابون؛ فإن تابوا وإلا قتلوا؛ لأن من الفساد في الأرض، كما قال في المحارب: إن رأىٰ الإمام قتله، وإن لم يقتل، قتله؛ وفساد المحارب إنما هو في الأموال ومصالح الدنيا، وإن كان قد يدخل أيضًا في أمر الدين من سبيل الحج والجهاد؛ وفساد أهل البدع معظمه على الدين؛ وقد يدخل في أمر الدنيا بما يلقون بين المسلمين من العداوة.

الفصل الثالث

في تحقيق القول في إكفار المتأوْلين

قد ذكرنا مذاهب السلف في إكفار أهل البدع والأهواء المتأولين ممن قال قولا يؤديه مساقة إلىٰ كفر، وهو إذا وقف عليه لا يقول بما يؤديه قوله إليه.

وعلىٰ اختلافهم اختلف الفقهاء والمتكلمون في ذلك؛ فمنهم من صوب التكفير الذي قال به الجمهور من السلف؛ ومنهم من أباه ولم ير إخراجهم من سواد المؤمنين؛ وهو قول أكثر الفقهاء المتكلمين؛ وقالوا: هم فساقٌ عصاةٌ ضلالٌ، ونوارثهم من المسلمين، ونحكم لهم بأحكامهم، ولهذا قال سحنون: لا إعادة علىٰ من صلىٰ خلفهم؛ قال: وهو قول جيمع أصحاب مالك كلهم: المغيرة، وابن كنانة، وأشهب؛ قال: لأنه مسلم؛ وذنبه لم يخرجه من الإسلام.

واضطرب آخرون في ذلك، ووقفوا عن القول بالتكفير وضده. واختلاف قولي مالك في ذلك، وتوقفه عن إعادة الصلاة خلفهم منه. وإلىٰ نحو من هذا ذهب القاضي أبو بكر إمام أهل التحقيق والحق؛ وقال: إنها من المعوصات؛ إذ القوم لم يصرحوا بالكفر؛ وإنما قالوا قولاً يؤدي إليه.

واضطرب قوله في المسألة علىٰ نحو اضطراب قول إمامه مالك بن أنس حتىٰ قال في بعض كلامه؛ إنهم علىٰ رأي من كفرهم بالتأويل لا تحل مناكحتهم ولا أكل ذبائحهم، ولا الصلاة علىٰ ميتهم.

ويختلف في موارثتهم علىٰ الخلاف في ميراث المرتد.

وقال أيضًا: نورث ميتهم ورثتهم من المسلمين، ولا نورثهم هم من المسلمين؛ وأكثر

ميله إلىٰ ترك التكفير بالمآل؛ وكذلك اضطرب فيه قول شيخه أبي الحسن الأشعري، وأكثر قوله ترك التكفير، وأن الكفر خصلة واحدة، وهو الجهل بوجود الباري تعالىٰ.

وقال مرة: من اعتقد أن الله جسم، أو المسيح، أو بعض من يلقاه في الطرق، فليس بعارف به وهو كافر.

ولمثل هذا ذهب أبو المعالي ـ رحمه الله ـ في أجوبته لأبي محمد عبد الحق، وكان سأله عن المسألة، واعتذر له بأن الغلط فيها يصعب، لأن إدخال كافر في الملة، أو إخراج مسلم عنها عظيم في الدين.

وقال غيرهما من المحققين: الذي يجب الاحتراز من التكفير في أهل التأويل، فإن استباحة الموحدين خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم واحد.

وقد قال ﷺ: فإذا قالوها ـ يعني الشهادة «**عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**»[1].

فالعصمة مقطوع بها من الشهادة، ولا ترتفع ويستباح خلافها إلا بقاطع، ولا قاطع من شرع ولا قياس عليه.

وألفاظ الأحاديث الواردة في الباب مُعرضة للتأويل؛ فما جاء منها في التصريح بكفر القدرية، وقوله: لا سهم لهم في الإسلام، وتسميته الرافضة بالشرك، وإطلاق اللعنة عليهم، وكذلك في الخوارج وغيرهم من أهل الأهواء، فقد يحتج بها من يقول بالتكفير، وقد يجيب الآخر عنها بأنه قد ورد في الحديث مثل هذه الألفاظ في غير الكفرة علىٰ طريق التغليظ، وكفر دون كفر، وإشراك دون إشراك.

وقد ورد مثله في الرياء وحقوق الوالدين، والزوج، والزور، وغير معصية.

وإذا كان محتملاً للأمرين فلا يقطع علىٰ أحدهما إلا بدليل قاطع.

وقوله في الخوارج: هم من شر البرية، وهذه صفة الكفار.

وقال: شر قبيل تحت أديم السماء، طوبىٰ لمن قتلهم أو قتلوه.

وقال: فإذا وجدتموهم فاقتلوهم قتل عاد.

فظاهر هذا الكفر لا سيما مع تشبيههم بعادٍ، فيحتج به من يرىٰ تكفيرهم، فيقول له

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢١).

الآخر: إنما ذلك من قتلهم لخروجهم على المسلمين وبغيهم عليهم، بدليل من الحديث نفسه: يقتلون أهل الإسلام؛ فقتلهم هاهنا حد لا كفر.

وذكر عاد تشبيه للقتل وحله لا للمقتول، وليس كل من حكم بقتله يحكم بكفره. ويعارضه بقول خالد في الحديث: دعني أضرب عنقه يا رسول الله. فقال: لعله يُصلي.

فإن احتجوا بقوله ﷺ: «يقرؤون القرآن لا يجاوزُ حناجرهم»(١) فأخبر أن الإيمان لم يدخل قلوبهم.

وكذلك قوله: «يمْرقُون من الدين مُرُوقَ السهمِ من الرمِيَّة»، ثم لا يعودون إليه حتى يعود السهم على فوقه(٢).

وبقوله: «سبق الفرثَ والدم»(٣) يدل على أنه لم يتعلق من الإسلام بشيء.

أجابه الآخرون: إن معنى لا يجاوز حناجرهم: لا يفهمون معانيه بقلوبهم، ولا تنشرح له صدورهم، ولا تعمل به جوارحهم، وعارضوهم بقوله، ويتمارى في الفوق. وهذا يقتضي التشكك في حاله.

واحتجوا بقول أبي سعيد الخدري في هذا الحديث: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج في هذه الأمة» - ولم يقل: من هذه؛ وتحرير أبي سعيد الرواية، وإتقانه اللفظ.

أجابهم الآخرون بأن العبارة بـ «في» لا تقتضي تصريحًا بكونهم من غير الأمة، بخلاف لفظة «من» التي هي للتعبيض. وكونهم من الأمة مع أنه قد روى عن أبي ذر، وعلي، وأبي أمامة وغيرهم في هذا الحديث: يخرج من أمتي، وسيكون من أمتي، وحروف المعاني مُشتركة؛ فلا تعويل على إخراجهم من الأمة بـ «في»، ولا على إدخالهم فيها بـ «من»؛ لكن أبا سعيد - رضي الله عنه - أجاد ما شاء في التنبيه الذي نبه عليه. وهذا مما يدل على سعة فقه الصحابة وتحقيقهم للمعاني واستنباطها من الألفاظ، وتحريرهم لها، وتوقيهم في الرواية هذه المذاهب المعروفة لأهل السنة.

ولغيرهم من الفرق فيها مقالات كثيرة مضطربة سخيفة؛ أقربها قول جهم، ومحمد بن شبيب: إن الكفر بالله الجهل به، لا يكفر أحد بغير ذلك.

(١، ٢) صحيح: أخرجه البخاري (٣٣٤٤، ٤٣٥١، ٥٠٥٨، ٧٤٣٢)، ومسلم (١٠٦٣، ١٠٦٤).
(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٣١٦٠، ٦١٦٣، ٦٩٣٣)، ومسلم (١٠٦٤).

وقال أبو الهذيل: إن كل متأول كان تأويله تشبيها لله بخلقه، وتجويراً له في فعله، وتكذيباً لخبره فهو كافر.

وكل من أثبت شيئًا قديمًا لا يقال له الله فهو كافر.

وقال بعض المتكلمين: إن كان ممن عرف الأصل وبنىٰ عليه، وكان فيما هو من أوصاف الله فهو كافر، وإن لم يكن من هذا الباب ففاسق، إلا أن يكون ممن لم يعرف الأصل فهو مخطىء غير كافر.

وذهب عبيد الله بن الحسن العنبري إلىٰ تصويب أقوال المجتهدين في أصول الدين فيما كان عرضة للتأويل، وفارق في ذلك فرق الأمة؛ إذا أجمعوا سواه علىٰ أن الحق في أصول الدين في واحدٍ، والمخطىء فيه آثم عاصٍ فاسق وإنما الخلاف في تكفيره.

وقد حكىٰ القاضي أبو بكر الباقِلاني مثل قول عبد الله عن داود الأصبهاني؛ قال: وحكىٰ قوم عنهما أنهما قالا ذلك في كل من علم الله سبحانه من حاله استفراغ الوسع في طلب الحق من أهل ملتنا أو من غيرهم.

وقال نحو هذا القول الجاحظ وثمامة، في أن كثيراً من العامة والنساء والبله ومقلدة النصارىٰ واليهود وغيرهم لا حجة لله عليهم؛ إذا لم تكن لهم طباع يمكن معها الاستدلال.

وقد نحا الغزالي قريبًا من هذا المنحىٰ في كتاب التفرقة.

وقائل هذا كله كافر بالإجماع علىٰ كفر من لم يكفر أحدًا من النصارىٰ واليهود وكل من فارق دين المسلمين، أو وقف في تكفيرهم، أو شك.

قال القاضي أبو بكر: لأن التوقيف والإجماع علىٰ كفرهم؛ فمن وقف في ذلك فقد كذّبَ النص، والتوقيف، أو شك فيه. والتكذيب أو الشك فيه لا يقع إلا من كافر.

الفصل الرابع

في بيان ما هو من المقالات كفر، وما يتوقف أو يختلف فيه، وما ليس بكفر

اعلم أن تحقيق هذا الفصل وكشف اللَّبس فيه مورده الشرع، ولا مجال للعقل فيه؛ والفصل البين في هذا أن كل مقالة صرحت بنفي الربوبية أو الوحدانية أو عبادة أحد غير الله، أو مع الله ـ فهو كفر، كمقالة الدهرية، وسائر فرق أصحاب الاثنين من الديصانية أو المانوية وأشباههم من الصابئين والنصارىٰ والمجوس، والذين أشركوا بعبادة الأوثان أو الملائكة، أو الشياطين، أو الشمس، أو النجوم أو النار أو حد ـ غير الله من ـ مشركي العرب، وأهل الهند والصين والسودان وغيرهم ممن لا يرجع إلىٰ كتاب.

وكذلك القرامطة وأصحاب الحلول والتناسخ من الباطنية والطيارة من الرافضة والجناحية والبيانية والغرابية.

وكذلك من اعترف بالإلهية لله ووحدانيته، ولكن اعتقد أنه غير حي أو غير قديم، وأنه مُحدث أو مصور، أو ادعىٰ له ولداً أو صاحبة أو والدا، أو أنه متولد من شيء، أو كائن عنه، أو أن معه في الأزل شيئًا قديمًا غيره؛ أو أن ثم صانعًا للعالم سواه، أو مدبراً غيره؛ فذلك كله كفر بإجماع المسلمين؛ كقول الإلهيين من الفلاسفة والمنجمين والطبائعيين. وكذلك من ادعىٰ مجالسة الله، والعُروج إليه ومكالمته، أو حلوله في أحد الأشخاص؛ كقول بعض المتصوفة والباطنية، والنصارىٰ، والقرامطة.

وكذلك نقطع علىٰ كفر من قال بقدم العالم، أو بقائه، أو شك في ذلك علىٰ مذهب بعض الفلاسفة والدهرية، أو قال بتناسخ الأرواح وانتقالها أبد الآباد في الأشخاص، وتعذيبها أو تنعيمها فيها بحسب زكائها وخبثها. وكذلك من اعترف بالإلهية والوحدانية، ولكنه جحد النبوة من أصلها عمومًا، أو نبوة نبينا ﷺ خصوصًا، أو أحد من الأنبياء الذين نص الله عليهم بعد علمه بذلك؛ فهو كافر بلا ريب؛ كالبراهمة، ومعظم اليهود والأروسية من النصارىٰ، والغرابية من الروافض الزاعمين أن عليًا كان المبعوث إليه جبريل، وكالمعطلة والقرامطة والإسماعيلية والعنبرية من الرافضة، وإن كان بعض هؤلاء قد أشركوا في كفر آخر مع من قبلهم.

وكذلك من دان بالوحدانية وصحة النبوة، ونبوة نبينا ﷺ، ولكن جوز علىٰ الأنبياء

الكذب في ما أتوا به، ادعىٰ في ذلك المصلحة بزعمه أو لم يدعها فهو كافر بإجماع؛ كالمتفلسفين، وبعض الباطنية، والروافض، وغلاة المتصوفة، وأصحاب الإباحة؛ فإن هؤلاء زعموا أن ظواهر الشرع، وأكثر ما جاءت به الرسل من الأخبار عما كان ويكون من أمور الآخرة والحشر والقيامة، والجنة والنار، ليس منها شيء علىٰ مقتضىٰ لفظها ومفهوم خطابها؛ وإنما خاطبوا بها الخلق علىٰ جهة المصلحة لهم؛ إذ لم يمكنهم التصريح لقصور أفهامهم؛ فمُضمنُ مقالاتهم إبطالُ الشرائع، وتعطيل الأوامر والنواهي، وتكذيب الرسل، والارتياب فيما أتوا به.

وكذلك من أضاف إلىٰ نبيا ﷺ تعمد الكذب فيما بلغه وأخبر به، أو شك في صدقه، أو سبه، أو قال: إنه لم يبلغ؛ أو استخف به، أو بأحد من الأنبياء، أو أزرىٰ عليهم، أو آذاهم، أو قتل نبيًا، أو حاربه، فهو كافر بإجماع.

وكذلك نكفر من ذهب مذهب بعض القدماء في أن كل جنس من الحيوان نذيرًا أو نبيًا من القردة والخنازير والدواب والدود. ويحتج بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]. إذ ذلك يؤدي إلىٰ أن يوصف أنبياء هذه الأجناس بصفاتهم المذمومة. وفيه من الإزْرَاءِ علىٰ هذا المنصب المنيف ما فيه، مع إجماع المسلمين علىٰ خلافه، وتكذيب قائله.

وكذلك نكفر من اعترف من الأصول الصحيحة بما تقدم، وبنبوة نبينا ﷺ؛ ولكن قال: كان أسود، أو مات قبل أن يلتحي، وليس الذي كان بمكة والحجاز، أو ليس بقرشي؛ لأن وصفه بغير صفاته المعلومة نفيٌ له وتكذيبٌ به.

وكذلك من ادَّعىٰ نبوة أحد من نبينا ﷺ أو بعد، كالعيسوية من اليهود القائلين بتخصيص رسالته إلىٰ العرب، وكالخرمية القائلين بتواتر الرسل، وكأكثر الرافضة القائلين بمشاركة عليّ في الرسالة للنبي ﷺ وبعده؛ وكذلك كل إمام عند هؤلاء يقوم مقامه في النبوة والحجة؛ وكالبزيعية والبيانية منهم القائلين بنبوة بزيع وبيان وأشباه هؤلاء. أو من ادعىٰ النبوة لنفسه، أو جوز اكتسابها والبلوغ بصفاء القلب إلىٰ مرتبتها؛ كالفلاسفة وغلاة المتصوفة.

وكذلك من ادعىٰ منهم أنه يوحىٰ إليه وإن لم يدع النبوة، أوأنه يصعد إلىٰ السماء ويدخل إلىٰ الجنة ويأكل من ثمارها، ويعانق الحور العين؛ فهؤلاء كلهم كفارٌ مكذبون للنبي ﷺ لأنه أخبر النبي ﷺ أنه خاتم النبيين، لا نبي بعده. وأخبر من الله تعالىٰ أنه خاتم النبيين، وأنه أرسل كافة للناس.

وأجمعت الأمة على حمل هذا الكلام على ظاهره، وأن مفهومه المراد منه دون تأويل ولا تخصيص؛ فلا شك في كفر هؤلاء الطوائف كلها قطعًا إجماعًا وسمعًا.

وكذلك وقع الإجماع على تكفير كل من دافع نص الكتاب، أو خص حديثًا مجمعًا على نقله مقطوعًا به، مجمعًا على حمله على ظاهره؛ كتكفير الخوارج بإبطال الرّجْم؛ ولهذا نكفر من دان بغير ملة المسلمين من الملل، أو وقف فيهم، أو شك، أو صحح مذهبهم، وإن أظهر مع ذلك الإسلام، واعتقده، واعتقد إبطال كل مذهب سواه؛ فهو كافرٌ بإظهاره ما أظهر من خلاف ذلك.

كذلك نقطع بتكفير كل قائل قال قولاً يتوصل به إلى تضليل الأمة وتكفير جميع الصحابة؛ كقول الكميلية من الرافضة بتكفير جميع الأمة بعد النبي ﷺ؛ إذ لم تقدم عليًا. وكفرت عليًا، إذ لم يتقدم ويطلب حقه في التقديم؛ فهؤلاء قد كفروا من وجوه، لأنهم أبطلوا الشريعة بأسرها؛ إذ قد انقطع نقلها ونقل القرآن؛ إذ ناقلوه كفرةٌ على زعمهم؛ وإلى هذا - والله أعلم - أشار مالك في أحد قوليه بقتل من كفر الصحابة.

ثم كفروا من وجه آخر بسبهم النبي ﷺ على مقتضى قولهم وزعمهم أنه عهد إلى عليّ - رضي الله عنه - وهو يعلم أنه يكفر بعده على قولهم، لعنة الله عليهم، وصلى الله على رسوله وآله.

وكذلك نُكَفِّر بكل فعل أجمع المسلمون أنه لا يصدرُ من كافر وإن كان صاحبه مصرحًا بالإسلام مع فعله ذلك الفعل؛ كالسجود للصنم، وللشمس والقمر، والصليب والنار، والسعي إلى الكنائس والبيع مع أهلها بزيهم: من شد الزنانير، وفحص الرؤوس؛ فقد أجمع المسلمون على أن هذا الفعل لا يوجد إلا من كافر، وأن هذه الأفعال علامة على الكفر وإن صرح فاعلها بالإسلام.

وكذلك أجمع المسلمون على تكفير كل من استحل القتل أو شرب الخمر أو الزنا مما حرم اله بعد علمه بتحريمه؛ كأصحاب الإباحة من القرامطة وبعض غلاة المتصوفة.

وكذلك نقطع بتكفير كل من كذب وأنكر قاعدة من قواعد الشرع، وما عرف يقينًا بالنقل المتواتر من فعل الرسول، ووقع الإجماع المتصل عليه؛ كمن أنكر وجوب الخمس الصلوات أو عدد ركعاتها وسجداتها؛ ويقول: إنما أوجب الله علينا في كتابه الصلاة على الجملة؛ وكونها خمسًا، وعلى هذه الصفات والشروط لا أعلمه؛ إذ لم يرد فيه في القرآن نص جلي، والخبر به عن ﷺ خبر واحد.

وكذلك أجمع المسلمون على تكفير من قال من الخوارج: إن الصلاة طرفي النهار؛ وعلى تكفير الباطنية في قولهم: إن الفرائض أسماء رجال أمروا بولايتهم، والخبائث والمحارم أسماء رجال أمروا بالبراءة منهم.

وقول بعض المتصوفة: إن العبادة وطول المجاهدة إذا صفت نفوسهم أفضت بهم إلى إسقاطها وإباحة كل شيء لهم، ورفع عهد الشرائع عنهم.

وكذلك إن أنكر منكر مكة، أو البيت، أو المسجد الحرام، أو صفة الحج، أو قال: الحج واجب في القرآن، واستقبال القبلة كذلك؛ ولكن كونه على هذه الهيئة المتعارفة، وأن تلك البقعة هي مكة والبيت والمسجد الحرام، لا أدري هي تلك أو غيرها؛ ولعل الناقلين أن النبي ﷺ فسرها بهذه التفاسير غلطوا ووهموا، فهذا ومثله لا مرية في تكفيره إن كان ممن يُظن به علم ذلك؛ وممن يخالط المسلمين، وامتدت صحبته لهم، إلا أن يكون حديث عهد بإسلام؛ فيقال له: سبيلك أن تسأل عن هذا الذي لم تعلمه بعد كافة المسلمين، فلا تجد بينهم خلافًا، كافة عن كافة، إلى معاصري الرسول ﷺ - أن هذه الأمور كما قيل لك، وأن تلك البقعة هي مكة والبيت الذي فيها هو الكعبة، والقبلة التي صلى لها الرسول ﷺ والمسلمون، وحجوا إليها، وطافوا بها؛ وأن تلك الأفعال هي صفة عبادة الحج، والمراد به، وهي التي فعلها النبي ﷺ والمسلمون، وأن صفات الصلاة المذكورة هي التي فعل النبي ﷺ، وشرح مراد الله بذلك، وأبان حدودها؛ فيقع لك العلم كما وقع لهم، ولا ترتاب بذلك، بعد، والمرتاب في ذلك أو المنكر بعد البحث وصحبة المسلمين كافر باتفاق، لا يعذر بقوله: لا أدري، ولا يصدق فيه، بل ظاهره التستر عن التكذيب، إذ لا يمكن أنه لا يدري.

وأيضًا فإنه إذا جوز على جميع الأمة الوهم والغلط فيما نقلوه من ذلك، وأجمعوا أنه قول الرسول وفعله وتفسير مراد الله - أدخل الاسترابة في جميع الشريعة؛ إذ هم الناقلون لها وللقرآن، وانحلت عرا الدين كرّة، ومن قال هذا كافر.

وكذلك من أنكر القرآن، أو حرفًا منه، أو غير شيئًا منه، أو زاد فيه، كفعل الباطنية والإسماعيلية، أو زعم أنه ليس بحجة للنبي ﷺ، أو ليس فيه حجة ولا معجزة؛ كقول هشام الفوطي، ومعمر الضمري: إنه لا يدل على الله، ولا حجة فيه لرسوله، ولا يدل على ثواب ولا عقاب، ولا حكم؛ ولا محالة في كفرهما بذلك القول.

وكذلك تكفيرهما بإنكارهما أن يكون في سائر معجزات النبي ﷺ حجة له، أو في خلق السموات والأرض دليل على الله، لمخالفتهم الإجماع والنقل المتواتر عن النبي ﷺ

باحتجاجه بهذا كله وتصريح القرآن به .

وكذلك من أنكر شيئًا مما نص القرآن - بعد علمه - أنه من القرآن الذي في أيدي الناس ومصاحف المسلمين، ولم يكن جاهلاً به، ولا قريب عهد بالإسلام، واحتج لإنكاره إما بأنه لم يصح النقل عنده، ولا بلغه العلم به؛ أو لتجويزه الوهم على ناقليه؛ فنكفره بالطريقين المتقدمين؛ لأنه مكذب للقرآن، مكذب للنبي ﷺ؛ لكنه تستر بدعواه.

وكذلك من أنكر الجنة أو النار، أو البعث أو الحساب أو القيامة فهو كافر بإجماع للنصّ عليه، وإجماع الأمة على صحة نقله متواترًا؛ وكذلك من اعترف بذلك، ولكنه قال: إن المراد بالجنة والنار، والحشر والنشر، والثواب والعقاب - معنى غير ظاهره، وإنها لذاتٌ ورحانية، ومعان باطنة؛ كقول النصارى والفلاسفة والباطنية وبعض المتصوفة، وزعمهم أن معنى القيامة الموت أو فناء محض، وانتقاض هيئة الأفلاك، وتحليل العالم؛ كقول بعض الفلاسفة.

وكذلك نقطع بتكفير غلاة الرافضة في قولهم: إن الأئمة أفضل من الأنبياء.

فأما من أنكر ما عرف بالتواتر من الأخبار والسير والبلاد التي لا ترجع إلى إبطال شريعة، ولا تفضي إلى إنكار قاعدة من الدين؛ كإنكار غزوة تبوك أو مؤتة، أو وجود أبي بكر وعمر، أو قتل عثمان، وخلافة عليّ، مما علم بالنقل ضرورة؛ وليس في إنكاره جحد شريعة؛ فلا سبيل إلى تكفيره بجحد ذلك، وإنكاره وقوع العلم له؛ إذ ليس في ذلك أكثر من المباهتة؛ كإنكار هشام وعباد وقعةَ الجمل، ومحاربة عليّ من خالفه.

فأما إن ضعف ذلك من أجل تهمة الناقلين، ووهم المسلمين أجمع، فنكفره بذلك لسريانه إلى إبطال الشريعة.

فأما من أنكر الإجماع المجرد الذي ليس طريقة النقل المتواتر عن الشارع فأكثر المتكلمين من الفقهاء والنظار في هذا الباب قالوا بتكفير كل من خالف الإجماع الصحيح الجامع لشروط الإجماع المتفق عليه عمومًا.

وحُجتهم قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]

وقوله ﷺ: «مَنْ خالف الجماعة قيدَ شبرٍ فقد خلع ربقةَ الإسلامِ من عنقه»(١).

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٨٦٣)، وأحمد (٤/ ١٣٠، ٢٠٢). وهو حديث جليل غزير الفوائد، وروي بألفاظ متقاربة عن عدة من الصحابة.

وحكوا الإجماع على تكفير من خالف الإجماع.

وذهب آخرون إلى الوقوف عن القطع بتكفير من خالف الإجماع الذي يختص بنقله العلماء.

وذهب آخرون إلى التوقف في تكفير من خالف الإجماع الكائن عن نظر؛ كتكفير النظام بإنكاره الإجماع؛ لأنه بقوله هذا مخالف إجماع السلف على احتجاجهم به، خارق للإجماع.

قال القاضي أبو بكر: القول عندي أن الكفر بالله هو الجهل بوجوده؛ والإيمان بالله هو العلم بوجوده، وأنه لا يكفر أحد بقولٍ ولا رأي إلا أن يكون هو الجهل بالله، فإن عصى بقول أو فعل نص الله ورسوله، أو أجمع المسلمون، أنه لا يوجد إلا من كافر، أو يقوم دليل على ذلك، فقد كفر، ليس لأجل قوله أو فعله، لكن لما يقارنه من الكفر، فالكفر بالله لا يكون إلا بأحد ثلاثة أمور: أحدها الجهل بالله تعالى. والثاني أن يأتي فعلاً أو يقول قولاً يخبر الله ورسوله، أو يجمع المسلمون، أن ذلك لا يكون إلا من كافر؛ كالسجود للصنم، والمشي إلى الكنائس بالتزام الزنار مع أصحابها في أعيادهم؛ أو أن يكون ذلك القول أو الفعل لا يمكن معه العلم بالله تعالى.

قال: فهذان الضربان وإن لم يكونا جهلاً بالله فهما علم أن فاعلها كافر منسلخ من الإيمان؛ فأما من نفى صفة من صفات الله تعالى الذاتية، أو جحدها مستبصراً في ذلك، كقوله: ليس بعالم ولا قادر ولا مريد ولا متُكلم، وشبه ذلك من صفات الكمال الواجبة له تعالى؛ فقد نص أئمتنا على الإجماع على كفر من نفى عنه تعالى الوصف بها، وأعراه عنها.

وعلى هذا حُمل ـ قول سحنون: من قال: ليس لله كلام، فهو كافر، وهو لا يكفر المتأولين كما قدمناه.

فأما من جهل صفة من هذه الصفات فاختلف العلماء هاهنا؛ فكفره بعضهم، وحكى ذلك عن أبي جعفر الطبري وغيره، وقال به أبو الحسن الأشعري مرة.

وذهبت طائفة إلى أن هذا لا يخرجه عن اسم الإيمان؛ وإليه رجع الأشعري؛ قال: لأنه لم يعتقد ذلك اعتقاداً يقطع بصوابه، ويراه ديناً وشرعاً وإنما نكفر من اعتقد أن مقاله حق.

واحتج هؤلاء بحديث السوداء، وأن النبي ﷺ إنما طلب منها التوحيد لا غير؛

وبحديث القائل: لئن قدر الله عليَّ ـ وفي رواية فيه: لعليّ أضل الله. ثم قال: فغفر الله له.

قالوا: ولو بُوحثَ أكثر الناس عن الصفات وكوشفوا عنها لما وجد من يعلمها إلا الأقل.

وقد أجاب الآخر عن هذا الحديث بوجوه؛ منها أن قدرَ بمعنى قدرَ، ولا يكون شكه في القدرة على إحيائه؛ بل في نفس البعث الذي لا يعلم إلا بشرع؛ ولعله لم يكن ورد عندهم به شرع يقطع عليه؛ فيكون الشك به حينئذٍ فيه كفراً.

فأما ما لم يرد به شرع فهو من مجوزات العقول؛ أو يكون قدر بمعنى ضيق، ويكون ما فعله بنفسه إزراء عليها وغضباً لعصيانها.

وقيل: قال ما قاله وهو غير عاقل لكلامه ولا ضابط للقطة مما استولى عليه من الجزع والخشية التي أذهبت لُبَّه فلم يؤاخذ به.

وقيل: كان هذا في زمن الفترة، وحيث ينفع مجرد التوحيد.

وقيل: بل هذا من مجاز كلام العرب الذي صورته الشك، ومعناه التحقيق؛ وهو يسمى تجاهل العارف؛ وله أمثله في كلامهم؛ كقوله تعالى: ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤] وقوله: ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤].

فأمّا من أثبت الوصف ونفى الصفة فقال: أقول عالم ولكن لا علم له، ومتكلم ولكن لا كلام له. وهكذا في سائر الصفات على مذهب المعتزلة فمن قال بالمال لما يؤديه إليه قوله، ويسوقه إليه مذهبه ـ كفره؛ لأنه إذا نفى العلم انتفى وصف عالم؛ إذ لا يوصف بعالم إلا من له علم؛ فكأنهم صرحوا عنده بما أدى إليه قولهم.

وهكذا عند هذا سائر فرق أهل التأويل من المشبهة والقدرية وغيرهم.

ومن لم ير أخذهم بمآل قولهم، ولا ألزمهم موجب مذهبهم، لم ير إكفارهم؛ قال: لأنهم إذا وقفوا على هذا قالوا: لا نقول ليس بعالم، ونحن ننتفي من القول بالمآل الذي ألزمتموه لنا، ونعتقد نحن وأنتم أنه كفرٌ؛ بل نقول: إن قولنا لا يؤُول إليه على ما أصلناهُ.

فعلى هذين المأخذين اختلف الناس في إكفار أهل التأويل؛ وإذا فهمته اتضح لك الموجب لاختلاف الناس في ذلك.

والصواب ترك إكفارهم والإعراض عن الحتم عليهم بالخسران وإجراء حكم الإسلام عليهم في قصاصهم ووراثاتهم، ومناكحاتهم، ودياتهم، والصلاة عليهم، ودفنهم في

مقابر المسلمين، وسائر معاملاتهم؛ لكنهم يغلظ عليهم بوجيع الأدب، وشديد الزجر والهجر، حتىٰ يرجعوا عن بدعتهم.

وهذه كانت سيرة الصدر الأول فيهم؛ فقد كان نشأ علىٰ زمان الصحابة وبعدهم في التابعين من قال بهذه الأقوال من القدر ورأىٰ الخوارج والاعتزال، فما أزاحوا لهم قبراً، ولا قعطوا لأحد منهم ميراثًا؛ لكنهم هجروهم وأدبُوهم بالضرب والنفي والقتل علىٰ قدر أحوالهم؛ لأنهم فساق ضلال عصاة أصحاب كبائر عند المحققين وأهل السنة ممن لم يقل بكفرهم منهم خلافًا لمن رأىٰ غير ذلك. والله الموفق للصواب.

قال القاضي أبو بكر: وأما مسائل الوعد والوعيد، والرؤية والمخلوق، وخلق الأفعال، وبقاء الأعراض، والتولد وشبهها من الدقائق فالمنع في إكفار المتأولين فيها أوضح؛ إذ ليس في الجهل بشيء منها جهل بالله تعالىٰ، ولا أجمع المسلمون علىٰ إكفار من جهل شيئًا منها.

وقد قدمنا في الفصل قبله من الكلام وصورة الخلاف في هذا ما أغنىٰ عن إعادته بحول الله تعالىٰ.

الفصل الخامس

حكم الذمي إذا سب الله تعالى

هذا حُكم المسلم الساب لله تعالىٰ. وأما الذمي فرُوي عن عبد الله بن عمر في ذمي تناول من حرمة الله تعالىٰ غير ما هو عليه من دينه، وحاج فيه، فخرج ابن عمر عليه بالسيف فطلبه فهرب.

وقال مالك في كتاب ابن حبيب والمبسوطة، وابن القاسم في المبسوط، وكتاب محمد وابن سحنون: من شتم الله من اليهود والنصارىٰ بغير الوجه الذي به كفروا قتل ولم يُستتبْ.

قال ابن القاسم: إلا أن يُسلم. قال في المبسوطة: طوعًا.

قال أصبغ: لأن الوجه الذي به كفروا هو دينهم، وعليه عُوهدوا من دعوىٰ الصاحبة والشريك والولد.

وأما غير هذا من الفرية والشتم فلم يُعاهدوا عليه؛ فهو نقضٌ للعهد.

قال ابن القاسم في كتاب محمد: ومن شتم من غير أهل الأديان الله تعالىٰ بغير الوجه الذي ذكر في كتابه قتل إلا أن يسلم.

وقال المخزومي في المبسوطة، ومحمد بن مسلمة، وابن أبي حازم: لا يقتل حتىٰ يُستتاب مسلمًا كان أو كافرًا، فإن تاب وإلا قتل.

وقال مطرف وعبد الملك مثل قول مالك.

وقال أبو محمد بن أبي زيد: من سب الله تعالىٰ بغير الوجه الذي به كفر قتل إلا أن يسلم.

وقد ذكرنا قول ابن الجلاب قبل، وذكرنا قول عبيد الله وابن لُبابة، وشيوخ الأندلسيين في النصرانية وفُتياهم بقتلها لسبها؛ بالوجه الذي كفرت به، لله والنبي، وإجماعهم علىٰ ذلك، وهو نحو القول الآخر فيمن سب النبي ﷺ منهم بالوجه الذي كفر به، ولا فرق في ذلك بين سب الله وسب نبيه، لأنا عاهدناهم علىٰ ألا يظهروا لنا شيئًا من كفرهم، وألا يسمعونا شيئًا من ذلك، فمتىٰ فعلوا شيئًا منه فهو نقض لعهدهم.

واختلف العلماء في الذمي إذا تزندق، فقال مالك، ومطرف، وابن عبد الحكم، وأصبغ: لا يُقتل، لأنه خرج من كفر إلىٰ كفر.

وقال عبد الملك بن الماجشون: يُقتل، لأنه دين لا يقر عليه أحد، ولا تؤخذ عليه جزية.

قال ابن حبيب: وما أعلم من قاله غيره.

الفصل السادس

حكم ادعاء الإلهية أو الكذب والبهتان على الله

هذا حكم من صرح بسبه وإضافة ما لا يليق بجلاله وإلاهيته؛ فأما مُفترىٰ الكذب عليه تبارك وتعالىٰ بادعاء إلاهية أو الرسالة أو النافي أن يكون الله خالقه أو ربه، أو قال: ليس رب، أو المتكلم بما لا يعقل من ذلك من سكره أو غمرة جنونه فلا خلاف في كفر قائل ذلك ومُدعيه مع سلامة عقله كما قدمناه، لكنه تقبل توبته علىٰ المشهور، وتنفعه إنابته، وتنجيه من القتل فيئته، لكنه لا يسلم من عظيم النكال، ولا يرفَّه عن شديد العقاب؛ ليكون ذلك زجراً لمثله عن قوله؛ وله عن العودة لفكره أو جهله، إلا من تكرر منه ذلك، وعرف استهانته بما أتىٰ به؛ فهو دليلٌ علىٰ سوء طويته، وكذب توبته، وصار كالزنديق

الذي لا نأمن باطنه، ونقب رجوعه. وحكم السكران في ذلك حكم الصاحي.

وأما المجنون والمعتوه فما علم أنه قاله من ذلك في حال غمرته وذهاب ميزه بالكلية فلا نظر فيه، وما فعله من ذلك في حال ميز وإن لم يكن معه عقله وسقط تكليفه أدب على ذلك لينزجر عنه، كما يؤدب على قبائح الأفعال، ويوالي أدبه على ذلك حتى ينكف عنه، كما تؤدب البهيمة على سوء الخلق حتى تُراض.

وقد حرق عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - من ادعى له الإلهية، وقد قتل عبد الملك بن مروان الحارث المتنبي وصلبه، وفعل ذلك غير واحد من الخلفاء والملوك بأشباههم.

وأجمع علماء وقتهم على صواب فعلهم، والمخالف في ذلك من كفرهم كافر.

وأجمع فقهاء بغداد أيام المقتدر من المالكية وقاضي قضاتها أبو عمر المالكي على قتل الحلاج وصلبه؛ لدعواهُ الإلهية، والقول بالحلول؛ وقوله: أنا الحق مع تمسكه في الظاهر بالشريعة، ولم يقبلوا توبته.

وكذلك حكموا في ابن أبي الغراقيد، وكان على نحو مذهب الحلاج بعد هذا أيام الراضي بالله، وقاضي بغداد يومئذ أبو الحُسين بن أبي عمر المالكي.

وقال ابن عبد الحكم في المبسوط: من تَنَبَّأَ قُتِل.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: من جحد أن الله تعالى خالقه أو ربه؛ أو قال: ليس لي رب، فهو مرتد.

وقال ابن القاسم في كتاب ابن حبيب، ومحمد في العتبية فيمن تنبأ يُستتاب أسر ذلك أو أعلنه؛ وهو كالمرتد.

وقاله سحنون وغيره، وقاله أشهب في يهودي تنبأ، وادعى أنه رسول إلينا إن كان مُعلن بذلك استتيب، فإن تاب وإلا قتل.

وقال أبو محمد بن أبي زيد فيمن لعن بارئه، وادعى أن لسانه زل وإنما أراد لعن الشيطان - يُقتل بكفره، ولا يقبل عذره.

وهذا على القول الآخر من أنه لا تُقبل توبته.

وقال أبو الحسن القابسي في سكران؛ قال: أنا الله، أنا الله، إن تاب أُدبَ، فإن عاد إلى مثل قوله طولب مطالبة الزنديق؛ لأن هذا كفر المتلاعبين.

الفصل السابع

حكم من تعرض بساقط قوله وسخيف لفظه بجلال ربه دون قصد

وأما من تكلم من سقط القول وسخف اللفظ ممن لم يضبط كلامه وأهمل لسانه بما يقتضي الاستخفاف بعظمة ربه وجلالة مولاه؛ أو تمثل في بعض الأشياء ببعض ما عظم الله من ملكوته، أو نزع من الكلام لمخلوق بما لا يليق إلا في حق خالقه غير قاصد للكفر والاستخفاف، ولا عامد للإلحاد، فإن تكرر هذا منه، وعرف به، دل على تلاعبه بدينه، واستخفافه بحرمة ربه، وجهله بعظيم عزته وكبريائه. وهذا كفر لا مرية فيه.

وكذلك إن كان ما أورده يوجب الاستخفاف والتنقص لربه. و

قد أفتى ابن حبيب وأصبغ بن خليل من فقهاء قرطبة بقتل المعروف بابن أخي عجب، وكان خرج يومًا، فأخذه المطر، فقال: بدأ الخرّزُ يرش جلودَه.

وكان بعض الفقهاء بها: أبو زيد صاحب الثُّمانية، وعبد الأعلى بن وهب، أبان بن عيسى، قد توقفوا عن سفك دمه، وأشاروا إلى أنه عبث من القول يكفي فيه الأدب.

وأفتى بمثله القاضي حينئذ موسى بن زياد؛ فقال ابن حبيب: دمه في عنقي، أيشتمُ ربًا عبدناه، ثم لا ننتصر له، إنا إذًا لعبيدُ سوءٍ، وما نحن له بعابدين؛ وبكى، ورفع المجلس إلى الأمير بها عبد الرحمن بن الحكم الأموي.

وكانت عجبُ عمةَ هذا المطلوب من حظاياه، وأُعلم باختلاف الفقهاء، فخرج الإذنُ من عنده بالأخذ بقول ابن حبيب وصاحبه؛ وأمر بقتله، فقتل وصلب بحضرة الفقيهين، وعزل القاضي لتهمته بالمداهنة في هذه القصة، ووبخ بقية الفقهاء وسبهم.

وأما من صدرت عنه من ذلك الهنة الواحدة والفلتة الشاردة، ما لم تكن تنقصًا وإزراءً- فيعاقب عليها ويؤدب بقدر مقتضاها وشنعة معناها، وصورة حال قائلها، وشرح سببها ومقارنها.

وقد سئل ابنُ القاسم- رحمه الله- عن رجل نادى رجلا باسمه، فأجابه: لبيك، اللهم لبيك.

قال: إن كان جاهلاً، أو قاله على وجه سفه فلا شيء عليه.

قال القاضي أبو الفضل: وشرحُ قوله أنه لا قتل عليه، والجاهل يُزجر ويُعلم، والسفيه يؤدب، ولو قالها على اعتقاد إنزاله منزلة ربه لكفر.

هذا متقضى قوله.

وقد أسرف كثير من سُخفاء الشعراء ومتهميهم في هذا الباب، واستخفوا عظيم هذه الحرمة، فأتوا من ذلك بما نُنزه كتابنا ولساننا وأقلامنا عن ذكره، ولولا أنا قصدنا نص مسائل حكيناها ما ذكرنا شيئًا مما يثقل ذكره علينا مما حكيناه في هذه الفصول.

فأما ما ورد في هذا من أهل الجهالة وأغاليط اللسان؛ كقول بعض الأعراب:

ربَّ العباد ما لنا ومالكا قد كنت تسقينا فما بدا لكا

أنزلْ علينا الغيث لا أبالكا

وفي أشباه لهذا من كلام الجهال.

ومن لم يقومه ثقافُ تأديب الشريعة والعلم في هذا الباب؛ فقل ما يصدرُ إلا من جاهل يجب تعليمه وزجره والإغلاظُ له عن العودة إلى مثله.

قال أبو سليمان الخطابي: وهذا تهور من القول، والله منزه عن هذه الأمور.

وقد روينا عن عون بن عبد الله أنه قال: ليعظم أحدكم ربه أن يذكر اسمه في كل شيء حتى يقول: أخزى الله الكلبَ، وفعل به كذا وكذا.

قال: وكان بعض من أدركنا من مشايخنا قل ما يذكر اسم الله تعالى إلا في ما يتصل بطاعته. وكان يقول للإنسان: جُزِيتَ خيراً. وقل ما يقول: جزاك الله خيراً؛ إعظامًا لاسمه تعالى أن يُمتهن في غير قربة.

وحدثنا الثقة أن الإمام أبا بكر الشاشي كان يعيب على أهل الكلام كثرة خوضهم فيه تعالى وفي ذكر صفاته؛ إجلالاً لاسمه تعالى، ويقول: هؤلاء يتَمندَلون بالله عز وجل.

وينزل الكلام في هذا الباب تنزيله في باب ساب النبي ﷺ على الوجوه التي فصلناها. والله الموفق.

الفصل الثامن

حكم سبِّ بقية الأنبياء والملائكة

وحكم من سبَّ سائر أنبياء الله تعالىٰ وملائكته، واستخف بهم أو كذبهم فيما أتوا به، أو أنكرهم وجحدهم، حكم نبينا ﷺ علىٰ مساق ما قدمناه؛ قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

وقال تعالىٰ: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

قال مالك في كتاب ابن حبيب، ومحمد، وقال ابن القاسم وابن الماجشون وابن عبد الحكم وأصبغ وسحنون فيمن شتم الأنبياء أو أحداً منهم أو تنقصه قتل ولم يستتب. ومن سبهم من أهل الذمة قتل إلا أن يُسلم.

وروىٰ سحنون عن ابن القاسم: من سب الأنبياء من اليهود والنصارىٰ بغير الوجه تقدم به كفر ضرب عنقه إلا أن يُسلم.

وقد تقدم الخلاف في هذا الأصل.

وقال القاضي بقرطبة سعيد بن سليمان في بعض أجوبته: من سب الله وملائكته قُتل.

وقال سحنون: من شتم ملكاً من الملائكة فعليه القتل.

وفي النوادر عن مالك فيمن قال: إن جبريل أخطأ بالوحي، وإنما كان النبي عليّ بن أبي طالب استتيب، فإن تاب وإلا قتل.

ونحوه عن سحنون. وهذا قول الغرابية من الروافض؛ سموا بذلك لقولهم: كان النبي ﷺ أشبه بعليّ من الغراب بالغراب.

وقال أبو حنيفة وأصحابه على أصلهم: من كذب بأحد من الأنبياء، أو تنقص أحداً

منهم، أو برئ منه فهو مرتد.

وقال أبو الحسن القابسي في الذي قال لآخر، كأنه وجه مالك الغضبان، لو عرف أنه قصد ذم الملك قتل.

قال القاضي أبو الفضل: وهذ كله فيمن تكلم فيهم بما قلناه على جملة الملائكة والنبيين، أو على معين ممن حققنا كونه من الملائكة والنبيين ممن نص الله عليه في كتابه، أو حققنا علمه بالخبر المتواتر، والمشتهر المتفق عليه بالإجماع القاطع؛ كجبريل وميكائيل، ومالك، وخزنة الجنة، وجهنم، والزبانية، وحملة العرش المذكورين في القرآن من الملائكة، ومن سُمى فيه الأنبياء، وكعزرائيل، وإسرافيل، ورضوان، والحفظة، ومنكر ونكير من الملائكة المتفق على قول الخبر بهما؛ فأما من لم تثبت الأخبار بتعيُّنِه، ولا وقع الإجماعُ على كونه من الملائكة أو الأنبياء؛ كهاروت وماروت في الملائكة، والخضر، ولقمان، وذي القرنين، ومريم، وآسية، وخالد بن سنان المذكور أنه نبي أهل الرس، وزرادشت الذي يدعي المجوس المؤرخون نبوته، فليس الحكم في سابهم والكافر بهم كالحكم فيمن قدمناه إذ لم تثبت لهم تلك الحُرمة، ولكن يُزجر من تنقصهم وآذاهم، ويؤدب بقدر حال المقول فيهم، لا سيما من عرفت صديقيته وفضله منهم؛ وإن لم تثبت نبوته.

وأما إنكار نبوتهم أو كون الآخر من الملائكة فإن كان المتكلم في ذلك من أهل العلم فلا حرج لاختلاف العلماء في ذلك؛

وإن كان من عوام الناس زجر عن الخوض في مثل هذا؛ فإن عاد أُدبَ؛ إذ ليس لهم الكلام في مثل هذا.

وقد كره السلف الكلام في مثل هذا مما ليس تحته عملٌ لأهل العلمِ، فكيف للعامة.

الفصل التاسع

الحكم بالنسبة للقرآن

اعلم أن من استخف بالقرآن أو المصحف أو بشيء منه، أو سبهما، أو جحده، أو حرفًا من أو آية، أو كذب به أو بشيء منه، أو كذب بشيء مما صرح به فيه من حكم أو خبر؛ أو أثبت ما نفاه أو نفى ما أثبته على علم منه بذلك، أو شك في شيء من ذلك فهو كافر عند أهل العلم بإجماع، قال الله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

حدثنا الفقيه أبو الوليد هشام بن أحمد - رحمه الله -، حدثنا أبو عليّ، حدثنا ابن عبد البر، حدثنا ابن عبد المؤمن، حدثنا ابن داسة، حدثنا أبو داود، حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «المراءُ في القرآن كفر»(١)؛ تؤول بمعنى الشك وبمعنى الجدال.

وعن ابن عباس، عن النبي ﷺ: «مَنْ جَحَدَ آيةً من كتاب الله من المسلمين فقد حلَّ ضربُ عُنُقه»(٢) وكذلك إن جحد التوراة والإنجيل وكتب الله المنزلة، أو كفر بها، أو لعنها، أو سبها أو استخف بها فهو كافرٌ.

وقد أجمع المسلمون أن القرآن المتلو في جميع أقطار الأرض المكتوب في المصحف بأيدي المسلمين، مما جمعه الدَّفَّتَانِ من أول: الحمد لله رب العالمين إلى آخر قل أعوذُ برب الناس - أنه كلام الله ووحيه المنزل على نبيه محمد ﷺ؛ وأن جميع ما فيه حق، وأن من نقص منه حرفًا قاصدًا لذلك، أو بدله بحرف آخر مكانه، أو زاد فيه حرفًا مما لم يشتمل عليه المصحف الذي وقع الإجماع عليه، وأجمع على أنه ليس من القرآن عامدًا لكل هذا - أنه كافر.

ولهذا رأى مالك قتل من سب عائشة - رضي الله عنها - بالفرية؛ لأنه خالف القرآن؛

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٦٠٣)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٣)، وأحمد (٢/ ٣٠٠)، وانظر علل ابن أبي حاتم (١٧١٤)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٦٦٨٧).

(٢) ضعيف: أخرجه ابن ماجه (٢٥٣٩)، وابن عدي في الكامل (٢/ ٣٨٦)، وضعف إسناده البوصيري في مصباح الزجاجة (٢٠٩).

ومن خالف القرآن قتل؛ لأنه كذب بما فيه.

وقال ابن القاسم: من قال إن الله تعالىٰ لم يكلم موسىٰ تكليمًا يُقتل؛ وقاله عبد الرحمن بن مهدي.

وقال محمد بن سحنون فيمن قال: المعوذتان ليستا من كتاب الله يُضرب عنقه إلا أن يتوب.

وكذلك لكل من كذب بحرف منه. قال: وكذلك إن شهد شاهدٌ علىٰ من قال: إن الله لم يكلم موسىٰ تكليمًا؛ وشهد آخر عليه أنه قال: إن الله ما اتخذ إبراهيم خليلاً؛ لأنهما اجتمعا علىٰ أنه كذب النبي ﷺ.

وقال أبو عثمان بن الحداد: جميع من ينتحلُ التوحيد متفقون أن الجحد لحرف من التنزيل كفر.

وكان أبو العالية إذا قرأ عنده رجل لم يقل له ليس كما قرأت، ويقول: أما أنا فأقرأ كذا، فبلغ ذلك إبراهيم؛ فقال: أراه سمع أنه من كفر بحرف منه فقد كفر به كله.

وقال أصبغ بن الفرَج: من كذب ببعض القرآن فقد كذبَ به كلّه، ومن كذّب به فقد كفر به، ومن كفر به فقد كفر بالله.

وقد سئل القابسيُّ عمن خاصم يهوديًا فحلف له بالتوراة، فقال الآخر: لعن الله التوراة؛ فشهد عليه بذلك شاهد؛ ثم شهد آخر أنه سأله عن القضية فقال: إنما لعنت توراة اليهود؛ فقال أبو الحسن: الشاهد الواحدُ لا يوجب القتل، والثاني علق الأمر بصفة تحتمل التأويل؛ إذ لعله لا يرىٰ اليهود متمسكين بشيء من عند الله لتبديلهم وتحريفهم.

ولو اتفق الشاهدان علىٰ لعن التوراةِ مجرداً لضاق التأويل.

وقد اتفق فقهاء بغداد علىٰ استتابة ابن شنّبوذ المُقرئ أحد أئمة المقرئين المتصدرين بها مع ابن مجاهد؛ لقراءته وإقرائه بشواذ من الحروف مما ليس في المصْحف، وعقدوا عليه بالرجوع عنه والتوبة عنه سجلاً أشهد فيه بذلك علىٰ نفسه في مجلس الوزير أبي علىٰ بن مقلة سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة؛ وكان فيمن أفتىٰ عليه بذلك أبو بكر الأبهري وغيره.

وأفتىٰ أبو محمد بن أبي زيد بالأدب فيمن قال الصبي: لعن الله مُعلمك وما علمك. وقال: أردت سوء الأدب، ولم أُرِد القرآن.

قال أبو محمد: وأما من لعن المصحف فإنه يقتل.

الفصل العاشر

الحكم في سب آل البيت والأزواج والأصحاب

وسب آل بيته وأزواجه وأصحابه ﷺ وتنقصهم حرام ملعون فاعله.

حدثنا القاضي الشهيد أبو عليّ ـ رحمه الله، حدثنا أبو الحسين الصيرفي، وأبو الفضل العدل، حدثنا أبو يعلىٰ حدثنا أبو عليّ السنجيّ، حدثنا ابنُ محبوب، حدثنا الترمذي، حدثنا محمد بن يحيىٰ، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا عبيدة بن أبي رابطة، عن عبد الرحمن بن زياد، عن عبد الله بن مُغفل؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الله، الله في أصحابي، لا تتخذوهم غَرضًا بعدي؛ فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه**»[1].

وقال رسول الله ﷺ: «**لا تسبُّوا أصحابي، فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً**»[2].

وقال ﷺ: «**لا تسبُّوا أصحابي، فإنه يجيء قومٌ في آخر الزمان يسبونَ أصحابي فلا تصلُّوا عليهم، ولا تُصلُّو معهم، ولا تناكحوهم، ولا تجالسوهم، وإن مرضوا فلا تَعُودهم**»[3].

وعنه ﷺ: «**منْ سب أصحابي فاضربوه**»[4].

وقد أعلم النبي ﷺ أن سبَّهم وأذاهم يُؤذيه؛ وأذىٰ النبي ﷺ حرامٌ؛ فقال: «**لا تؤذوني في أصحابي، ومن آذاهم فقد آذاني**».

وقال: «**لا تؤذوني في عائشة**».

وقال في فاطمة: «**بضْعَة مني يؤذيني ما آذاها**»[5].

وقد اختلف العلماء في هذا؛ فمشهور مذهب مالك في ذلك الاجتهاد والأدب

---

(١) ضعيف: تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) صحيح: أخرجه البخاري (٣٧١٤، ٣٧٢٩، ٣٧٦٧، ٥٢٣٠)، ومسلم (٢٤٤٩).

الموجع؟ قال مالك ـ رحمه الله ـ: من شتم النبي ﷺ قتل، ومن شتم أصحابه أُدب. وقال أيضًا: من شتم أحدًا من أصحاب النبي ﷺ: أبا بكر، أو عمر، أو عثمان، أو معاوية، أو عمرو بن العاص؛ فإن قال: كانوا على ضلال وكفر قُتل؛ وإن شتمهم بغير هذا من مُشاتمة الناس نُكل نكالاً شديداً.

وقال ابن حبيب: من غلا من الشيعة إلى بُغض عثمان والبراءة منه أدب أدبًا شديداً؛ ومن زاد إلى بغض أبي بكر وعمر فالعقوبة عليه أشد، ويكرر ضربه، ويطال سجنه حتى يموت، ولا يبلغ به القتل إلا في سب النبي ﷺ.

وقال سحنون: من كفر أحداً من أصحاب النبي ﷺ: عليًا أو عثمان، أو غيرهما يُوجع ضربًا. وحكى أبو محمد بن أبي زيد، عن سحنون: من قال في أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ: إنهم كانوا على ضلالة وكفر قُتل. ومن شتم غيرهم من الصحابة بمثل ذلك نكل النكال الشديد.

ورُوِي عن مالك: من سب أبا بكر جلد، ومن سب عائشة قُتِل. قيل له: لِمَ؟ قال من رَمَاها فقد خالف القرآن.

وقال ابن شعبان عنه: لأن الله يقول: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧]. فمن عاد لمثله فقد كفر.

وحكى أبو الحسن الصقلي أن أبا بكر بن الطيب قال: إن الله تعالى إذا ذكر في القرآن ما نسبه إليه المشركون سبَّح نفسه لنفسه؛ كقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

وذكر تعالى ما نسبه المنافقون إلى عائشة قال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

وهذا يشهد لقول مالك في قتل من سب عائشة.

ومعنى هذا، والله أعلم، أن لما عظم سبها كما عظم سبه، وكان سبها سبًا لنبيِّه، وقرن سب نبيِّه وأذاه بأذاه تعالى؛ وكان حُكمُ مؤذيه تعالى القتلَ كان مؤذي نبيه كذلك كما قدمناه. وشتم رجلٌ عائشة بالكوفة، فقدم إلى موسى بن عيسى العباسي؛ فقال: من حضَر هذا؟ فقال ابن أبي ليلى: أنا؛ فجلَده ثمانين، وحلق رأسه، وأسلمه إلى الحجَّامين.

وروي عن عمر بن الخطاب أنه نذرَ قطع لسان عبيد الله بن عمر؛ إذ شتم المقداد ابن الأسود، فكلم في ذلك: فقال دعوني أقطع لسانه حتى لا يشتم أحد بعد أصحاب النبي

ﷺ. وروىٰ أبو ذر الهروي أن عمر بن الخطاب أتىٰ بأعرابي يهجو الأنصار، فقال: لولا أن له صحبة لكفيتموه.

قال مالك: من انتقص أحداً من أصحاب النبي ﷺ فليس له في هذا الفيء حق، قد قسم الله الفيء في ثلاثة أصناف، فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وهؤلاء هم الأنصار.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]. فمن تنقصهم فلا حق له في فيءِ المسلمين.

وفي كتاب ابن شعبان: من قال في واحد منهم إنه ابن زانية وأمه مسلمة حُد عند بعض أصحابنا حدين: حداً له، وحداً لأمه؛ ولا أجعله كقاذف الجماعة في كلمة لفضل هذا علىٰ غيره، ولقوله ﷺ: «من سبَّ أصحابي فاجلدوه» قال: ومن قذف أم أحدهم وهي كافرة حُد حَد الفرية؛ لأنه سب له؛ فإن كان أحد من ولد هذا الصحابي حيًا قام بما يجب له، وإلا فمن قام به من المسلمين كان علىٰ الإمام قبول قيامه؛ قال: وليس هذا كحقوق غير الصحابة لحرمة هؤلاء بنبيهم ﷺ، ولو سمع الإمامُ، وأشهد عليه، وكان ولي القيام به؛ قال: ومن سبَّ غير عائشة من أزواج النبي ﷺ ففيها قولان:

أحدهما - يُقتل؛ لأنه سب النبي ﷺ بسب حليلته.

والآخر أنها كسائر الصحابة؛ يُجلد حد المفترىٰ؛ قال: وبالأول أقول.

وروىٰ أبو مُصعب، عن مالك - فيمن انتسب إلىٰ بيت النبي ﷺ يضرب ضربًا وجيعًا، ويُشهرَ ويُحبس طويلاً حتىٰ تظهر توبته؛ لأنه استخفاف بحق الرسول ﷺ.

وأفتىٰ أبو المطرّف الشعبيّ فقيه مالقه في رجل أنكر تحليف امرأة بالليل؛ وقال: لو كانت بنت أبي بكر الصدّيق ما حلفت إلا بالنهار، وصوّب قوله بعض المتسمين بالفقه؛ فقال أبو المطرِّف: ذكرُ هذا لابنة أبي بكر في مثل هذا يوجب عليه الضرب الشديد والسجن الطويل.

والفقيه الذي صوب قوله أحق باسم الفسق من اسم الفقه؛ فيُتقدم له في ذلك، ويُزجر، ولا تقبل فتواهُ ولا شهادته، وهي جُرحة ثابتة فيه، ويُبغَضُ في الله.

وقال أبو عمران في رجل قال: لو شهد عليَّ أبو بكر الصديق: أنه إنْ كان في مثل هذا لا يجوز فيه الشاهد الواحد، فلا شيء عليه؛ وإن كان أراد غير هذا فيضرب ضربًا يُبلغ به حد الموت؛ وذكروها رواية.

قال القاضي أبو الفضل: هنا انتهى القولُ بنا في ما حررناهُ، وانتجز الغرضُ الذي انتحيناه، واستوفى الشرط الذي شرطناه، مما أرجو أن يكون في كل قسم منه للمُريد مَقْنَع؛ وفي كل باب منهجٌ إلى بُغْيته ومَنْزع.

وقد سفرت فيه عن نُكَتٍ تُستَغرب وتَسْتَبْدع، وكَرَعْتُ في مشارب من التحقيق لم يورد لها قبل في أكثر التصانيف مشرع، وأودعته غير ما فصل، وددت لو وجدت من بسط قبلي الكلام فيه، أو مقتدئ يفيدنيه عن كتابه أو فيه، لأكتفي بما أرويه عما أرويه.

وإلى الله تعالى جزيل الضراعة في المنة بقبول ما منه لوجهه، والعفو عما تخلله من تزين وتصنع لغيره، وأن يهب لنا ذلك بجميل كرمه وعفوه لما أودعنا من شرف مصطفاه، وأمين وحيه، واسهرنا به جفوننا لتتبع فضائله، وأعملنا فيه خواطرنا من إبراز خصائصه ووسائله ويحمى أعراضنا عن ناره الموقدة لحمايتنا كريم عرضه، ويجعلنا ممن لا يُذادُ إذا ذيد المُبدلُ عن حوضه؛ ويجعله لنا ولمن تهمم باكتتابه واكتسابه سببًا يصلنا بأسبابه، وذخيرة نجدها يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً نحوز بها رضاه، وجزيل ثوابه؛ ويخصنا بخصيصي زمرة نبينا وجماعته، ويحشرنا في الرعيل الأول، وأهل الباب الأيمن من أهل شفاعته؛ ونحمده تعالى على ما هدى إليه من جَمعه وألهم، وفتح البصيرة لدرك حقائق ما أودعناهُ وفهم، ونستعيذه جل اسمه من دعاء لا يُسمعُ، وعِلم لا ينفع، وعمل لا يرفعُ؛ فهو الجواد الذي لا يخيب من أمله، ولا ينتصر من خذله، ولا يرد دعوة القاصدين، ولا يصلح عمل المفسدين؛ وهو حسبنا ونعم الوكيل؛ وصلاته على سيدنا ونبينا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليمًا كثيراً.

تم الكتاب بعون الله وتوفيقه

محتويات الكتاب

الباب الثالث

الباب الرابع

القسم الرابع

الباب الأول

الباب الثاني